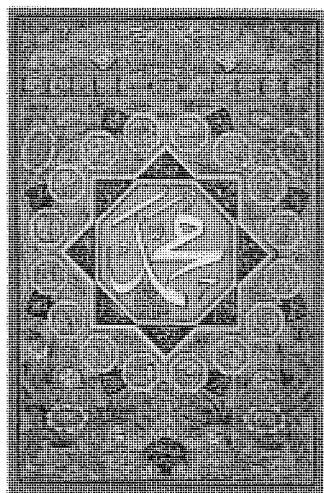
الشيخ عبد الله العلايلي

مَشاهد وقَصَص

مِن أيّامِ النُّبوَّة



دار الجديد

الشيخ عبد الله العلايلي

مِن أيّامِ النُّبوَّة

مَشاهد وقَصَص

دار الجديد

☎ : ٣٤٣٧٥٢ - ✉ : ٥٢٢٢ / ١١- نضّد النّص: علي حمدان - ضَبَطه بالشّكل على أُصوله: محمود عتّاف - خطّ الخطوط: علي عاصي - رسّم الغلاف: محمد شمس الدين - صورة الغلاف مُقتبسة من: *L'Islam nelle Stampe*, BE-MA Editrice, Milano, 1988

مَنْبَهَة... لهذه الطبعة

أَبَتْ هذهِ الدّارُ آلكَريمَةُ إلّا أنْ تَجْعَلَ مِنْ بَعْضِ قَديمي جَديداً كَآسْمِها، فَأَخَذَتْ بأسْبابِ نَشْرِ هذا آلْكِتابِ، بِحُلَّةٍ قَشيبَةٍ في حَواشيها إغْراءٌ، شأْنَها فيما تَنْشُرُ.

وَآقْـتَرَحْتُ عَلَيْها أنْ يَمْثُلَ للنّاسِ هذهِ آلْمَرَّةَ بِعُنْوانٍ جَديدٍ، كَوليدٍ تَـقَـمَّصَ في يَوْمِهِ غَيْرَ ثَوْبِ أَمْسِهِ... أوْ تَـناسَخَ في خَلْقِهِ خَلْقُهُ البَدِيءُ، وآنـتـظَـمَتهُ أمْشاجُ تَكَوُّنِهِ الأوّلِ. فَأَكْبَرُ فُصولِ آلكِتابِ تَدورُ على آسْمِهِ هذا آلْمُسْتَحْدَثِ: مِنْ أيّامِ آلنُّبوَّةِ - مَشاهِدُ وَقَصَصٌ، بَعْدَ أنْ كُنْتُ دَفَعْتُهُ إلى آلْقارِىءِ مِنْ قَبْلُ سَنَةَ ١٩٤٧ عَن دار آلْعِلْم لِلْمَلايينِ أيّام يَفاعِها وحَبْوِها، إبّانَ كانَتْ تَتّاقَلُ بَيْنَ آلْخَبْوَةِ والْـحَبْـوَةِ، وَتَـتَـثَـنّى بَيْنَ آلخطوَةِ وآلْخُطْوَةِ، بآسْمِ: أيّام آلْحُسَيْن.

وَلَمْ أَبْعُدْ بآلتَّسْمِيةِ آلْحاضِرَةِ آلْعَتيدَةِ عَنْ تِلْكَ آلْقَديمَةِ آلْعَهيدَةِ، فَآلْحُسَيْنُ (ع)، في جَوْهَرِهِ وَحَقيقَتِهِ، يَوْمٌ مِنْ أيّامِ آلنُّبوَّةِ، وهذا أَكْبَرُ لَهُ وَأَرْحَبُ وَأَغْنى وأَحَبّ.

وَجاءَ آقْتِراحُ آلدّارِ، دارِ آلجَديدِ، عَلَيَّ، بَعْدَ إبْلالي مِمَّا أَلَمَّ بي وَأَدْخَلَني آلـمُسْتَشْفـى. وَآتَّـفَـقَ لي لِلآوِنَةِ أنْ رَأَيْتُ آلَّذينَ بَلَوْتُهُمْ مُنْذُ سَنَةِ ١٩٣٥، أُعانيهِمْ وَأُعاني مَعَهُمْ إلى أعْوامي هذهِ الأَخيرَةِ، على حَقائِقِهِمْ. فكانَتْ حَصيلَةُ بيادِري مِنْهُمْ، في أكبَرِ شأنِها، زُؤاناً إلّا بَقِيَّةً هِيَ آلْكَرائِمُ مِنَ آلْحَبِّ واللُّبابِ، شَفَعَتْ بِما كانَ آجْتَمَعَ عِنْدي مِنْ أكْداسِ «غَرابيبَ سودٍ».

فَكانَ في مُقَدِّمَةِ هؤلاءِ آلنَّفَرِ آلْكَريمِ آلَّذينَ ذَكَروني أَيّامَ تَفَطَّرَتْ أَلَماً حَوْبائي وَسُوَيْداءُ نَفْسي، مِنْ أصْحابِ آلسّماحَةِ آلشّيْخ مُحَمَّد مَهدي شَمْس الدين آلّذي قالَ، ولَمْ يَتَوَرَّعْ، على مَسْمَعٍ وَمَرْأىً، ولكِنْ بتَعْبيرٍ يَتَضَمَّنُ مَعْناهُ: ما آتَّفَقَ لي وَشَهِدْتُ ظَليماً مِنْ ذَويهِ كَآلْعَلايليّ، وَلا رَأَيْتُ ظَلوماً كَقَوْمِهِ، وَآلشّيْخ آلصَّديق ابنُ الشيخ الصَّديقِ مُحَمّد رَشيد رَاغِب آلْقبّاني آلْقائِمُ بِأَعْباء آلْفَتْوى... وَمِنْ أصْحابِ آلدَّوْلَةِ سَليم آلْحُصّ ورَشيد آلصُّلْح وشَفيق آلْوَزّان... وَمِنْ أصْحابِ آلمعالي ميشال إدّه، وَمِنْ سوريّة تَفَضَّلَ بِمَنْ نابَ عَنْهُ آلدُّكتور عَبْد آلرّؤوف آلْكَسْم حامِلاً باقَةَ زَهْرٍ. وخَصَصْتُها بآلذِّكْرِ إذ كانَ لي فيها أيّامٌ وَأيّامٌ في آلأَرْبعيناتِ وآلخَمْسيناتِ، ولا سِيَّما يَوْمُ آلـمِـهْرَجانِ آلتّأبينـيِّ آلأوَّلِ لِعَدْنان آلـمالِكِيّ وَكانَ عَرَبـيّاً جامِعاً، يومَ ٥ آب سَنَةَ ١٩٥٥. وأكْتَفي لِتَعْرِفَ ما كانَ مِنْ وَقْعي على النّاسِ أَنْ تُراجعَ الصّحافَةَ فيها يَوْمَذاكَ، وبِـخاصَّةٍ مَجَلَّة آلْجَيْشِ آلسُّورِيِّ نَفْسِهِ. ولكِنّي أَتَعَزّى بما قالَ آبْنُ المَـقَّرِيِّ صاحِبُ نَفْحِ الطّيب:

سُبحانَ مَنْ قَسَمَ ٱلحُظوظَ فَلا عِتابَ وَلا مَلامَةْ
أَعمى، وَأَعشى، ثُمَّ ذو بَصَرٍ وَزَرقاءُ ٱليَمامَةْ

وتوّج عيادتي، أنّه أَقبلَ مُهرْولاً صاحبُ الفَخامةِ رئيسُ الجمهوريَّةِ، ولا تَظُنَّه مَنْ قَدْ يَتبادَرُ إلى ذِهْنِكَ أو مَنْ تَعْرِفُ، بل هُوَ الأَرْفَعُ والأَكْرَمُ والأَحَبُّ، إنَّه فَخامةُ رئيسِ جُمْهوريَّةِ عَبْقَر، الإِبداعِيُّ سَعيد عقْل.

ولا تَأْسَ أو تَبْتَئِسْ من قِلَّة الرَّعيَّة في جُمهُوريتكَ، فقديماً قالَ رَصِيفُكَ السَّمَوْأَلُ:

تُعَيِّرُنا أنّا قَليلٌ عَديدُنا فقلتُ لها: إنَّ الكرامَ قَليلُ

وَكانَ سَبَقَ دُخوليَ ٱلمُستَشْفى، بادِرَةٌ مُواسِيَةٌ على غَيْرِ آنتِظارٍ، بَلْ على تَيَفُّةٍ، أيْ على حينِ بَغْتَةٍ، مِنَ ٱلْقَيِّمَةِ ٱلمُشْرِفَةِ على مَساعٍ إنْسانِيَّةٍ في صيدا، آخْتَصَّتْني بِدِرْعِ مُؤَسَّساتِها، وَلأَنَّها باتَتِ آلآنَ في مَكانِ مَسْؤولِيَّةٍ أتجاوَزُ وأطْوي ٱلآسْمَ، لِئَلّا تَنْقَلِبَ كَلِمَةُ آلشُّكْرِ كلِمَةَ زُلْفى... وأنا ما تَعَوَّدْتُها وَأنا بَعْدُ فتىً، فَكَيْفَ بي وَأنا آلثَّمانِينيُّ...

فكَانَ هؤلاءِ «مِجَنّي دونَ مَنْ كُنْتُ أتَّقي»، وَهُمْ عَلى أيِّ حالٍ أهَمُّ وَأَجَلُّ مِنْ مِجَنِّ آبْنِ أبي رَبيعَةَ «ثَلاثُ شُخوصٍ كاعِبانِ ومُعْصَرُ».

وَآلغَريبُ أنَّهُ في شَريطِ هذهِ التَّرائيات، تَبدّى لي حامِلُ قَلَم كانَتْ كَلِمَتي في رِثاءِ أبيهِ وَحْدَها شافِعَةً لِيَذْكُرَ... وحينَ أُنَوِّهُ

بِتِلْكَ ٱلْكَلِمَةِ أُشيرُ إلى أنَّـها كَلِمَةٌ(١) كانَ يَحْفَظُ وَيُرَدِّدُ أَكْثَرَ

(١) أثبت نصّها الكامل هنا لئلا يذهب بها دَهْرُ الدَّهارير، وتَلْتَـفُّها دُوّامَةُ الأعاصير كأكثر ما كنت كتبت. فلم تُنشر إلّا في جريدة الحياة لصاحبها المرحوم كامل مروة، وذلك بتاريخ ٢/٢١/ ١٩٤٧ عدد ٤٩٦ وهذا نصها:

«أيّها ٱلفَقيدُ ٱلكَبيرُ: هُنَيْهَةٌ وبَعْضُها كانَ لي مِنْ عُمْرِكَ، يَوْمَ مَشى ٱلقَدَرُ عِندي بِحَظٍّ سَعيدٍ، فَعَرَفْتُكَ وما كانَ طَويلاً وَلَقيتُكَ وماكانَ كثيراً.

وفي حسّ ٱلقَلْبِ، أيُّ شَأنٍ لِلزَّمَنِ ٱلذي يُخْتَصَرُ بِجَبَروتِـهِ عِنْدَ عَتَـبتِهِ، فَقَدِ ٱنقَلَبْتُ وَكَأَنَّ أَمْسي ما ٱتَّسَعَ إلّا لك، وكأنَّ يَوْمي لَيْسَ يعي إلّا ذِكْراكَ.

هي هُنَيْهَـةٌ، ولكنْ بِما تَـرَكَـتْ في حسّ نفسي بتُّ أشعُرُ لكأنّما هو عُـمْري كُـلُّه جاءَ في مِقْدارِ هُنَيهة.

عَرَفْتُكَ إنساناً، ولا أزيدُكَ، بِصِفاتٍ أَنْتَ تَمْلِكُ أَكْرَمَها، فَلَيْسَ قَليلاً في دُنْيايَ ودُنْياكَ، أنْ نَعْرِفَ إنساناً يَعيشُ حَقّاً بِقَلْبِهِ، بِكِبْرِيَاءِ قَلْبِهِ؛ إنساناً يَعيشُ بحَقَائِقِهِ؛ بِعُرْيِ حَقَائِقِهِ، إنساناً يَـعيشُ بِقِيَمِهِ، بِوَعْيِ قِيَمِهِ في ناسٍ، دَعِ ٱلمَعْنى ٱلإنسانيّ، ثُمَّ قُلْ: إنَّهُمْ يَعيشونَ بِما تَشاءُ أن تقولَ، ولا أُحاوِرُكَ، بَلْ لَعَلّي أُجاريك.

قَرَأْتُكَ فحَبَبْتُكَ إِلَيَّ ما قَرَأْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُكَ فأحسَسْتُ ما قَرَأْتُ لَكَ حَياةً، فٱلحَرْفُ ما كانَ يَنْحَدِرُ عَنْ قَلَمِكَ، إلّا بِحَرْفٍ مِثْلِهِ ٱنحَدَرَ إِلَيْهِ مِنْ مَعْناك.

فَما أَنْكَرْتُ مِنْكَ ولا غَيَّرَكَ عِنْدي، بَلْ لَكَأنّي يَوْمَ عَرَفْتُكَ أَقْرَأُكَ أَيْضاً، وَلٰكِنْ في نَبْرَةٍ هِيَ أَكْثَرُ ٱشْتِعالاً، ومَا كانَ لِهذا ٱلوَرَقِ أنْ يَنْهَضَ بِكُلِّ حرارَتِها.

فَكُنْتَ، فيما تَخُطُّ وتقولُ، تَـتقدَّمُ إلى هَيْكَلِ هذا ٱلوَطَنِ بِنُذورِكَ وقَرابيـنِكَ... كٱلّذي يُصَلّي، وَمَعْنى ٱللّٰهِ في صَلاتِهِ أَكْبَرُ صَلاتِهِ، فَوْقَ آخرينَ أَكْبَرُ مَعْنى اللّٰهِ في أَنْفُسِهِمْ حَظُّ أَنْفُسِهِم، فَصَلاتُهُمْ في مَعْبَدِ ٱلوَطَنِ رِجْسٌ، وَصَلاتُكَ في مَعْبَدِ ٱلوَطَنِ قُدْسٌ...

وَلَيْسَ في هذهِ ٱلزَّفْرَةِ ٱلتي ٱنطَوَتْ عَلَيْها هذهِ ٱلْكَلِمَةُ، حُروفٌ ٱسْتَوَتْ في ألفاظٍ، مِثْلما تَعَوَّدَ أَنْ يَجِدَ ٱلنّاسُ في كلِماتِ دُموعِهِمْ وأفانينِ دُموعِهِمْ... وإنَّما هِيَ حُشاشَةٌ ٱزْفَضَّتْ قَطَراتُها، وَجَرَتْ في حُروفٍ رَسَمَتْها، ثُمَّ جَمَدَتْ فيها.

مَقاطِعِها، وَلَعَلَّكَ تَسْتَغْرِبُ ولا تُصَدِّقُ، أَمينُ نَخْلَةَ الّذي كانَ، في آلعَرَبيَّةِ، آلأَدَبَ، آلأَدَبَ آلدِّمَقْسَ آلحَريرَ.

وَأُرَدِّدُ مَعَ شاعِرِنا آلْعَرَبيِّ آلْقَديمِ لَبيدٍ قَوْلَهُ:

ذَهَبَ آلّذينَ يُعاشُ في أَكْنافِهِمْ   وَبَقيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ آلأَجْرَبِ

وَقَوْلَ آلآخَرِ آلْعَبّاسِيِّ:

قُمْ فَآسْقِيَنّي بِآلْكَبيرِ وَغَنِّني   ذَهَبَ آلّذينَ يُعاشُ في أَكْنافِهِمْ

وآلأَغْرَبُ آلأَغْرَبُ في هذا آلزَّمَنِ، آلزَّمَنِ ذي آلتَّعاجيبِ، أَنَّ آلْقَدَرَ بكُلِّ ما فيهِ مِنْ أَسْرارِ آلغَيْبِ، كأَنَّـه لَمْ يَخْلُقْ سَيِّداً مِنَ آلجِلَّةِ آلْعِلْيَةِ الَّذي آختَفَى فَجْأَةً، إلّا قَنطَرَةَ عُبورٍ لِشَيْءٍ لا أَدْري ما آسْمُهُ، لِيُصْبِحَ وَحْدَهُ الدُّنْيا، كُلَّ الدُّنْيا، وَبِكُلِّ حَذافيرِها أيضاً...

وَيَنْقَطِعُ عَجَبي كُلُّهُ، أَنَّني في مِضْمارِ عَرَضٍ بَـعْضٍ مِـنْ أَيّامِ النُّبوَّةِ، وَسَبقْتُ بأَنَّ آلحُسَيْنَ مِنْ أَكبَرِ أَيّامِها، فلا بِدْعَ أَنْ أَبْلِسَمَ

وَأنا، عَلِمَ اللّهُ، ما كُنتُ لِأُجْرِيَ حَرْفاً على قِرْطاسٍ، لَوْ أَنَّ مَنْ أَكْتُبُ عَنْهُ يَقْرَأُني، أَوْ يَقْرَأُ في يَوْمِهِ عَنْ أَمْسِهِ.

ولكِنْ هِيَ ذِكْراهُ التي أَمْلَتْ عَلَيَّ، يَوْمَ باتَتْ أَكْبَرَ مِنْ حُدودِ آللَّحْمِ وَالدَّمِ، وَأَوْسَعَ مِنْ واقِعِها في آلزَّمانِ وآلمَكانِ.

أيُّها آلرّاحِلُ آلكَريمُ: لَقَدِ آبْتُليتَ شَأْنَ آلنّاسِ هُنا، فآثَرْتَ آلغُرْبَةَ، ولكِنْ مَنْ كانَ يَدْري أَنَّكَ سَتَطْويها غُرْبَةً إلى غُرْبَةٍ، هِيَ قَريبَةٌ حَتّى لكأَنَّها عِنْدَ مُنْحَدَرِ يَدِكَ، وبَعيدَةٌ حتّى لكأَنَّـها وَراءَ مُنْحَدَرِ آلشَّمْسِ.

فَيا أيُّها آلقريبُ آلبعيدُ لَنْ نَفْقِدَكَ، فَأَنْتَ يَوْماً ذَهَبْتَ تَهْدِمُ وتَبْني، وهذا ميراثُكَ.

وَأَنْتَ آليَوْمَ تُبارِكُ وَتُشيرُ، وهذا هَمْسُكَ هَمْسُ ذِكْراكَ...».

بُرَحاءَ بَلْوايَ بآلْعَظائِمِ مِنْ بُرَحاءِ بَلْواهُ آلّتي تَحْمِلُ في ثَنايَاها آلْعَزاءَ، لِطائِفَةِ آلْمُعَذَّبينَ، وَآلطَّمَأنينَةَ كُلَّ آلطَّمأْنينَةِ لِلْمَفْجوعينَ آلمكروبينَ، مِنْ دَهْرِهِمْ ما بَقِيَ الدَّهْرُ...

عَلى أنّي أتَأسّى بقَوْلَيْنِ لشاعِرَيْنِ سَبقا في أدَبِنا الزّاهِرِ، أحَدُهُما أبو آلحسَنِ آلجُرْجانيّ يَوْمَ أَخَذَ عَلَيْهِ النّاسُ عُزْلَتَه فأجَابَ مُتَعَلّياً:

يَقولونَ لي: فيكَ آنقِباضٌ وإنَّما رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَنْزِلِ آلذُّلِّ أَحْجَما

إلى أن رَفَعَ عَقيرَتَهُ مُتَلَوِّماً:

أأَشقى بِهِ غَرْساً وَأَجْنيه ذِلَّةً إذاً فآتّباعُ آلجَهْلِ قَدْ كانَ أَحْزَما

ثُمَّ أخَذْتُ نَفْسي بِما أَخَذَ بِهِ صاحِبُنا أبو ذُؤَيْبٍ آلْهُذَليّ الّذي راضَ مُيولَ هَواهُ، وَكَبَحَ جِماحَ صَبَواتِهِ في قَدَرٍ وَحَدٍّ:

وَآلنَّفْسُ راغِبَةٌ إذا رَغَّبتَها وَإذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ

وكانَ عُقْبى كُلِّ أولئِكَ أنّي سَعِدتُ سَعادَةَ بوذا بمَعْنى لَقَبِهِ في السّنسِكْريتيّة: المُنْتَنير.

أَنِسْتُ بِوَحْدَتي وَرَضِيتُ بُعْدي فَطابَ آلجَوُّ لي وَدَنا السُّرورُ
وَأحْكَمَني آلزّمانُ، فَلا أُبالي ... أَسارَ آلجَيْشُ أمْ رَكِبَ آلأَميرُ

الفاتحة

هذه فُصولٌ من حياةٍ تَمَجَّدَتْ فيها أحْلامُ الإنسانيَّةِ، وٱتَّصَلَتْ في الواقعِ بِقَدْرٍ غَيْرِ مَحْدودٍ مِنْ رَوْعَةِ الأحْلام...

فلمْ تَعُدْ تَحْمِلُ ٱسْمَها التَّقليدِيَّ «الأحْلامَ التَّائِهَةَ» الّذي أعْطاهُ أقْدَمُ ناطِقٍ بالشِّعْرِ، مُنْذُ فَجْرِ الإنسانيّة، يومَ غَدَتْ واقِعاً حَيّاً لكائِنٍ حَيّ...

*

وكانَ هذا الفَجْرُ قَدِ ٱنبَثَقَ في الغابِ، وٱتَّصَلَ بلَألائِهِ في المَغاوِرِ والكُهوفِ، حيثُ أَطَلَّ الإنسانُ، لأوَّلِ مَرَّةٍ، إلى الأُفُقِ مُتَأَمِّلاً، وشَعَرَ بوجُودِهِ...

ولكنْ لم يَسْقُطْ من وُجودِهِ إلّا على أشْباحٍ ورُموزٍ، ثُمَّ لمْ يَفْهَمْ...

*

اتَّصَلَتْ حَيْرَةُ الإنسانِ بِكُنْهِ إنسانيَّتِهِ في مراحلِ النُّشوءِ العَقْليّ، ومَدَّ الخَيالَ في مَعْنى الحَيْرَة...

ولم يَزَلْ يَلِجُ، مَعْصوبَ العَيْنَيْنِ، هَيْكَلَ الوُجودِ الأَصَمّ، حيثُ لا يَكُونُ للصَّوْتِ رَجْعٌ ولا صَدىً، إلّا حفيفاً خافِتاً ولَغَطاً يَنبعِثُ من كُلِّ مكانٍ، بَيْدَ أنَّهُ مُبْهَمٌ كَنَغْمَةِ الوَتَرِ المقطوعِ، أو رَجْفَةِ الحَنينِ الشّارِدَةِ الذّاوِيَة...

*

يَمُرُّ شَريطُ الوُجودِ سَريعاً كاللَّمْحَةِ المُضْمَحِلَّةِ. وما يَثْبُتُ منه إلّا رُؤىً يَمُدُّها السَّرابُ والآلُ، كتلكَ الرُّؤى الّتي تَتَراقَصُ على القِمَمِ في عَيْنِ الفَجْرِ وآغْتِماضِ الغُروب...

إنّ إنْسانَ اليَوْمِ، حينَ يَلْتَقي، في بَعْضِ مُنْحَدَراتِ(*) الطّريقِ، بإنْسانِ التّاريخِ البَعيدِ، لنْ يَجِدَ لَدَيْهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الزَّمَنِ الطّويلةِ بهِ، ما يُخْبِرُهُ عَنْه...

*

وأخيراً ثَبَتَ في طَبْعِ الإنسانِ أنّ بَحْثَ الوُجودِ يَحولُ دونَ تَذَوُّقِهِ، فآنْكَفَأَ عليهِ، ونَسَجَ أحْلامَهُ عنِ السَّعادَةِ والخَيْرِ والجَمال...

وكثيراً ما كان يَمُرُّ بينَ حينٍ وآخَرَ، في جَوِّ الإنسانِ، كَواكِبُ مُلْتَمِعَةٌ تُضيىءُ جوانبَ هذا الوُجودِ، وهيَ تُجَنِّحُ أحياناً وتَذْهَبُ صُعُداً أحياناً، لِتَنْقُلَ البَشَرَ مِن الحَيْرَةِ إلى التَّأَمُّلِ، مَأْخوذينَ بنَشْوَةٍ خَفِيَّةٍ تَظَلُّ الذِّكرى تُشيعُها أبَداً...

وإلى هذه الذِّكْرى، الّتي تَحْمِلُ معنىً أزَلِيّاً، قَصَدْنا في عَرْضِ ذِكْرَى

(*) كِنايةٌ عن القبر.

النُّبوَّة التَّارِكَةِ أَلوانَها المِثاليَّةَ تُشيرُ إلى الخُلودِ، وتَنْسَدِلُ بشَفَقِها المُشِعِّ على البَقاء...

مُقدِّمة

لم أقْصِدْ في هذه المَشْهَدِيَّاتِ إلى التّاريخِ، إلّا فيما يَدْخُلُ في حَدِّ تَصْحيحِ الرِّوايةِ أوِ الخَبَرِ، وأمّا ما وَراءَ ذلكَ فقدْ أوْسَعْتُ تَحْقيقَهُ ودَرْسَهُ في **تاريخ الحسين: نقد وتحليل** الّذي خَصَصْتُهُ بالوَجْهِ التّاريخيِّ المَحْضِ، وما يَدْخُلُهُ مِن قُرْبٍ أو بُعْدٍ، لكيْ يَتَسَنّى للمُطَّلعِ أنْ يَتَّصِلَ بالشّخصيَّةِ، الّتي يَدورُ البَحْثُ عليْها، آتـصالاً تامّاً يُخَوِّلُهُ أنْ يُصْدِرَ حُـكْماً، بسَلْبٍ أو إيجاب.

وحاوَلْنا، هناكَ، أنْ نَـتَفَهَّمَ حَرَكاتِ النُّبوَّةِ والنَّبيِّ، بالإضافَةِ إلى عَوامِلِ العَصْرِ الّتي لا بُدَّ أنْ تُقَيِّدَ مَجارِيَ التّاريخِ، إنْ للجَماعةِ أو للأفْراد.

وهذهِ العواملُ، الّتي هيَ مَصْدَرُ ألْوانِ الزّمنِ، نُسَمِّيها تاريخاً حينَما تَقَعُ في المكانِ، وتُحَرِّكُ الجُموعَ على ما آسْتَنَّتْ مِنِ آتِّجاهاتٍ وحَدَّدَتْ من مَذاهِبَ. وبدُونِها لا نَفْهَمُ من التّاريخِ إلّا أنَّهُ تَكْرارٌ لحَرَكاتٍ مُبْهَمَةٍ لا تُعَبِّرُ لنا عن شَيْءٍ يَدْخُلُ في حَدِّ فائِدَتِنا.

ويَكونُ الغَرَضُ مِنَ التّاريخِ قدْ ضاعَ، حينَ لا يَتَسَنّى لنا أنْ نَصِلَ الجانبَ الواقِعيَّ مِنَ الحياةِ الّتي نَعيشُها بالجانِبِ التّاريخيِّ، فإنَّ الحياةَ كَلِمَةٌ مُؤَلَّفَةٌ من الواقِعِ والتّاريخِ جَميعاً، وإنّ الجُزْءَ الأهَمَّ فينا، جَماعاتٍ كُنّا أو أفْراداً، تاريخيٌّ مَحْضٌ. وما دُمْنا لمْ نَسْتَطِعْ أنْ نَصِلَ ما آسْتَوَى فينا من الواقِعيَّةِ بما آسْتَوَى فينا من التّاريخيَّةِ،

فلنْ تَكونَ لنا فائِدَةٌ مِنَ التّاريخ.

بَيْدَ أنّنا نَشْعُرُ بالحاجةِ إلى التّاريخ. حَتّى لَيُخَيَّلُ إلينا أنّ لَدَى الإنسانِ، طِفْلاً وشَيْخاً، حاسّةً سادِسَةً تاريخيَّةً تُلِحُّ فيه بحاجَتِها، وتُشيعُ في دَخيلَتِهِ آطْمِئْناناً مَشْفوعاً بتَلَبُّسٍ للقِصَّةِ، كأنّما هو يَسْمَعُ حِكايَةَ نفسِهِ، أو كأنّما آنتَقَلَ، عَبْرَ الزَّمَنِ، إلى حيثُ يَكونُ الزّمانُ المَوْهومُ، وتَقومُ وَقائِعُ الماضي.

وهذا المَيْلُ في الإنسانِ يَرْجِعُ، عندِي، إلى ما آسْتَوَى في مِزاجِ النّفسِ وَوَحْدَتِها من الجُزْءِ التّاريخيِّ، فإذا صادَفَ ما يَبْعَثُهُ تَحَرَّكَ بقُوَّتِهِ، وأَخْضَعَ المَشاعِرَ لِمَدِّهِ في نَوْعٍ من الهُيامِ والحَنينِ، وفي نَوعٍ من الإحْساسِ العميقِ بأنّه شيءٌ يَتَّصِلُ بهِ آتّصالاً ذاتِيّاً، كأنّما مَرَّ عليهِ مُنْذُ بَعيد.

وهذا يُبيحُ لنا أنْ نَسْتَنْتِجَ أنّ الإنسانَ الفِطْرِيَّ - أو بعبارةٍ أَشْمَلَ، الإنْسانَ الّذي لم يُكَوِّنْ له تاريخاً - يَفْقِدُ هذا الجُزْءَ، ولذلكَ هو لا يَتَحَسَّسُ بهذا المَيْلِ أو النُّزوع.

وعليهِ فَفَقْرُ القِصَّةِ، أو عَدَمُها، في أَدَبِ أُمَّةٍ ما، يَرْجِعُ إلى ضَعْفِ هذا النُّزوعِ، إلى عَدَمِ تَوَافي الجُزْءِ التّاريخيِّ فيها وآسْتِوائِهِ. وهذا ظاهِرٌ لَدى عربِ الجاهِلِيَّةِ الّذينَ لمْ تَكُنِ القِصَّةُ تَسْتَهْويهِم آسْتِهْواءً يَجيءُ في دَرَجَةِ شَهَواتِ النّفسِ أوِ الجَسَدِ الأُخْرى؛ بينَما نَجِدُ القصّةَ بَدَأَتْ تَبْرُزُ في أدَبِ العربِ الّذين آسْتَقَرّوا وكَوَّنوا لهم تاريخاً نَوْعاً ما، كالحيريِّينَ في عَهْدِ المَناذِرَةِ، والشّامِيِّينَ في عَهْدِ الغَساسِنَةِ، فَتَوَلَّدَ لَدَيْهِمِ المَيْلُ إلى قَصَصِ التّاريخ. ولَعَلَّ في الظّاهِرَةِ الآتِيةِ ما يَقْطَعُ كُلَّ رَيْبٍ في صِحّةِ هذا الرَّأْيِ، وهيَ أنّ القصّةَ المُرَكَّزَةَ لا تَكونُ إلّا حيثُ يَكونُ للأُمَّةِ تاريخٌ مُنَوَّع.

فالعَرَبُ عادوا، بَعْدَ التّاريخِ، إلى تَذَوُّقِ القِصّة، لأنّهُ تَوافَرَتْ فيهِمْ لَذَّةُ

الاسْتِماعِ الّتي يَبْعَثُها الجُزءُ التّاريخيُّ في النّفْسِ، وقدْ قَوِيَتْ هذه اللَّذَّةُ دِراكاً مع التّاريخِ، وتَقْوى كذلك في كُلِّ أُمّةٍ وقَبيل.

ونحنُ نَلْمُسُ، في عَصْرِنا الحاليِّ، مَيْلاً أَشَدَّ إلى القصّةِ، حتّى كادتْ تَتَمَيَّزُ بآسْمِ الأدبِ وتَسْتَبِدُّ بِهِ عمّا سِواها، ولقدْ قالَ بعضُ النّاقِدينَ: إنّ الأدبَ هو القِصَّةُ في القَرْنِ العِشْرين.

وأمّا الشُّعورُ بكُلِّيَّةِ الحياةِ، والشُّعورُ بأنّ التّاريخَ والقَصَصَ يُعَبِّرانِ عنْ مَعانٍ مُشْتَرَكَةٍ، هُما اللّذانِ يُعَلِّلُ بهما، عادةً، المَيْلُ إلى القِصّةِ، فقدْ تَوَلَّدا، بلا رَيْبٍ، بعدَ التّاريخِ. فإنّ هذينِ الشُّعورَيْنِ نَتيجَةُ تَجْرِباتٍ ومُقارَناتٍ قامَ الإنسانُ بها بينَ نفسِهِ وبينَ الماضينَ، وأدْرَكَ هذه الصِّلَةَ وتَحَقَّقَ من كُلِّيَّةِ الحياةِ بعدَها. فتَعْليلُ المَيْلِ إلى التّاريخِ والقَصَصِ، بهذا الشُّعورِ التَّجْريديِّ الكُلِّيِّ، تَعْليلٌ بالسَّبَبِ المُنْفَعِلِ دونَ السّبَبِ الفاعِلِ الحقيقيّ.

وهذا الرَّأيُ، الّذي نُعْطيهِ من بواعِثِ القِصّةِ ولَذَّتِها وتَعَلُّقِ الجُمهورِ بها، حتّى وَصَلَتْ إلى دَرَجَةِ أنْ تَصْبُغَ الأدبَ وتُسَيْطِرَ عليه بصِبْغَتِها، حقيقيٌّ جدّاً... وأنا أشْعُرُ بحاجةٍ إلى الزّيادَةِ من إيضاحِهِ، لأنّه يُصَحِّحُ جُمْلَةَ الأَوْهامِ، وطائِفَةَ الأخْطاءِ الشّائِعَةِ في المَوْضوع.

لا رَيْبَ في أنّ الإنسانَ، الّذي أَسْلَمَهُ التّاريخُ إلى العُصورِ، يَمْتازُ بحاسَّةٍ تاريخيَّةٍ خاصَّةٍ، تَفْصِلُهُ عنِ الإنسانِ الّذي أَسْلَمَتْهُ الطّبيعةُ الأُولى، والّذي آنبَثَقَ من يدِ اللّهِ. وهذه الحاسّةُ تَزْداد عملاً في الإنسانِ بآزْدِيادِ عَمَلِ التّاريخِ فيه، وتَنَبُّهِ العُصورِ في أعْماقِهِ. والمَيْلُ إلى التّاريخِ أوِ القَصَصِ وليدُ وُجودِ الحاسَّةِ المَذْكورةِ وتوافُرِها، وهو ـ أيِ المَيْلُ ـ يتفاوَتُ على مِقْدارِ تَفاوُتِ الجُزْءِ التّاريخيِّ في الكائِنِ البَشَرِيِّ. ومِنَ الخَطَأِ الظَّنُّ بأنَّ مَيْلَ الإنسانِ إلى القَصَصِ فِطْرِيٌّ أو عَفَوِيٌّ، بلْ هو نتيجةُ تَلَبُّدِ أجْيالٍ من التّاريخِ في جَوْهَرِهِ النّفسيِّ ومَدِّهِ بإيحائِها. وهذه الحاسّةُ

التّاريخيّةُ الحيّةُ تتطلّبُ غِذاءَها، وتكونُ في بَعْضٍ مِنَ الشُّعوبِ نَهِمَةً، ونَهِمَةً إلى حَدٍّ كبيرٍ، ولكنَّ هذا النَّهَمَ ليسَ مَتْروكاً للعَفْوِ والطَّبيعةِ العِرْقِيَّةِ، بلْ هو خاضِعٌ لِسُنَّةٍ نُشوئِيَّةٍ خالِصَةٍ، ما دامَتِ الأُمّةُ قَدِ آتَّصَلَتْ بالتّاريخِ وآتَّخَذَتْ خُطُواتِها فيه.

وهذا الرَّأْيُ يَنتَهي بنا إلى تَفْسيرِ: لماذا كانَ أَدَبُ اليونانِ فقيراً مِنَ القِصّةِ في جاهِلِيَّتِهِم؟

ولِماذا أَثْرَوْا بالقِصَّةِ بعدَ التّاريخِ؟

ولماذا كانَ أدبُ العربِ كأدبِ اليونانِ فقيراً مِنْها في الجاهِلِيّةِ، ثُمَّ أَثْرَى بها بَعْدَ التّاريخِ، حتّى بَلَغَتْ قِمَّتَها في **أَلْفِ لَيْلَة**؟

ولماذا بَلَغَ نَهَمُ الحاسّةِ التّاريخيّةِ، بعدَ ذلك، في الجُمهورِ العربيِّ إلى دَرَجَةٍ لم يَثْبُتْ أمامَها نَحْوٌ من الأَدَبِ والفَنِّ، كما تَشْهَدُ بهذا **قِصَّةُ حُبِّ عليٍّ بْنِ آدَمَ**، **والبُخَلاءُ** للجاحِظِ، **ورِسالةُ الغُفْرانِ** للمَعَرّيِّ، **والتَّوابع والزَّوابع** لآبْنِ شُهَيْد، **وحيُّ آبْنُ يَقْظانَ** لآبن طُفَيل، **والمَقاماتُ** للحريري، **وأحاديثُ آبْنِ دُرَيْدٍ** الأَرْبعونَ، **ومصارِعُ العُشّاقِ** لآبْنِ السَّرّاجِ، وأَعْطَتْ عُصورُ النَّهَمِ قَصَصَ عَنترَةَ، وأبي زَيْدٍ الهِلاليِّ، والمَلِكِ سَيْف؟

ولماذا زادَ المَيْلُ إلى القِصَّةِ، في الأدبِ الأوروبِّيِّ الحديثِ، عنه في القُرونِ الوُسْطى؟

ونحنُ إنَّما نَحْصُرُ نَظَرَنا في الأدبِ، دونَ أنْ نَلْتَمِسَ أنْحاءً أُخرى، لأنّ الأدبَ أكْثَرُ آسْتِجابَةً إلى رَغَباتِ الجُمهورِ وتَطَلُّعِ المُحيطِ، وهو، إلى ذلكَ، يَتَلَوَّنُ بِمُخْتَلِفِ الأَلْوانِ، ويَحْفَظُ بتَلَوُّنِهِ تَراوُحَ العوامِلِ التي أثَّرَتْ فيه.

فَعَدَمُ وُجودِ أدبِ القِصّةِ، في أدبِ العربِ الجاهِليِّ، معناهُ عَدَمُ مَيْلِ الجُمهورِ إليها، أو ضَعْفُ هذا المَيْلِ عندَهُ، التّابعُ لضَعْفِ الجُزْءِ التّاريخيِّ في مِزاجِ النَّفْسِ

ووَحْدَتِها.

فما ذَهَبَ إليهِ إذاً مُؤَرِّخو الآدابِ، مِنْ إسنادِ خَصائِصَ وٱسْتِعْداداتٍ مِزاجِيَّةٍ لبعضِ الشُّعوبِ دونَ بعضٍ ٱقْتَضَتْ ذلكَ، خَطَأٌ مَحْضٌ؛ ناهيكَ أنَّهُ تَعليلٌ غارِقٌ بـ «أوْهامِ الكَهْفِ والسّوقِ»[1] على ما يُسَمّي ذلكَ بيكون في مَنْطِقِهِ الجديدِ، كما أنّه تَعْليلٌ يُعْطي في كُلِّ مِثالٍ[2] رَأْياً، ولا يَقومُ في قانونٍ يُبَيِّنُ العَلاقَةَ المُوَحَّدَةَ بينَ حادِثِ السَّبَبِ وحادِثِ الأَثَرِ.

والقِصّةُ، على أيِّ حالٍ وبإطْلاقٍ، لا يُمْكِنُ أنْ تَنْشَأَ إلّا في أُمَّةٍ ٱجْتَمَعَ لها تاريخٌ مُنَوَّعٌ، ومَرَّ بها زَمَنٌ كان كَفيلاً بتَزْويدِ الأفرادِ بحاسَّةٍ تاريخيَّةٍ تَجْعَلُهُمْ يَتَذَوَّقونَها، ويَميلونَ إليها.

وهذا الرَّأْيُ الّذي نُقَرِّرُهُ يَكْشِفُ، عَدا الخَطَإِ المَذكورِ، عن كَثيرٍ مِنَ الأوهامِ التَّرْبَوِيَّةِ الّتي جَنَحَتْ إلى القِصّةِ، كأُسلوبٍ للأطفالِ بتَعْميمٍ خاطِيءٍ. بلْ لا بُدَّ لسَلامَةِ التَّطْبيقِ من مُراعاةِ مُرورِ الزَّمَنِ، وقيمةُ هذا الزَّمنِ في تَوْفيرِ الحاسَّةِ التّاريخيَّةِ في الوَسَطِ المُشْتَرَكِ للطِّفل وتَفاوُتِها. وقدْ يَنْتَهي بنا هذا الرَّأْيُ إلى إخْضاعِ الأُسلوبِ التّربَوِيِّ للقِصّةِ لِمَنْ هُمْ فَوْقَ الطُّفولَةِ، إذا كانَتِ الحاسَّةُ فيهِمْ أَكْثَرَ تَحَكُّماً وٱقتياداً.

كما يَدُلُّنا على السَّبَبِ الصَّحيحِ لإخْفاقِ أدبِ القِصّةِ لَدَى بَعْضِ الشُّعوبِ، والسَّبَبِ في عَدِّها نَسيجاً أعْلى عندَ بعضِ الشُّعوبِ الأُخْرى، وأيضاً يَدُلُّنا على أنّ

---

(١) يَعْني بالكَهْفِ شَخصِيَّةَ الفَرْدِ الّتي تُكَوِّنُها الطَّبيعَةُ والبيئَةُ والتَّغْذِيَةُ والتَّرْبِيَةُ. ولَمّا كانَتْ تلكَ العَوامِلُ مُخْتَلِفَةً بٱخْتِلافِ الأَفْرادِ كانَ لِكُلِّ إنْسانٍ نَزْعَتُهُ الخاصَّةُ وأَخْطاؤُهُ الخاصَّةُ. ويَعْني بالسّوقِ عَقْلِيَّةَ الوَسَطِ، ولها أَوْهامٌ تَنْحَلُّ في تَفَهُّمِ الأَفْرادِ وتَعَقُّلِهِمْ.

(٢) مِنْ مِثْلِ فَقْرِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ بِعَدَمِ ٱسْتِعْدادِ العَرَبِ الطَّبيعِيِّ لها، وتَعْليلِ القَصِّ عندَ بعضِ الأُدَباءِ العَرَبِ في العَهْدِ العَبّاسِيِّ بالتَّأَثُّرِ الأَدَبِيِّ والدَّمَوِيِّ، وتَعْليلِ ظُهورِ **ألفِ لَيْلَةٍ** بالمِزاجِ الأَدَبِيِّ الخَليطِ، وتَعْليلِ القُوَّةِ والضَّعْفِ في القِصَّةِ عندَ الأُمَمِ المُسْتَعِدَّةِ لها، في مَزْعَمِهِم، بتَعاليلَ شَتّى لا تَسْتَنِدُ إلى تَعْليلٍ يقومُ على مُؤَثِّرٍ واحِدٍ.

العناصِرَ، الّتي تَلْزَمُ لِتَذَوُّقِ القصَّةِ، تَـتَفاوَتُ بتَفاوُتِ الحاسَّةِ المَذْكورةِ. والقِصَّةُ، في نَظَري، لا فَنَّ لها ولا عناصِرَ قاعِدِيَّةٌ إلّا نِسْبِيَّةٌ فقط، فهي مَحْدودَةٌ بالزَّمانِ والمكانِ والكائِنِ. والمُحاكاةُ أو الاحْتِذاءُ وَهْمٌ وبُعْدٌ عن فَهْمِ ما ثَبَتَ في جَوْهَرِ النَّفْسِ المُتَحَوِّلِ، الّذي يَمْسَخُ الفَنَّ بتَهاويلِهِ، وَيَمُدُّ الأَدبَ بالحَياةِ والرُّوح.

فالدّاعِيَةُ الخَفِيَّةُ فينا إلى التّاريخ والقَصَصِ الّتي نُحِسُّ بِها ظامِئَةً على الدَّوامِ، مُتَطَلِّعَةً على الدّوامِ، هي وَليدةُ ما آسْتَحالَ في جَوْهَرِ النَّفْس من أشياءِ الماضي المُتَلَبِّدِ، وتَمَدَّدَ في بِنائِهِ كهُلامِيّاتٍ عامِلَةٍ حَيَّةٍ. وإذا ثَبَتَ أنّ فينا جانباً تاريخيّاً، فلا مُنْقَلَبَ لنا عنْ أنْ نتفَهَّمَ وقائِعَ الماضي كتاريخ، وأنْ نَتَّصِلَ بالمشاعِرِ الّتي سَيْطَرَتْ فيه كعَرْضٍ وقَصَصٍ، وبذلكَ يَظَلُّ التّاريخُ مادَّةً حَيَّةً شاعِرَة.

وآسْتِواءُ الحياةِ في الحاضِرِ إنّما يَقومُ على دوافِعِ الماضي وجَواذِبِ المُسْتَقْبَلِ، فلا جَرَمَ إنْ كانتْ بنا حاجَةٌ إلى التّاريخِ التَّعليليِّ من حيثُ نَتَّصِلُ بالمُؤَثِّراتِ الحَقيقيَّةِ، وداعِيَةٌ إلى التّاريخِ الوَصْفيِّ، من حيثُ نَرَى الصُّوَرَ المُخْتَلِفَةَ الّتي طَفَتْ على سَطْحِ الحياةِ المُحْتَجِبَة.

ونحن، هنا، نُحاوِلُ عَرْضَ ما آتَّصَلَ بالنُّبوَّةِ بشَيءٍ من القَصَصِ الواقِعِيِّ، الّذي لا بُدَّ أنْ يُنَبِّهَ فينا كامِنَ الحِسِّ بما يَبُثُّ مِنَ الإيحاءِ الصّامِتِ، وَيُهَيِّىءُ جَوْهَرَ النَّفس لِمَا سَمّاهُ تولستوي «عدوى الشُّعور»، وهو ذو أَثَرٍ بَعيدٍ، فَعّالٍ في تَكْوين الشّخصيّةِ المُمْتازَة.

وقِصَّةُ عَصْرِ النُّبوَّة لا تَدَعُنا نَخْرُجُ بتَأَمُّلٍ سَلْبِيٍّ تَخْتَلِطُ فيه الدَّهْشَةُ بالإعجابِ فقطْ، بَلْ تُزَوِّدُنا بِما يَدْعُونَهُ «الاشْتراكَ في الوَعْيِ» أيْ، بتَأَمُّلٍ إيجابيٍّ، يَجْعَلُ فينا آشْتِراكاً في الصِّفَةِ الشُّعوريّة.

وكذلكَ تَسْتَحيلُ النّفسُ الإنسانيّةُ آسْتِحالَةً أُخْرى بِما أُسَمِّيهِ «عَدْوى التّاريخِ». فعلينا لذلكَ أنْ نَعْرِفَ كَيْفَ نَسْتَثْمِرُ التّاريخَ مِثْلَ قُوَّةٍ تَنصبُّ في شَرايينِنا وعُروقِنا، وكيفَ نُحَوِّلُ تَيّارَهُ المُبَعْثَرَ في اللُّجِّ الباهِتِ لِيَزيدَ حياتَنا حَرَكةً، وحاضِرَنا

آندِفاعاً ومَضاء.

وتابعُ النُّبوَّةِ شخصيَّةُ إيمانٍ ومبادِىءَ، وشخصيَّةُ دَعَةٍ وسَلامٍ. فهو يُرينا في كُلِّ جانِبٍ مِنْ جَوانِبِ الحياةِ ألوانا وألوانا.

فَيَكونُ جُزْءٌ من تاريخِهِ عقيدَةً، والجُزْءُ الآخَرُ جِهاداً، فيُكْتَبُ الخُلودُ له، ويُكْتَبُ عَلَيْنا أنْ نأْتَمَّ بِهِ لِنُجَرِّبَ إيمانَنا في الجِهادِ، وجِهادَنا في الإيمان.

وأيَّةُ شخصيَّةٍ هي أحْفَلُ مِنْ شخصيَّتِنا الّتي نُديرُ الحديثَ عليْها، بمَعْنَويّاتِها وفَعاليّاتِها، وأيُّها أحْظى بآثارها، فلمْ يَكُنْ لنا مَعْدِلٌ عنْ أنْ نَتَوَخّاها ونَسْتَفيدَ منْها في الذِّكْرى، كما آسْتَفَدْنا منْها في الحَياة.

ولستُ أَزْعُمُ لنفسي شيئاً من الفَضْلِ، وإنْ جَهِدْتُ في تَفَهُّمِ المُسْلِمِ المُحَمَّدِيِّ زَمَناً غيرَ يَسير، فإنّني كُلَّما أَوْغَلْتُ فيها رَأَيْتُني أَحْوَجَ ما أَكونُ إلى آبْتِداءِ دَرْسِها مَرَّةً أُخْرى بمعنىً جديدٍ. وكذلكَ سَتَظَلُّ يَنْبوعاً يَرِدُهُ الصّادي، وهو يَجِدُ في كُلِّ رَشْفَةٍ معنىً ولَذَّةً ونَكْهَةً، ثُمَّ لا يَحورُ مَعْناها ولَذَّتُها ونَكْهَتُها في مَذْهَبِ إحساسِهِ وشُعورِه.

يوم المدينة

كُنْتَ تَرَى النّاسَ في المدينَةِ يَروحونَ أفْواجاً ويَغْدُونَ أفْواجاً، والغِبْطَةُ تَمْلأُ جوانِحَهُمْ بهذا الحَدَثِ المَجيدِ. وَهُمْ، وإن لمْ يَنْصُبوا «قَوْسَ النَّصْرِ» حقّاً، فقدْ كانَ مَعْناهُ في قُلوبِهِم الطّافِحَةِ بكِبْرياءِ العَقيدَةِ وكِبْرياءِ المَعنى، وفي عَزائِمِهِم الطّافِحَةِ بكِبْرياءِ الذّاتيَّةِ وكِبْرياءِ المَجْدِ. وكانَ النّاسُ يَخْتَلِطونَ ويَتَحَلَّقونَ في كُلِّ مكانٍ، وعلى أَفْواهِهِمْ كَلِماتٌ ضاحِكَةٌ بِسِرٍّ المَرَحِ المَنْشورِ، فقدْ كانَ هذا اليومُ يومَ الظَّفَرِ بِبَدْرٍ[1].

غَدَتِ المدينةُ، مُنْذُ هذا اليومِ، بَلَدَ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أنْ لَبِثَتْ زَمناً وهي بَلَدُ العَقيدةِ، وفازَتْ بتَجْرِبتها الرّائعَةِ، وخَطَّتْ أبْهى سَطْرٍ في مَجْدِ العربِ ومَجْدِ الإنسانيّةِ جميعاً. فلمْ يَكُنْ هذا النَّصْرُ تَسْجيلاً لهزيمةِ فريقٍ وظَفَرِ آخَرَ، بَلْ كانَ تَسْجيلاً لظَفَرِ الإنسانيّةِ الجديدةِ المُحرِّرَةِ على الإنسانيَّةِ الرَّجْعيَّةِ العَتيقَةِ، إنْسانيَّةِ الأغْلالِ والقُيودِ، وإنْسانيّةِ الاسْتِعْبادِ الوَحْشيِّ المُنْكَر.

كانَ هذا الظَّفَرُ، في حقيقَتِهِ، ظَفَرَ الفِكْرةِ الجَديدةِ والعَقْليَّةِ المُتَطَلِّعَةِ، وظَفَرَ المِثاليَّةِ والأخلاقِ على المادِّيَّةِ الصّارِمَةِ والإباحِيَّةِ الجامِحَةِ، وكانَ يومَ تَحْريرِ الإنسانِ

(١) المَعْرَكَة الإسلاميّة الكُبرى ضِدَّ المُشْرِكين.

مِنْ شَتّى العُبوديّاتِ الدّينيّةِ والاجتماعيّةِ، ويومَ تَجْديدِ الإنسانِ وإنشائِهِ إنْشاءً آخَر.

غَدَتِ المدينةُ، في أُبّهاتِها وأَمْجادِها الحَفيلَةِ، بَلَداً جديداً، فلمْ تَعُدْ «يَثْرِبَ القديمَةَ» الّتي كانتْ، كغيرِها، وَكْراً مِنْ أَوْكارِ الفِكْرِ البالي والعقليّةِ الجامِدَةِ، الّتي لا لَوْنَ لها سِوَى ذلك اللَّوْنِ القاتِمِ، وكانَ يَشيعُ في جزيرةِ العربِ، ولمْ تَعُدْ أَلْبَـتَّةَ، بعدَ اليومِ، مَرْكَزاً للنِّظامِ الاجتماعيِّ المُتَأَخِّرِ المَوْروثِ مِن شرائِعِ الغابِ، وفيهِ الطَّبيعةُ البَرْبَرِيَّةُ، وكانَ يَشيعُ بشَتّى مظاهِرِهِ في كُلِّ العالَمِ القديمِ. فالشَّعْبُ ضَحِيَّةُ الطَّبقاتِ، وهؤلاءِ جميعاً ضَحايا فَرْدٍ مُسْتَبِدٍّ يُلاشي كِيانَ الأُمّةِ في كِيانِهِ، ويُحَوِّلُ تيّارَ النَّشاطِ في الشَّعْبِ إلى ما يُغَذّي أطماعَهُ ويُشْبِعُ مُيولَهُ ورَغَباتِه.

غَدَتِ المدينةُ، منذُ هذا اليومِ، مَرْكَزَ الفِكْرِ النّاهِضِ المُشِعِّ، والنِّظامِ الإصْلاحيِّ في كُلِّ حَقْلٍ من حُقولِ الاجتماعِ، ومَرْكَزَ الدَّوْلَةِ الحَيَّةِ الجَديدَةِ الّتي بَدَأَتْ تَنْزِعُ الأَغْلالَ السّابِقَةَ عن كُلِّ إنسانٍ في كُلِّ مكانٍ. وكذلك آمْتَدَّتْ وآنْطَلَقَتْ، كما يَمْتَدُّ ويَنْطَلِقُ خَيْطُ النّورِ سريعاً سريعاً، حتّى آنتَظَمَتْ مُعْظَمَ العالَمِ القَديم.

لَبِثَتِ المدينةُ أيّاماً مَديدَةً وهي غارِقَةٌ ببَهَجاتِها، مُنْتَشِيَةٌ بما أَحْرَزَتْ من نَجاحٍ، فقدْ حَمَلَتْ شُعْلَةَ الإصْلاحِ، وغَدَتْ رَسولَ المَدائِنِ والأَمْصار، وهي لنْ تَـتَنازَلَ عن رِسالَتِها إلى العالَمِ مهْما كَلَّفَها تَبْليغُ هذهِ الرِّسالةِ من تَضْحِياتٍ داميَةٍ وَوَثَباتٍ حَمْراء.

إحْتَضَنَتِ المدينةُ عقيدةً خالِدَةً ونِظاماً إصْلاحيّاً خالِداً، ثُمَّ أَلَّفَتْ حِزْباً خَلّاقاً، فَدَوْلَةً مُحَرِّرَةً. وكانَ من حَظِّ بِلادِ العربِ أنّها شَهِدَتْ، لأَوَّلِ مرّةٍ، تَجْرِبَةَ نِظامِ مُحَمّدٍ الاجْتماعيِّ، وقدْ نَجَحَتْ في حُدودِها ونَجَحَتْ خارِجَ حُدودِها، وفيها القُدْرَةُ على النَّجاحِ دائِماً.

كانَ في أَفْواهِ النّاسِ حَديثٌ واحِدٌ كُلُّهُ الإعجابُ، مُنْذُ تَسَنّى لفِئَةٍ قَليلةٍ مُؤْمِنَةٍ أنْ تُحَطِّمَ حَمْلَةً كاملةً جَهَّزَتْها مَكَّةُ وتَمَزَّقَتْ شَعاعاً. وخُطورةُ النَّصْرِ تَرْجِعُ إلى أنّ المَعْرَكَةَ لم تَكُنْ من نَوْعِ المعارِكِ الّتي تَحْدُثُ كثيراً وتَقَعُ كثيراً، وإنّما كانَتْ صِراعاً بينَ مَبْدَأيْنِ وعَقْلِيَّتَيْنِ وحياتَيْنِ، وقدِ آنتَهى بغَلَبَةِ الأَصْلَحِ منهُما في كُلِّ أولئكَ جميعاً، فَشاعَ في النّاسِ كافَّتِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الفَرَحِ العَقْليِّ كالّذي يُحِسُّ به رجلُ الفِكْرِ، وهو يَجْهَدُ جُهْدَهُ بسَبيلِ المعرفةِ، ونَوْعٌ من الفرحِ النَّفْسيِّ كالّذي يَسْتَخِفُّ المكافِحَ الظّافِرَ والآمِلَ الواجِد.

وكانَ يَمُرُّ بينَ جُموعِ النّاسِ رَجُلانِ يَهوديّانِ مُطْرِقَيْنِ في تَأَمُّلٍ، في أكْثَرِ تَطْوافِهِما، وأحْياناً يَأْخُــذانِ بأَطْرافِ الحديثِ الخَفيضِ الهامِسِ، وهما: مُخَيْريقُ[٢] وعبدُ اللّه بْنُ سلَام.

قال مُخَيريقُ: لَشَدَّ ما يُدْهِشُني ويَروعُني هذا الظَّفَرُ الّذي أَحْرَزَهُ مُحَمَّدٌ وحِزْبُهُ، فقدْ كانَ ظَفَراً سريعاً وناجِحاً، ولا يَنْشَبُ أنْ يتَخطّى حُدودَهُ الضَّيِّقَةَ، ويَشْمَلَ الجزيرةَ كُلَّها بنِظامِهِ الإصلاحيِّ القويمِ، وتَعاليمِهِ الواعِيَةِ الأَخّاذَةِ، حتّى لقدْ بَلَغَ من مَدَى فاعِلِيَّـتِها أنّها تُحَقِّقُ لنفسِها الانْتشارَ السَّريعَ دونَ ما دِعايةٍ وتَبْشير.

قالَ آبْنُ سَلَام: لكأنّكَ - يا مُخَيْريقُ - تُحِسُّ بما في نفسي وتَنْطِقُ عنْ لِساني، فإنّي دَهِشٌ كدَهْشَتِكَ وَمَرُوعٌ كآرْتياعِك، وما أَحْسَبُ محمّداً إلّا مُفْضِياً إلى مُنْتَهىً عظيمٍ جَلَلٍ، وكلُّ ما يَبْدو لي يُنْذِرُني بهذا المُنْتَهى، إنْ لمْ يَكُنْ أَقلَّ ما سَيَبْلُغُ إليه.

---

(٢) هُو مُخَيْرِيقُ النَّضْرِيُّ الإسْرائيليُّ. قيلَ مِنْ بَني قَيْنُقاعٍ، وقيلَ مِن بَني القَيْطونِ. وذَكَرَ الواقِديُّ والبَلاذُريُّ أنّه كان عالِماً وأَسْلَمَ. قالَ لليَهودِ يَوْمَ أُحُدٍ: ألا تَنْصُرونَ مُحَمَّداً؟ وَاللّهِ إنكم لَتَعْلَمونَ أنّ نُصْرَتَهُ حَقٌّ عليكم بمُقْتَضى المُعاهَدَةِ. فقالوا: اليومَ يومُ السَّبْتِ. فقالَ: لا سَبْتَ. وأخَذَ سَيْفَهُ ولَحِقَ بالنّبيّ فجُرِحَ جِراحاً قاتِلَةً، فلمّا حَضَرَهُ المَوْتُ قالَ: أمْوالي إلى مُحَمَّدٍ يَضَعُها حيثُ شاءَ. راجع الإصابة لآبْنِ حُجْرٍ العَسْقَلانيّ، ج ٦، ص ٧٣.

ومحمّدٌ واثِقٌ كأشَدِّ ما يَكونُ، فقدْ أَوْجَدَ مادَّةً حَيَّةً، وصَحَّحَها تَصْحيحاً مَعْنَوِيّاً، وَوَلَّدَ فيها قُوىً لا حَدّ لها، وغَذّاها بتَعاليمَ تفاعَلَتْ مَعَ نَفْسِيّاتِ العربِ تَفاعُلاً يَكْفي أنْ يُكَوِّنَ بينَهم وَحْدَةً في الصِّفَةِ العقليّةِ والشُّعوريّة، كما غَرَسَ في قُلوبهِمْ طبيعةَ الإيمانِ الصّحيحِ الّذي يَزْدَري هَبَّةَ العاصِفاتِ، وحَرَّرَ أَفئِدَتَهُمْ مِنَ الأساطيرِ والأَوْهامِ، وبَلْوَرَ عليهِم الفِكْرَ، وعَوَّدَهُمُ النِّظامَ، وأَلْزَمَهُمُ الطّاعَةَ وكلمةَ التَّقْوى، فكانوا أحقَّ بها وأَهْلَها. وليسَ يُخْطِئُني ظَنّي في أنّه لن تَقومَ لشريعَتِهِ شريعَةٌ، ولنْ يَثْبُتَ لقومِهِ قَوْم.

قال مُخَيْريقُ: هَيَّجْتَ، وَايْمُ اللّهِ، في نَفْسي حديثاً طالَما كُنْتُ أَذودُهُ عنْ لِساني ذِياداً، حتّى لا يَجْري بِهِ، ولا أَراني إلّا مُفْضِياً به إليك:

نَظَرْتُ في شرائِعِ العالَمِ ونُظُمِهِ، على آخْتِلافِ أَلْوانِها، وقَلَّبْتُها على شَتّى وُجوهِها، فآنتَهَيْتُ إلى أنّها تَـتَناصَرُ على سَحْقِ قُوى الأفرادِ والجماعاتِ وآسْتِغْلالِهم آسْتِغْلالاً أنانيّاً صارِماً. وهذهِ الشّرائِعُ والنُّظُمُ مُتعاوِنَةٌ فيما بينَها، من أجْلِ هذه الغايةِ الّتي لا تَـتَّفِقُ بحالٍ والحُرِّيّةَ الذّاتيّةَ للبَشَرِ، فسَبيلُها القضاءُ على الكِفاياتِ والقابِليّاتِ الّتي هي عُنْوانُ آمْتِيازِ الإنسانِ، ليَحُولوا دونَ أنْ يُـتِمَّ النُّشوءُ دَوْرَتَهُ، وبذلكَ يَسْتَسْلِمُ لهُمُ القَطيع.

ولقدْ باتَ المجموعُ البَشَريُّ، من تأثيرِ هذهِ الأدوارِ، في روحِيّةٍ جِدِّ مَريضَةٍ، وآنكَفَأَتِ الجماعاتُ تَهْوي في أَتونِ التّنازُعِ السّاحِقِ، حتّى لكَأَنَّ البشريّةَ في دَوْرِ آحْتِضارٍ، لا تَلْبَثُ معهُ طويلاً أنْ تَنْقَلِبَ هامِدَةً لا حَراكَ فيها.

فلمْ يَعُدْ في الأَدْيانِ ما يَرْوِي ظَمَأَ النُّفوسِ، بلْ على العَكْسِ، غَدَتِ الأَدْيانُ مادَّةَ الظَّمَأِ، كطالِبِ الرِّيِّ بالحَنْظَلِ، فإنَّهُ لا يَرْوَى، ولكنّهُ يَزيدُ شُعوراً بالحاجَةِ إلى الرِّيِّ. فالأَدْيانُ الذّاوِيَةُ الكَسيفَةُ، والهَرْطَقاتُ المُسْتَطيرَةُ، والأَوْضاعُ الاجْتِماعيّةُ الفاسِدَةُ، والنُّظُمُ الاقْتِصادِيَّةُ الّتي أَذْكَتْ نِضالَ الطَّبقاتِ بِشِرِّيّتِهِ المُفْظِعَةِ، والتَّداعي

الأخلاقيِّ، ويَقَظَةُ الإباحِيَّةِ الطّامِسَةِ، كُلُّ ذلك أَعَدَّ العالَمَ، بقَصْدٍ، ودونَ قَصْدٍ، إلى آنتِظارِ كلمةِ البنّاءِ العالَميِّ. ولا أَظُنُّ محمّداً إلّا ذلكَ البنّاءَ العالَميَّ الأعْظَمَ، ولا أَظُنُّ دَوْلَتَهُ الصّغيرةَ، في حُدودِ المدينةِ، إلّا نَواةَ تلكَ الدَّولةِ العالَمِيَّةِ العامَّةِ الّتي سَتَصْهَرُ في بَوْتَقَتِها الفَوارِقَ المِلِّيَّةَ، وتَسْتَعْلي على الأجْناسِ والشِّيَعِ، فالإسْلامُ عقيدةٌ ودولةٌ وآنتِمائيّةٌ.

عَرَفَ محمّدٌ سِلْسِلَةَ الأرْبابِ المُتَرابِطَةَ في نَسَقٍ، وعَرَفَ أنّ البَشَرِيَّةَ لنْ تَتَحَرَّرَ من هذه العُبوديّاتِ المُرَكَّبةِ المُتَداخِلَةِ، الّتي تُؤَلِّفُ خَطَراً على الفِكْرِ البَشَرِيِّ، وبَوارِزِ الامتيازِ الإنسانيّ، وتَغُلُّ النّشاطَ الحَيَويَّ بِما تَرْزَحُ به ككابوسٍ ضاغِطٍ وجاثومٍ مُرَوِّعٍ إلّا بعملٍ عنيفٍ، وعَرَفَ أنّ حَجَرَ الأساسِ في بنايةِ العُبودِيّاتِ الشّامِخَةِ هي الطَّبَقَةُ الرّوحيّةُ الّتي تَسوقُ الجُموعَ طائِعَةً بما تُسَيْطِرُ بِهِ على مناطِقِ اللّاوَعْيِ ومراكِزِ اللّاشُعورِ. فأَعْمَلَ مِعْوَلَهُ الأَقْدَسَ في بنايةِ العُبوديّاتِ الرّاسِخَةِ، الّتي شَهِدَتْ، من نَوْعِ تِلكَ العواصِفِ، شيئاً كثيراً، فَمَزَّقَتْ رياحَها المُتَناوِحَةَ المُزَمْجِرَةَ، وبَقِيَتْ في مَحَلِّها شامِخَةً راسِخَةً. لكنّ محمّداً عَرَفَ سِرَّ ثَباتِها فَسَدَّدَ ضَرْبَتَهُ الأُولى الماضِيَةَ إلى هذه الطَّبَقَةِ ورُبوبيَّتِها[3]، وتَحَدّاها في نَوْعٍ من السُّخْرِيَّةِ والاسْتِفزازِ المُثيرِ، وما هو إلّا أنْ تَزَلْزَلَ حَجَرُ الأساسِ، وخَرَّتْ صُروحُ الرُّبوبِيّاتِ، الّتي سَخِرَتْ بالزّمن مَذْرورَةً، مُتَناثِرَةً في حَالَتَيْ تَبعْثُرٍ وتَراكُم.

ثُمَّ وَقَفَ مُحَمَّدٌ فوقَ أَطْلالِها شامِخاً، يُعْلِنُ حُرِّيَّةَ الإنسانِ[4] وحُقوقَه في

(٣) قالَ تَعالى: «تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُم أَلَّا نَعْبُدَ إلّا اللّهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِن دونِ اللّهِ، فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولوا آشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران ٣: ٦٤).

(٤) قالَ تَعالى: «فَحَشَرَ فَنادى، فَقالَ أنا رَبُّكُمُ الأَعْلى، فَأَخَذَهُ اللّهُ نَكالَ الآخِرَةِ والأُولى» (الذاريات ٧٩: ٢٥). وقالَ: «فَآسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ» (الزخرف ٤٣: ٥٤). وقالَ «لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ» (الغاشية ٨٨: ٢٢). وقالَ: «رَبَّنا إنّا أَطَعْنا سادَتَنا وكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبيلا» (الأحزاب ٦٧:٣٣).

الاستقلالِ[٥] الذّاتيِّ، ويُعْلِنُ حُرِّيَّةَ[٦] العملِ والإنتاجِ والجُهْدِ، ويُقَرِّرُ مَبْدَأَ[٧] المَسْؤوليّةِ الشّخصيّةِ في الحُقوقِ والجَزاءِ ونَظَرِيَّةَ الجَزاءِ للحقِّ العامِّ[٨]، ويَنْزِعُ أَغْلالَ الفِكْرِ. فمحمّدٌ حارَبَ الرُّبوبيّةَ في شخصِ الأَوْثانِ الجامِدَةِ، وحارَبَ الرُّبوبيَّةَ في شخصِ الأَوْثانِ الاجتماعيّةِ الحَيَّةِ، وبذلكَ حَرَّرَ الفِكْرَ وحَرَّرَ المُجْتَمَعَ.

والمُدْهِشُ - يا آبْنَ سَلَامٍ - في مَنْهَجِ محمّدٍ الإصلاحيِّ أنّه قامَ على الزَّلْزَلَةِ الفِكريّةِ، لِيُعِدَّ النَّفسَ الّتي خَلَصَتْ[٩] من وِراثاتِها إلى آعْتِناقِ كُلِّ مَبْدَأٍ صالِحٍ، مهْما بَدا نابِياً والمبادِىءَ السّائِدَةَ، ويَفْسَحُ للأَفْرادِ والجماعاتِ سَبيلَ التّفْكيرِ المَنْطِقيِّ الهادِىءِ الخالي مِنْ شَوائِبِ الأفكارِ الأُولى ونَزَغاتِها. وكذلكَ لم يَعْمِدْ إلى تَصْحيحِ الأوضاعِ القائِمَةِ وتَغْييرِها فقطْ، كَما عَمَدَ المُصْلِحونَ مِن قَبْلُ، بلْ قَصَدَ إلى تَصْحيحِ فِكرةِ الحَياةِ أوّلاً، ليضْمَنَ روحِيَّةً جديدةً يَتَوَقّى معَها الرِّدَّةَ والانْتِكاسَ اللّاشُعوريَّيْنِ، وكانا آفَةَ كُلِّ إصلاحٍ خَرَجَ عنْ يَدِ المُصلحينَ السّالِفين.

أولئكَ كانوا يُصَحِّحونَ الأوضاعَ ويُشيعونَها في المُجتمعِ، وروحِيَّةُ الجماعةِ لم تَزَلْ غارِقَةً في الأَوْحالِ والأَمْراضِ، ولمْ تَزَلْ تالِفَةً أَشَدَّ ما يكونُ التَّلَفُ. فلا تَلْبَثُ

---

(٥) قالَ تَعالى: «لَها ما كَسَبَتْ وعَلَيْها ما آكْتَسَبَتْ» (البقرة ٢: ٢٨٦). ويَنْبَغي أنْ يُلاحَظَ أنّ القانونَ العامَّ يَخْضَعُ للقانونِ الأَدَبيِّ.

(٦) قالَ تَعالى: «وأنْ لَيْسَ للإنْسانِ إلّا ما سَعى، وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى، ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزاءَ الأَوْفى» (النجم ٥٣: ٢٩، ٤٠، ٤١).

(٧) قالَ تَعالى: «وكُلَّ إنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ» (سورة الإسراء ١٧: ١٣). وقالَ: «ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» (الإسراء ١٧: ١٥).

(٨) قالَ تَعالى: «وَلَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقون» (سورة البقرة ٢: ١٧٩).

(٩) قالَ تَعالى: «وإذا قيلَ لهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللّهُ قالوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَينا عليهِ آباءَنا، أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهُم لا يَعْقِلونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُون» (البقرة ٢: ١٧). وفي هذهِ الآيَةِ تَحْريرٌ للعَقْلِ مِن الوِراثاتِ، ودَعْوَةٌ إلى نَقْدِها على ضَوْءِ المَنْطِقِ والفِكْرِ المُجَرَّدِ، وبذلكَ قَضى القُرْآنُ على الوِراثاتِ كأساسٍ للفِكرِ وحَكَّمَ العَقْلَ بِها، فَلَمْ يَشْجُبِ القَديمَ المَوْروثَ مرَّةً واحِدَةً، بلِ القَديمُ الّذي يَصْطَدِمُ بالمَنْطِقِ في سُنَّةِ النُّشوءِ، وجاءَ تَحريرُهُ للعَقْلِ مِن حَيْثُ إنَّه قَضى عليْها كأساسٍ للفِكْرِ.

الأوْضاعُ أنْ تَفْسُدَ بفَسادِ روحِيَّةِ الجُموعِ ويَقَعُ الانْتِكاسُ في المجتمعِ وتُعاوِدُهُ الحُمّى، ويكونُ المُصْلِحُ لم يَزِدْ عنْ أنّه نجمٌ آلتَمَعَ فَجْأةً، ثُمّ آبْتَلَعَهُ خِضَمُّ اللّيلِ الحالِكِ... ولكنّ محمّداً لم يَكُنْ من طِرازِ هؤلاءِ، فقدْ صَحَّحَ فكرةَ الحياةِ وروحيّةَ الجماعةِ أوّلاً، ثُمّ صَحَّحَ النُّظُمَ والأوضاعَ، وبذلكَ ضَمِنَ سلامَةَ المجتمعِ أبَداً، وَوَقى الكائِنَ الاجتماعيَّ مِن الانتكاسِ والحُمّى.

فمحمّدٌ لم يَصْنَعْ أُمّةً في عِدادِ الأُمَمِ، بلْ صَنَعَ أُمّةً في عِدادِ الرُّسُلِ إلى كُلِّ الأُمَمِ، وأكْبَرُ ظَنّي أنّ أُمّتَهُ سَتَنْطَلِقُ في جِسْمِ العالَمِ المُتَداعي، كما تَنْطَلِقُ العُصارَةُ، وفيها الحَرارَةُ والحَياةُ والحَرَكَةُ. فهذا اليومُ - يا آبْنَ سَلَامٍ - بَداءَةُ دُنْيا جديدةٍ، وأوَّلُ يومٍ من تاريخِ عالَمٍ جديدٍ، فقدِ آسْتَدارَ الزّمانُ وبَدَأَ يَخُطُّ دَوْرَةً أُخرى كما أرادَ محمّدٌ أن تَكونَ، وكذلكَ يَفْرِضُ المُصْلِحُ نفسَه على الزّمن.

قالَ آبْنُ سَلَامٍ: أَراكَ - يا مُخَيْرِيقُ - تَـتَكَلَّمُ بكلامِ مَنِ آسْتَهْوَتْهُ رِسالةُ محمّدٍ، وما أُبَرِّئُكَ، ومعَ ذلك فإنّي أُنْصِفُكَ بأنّك لم تُجاوِزِ المَنطِقَ في دائرةٍ أوَّلُها الفِكْرُ وآخِرُها الحِسُّ. ولقد شاءَتْ لِيَ الظُّروفُ أنْ أَجْتَمِعَ ببعضٍ من أتْباعِهِ، وهو، وإنْ لمْ يَكُنْ له جَلاءُ مَنْطِقِكَ، ودِقّةُ تَحْليلِكَ، فقدْ غَمَرَتْني روحِيَّـتُهُ ولَعِبَتْ بي تَيّاراتُها، وما أَحْسَبُ نَفْسي أقَلَّ آنْجِذاباً مِنْك.

وأَذْكُرُ أنّي سمعتُ آيةً[10] تَدْعو إلى الإيمانِ العقليِّ من قُرآنِ محمّدٍ، وما هي إلّا أنْ تَمَدَّدَتْ في قَلْبي وعَقْلي جميعاً. فَتَمَدَّدَتْ لها نَفْسي وأَخَذَتْ طَريقَها إلى ما وراءَ القُوى الواعِيَةِ، ومَضَتْ تَفْعَلُ فِعْلَها، تارةً في الفِكرِ، وتارةً في مذاهِبِ الشُّعورِ، حتّى آنتَهَتْ بتَرْكيزِ فلسفَتِها عليَّ وتركيزي عليها، وإذا بي أُحِسُّ إحساساً وجدانيّاً بأنّها فلسفةٌ، يَنْبَغي أنْ أَعْهَدَها في أوَّلِ ما أَعْهَدُ من قَضايا العقلِ، وإذا بي أُحِسُّ إحساساً عقليّاً بأنّها كُلُّ المنطِقِ، حتّى لم يَعُدْ لي مَعْدِلٌ عنْ أنْ تَكونَ مُقَدِّمةَ

(١٠) قالَ تَعالى: ﴿قُلْ هذهِ سَبيلي أدْعو إلى اللّهِ على بَصيرَةٍ أنا وَمَنِ آتَّبَعَني﴾ (يوسف ١٢: ١٠٨).

الفِكْر.

والعَجَبُ ـ يا مُخَيْرِيقُ ـ أنَّ مُحَمَّداً عالَجَ قَضايا الدّينِ والعقلِ والحياةِ والاجتماعِ، وأعْطى حُلولاً هي ما ظَلَّتِ الإنسانيّةُ تائِهَةً عنها وعَبَثاً تَنْشُدُها. ولعلَّ أعْظَمَ ما يَسْتَوْقِفُني ويُغْريني حَلُّهُ لمُعْضِلَةِ الأدْيانِ، فهو لم يَنْقُضْها بلْ صَحَّحَها مِن الطُّفَيْليّاتِ العالِقَةِ عليها، فإنَّ في كلِّ دينٍ قَضايا الحقِّ الأُولى، وقد تَناوَلَها كلُّ قَبيلٍ بنوعِ عقليّـتِهِ، وما ثَبتَ فيها، فَلَوَّنَها بلَوْنِهِ، وما زالَ يُلْبِسُها، ويُضيفُ إليْها، ويَحْمِلُ عليْها، حتّى آخْتَفَتْ قَضايا الحقِّ وراءَ أَسْتارٍ صَفيقَةٍ، وغَدَتْ كاللُّبابِ تَحْجُبُهُ قُشورٌ قاسِيَةٌ. والّذي يَثْبُتُ في عقلِ الجماعةِ مَظاهِرُ الأشياءِ دونَ حقائِقِها المحجوبَةِ، فَوَقَفَ إيمانُ الجُموعِ عندَ حَدِّ المظاهِرِ، وعَمِلَ التّاريخُ عَمَلَهُ في هذا الإيمانِ فتَحَجَّرَ عليها، برُغْمِ أنّ هذه المَظاهِرَ وآلأَشْكالَ ليستْ سِوى آنعِكاسٍ من وراثاتِ القَبيلِ.

ولكنّ مُحَمَّداً آسْتطاعَ، بإعْجابٍ، أنْ يَكْشِفَ قَضايا الحقِّ الأُولى، وأنْ يُبْصِرَ مكانَها في كُلِّ دينٍ، رُغْمَ كُلِّ الأَسْتارِ الصَّفيقَةِ، فأَعْلَنَ لِلنَّاسِ، على آخْتلافِهِمْ، وَحْدَةَ الأديانِ، وأنّ قَضايا الحقِّ الأُولى واحِدَةٌ في كلِّ دينٍ، وهي لا تَتَغَيَّرُ إلّا إذا تَسَنّى لناموسِ الطّبيعةِ أنْ يتَغَيَّرَ، وأَعْلَنَ أنَّ ما يَتَوَهّمُهُ النّاسُ لُباباً هو قُشورٌ فقطْ، وبضَرْبَةٍ حَطَّمَها، وأعْطَى تَحْديدَهُ الدّقيقَ للدِّينِ الجديدِ. فكانَ عَمَلُهُ وجِهادُهُ فقط في تَجْريدِ قَضايا الحقِّ مِمّا رانَ عليْها وعَلِقَ بِها، أو رَدِّ النّاسِ إلى حقائِقِ دِياناتِهِم الّتي أَفْسَدَها النِّضالُ الطَّبقيُّ والقَوْميُّ، وأفْسَدَ كلَّ مجتمعٍ مِن وَرائِها، رُغْم أنّ الأديانَ ما جاءَتْ إلّا لِمَحْوِ هذا النِّضال.

وكما قُلْتَ ـ يا مُخَيْرِيقُ ـ ليسَ من المُمْكِنِ للمُصْلِحِ، إذا أرادَ البناءَ المكينَ، أنْ يتّجِهَ إلى العقلِ المُلوَّثِ المُنْحَرِفِ، والفِكرِ الغارِقِ بالأوْهامِ، ويُحَمِّلَهُ رسالَتَهُ، بلْ لا بُدَّ من مُهاجَمَةِ هذا العقلِ، وهذا الفكرِ، حتّى إذا تَطَهَّرا آتَّجَهَ إليهما من جديدٍ وذَهَب يَبْني، وبعبارةٍ أصَحَّ، ذَهَبَ يَخْلُقُ، وكذلك فَعَلَ مُحَمَّدٌ، وكانَ له ميزَةٌ على

المُصْلِحين، ويَنْبَغي أنْ نَعْرِفَ أنّ مُحَمَّداً لم يَكُنْ مُغامِراً يَتَسَتَّرُ بخُطَّةِ الإصلاحِ، وإنّما كان مُصْلِحاً دَفَعَ المُغامَرَةَ في طريقِ الإصلاحِ. وبينَهُما أنّ أوّلَهُما أنانيٌّ بلَحْمِهِ ودَمِهِ، يُطْلِقُ العاصِفَةَ كعِمْلاقٍ ويَدْفَعُ الجُموعَ إلى التَّواثُبِ فوقَ القِمَمِ، وزَلَّةٌ في العاصفَةِ تَترُكُ الجُموعَ في فَضاءِ الهاوِيَةِ طُيوراً تَحومُ في المُنْحَدَرِ السّريعِ السَّحيقِ، ودائِماً يَنْتَهي بالتَّهْديمِ لِيَقِفَ، من بَعْدُ، على أَطْلالِ الأَشْلاءِ مِسْخاً جاحِظاً مُتَقَلِّصاً؛ وثانِيَهُما غَيْرِيٌّ في شُعورِهِ وضَميرِهِ، يَضْبُطُ العاصفةَ ويَصْرِفُ مَخْزونَها فيما يَعودُ على المجتمعِ بالإنشاءِ وتَوْفيرِ القُوى والطّاقاتِ، ودائماً يَنْتَهي بالبِناءِ ليقِفَ، وأتْباعُهُ من بَعْدُ، على القِمَمِ.

قال مُخَيْريقُ: لِلّهِ كَمْ تَفْعَلُ العَقيدةُ في النُّفوسِ، فإنّها تَصْنَعُ من الضَّعفِ قوّةً، وقوّةً لا حَدَّ لها. ألا تَرَى أصْحابَ مُحَمَّدٍ كيفَ غَدَوْا، بفَضْلِ العقيدةِ الخلّاقَةِ، قوّةً لا تَتَّصِلُ بالضَّعفِ، بعدَ أنْ كانوا ضَعْفاً لا يتَّصِلُ بالقوّةِ... وهذا صحيحٌ، فإنّ الفكرةَ تَصْنَعُ الحياةَ، والحياةَ تَصْنَعُ القوّةَ، فلا قُوَّةَ بدونِ فكرةٍ تَقْذِفُ الطّاقَةَ والحياةَ جميعاً.

بَلَغَني، وأنا مِمّا بَلَغَني في عَجَبٍ، إخالُكَ تَعْرِفُ فَتَى قريشٍ، وطالَما شاهَدْتَهُ هنا في المدينةِ، وهو مَنْ يَنْعَتونَهُ بحامي الإسلامِ، عليُّ آبنُ أبي طالبٍ، بَلَغَني أنّه كانَ مِن آسْتِبْسالِهِ، وتَفانيهِ في نَصْرَةِ مَبادِىءِ هذا الدِّينِ الجديدِ، ما جَعَلَهُ، في بَدْرٍ الكُبْرى، أُمَّةً مِنَ الأبْطالِ كأنّها تَنْطَلِقُ فــي كُلِّ مجالٍ إذا آنطَلَقَ، فمِنْ كُلِّ وَجْهٍ عَليٌّ، ومِنْ كلِّ صَوْبٍ عليٌّ نَفْسُهُ، حتّى لأَجِدُ على كُلِّ لِسانٍ: إنّ فَتى قُرَيْشٍ هَزَمَ الجُموعَ مِنْ قُرَيش.

قالَ آبْنُ سَلَام: أَذْكُرُ أنّي أعْرِفُهُ، وأَذْكُرُ أنّ له سِيماءَ ناطِقَةً بالصّلابَةِ والعَزْمِ القَصيِّ، ورُغْمَ حداثَتِهِ فَقَدْ قَذَفَ في رُوعي مِنَ التَّجِلَّةِ، وأنواعاً من الأسْرِ، حتّى لأَحْسَبُني بِتُّ مَأْخوذاً عنْ نَفْسي ساعةً بشيءٍ لا أَفْهَمُ كُنْهَهُ، وهو ما يُسَمّونَه سِحْرَ

الشّخصيّة.

وأذْكُرُ أنّ حديثَه اليومَ على كلِّ لِسانٍ، وهم يَشْفَعُونَهُ بإعْجابِ طائِفٍ مَمْدودٍ: «أليسَ الّذي فَعَلَ الأفاعيلَ بقُريشٍ»، هذه عبارَتُهم الّتي لا تَكادُ تَسْقُطُ من حديثِ أحَدٍ عنْه، حتّى غَدَتْ تقليديّةً وطبيعيّةً. قالَ هذا، وسَكَتَ مُطْرِقاً، ويَدُهُ تُداعِبُ جَبْهَتَهُ كالّذي يُريدُ أنْ يَتَذَكَّرَ شيئاً قَدَرَ أنّه خطيرٌ، وعلى فُجاءَةٍ نَقَرَ جَبْهَتَهُ نُقْرَةً شاعَ سُرورُها في مُقْلَتَيْهِ وأَساريرِهِ.

قال: يا مُخيريقُ سأُخْبِرُكَ خَبَرَ فَتَى قريشٍ، يومَ تَزَمَّلَ في فِراشِ محمّدٍ، ليلةَ الهِجْرَةِ، إيهاماً عنه... قال مُخيريقُ: أذْكُرُ أنّي سَمِعْتُ شيئاً من ذلكَ... ومَضَى آبْنُ سَلَامٍ في حديثِهِ: إنّها مُغامَرَةٌ يَظُنُّها البُسَطاءُ دونَ آسْتِبْسالِهِ في معركةِ بَدْرٍ، لكنّها عِنْدي، من وُجْهَةِ العقيدةِ، أعْظَمُ شَأْناً وقد لا يَعْدِلُها مَوْقِفٌ. فإنّ الاستبسالَ قدْ تُوَلِّدُهُ حماسَةُ المَشْهَدِ، وأصْواتُ الجُموعِ المائِجَةِ، وقدْ تُوَلِّدُهُ خُيَلاءُ الذّاتيّةِ في موقِفٍ لا مَفَرَّ من الظُّهورِ فيهِ، وكثيراً ما بَدَّلَتْ هذه المشاهِدُ نفسيّةَ الجبانِ، كما لا تَدُلّ على أَثَرِ العقيدةِ دائماً.

ولكنّ تلك، هي مُغامَرَةُ العقيدةِ المُجَسَّمَةِ، فقد كانتْ تَعْريضاً للنّفسِ دونَ تَذَرُّعٍ بأسْبابِ الدِّفاعِ، وبكُلِّ هُدوءٍ، فليسَ فيها آنفِعالٌ عنيفٌ يُنْسي المَرْءَ ذاتَهُ، ويَدْفَعُه إلى عَدَمِ المُبالاةِ دَفْعاً قَسْرِيّاً، وهي مغامرةٌ، إنْ كانَتْ تُعَبِّرُ عن شيءٍ فإنّما تُعَبِّرُ عن نِسيانِ الذّاتِ على كُلِّ حالٍ، بفاعِليّةِ العقيدةِ وحدَها، الّتي طَغَتْ على كُلِّ المشاعِرِ وآسْتَبَدّتْ بها. إنّ التَّضْحِيَةَ رهيبَةٌ، يا مُخيريقُ، دائِماً، ولكنّها أَرْهَبُ ما تكونُ في المواقِفِ الهادِئَةِ الّتي لا تُثيرُ الأعصابَ بشُعورٍ غيرِ عادِيّ.

إنَّ مُحَمَّداً عَرَفَ كيفَ يَجْعَلُ النّفسَ العربيّةَ مُؤْمِنَةً ذاتَ آفاقٍ في الإيمانِ، فكانَتْ بذلكَ قويَّةً ذاتَ آفاقٍ في القُوّةِ. خُصوصاً وإيمانُ مُحَمَّدٍ يَجْعَلُ المَرْءَ لا يَرى شَيْئاً في حُدودِ الإيمانِ، ويَرَى الإيمانَ في حُدود كُلِّ شيءٍ، كتلكَ الفَراشَةِ الّتي

أَسْلَمَها المِصْباحُ إليهِ، فهي لا تَحولُ عنهُ، وإنْ كانَ في ذلكَ أنّها تَحولُ عنِ الحياةِ. وبهذا صَغُرَتِ الدُّنيا والحياةُ، وفكرةُ مَتاعِهِما، في قَلْبِ أصْحابِهِ، لأنَّ عَقْلَهُم لم يَعُدْ يَنْبَعِثُ من حُدودِ غَرائِزِهِمْ بل مِنْ حُدودِ تعاليمِهِمْ. والاعْتقادُ نفسُه غريزةٌ طبيعيّةٌ، وبينَ الغرائِزِ، كما بينَ سائِرِ الأشياءِ، تَناحُرٌ على الظُّهورِ والبُروزِ، وأكْثَرُ ما تَتِمُّ الغَلَبَةُ للغرائِزِ الدُّنْيا لأنّها أدْخَلُ، عُضْوِيّاً، في تَرْكيبِ الكائِنِ الحَيِّ، ولا تَتِمُّ الغَلَبَةُ لهذهِ الغرائِزِ أَلبَتَّةَ، إلّا وتَشُدُّ إليها العقلَ والقلبَ، فَيَفْسُدُ العقلُ، ويَنْحَطُّ القَلْب.

فعملُ المُصْلِحِ يَنْحَصِرُ في تَنْشيطِ غريزَةِ الاعتقادِ، لكي تُسَيْطِرَ بِروحِ الإيمانِ الجديدِ، وهي تَشُدُّ العقلَ والقلبَ إليها، فَيَصْلُحُ العقلُ ويَسْمو القَلْبُ، حتّى الغرائِزُ الدُّنْيا تُصْبِحُ دُنْيا، بمعنىً جديدٍ. فهي لا تَنْبَعِثُ في شَهْوَةِ الجَسَدِ، بل في شَهْوَةِ الرُّوحِ المُرَكَّزَةِ بالإيمانِ، وإنّ شَهْوَةَ الرّوحِ الشُّعورُ بِذاتيّتِها العُلْيا في الفِطْرَةِ والأخلاقِ والاجتماعِ، ولا يَزالُ الإيمانُ يَعْمَلُ عملَهُ، حتّى يَجْعَلَ في الغرائِزِ عَقْلاً، وفي الشَّهَواتِ إرادةً وأخلاقاً. فَمُحَمَّدٌ صَحَّحَ نُفوساً، وأوْجَدَ مادّةً مؤمنةً، تَنْطَلِقُ، كما يَنْطَلِقُ القَدَرُ الواقِعُ، إلى مصيرِها وغايَتِها، وهي بهذا الشُّعورِ مُجْتَمِعَةً كَمِثْلِها مُتَفَرِّقَةً، فقلْبُ الجماعةِ شُعورٌ مُتَجاوِبٌ بينَ قَلْبٍ وقَلْب.

ويُعْجِبُني في فَتى قُريشٍ أنّه يَمْلِكُهُ إيمانُهُ، حتّى في أحْرَجِ ما تَكونُ رَهْبَةُ النُّفوسِ، وقليلٌ همُ الأفرادُ الّذينَ يَمْلِكُهُمُ الإيمانُ، وهذهِ ميزَةُ أصحابِ محمّدٍ، بينَما الآخرونَ يُحاوِلونَ أنْ يَمْلِكُوا الإيمانَ، وفاتَهُمْ أنّ الإيمانَ إمّا أنْ يَكونَ كُلَّ شيءٍ في النّفسِ، وإمّا أنْ لا يَكونَ شيئاً فيها، والفَرْقُ بينَهما كالفَرْقِ بينَ مَنْ يُصَرِّفُهُ الإيمانُ، وبينَ مَنْ يتَصَرَّفُ به.

قال مُخيريقُ: لَشَدَّ ما تَفْعَلُ العقيدةُ في النُّفوسِ، ولِلّهِ أنْتَ يا مُحَمّدُ كمْ هي أخّاذَةٌ تَعاليمُكَ... قال هذا، وسَكَتَ يُفَكِّرُ في أمْرٍ يَبْدو مُهِمّاً، ولَبِثَ طويلاً يُحاوِلُ أنْ يَجِدَ النُّقْطَةَ الّتي يَبتَدِىءُ مِنْها الحَديثَ، فاطَّرَدَ مُمْعِناً، يقول:

يَسُرُّني أنّنا مُتَّفِقانِ في الفِكْرةِ والمَيْلِ، ولكنْ ما الّذي يَحولُ باليَهودِ عنْ مُحَمّدٍ، على رُغْمِ ما يَعْلَمونَ أنّه سَيَغْمُرُهُمْ لا مَحالَةَ؟ فإذا طاوَلوهُ كانَ لهمْ منهُ يَوْمٌ كيومِ بَخْتَنَصَّرَ... وكان مُجَرَّدُ ذِكْرِ بَخْتَنَصَّرَ كافِياً لِبَعْثِ آلامِهِ القَوْميّةِ الدّفينَةِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحابَةُ حُزْنٍ، ولكنّه واصَلَ حَديثَه:

أَعْرِفُ أنّ قَوْمَنا شُرِّدوا مَرّاتٍ، وآضطُهِدوا كَرّاتٍ، ومِنْ شُعوبٍ مُختلفَةٍ، فحَقَدوا على كُلِّ أُمّةٍ وتآمروا بكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وبثُّوا روحَ الانتقامِ في كُلِّ تَصاريفِهِم، مُتَّخِذينَ كلَّ شعبٍ هدَفاً، غيرَ مُفَرِّقينَ بينَ قبيلٍ وقبيلٍ، وبذلكَ أَخْطَؤوا في عَدَمِ تَحْديدِ التَّبِعَةِ، الّذي أَكْسَبَ نُفوسَهُمْ صِفَةَ الغِلِّ السَّحيقِ، وأَفْقَدَهُمْ رَغْبَةَ التّعاونِ مع الآخرينَ، وصِفَةَ التّبادُلِ المُخْلِصِ، حتّى مع قَوْمٍ لم يَكُنْ منهُم إلّا الإحسانُ إليهم، كهؤلاءِ العربِ الّذينَ آحْتَضَنونا بينَهم، وأَحَلّونا مَحَلَّ أنْفُسِهم، وآخْتَصُّونا بأَنْواعٍ من العَطْفِ، في هجْرَتِنا الأولى[11] والثّانيَةِ إلى جزيرتِهم.

قال آبْنُ سَلَامٍ: إنّ ما ذَكَرْتَهُ سَبَبٌ، ولكنَّ وراءَه أَسْباباً أَكْثَرَ فاعِليّةً فيما أَعْتقِدُ، حتّى لقدْ جَعَلَتْ روحِيَّةَ اليهودِ، من سوءِ أثَرِها البارِزِ في كُل دَوْرٍ، مُعْضِلَةً آجْتماعيّةً، وعناصرُ هذه الرّوحيّة كما أُحِسُّ:

أ ـ المادّيّة: الّتي آسْتَهْوَتْهُمُ آسْتِهْواءً فظيعاً، وتَخَلَّلتْ مَعْنَويّتَهُمْ إلى درجةٍ جَعَلَتْهُمْ لا يَتَوَرَّعونَ عنِ آسْتخدامِ أَسْمى مِثاليّاتِهِم ومِثاليّاتِ مَنْ يَحِلّونَ بينَهم بِسَبيلِ المطامِعِ، ولا يَعوقُهُمْ ويَنْأَى بهم عنها أنّها دَنيئَةٌ أحياناً. فكانَ لهذا أثَرٌ في تَوْليدِ صِفَةِ الجَشَعِ والشَّرَهِ والافتراصِ، وحينَ تَكونُ المادِّيَّةُ هي مِثالِيَّةَ الأُمّةِ فقدْ باتَتْ خَطَراً، وشَكّلَتْ مُعْضِلَةً دائِماً.

ب ـ طَبيعَةُ التّطَفُّلِ: حَقٌّ للفَرْدِ أنْ يَجْنيَ ثَرْوَةَ كَدْحِهِ، وحَقٌّ للجَماعَةِ أنْ

---

(١١) راجع كتاب: **تاريخ اليهود في جزيرة العرب**، للدكتور ولفنستون.

تَجْنيَ ثَمَراتِ جُهودِها، وأمّا أنْ يَجْنيَ المَرْءُ ثَمَرَةَ جُهْدِ الآخرَينَ فهذا عُدْوانٌ مُنْكَرٌ. والحياةُ قائِمَةٌ على الجُهْدِ، فَمَنْ لا يَجْهَدُ لا يَحْيا. هذا مَنْطِقُ الطّبيعةِ، وخَفَّفَ المُصلحونَ مِن حِدّتِهِ بالتّعاوُنِ الّذي يَحْفَظُ تَوازُنَ الطّبقاتِ، على شَكْلِ ما تَرى في تَعْليمِ مُحَمّدِ الجديدِ، في نِظامِ الزّكاةِ والصّدَقاتِ والكَفّاراتِ. واليَهودِيُّ، من طبيعتِهِ أنّه لا يَبْذُلُ جُهْداً يُوازي الفائِدَةَ، بلْ يَسْعى إلى أنْ يَسْتَحْوِذَ على أكْبَرِ فائِدَةٍ بأَقَلِّ مجهودٍ. وهذا لا يَأْتي إلّا عن طَريقِ التّطَفُّلِ على جُهْدِ الآخرينَ وآستغلالِهِمْ. فَتَوَلَّدَتْ بينَهم طَبقاتُ المُرابينَ والمُضارِبينَ وما شاكَلَهُم، وهؤلاءِ جميعاً يُشَكّلونَ، في النَّظَرِ الاجتماعيِّ، بيئَةً طُفيْليّةً شديدةَ الخطر على سلامَةِ أيِّ مُجتمعٍ كان.

فاليَهودُ طُفَيْليّونَ يَمْتَصّونَ المُجْتَمَعَ بِشَتّى الطُّرُقِ والوَسائِلِ، كالهوامِ التي تَطْلُبُ حياتَها على جِسْمٍ حَيٍّ، وَلَذَّ لهُمْ هذا الطّريقُ الهَيِّنُ فَأَلِفوهُ وآفتَنّوا في أشْكالِهِ مُسْتَفيدينَ مِنَ الوَسائِلِ الخاصّةِ بكُلِّ عَصْرٍ.

ج ـ الفَوْضَوِيّة: عَرَفَ اليَهودُ أنّ وَسائِلَهُمْ لِلامْتِصاصِ لا بُدَّ أنْ تَنْكَشِفَ ما دامَ المجْتَمَعُ في حالةٍ مِنَ الهُدوءِ، فَأَخَذوا أنْفُسَهم بإيجادِ أسْبابِ الاضطّرابِ والفَوْضى، تارةً بآخْتِراعِ مَذاهِبَ دينِيّةٍ ومَحافِلَ سِرِّيَّةٍ، وآونَةً بِبَثِّ مَبادِىءَ آجْتِماعِيّةٍ حَديثَةٍ، وأُخْرى بتَزْيينِ الحرُوبِ. وثَبَتَتْ هذه الفَوْضَوِيّةُ فيهِمْ طبيعَةً حتّى غَدَوْا مادّةَ الفَوْضى والثَّوْراتِ في كُلِّ مُجْتَمَعٍ.

مِنْ هذه العَناصِرِ تَألّفَتِ الرّوحِيّةُ اليَهودِيّة.

واليَهودِيُّ قَدْ يَصْلُحُ إذا آرْتَدَّ إلى الأرْضِ، وفارَقَ صِفَةَ التّجْوابِ الّتي تَجْعَلُهُ لا يُخْلِصُ لأُمّةٍ مهْما عاشَ بينَها، وآسْتَرَدّ مِثاليتَهُ الضّائِعَةَ. أَلَسْتَ تُلاحِظُ معي أنّ بَني قُرَيْظَةَ المُزارِعينَ أكْثَرُ مَيْلاً للتّعاوُنِ مَعَ مُحَمّدٍ ودوْلَتِهِ الجديدةِ مِنْ بني قَيْنُقاع المُرابين؟

قالَ مُخَيْرِيقُ: بَلى نِعْمَ ما تُلاحِظُ... ومَضَى آبْنُ سَلَامٍ في حَديثِهِ: ولَسْتُ أَتَرَدَّدُ أَلْبَتَّةَ في أنّ هذهِ الرّوحِيّةَ البغيضَةَ هي الّتي تَحولُ بينَ اليَهودِ ومُحَمَّدٍ الّذي حارَبَ هذا الخَليطَ المُنْكَرَ في روحِيَّتِهِم.

قالَ مُخَيْرِيقُ: أَلا تُجيبُني إلى أَمْرٍ قَدْ يُحقِّقُ فِكْرَةَ إِنْقاذِ الشّعبِ اليَهودِيِّ التّائِهِ، وآنْتِشالِهِ مِنْ أَوْحالِ المادّيّةِ الصّارِمَةِ الّتي لا تَلْبَثُ أَنْ تَقْضِيَ عليهِ وتُحَطِّمَهُ؟ فأنتَ حَبْرُ اليَهودِ ولك مَحَلُّكَ ومَقامُكَ، ولي مَنْزِلي ومَكاني، فَتَنْضَمَّ وأَنْضَمَّ إلى حِزْبِ مُحَمّدٍ، فَنُضَعْضِعَ مِنْ قُوّةِ مَوْقِفِهِم السّلْبِيِّ تِجاهَ الحَرَكَةِ التّحْريرِيّةِ المُنْقِذَةِ، ولا بُدّ أَنْ نَتْرُكَ بينَهم أثراً يَكْفُلُ لنا عَدَداً، إنْ لمْ يَكُنْ أكْبَرَ عَدَدٍ، خُصوصاً ونَفْسِيّةُ الجَماعَةِ سَريعةُ التّرَدُّدِ سريعةُ الاسْتِسْلام.

قالَ آبْنُ سَلَامٍ: هذا ما فَكَّرْتُ فيهِ، وعَقَدْتُ العَزْمَ عليهِ، وكأنّ القَدَرَ ساقَكَ لِتَشْجيعي...

وعلى ذلكَ آفْتَرَقا... فمَضَى مُخَيْرِيقُ في الطّريقِ المُؤَدّي إلى المَسْجِدِ، مَرْكَزِ الدَّعْوَةِ والدّوْلَةِ... وتَمَهّلَ آبْنُ سَلَامٍ حَتّى يَجْعَلَ لِدُخولِهِ صَدىً أَوْسَعَ آنتِشاراً وأَشَدَّ وَقْعاً. ولكنّهُ ظَلّ شاخِصاً في إكْبارٍ لِتَصْميمِ مُخَيْرِيقَ الّذي هو دَليلُ النّفْسِ الكَبيرَةِ، وفي إعْجابٍ بِمَنْطِقِهِ الدّقيقِ الّذي هو دَليلُ الفِكْرِ النّابغِ...

*

الإسلامُ عَقيدةٌ وعَمَلٌ وحَياةٌ ونِظام...

وله في الأفْرادِ والجَماعاتِ تَفاعُلاتٌ على أنْحاءٍ أرْبَعَة:

تَتَفاعَلُ العَقيدَةُ فيهِ مَعَ الأوْهامِ العالِقَةِ بالفِكْرِ، فَيَغْدو فِكْراً جَديداً بِمَنْطِقٍ جَديد...

ويَتَفاعَلُ العَمَلُ فيهِ مع الجُهْدِ المُبَدَّدِ، فَيَغْدو جُهداً مُنْتِجاً...

وتَتَفاعَلُ الحَياةُ فيهِ معَ الحياةِ المُغَلَّلَةِ الكاسِفَةِ، فَتَغْدو طَلْقَةً شامِخَة...

ويَتَفاعَلُ النِّظامُ فيهِ مع التَّراتُبِ المَحْموم، فَيَغْدو إِنْسَانيّاً صَحيحاً ...

والإِسْلامُ، بعدَ ذلك، فكرةٌ وإِعْداد،

وبينَهُما تَتَوَلَّدُ، على الدَّوام، الأُمَّةُ والدَّولَةُ والمُجْتَمَع...

* * *

يوم القِران

مَضَى، بينَ يوم المَدينَةِ وهذا اللّيلِ الّذي آسْتَيْقَظَ فيهِ النّبيُّ على ذِكْرى ناعِمَةٍ كَرَجْعِ الحَنينِ، ومُنْعِشَةٍ كلَمْسَةِ الحُبِّ، وشائِقَةٍ كوَقْعِ الأَمَلِ، أيّامٌ إنْ شِئْتَ تَحْسُبُها بأسابيعَ[1] فذاكَ، وإنْ شِئْتَ تَحْسُبُها بأشْهُرٍ فقدْ تُصيب.

إنْجَرَدَ النّبيُّ مِنَ اللّيْلِ، ويَدُهُ تَمْسَحُ النّوْمَ عنْ جُفونِهِ الّتي أخَذَها رُقادٌ هنيءٌ رافِهٌ بأَحْلامِ الغَدِ، وكانَتْ نَفْسُهُ تَجيشُ بذِكْرى مُحَبَّبَةٍ إليه، قَريبَةٍ منهُ، حتّى لكأنّها تَرْجِعُ إلى أمْسِ النّهارِ الّذي لم يَفْصِلْ عنه يَوْمٌ وغَدٌ.

وهي ذِكْرى ما كانَتْ تَمُرُّ في خاطِرِهِ إلّا وتَجيشُ بها نفسُهُ، ويَشْمَلُها آطْمِئْنانٌ ورِضاً، على أنّها لم تَكُنْ تَعْبُرُ مَجازَها في خَيالِهِ إلّا وتَتْرُكُ على مُقْلَتَيْهِ دَمْعَةً مُتَبَخِّـرَةً، وأُخْرى تَذوبُ في خَفْقَةٍ رَقيقَةٍ، وزَفْرَةٍ غَيْرِ طَويلَةٍ. ذِكْرى يُحَرِّكُها عندَه طَيْفُ أبي طالِبِ الّذي كانَ يتَراءى له، ويُلِمُّ به أحْياناً، وغَدا، بَعْدَ يَوْمِ المَدينةِ، كثيراً ما يُراوِحُهُ. وكانَ الطَّيْفُ يَبْدو، بَعْدَ هذا اليَوْمِ، مُزْدَهِياً تَلُفُّهُ مِنْ نَواحيهِ نَشَواتٌ، ومُتَلَفِّعاً بإشْراقَةٍ تَشيعُ عليهِ من أَقْطارِهِ، وهي تُعَبِّرُ عن زَهْوِ المكافِحِ المَيْتِ بمَجْدِ المكافِحِ الحَيّ.

كانتْ تَمُرُّ عليهِ، في طَيْفِ أبي طالِبِ، صُوَرٌ مُتَحرّكَةٌ سَريعةٌ، تَتَّصِلُ بِغارِ

(١) سَكَتَتِ الرِّواياتُ عَنْ تَقْديرِ المُدَّةِ بينَ وَقْعَةِ بَدْرٍ وآقْتِرانِ عَليٍّ بفاطِمَة.

حَراءَ، ومَكَّةَ، ودارِ الإعْدادِ والدَّعْوَةِ (بيتِ الأرْقَمِ) فَيُحِسُّ بالحَنينِ العَميق.

وتَمُرُّ بِهِ صُوَرُ الأوْثانِ المُنَضَّدَةِ الّتي تَحَدّاها في سُخْرِيَّةٍ، وهاجَمَها في تَحْطيمٍ، فيُحْرِقُ الأُرَّم.

وتَمُرّ بِهِ صُوَرُ ما لاقى من عَنَتٍ إجْماعيٍّ، وهو ماضٍ في كِفاحِهِ لا يَحْفِلُ ولا يَنْثَني ولا يَتَرَدَّدُ، مُعْتَقِداً الظَّفَرَ رُغْمَ الجُموعِ، والنَّجاحَ رُغْمَ تَأَشُّبِ الباطِلِ وسَوْرَتِهِ. وكذلكَ المُصْلِحُ الحقُّ يَنْقَطِعُ الفِكْرُ بينَه وبينَ العَقَباتِ، ليقولَ كلمتَهُ ويَسْمَعَ صَداها، ودائماً يَكونُ مُزَلْزِلاً مُرْعِداً.

ويَبْدو أبو طالبٍ، مِنْ ورائِهِ، يَدْفَعُ عنهُ، ويَشُدُّ أَزْرَهُ، ويَحْمي حِماهُ، فَيَشْمَلُهُ رِضاً بأنّه أدّى رِسالَتَهُ وشَهِدَ نَجاحَها في الخَلْقِ والإنْشاء.

وتَمُرُّ به خَديجةُ في هالَةِ الحُبِّ الزَّوْجيِّ الأقْدَسِ، وفي صورةٍ من مَقامِ المَرأةِ وأَثرِها في حَرَكاتِ البَعْثِ والانْقِلابِ، فَيَعْروهُ حُزْنٌ صامِتٌ، وتَقْديرٌ خَفيٌّ، وإكْبارٌ يَظْهَرُ أَثَرُهما في مَرْكَزِ المَرأةِ مِنَ التَّشْريعِ الخالِدِ... وتَرْوي تلكَ الصُّوَرُ وتَثْبُتُ هذهِ الحقيقَة:

نَجاحُ الحَرَكاتِ الخَلّاقَةِ بدَعائِمَ ثَلاثٍ: رَجُلِ المَبادِىءِ الّذي يَعْمَلُ بِقُواهُ المَعْنَويّةِ والفِكْريّةِ مُجتمعةً، والمرأةِ الّتي تَعْمَلُ بروحِيّتِها المُشِعَّةِ وعَواطِفِها الواعِيةِ، ورَجُلِ الدِّفاعِ الّذي يَعْمَلُ بكلِّ وَسائِلِهِ بإخْلاص...

وتَنْتقِلُ بِهِ الذِّكْرى ولا تَنْقَطِعُ، إلى الهِجْرَةِ، فَيَمُرُّ به عَليٌّ وتَضْحِيَتُهُ الرّهيبَةُ في التَّزَمُّلِ عنه، فَيَرْنو في دَهْشَةٍ مُكْبِرَة.

ويَمُرُّ به غارُ أبي ثَوْرٍ، وصاحِبُهُ الباسِلُ أبو بَكْرٍ، والطّريقُ المُرَوِّعُ، وهما يَنْهَبانِ الأرْضَ نَهْباً، فَيَشْعُرُ بأسىً، ويَنْكَمِشُ على خاطِرٍ أنْ يَغْدُوَ صَانِعُ المجدِ، طَريدَ المَهْد.

وتَمُرُّ به يَثْرِبُ وجُهودُهُ في تَثْبيتِ العَقيدةِ وآسْتِثْمارِها في بناءِ قَواعِدِ الدّوْلَةِ

الجديدةِ، فيَثْغَرُ في آبْتِسامَةٍ عَريضَةٍ هادِئَة.

وتَمُرُّ به سِلْسِلَةُ المَعارِكِ الّتي كانَ أهَمَّها بَدْرٌ، ويَرى الجَمْعَيْنِ وقَدْ تَصافَا للقِتالِ، ويَرى أبْطالَهُ على دَرَجاتِهِم، ويَرى عَليّاً، صاعِقَتَهُ المُدَّخَرَةَ، تَنْقَضُّ في كُلِّ مَجالٍ، ويَشْهَدُ النِّهايَةَ الظّافِرَةَ، فَيَهُزُّهُ في مَظْهَرِهِ الوَقورِ سُرورٌ بَعيدُ الغَوْرِ... وتَرْوي تلكَ الصُّوَرُ أيضاً، وتُثْبِتُ هذهِ الحَقيقة:

إنّ أبا طالبٍ كانَ أَسَدَ مُحَمَّدٍ، ورِسالتُهُ في دَوْرِ التَّأْسيسِ، ولم يَنْفُضْ يَدَهُ مِنَ الحَياةِ إلّا بَعْدَ أنْ قَدَّمَ، في فَتاهُ عَليٍّ، أسَدَ محمّدٍ ورِسالتُهُ في دَوْرِ التَّشْييدِ والإعْلاء...

قامَ النّبيُّ، وقدْ عَزَمَ على أَمْرٍ أَرْضى بِهِ ضَميرَهُ وحُبَّهُ معاً، وخَرَجَ وهو يَشْعُرُ أنّهُ أدّى حقّاً. ومَرَّتْ به فاطِمَةُ، وهي تَخْطُرُ لبعضِ شَأْنِها، فَقَبَّلَها قُبْلَةً آجْتَمَعَ فيها شُعورٌ جديدٌ أحَسَّتْ مَعْناهُ غامِضاً مُبْهَماً، ولكنّهُ آسْتَنْبَهَ فيها شَيْئاً لم تَدْرِ كُنْهَهُ إلّا أنّهُ مُبْهِجٌ على أيِّ حال.

لمْ يَفْصِلِ النّبيُّ عن حُجُراتِهِ بَعيداً حينَ أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ أُخْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ على فاطِمَةَ تَزورُها، فأَنِسَتْ إليْها كما لو كانَتْ تَنْتَظِرُ لقاءَها بلهْفَةٍ وصَبْرٍ نافِدٍ... والمَرْأَةُ تَتَكَشَّفُ إلى المَرْأَةِ بحَقيقَتِها العارِيَةِ، وتَظْهَرُ المَرْأَةُ إلى المَرْأَةِ بكُلِّ ذاتِيَّتِها، ولَيستْ تُعْطي الرَّجُلَ إلّا نِصْفَ مَعْناها، ويَبْقى النِّصْفُ الآخَرُ مَجْهولاً غامِضاً ويَذْهَبُ في غُموضِهِ أبَداً. فنحنُ نَفْهَمُ المَرْأَةَ نِصْفَ فَهْمٍ لأنّها لا تَنْكَشِفُ لنا إلّا نِصْفَ آنكِشافٍ، ولا يُخْرِجُها من صَدَفَتِها للعَراءِ إلّا الحُبُّ، والمَرْأَةُ، إذا تَفَتَّحَتْ أُنوثَتُها ونَضَجَتْ، حَنّتْ حَنيناً مُبْهَماً، فإنّها تَجِدُ نِصْفَ مَعْناها في الرَّجُلِ، والنِّصْفَ الآخَرَ في الوَلَدِ، وهي تُريدُ أنْ تَحُلَّ لُغْزَها فَيأْخُذُها هذا الحَنين.

أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ إقْبالَ مَنْ فَهِمَتْ شيئاً وتُريدُ المَزيدَ، وقالَتْ لها: مَرَرْتُ بالنّبيِّ،

وهو في بَهْجَةٍ ضاحِكَةٍ زادَتْ شُعاعاً على ما كُنّا نَعْهَدُه بعدَ يومِ المدينَةِ، وإنْ كانتْ لا تُفارِقُهُ، حتّى لقدْ خُيِّلَ إلَيَّ أنّه عَزَمَ على أمْرٍ فشاعَ سُرورُهُ على مُحَيّاهُ البَهِيِّ. ولا يَبْعُدُ بي ظَنّي أنّكِ وَقَفْتِ عليهِ، فقدْ أَعْلَمُ أنّه يَسْتَرْوِحُ فيكِ رَوْحَ النُّبوَّةِ، وما هو بغَريبٍ، فإنّكِ وُلِدْتِ له بَعْدَ مَبْعَثِهِ، وقَدِ آسْتَحالَتِ النُّبوَّةُ في مَعْناهُ، وغَدَتْ له ذاتيَّةً، فأنْتِ ذِكْرى من ذِكْرَيات الوَحْيِ الأُولى.

إسْتَوَتْ فاطِمَةُ، وقدْ تَأَلَّقَتْ في عَيْنَيها إشْراقَةٌ مِن حَلاوَةِ هذه المُلاحَظَةِ، فقدْ كانَتْ تَعْزو ما يَلْقاها بِهِ النّبيُّ مِنِ آحْتِفاءٍ وآحْتِفالٍ إلى مَحْضِ الحَنانِ الأَبَوِيِّ، وأَلْقَتْ في آبْتِسامَةٍ مُفْتَرَّةٍ: إذاً فأنا شيءٌ منهُ كالوَحْيِ أو كالنُّبوَّةِ، وطَيْفٌ سَماوِيٌّ في خَيالِ أبي عندَكِ يا مَيْمُونَة.

قالَتْ ميمونة: وأَنا وَايْمُ اللّهِ، ما جَلَسْتُ إليكِ إلّا شَعَرْتُ بروحانيّةِ هذا الطَّيْفِ المُتَأَلِّقِ وجَمالِهِ، وشَمَلَتْني سَكينَةٌ لا أُحَدِّدُها إلّا بما تَتْرُكُ في نَفْسي مِنِ آطْمِئْنانٍ لاذٍّ رغيبٍ. ولا تَحْسَبيني، مِنْ هذا الشُّعورِ، كما قيل: «تَخَيَّلَ ثُمَّ خالا» بلْ هو واقِعٌ نَفْسِيٌّ كالرِّيِّ على الظَّمأِ، أو كالأَمَلِ النَّدِيّ.

قالتْ فاطِمَةُ: يَسُرُّني أنّكِ تُحِبّينَني هذا الحُبَّ، ولكنْ ما وَجْهُ الأَمْرِ الّذي عَزَمَ عليهِ أبي، على ما آنتهى إليهِ حَدْسُكِ؟ فقدْ طافَ بنَفْسي شيءٌ كالّذي طافَ بِنَفْسِكِ، وأنّه عَراني إحْساسٌ غامِضٌ حينَ قَبَّلَني أبي في هذا الصّباحِ قُبْلَةً جَديدةَ المَعْنى، وبَثَّ في قُبْلَتِهِ، إلى جانِبِ الحَنانِ الّذي عَوَّدَنيهِ، شُعورَ مَنْ يَخْشى فِراقي، وكانَ في بَهْجَتِهِ المُشْرِقَةِ نَفْسِها الّتي لم تُزايِلْهُ حينَ مَرَرْتِ بِه.

وكانَتْ حُجُراتُ النّبيِّ تُشْرِفُ على المَسْجِدِ فَرَأَتا شَبَحاً لم تَتَبَيَّناهُ جَيِّداً، يَدْخُلُ مُسْرِعاً ويَخْرُجُ سَريعاً، فآشرَأَبَّتْ مَيْمونَةُ تَنْظُرُ، وأَطَلَّتْ مِنْ قَريبٍ، وعَلِمَتْ أنّهُ أبو بَكْرٍ عَرَضَ عليهِ شيئاً فلمْ يَنْبَسِطْ إلَيْهِ. ولم يُغادِرْ بَعيداً ويَتَوارى حتّى جاءَ عُمَرُ فَسارَّهُ بِشَيءٍ لمْ تَتَبَيَّنْهُ مَيْمونَةُ أيضاً، فلمْ يَنْبَسِطْ إليهِ، وظَهَرَتْ عليهِ حَرَكَةُ

إعْراضٍ غَيْرُ خافِيَةٍ. وما جاوَزَ المَسْجِدَ حتّى أَقْبَلَ عليٌّ فَتَلَقّاهُ بِبَهْجَتِهِ الّتي لَحَظَتْها عليهِ ساعَةَ أَبْصَرَتْهُ أوّلَ النّهارِ، فَسارَّهُ طويلاً والنّبيُّ يَنْبَسِطُ إليهِ ويَحْتَفِلُ بهِ، فَقامَ وعلى ثَغْرِهِ ٱبْتسامَةٌ عَريضَةٌ لم يَجْتَهِدْ في إخفائِها، وإنّما تَرَكَها تَنْطَلِقُ إلى مُنْتَهاها.

فٱنقَلَبَتْ إلى فاطِمَةَ تَقُصُّ عليْها ما رَأَتْ، ومَرَّ بخاطِرِها، وقدْ ضَمَّتْ قَدَمَيْها للجُلوسِ، شيءٌ ٱطْمَأَنَّتْ إليهِ في تَفْسيرِ ما شَهِدَتْ وغَمْغَمَتْ: لَعَلَّ... لَعَلَّهُ أنْ يَكون.

وعَرَضَ لها ما ثَبَّتَ هذا الخاطِرَ عليْها، فقالتْ بينَها وبينَ نفسِها: لذلكَ... لذلكَ لمْ يُكاشِفْها بالأَمْرِ الّذي عَزَمَ عليه.

ورَأَتْ مَيْمونَةُ أنّها أُحْرِجَتْ حينَما قالتْ لها فاطِمَةُ: لعلّكِ وَقَفْتِ مِنَ الأَمْرِ على جَلِيَّتِهِ أو على ما يتّصِلُ به. فأدارَتِ الحَديثَ بلَباقَةٍ إلى وَجْهٍ آخَرَ أَلْبَسَتْهُ شَكْلَ المُفاجَأَةِ، لِتَكْسِبَ ٱهْتِمامَها بِما تُريدُ أن تَصْرِفَها إليه.

فقالتْ: نَسيتُ شيئاً كُنْتُ أُريدُ أنْ أُخْبِرَكِ به وقد ذَكَرْتُهُ الآنَ. فَبَدا الاهْتِمامُ على وَجْهِ فاطِمَةَ، وأَصْغَتْ في كثيرٍ من التّلَهُّفِ والشَّوْقِ إلى هذا النَّبأِ الجديدِ... فواصَلَتْ تَقول:

سَمِعْتُ النّاسَ في طَريقي هذا الصّباحَ يقولونَ: إنّ عبدَ اللّهِ بْنَ سَلَامٍ حَبْرَ اليَهودِ أَعْلَنَ إسْلامَهُ وكاشَفَ بِه. وكانَ نَبأً شديدَ الوَقْعِ على اليَهودِ حتّى لقَدْ باتوا يُخاطِبُ بعضُهم بعضاً بكَلِماتٍ مُخْتَلِطَةٍ، ٱمْتِحاناً لحَواسِّهِم الّتي بَدَؤوا يَشُكّونَ في سَلامَتِها، فإنّ ٱبْنَ سَلَامٍ رَمْزٌ دينيٌّ من رُموزِ اليَهودِ، وعَجيبٌ أنْ يَميلَ إلى دينِ أبيكِ. وَتَوَقَّع النّاسُ أنْ يَكونَ لهذا الصَّدى الّذي أَحْدَثَهُ أَثَرٌ كَبيرٌ في الإضْعافِ من سَلْبِيَّةِ مَوْقِفِهِمْ إزاءَ الدّعوةِ الجَديدةِ، كما تَدارَكَ اليَهودَ خَوْفٌ عَميقٌ مِنْ أنْ يَفْضَحَ لأَبيكِ سِرَّ الرّوحِيّةِ الّتي يَجْتَهِدونَ في جَعْلِها لُغْزاً. ولكنْ برُغْمِ ما أَحْدَثَهُ ٱعْتِناقُهُ

الإسْلامَ مِن صَدىً عَكْسيٍّ عَنيفٍ، وَوَقْعٍ مُزَلْزِلٍ، لنْ يُؤَثِّرَ في سَلْبيّةِ اليَهودِ إلّا أثَراً ضَئيلاً، عَلَّلَهُ ٱبْنُ سَلامٍ بِما في طبيعَتِهِمْ من «البُهْت».

كَما أنّ القَوْمِيّةَ اليهوديّةَ وحدَها قامتْ على الدّينِ المَوْروثِ، والكَنيسِ الرّمْزيِّ في هذا الشّكْلِ حَسْبُ، وبِعِبارَةٍ أَصَحَّ أنّ القَوْمِيّةَ اليَهوديّةَ كَنيسٌ فقطْ، ولا شَيءَ وراءَ هذا التّقْليدِ الدّينيِّ. فهمْ لا يَتَمَسَّكونَ بدينِهِمْ، رُغْمَ الكَوارِثِ، بحُكْمِ صِحّتِهِ، بلْ بِحُكْمِ أنّه قاعِدَةٌ قوميّةٌ تَكْفُلُ وَحْدَتَهم، فاليَهودِيُّ لا يَرْفُضُ مَبْدَأً لأنّهُ فاسِدٌ أو لَيْسَ بصَحيحٍ، بل لأَنَّهُ لا يتَّفِقُ ومَثَلَهُ القَوْميَّ الّذي يَجِبُ أنْ يَقْبَلَهُ بدونِ مناقَشَةٍ. وهو قَدْ يَعْتَقِدُ عَدَمَ صَلاحِيَّتِهِ كَطِبٍّ للرّوحِيّةِ البَشَرِيّةِ، ولكنّهُ يَقْبَلُهُ على أيِّ حالٍ، لأنّه الضَّمانَةُ الأكيدَةُ لسَلامَةِ الوَحْدَةِ اليَهودِيّةِ. فاليَهودِيُّ لا يُعْمِلُ عَقْلَهُ في مُثُلِهِ، بلْ لا يَجِبُ أن يُعْمِلَ عَقْلَهُ، ما دامَتْ هذه المُثُلُ تَحْفَظُ عليهِ وَحْدَتَه العامّةَ الّتي تَتَّصِلُ ببَقائِهِ، فلوْ فُرِضَ وٱتَّسَعَ اليَهودُ كمَجْموعٍ بَشَرِيٍّ يعيشُ أشْتاتاً على الأُمَمِ لاتّباعِ أيِّ المَبادِىءِ الّتي تَروقُ لهم لَذابوا وَغَمَرَتْهم اللُّجّةُ. فمُعْتَقَدُهُم الدّينيُّ المَوْروثُ حَفِظَ وَحْدَتَهم وبَقاءَهم كأُمّةٍ أو كَقبيلٍ من البَشَرِ يَمْتازُ بخصائِصِهِ، وحَفِظَ ٱتِّصالَ تاريخِهِمْ، وبذلكَ كانَ لهمْ عُنْصُراً أوّليّاً كالأرضِ بالنِّسبَةِ إلى غيرِهم من ذَوي القوميّاتِ الوَطيدَةِ في الزَّمَن.

قالتْ مَيْمونةُ: بهذا يُعَلِّلُ ٱبْنُ سَلامٍ سَلْبِيّةَ اليَهودِ الصّليبَةَ، وليسَ إزاءَ الإسْلامِ خاصّةً، بل إزاءَ كُلِّ المَبادِىءِ وكُلِّ الأَدْيانِ، حَذَراً مِنْ تَفَسُّخِ وَحْدَتِهِم وتَبَعْثُرِهِمْ في الأُمَمِ... قدْ يُرى يَهودِيٌّ يُرَوِّجُ لمَبْدَأٍ وآخَرُ يُرَوِّجُ لمَبْدأٍ ثانٍ، ولكنّهُما لم يُؤْمِنا ألبَتَّةَ بما يُرَوِّجانِ له، وإنّما يَفْعَلانِ ذلكَ بِما في طَبيعَتِهِم من عُنْصُرِ الفَوْضَويَّةِ ومَحَبّةِ إشاعَتِها في كُلِّ مُجْتَمَعٍ، ليَتَسَنّى لهُمُ العَمَلُ والنّجاح.

وبينا هيَ في حَديثِها دَخَلَ النّبيُّ فَهَبَّتْ إليهِ فاطِمَةُ، وتَبِعَتْها مَيْمونَةُ، وَوَجَدَتْ إذْ ذاك فُرْصَةً مَكَّنَتْها من أُذُنِها، فٱنْطَلَقَتْ قُدُماً وراءَ خاطِرٍ سَنَحَ لها عندَ

الخُروجِ، بأنّ أَنَساً، خادِمَ النّبيِّ الّذي لا يكادُ يُفارِقُهُ، عِنْدَهُ من خَبَرِ المَسْجِدِ هذا الصّباحَ شيءٌ كثيرٌ. فَقَصَدْت إليهِ، وكانتْ أُمُّهُ إحْدى صُوَيْحِباتِها، وما ظَهَرَتْ في البابِ حتّى آسْتَقْبَلَتْها أُمُّ أَنَسٍ بالخَبَرِ كبُشْرى فَذَّةٍ، وكانَ فيما رَوَتْ لها عَنِ آبْنِها:

«أنّ أبا بَكْرٍ أَقْبَلَ إلى النّبيِّ فَقَعَدَ بينَ يَدَيْهِ، فقالَ: يا رسولَ اللّهِ قد عَلِمْتَ مُناصَحَتي وقَدَمي في الإسلام، وأنّي... وأنّي...

قالَ: وما ذاك؟

قالَ: تُزَوِّجُني فاطمَةَ، فَسَكَتَ عنهُ... فَرَجَعَ أبو بَكْرٍ إلى عُمَرَ، وهو يقولُ: هَلَكْتُ.

قالَ عُمَرُ: وما ذاك؟

قالَ: خَطَبْتُ فاطِمَةَ إلى النّبيِّ فأَعْرَضَ عنّي.

قالَ: مَكانَكَ حتّى آتيَهُ فَأَطْلُبَ مثلَ الّذي طَلَبْتَ.

فأَتى عُمَرُ النّبيَّ فَقَعَدَ بين يَدَيْهِ، فقالَ: يا رسولَ اللّهِ قد عَلِمْتَ مُناصَحَتي وقَدَمي في الإسلامِ وأنّي... وأنّي...

قالَ: وما ذاك؟

قال: تُزَوِّجُني فاطِمَةَ، فَسَكَتَ عنهُ...

فَرَجَعَ إلى أبي بَكْرٍ، فقالَ: إنّه يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللّهِ بِها... قُمْ بِنا إلى عَليٍّ نَسْتَحِثُّهُ أنْ يَطْلُبَ مِثْلَ الّذي طَلَبْنا.

فَأَتياهُ وهو يُعالِجُ فَسيلاً لهُ، فَقالا: إنّا جِئْناكَ منْ عِنْدِ آبْنِ عَمِّكَ بخِطْبَةٍ... فقامَ يَجُرُّ رِداءَهُ حتّى أَتى النبيَّ فَقَعَدَ بينَ يَدَيْه.

فقالَ: يا رسولَ اللّهِ قد عَلِمْتَ مُناصَحَتي وقَدَمي في الإسلامِ وأنّي...

وأنّي...

قال: وما ذاك؟

قال: تُزَوِّجني فاطِمَةَ... فأَشْرَقَ وَجْهُ النّبيِّ، وقال: فما عِنْدَك؟

قال: فَرَسي وبِزّتي.

قالَ: أمّا فَرَسُكَ فلا بُدَّ لك منْها، وأمّا بِزَّتُكَ فبِعْها.

فغادرَ وباعَها بأَرْبَعِمائَةٍ وثَمانينَ، وجاءَ بها حتّى وَضَعَها في حِجْرِ النّبيِّ، فَقَبَضَ منْها قَبْضَةً.

فقالَ: أَيْ بِلالُ، آبْغِنا بها طيبا»[٢].

شاعَ الخَبَرُ في المدينةِ سَريعاً كما يَشيعُ الأريجُ العابِقُ في كُلِّ مَكانٍ مع النَّسَمِ النّدِيِّ، فكانَتْ مَيْمونَةُ لا تَمُرُّ بِمَحَلَّةٍ من دُورِ الأنْصارِ إلّا وتَرى المَرْأَةَ تَميلُ إلى المَرْأةِ، وتقولُ لها في بِشْرٍ ظاهِرٍ:

أَمَا بَلَغَكِ النَّبأُ؟ عليٌّ خَطَبَ فاطِمَةَ، وباركَ النّبيُّ العَقْدَ، وإنّه لَنِعْمَ الحَدَثُ. ليسَ لهذهِ السّيّدَةِ المُصْطَفاةِ إلّا هذا السّيّدُ المُصْطَفى. وهي رَبيبةُ الوَحْيِ والرِّسالَةِ، وهو رَبيبُ الوَحْيِ وبَطَلُ الرِّسالَة.

وفي آسْتِدارَتِها صَوْبَ مَنْزِلِها سَمِعَتْ رَجُلاً يَسْمَرُ إلى آخَرَ في ناحيةٍ مِنَ الحَيِّ ويقولُ:

إنّ النّبيَّ لم يُزَوِّجْ عَليّاً، وإنّما كَرّمَ البُطولَةَ الخالِدَةَ المُظَفَّرَةَ في شَخْصِ البَطَلِ الخالِدِ المُظَفَّرِ، وإنَّ مِنْ حقِّ البُطولَةِ تَكْريمَها، وما فاتَ النّبيَّ أنْ يُكَرِّمَ البُطولَةَ بأَعَزِّ ما عِنْدَه وأَقْرَبِ ما هو إلى قَلْبِهِ، فإنّ فاطِمَةَ قَلْبُ النّبيِّ مُصَوَّراً في إنْسانٍ مَلاكِيٍّ أو مَلاكٍ إنْسانيٍّ. وليسَ في هذا مَعْناه بل مَعْنى التّكْريمِ، فإنّ مُحَمَّداً، في حقيقَتِهِ،

(٢) راجعْ كتاب: **الرّياض النّضِرَة في مناقب العشرة** للمُحِبّ الطّبَري، ج ٢، ص ١٨٠ إلى ١٨٤.

رِسالَةٌ ودَعْوَةٌ وهو المُبتَدَأُ، وإنّ عَليّاً، في حَقيقَتِه، إيمانٌ وإجابَةٌ وهو الخَبَرُ، ولا شَكَّ في أنّ فاطِمَةَ رابِطَةُ الإسْناد.

وما فاتَ مَيْمونَةَ أنْ تَسْمَعَ ما رَدَّ به الآخَرُ، وكان من المُهاجِرينَ الأوَّلينَ، كما تقولُ: وأيْضاً لقدْ كَرّمَ النّبيُّ بهذا القِرانِ بُطولَةً أُخْرى هائِلَةً في أبَدِيَّتِها المُشْرِقَةِ الواعِيَةِ، إنّهُ كرّم أبا طالِبِ النّصيرَ البَرَّ والمُجاهِدَ الأوَّل.

قال الأنْصاريُّ: فهذا القِرانُ إذاً تَكْريمٌ مُزْدَوِجٌ ضاعَفَ مَعْناهُ، وأخْلِدْ بهذا اليَومِ يَوْمِ تَكْريمِ البُطولاتِ، إنّه لَيَسْتَخِفُّني بمَعناهُ الكبيرِ... رَنَتْ مَيْمونَةُ في الظّلامِ وأحَدَّتْ بَصَرَها كَمَنْ رَأى شَبَحاً، فإذا شَخْصٌ يُقْبِلُ عليْهِما، وإذْ تَبيَّناهُ هَتَفا جميعاً: أهْلاً بكَ سَلْمانُ.

وكانَ سَمِعَ بَعْضَ الحَديثِ، وَوَقَفَ منذُ حينٍ على الخبَرِ، فقالَ:

إنّهُ جَديرٌ أنْ يَسْتَخِفَّكَ يا هذا، إنّهُ تَكْريمٌ لأكْبَرَ مِمّا كُنّا نَصْنَعُ، نحنُ الفُرْسَ، في جاهِلِيَّتِنا، من إقامَةِ تِمْثالٍ جامِدٍ تَخْليداً للبَطَلِ. فإنّ مُحَمَّداً مَنَحَ تِمْثالاً حيّاً أسْمى، تَخْليداً للبُطولَةِ الحقِّ، فكُلُّ ما في عَمَلِ الفُرْسِ وغَيْرِهِم أنّه تَخْليدٌ بمِقْدارِ ما في الحَجَرِ مِنَ القُوَّةِ على البَقاءِ، ولكنّ الفَناءَ في طَبيعَتِهِ. وهذا تَخْليدٌ بمِقْدارِ ما في الرُّوحِ من القُوَّةِ على البَقاءِ، ولكنّ الأبَدِيَّةَ في طبيعَتِها... وأغْرَقَ ثلاثتُهُم في تَأمُّلٍ صامِتٍ طالَ عليهِم، وجَعَلَ مَيْمونَةَ لا تَنْتَظِرُ وتَلِجُ المَنْزِل.

أخَذَها اللّيْلُ بنَوْمٍ هادِىءٍ تَخَلَّلَتْهُ أحْلامٌ بَهيجَةٌ آسْتَيْقَظَتْ منهُ على لَذَّتِها، فَخَفَّتْ إلى حُجُراتِ النّبيّ بِقَدَمٍ شاعِرَةٍ تَحْتَ قَصْدٍ غيرِ شاعِرٍ، وكانتْ فاطِمَةُ تَتَحَيَّنُها أيْضاً وتَنْتَظِرُ منْها شيئاً. فإنّ أَباها اللّيْلَةَ أخَذَ بها في أحاديثَ شَتّى كما تَشاءُ الأُبُوَّةُ، ولكنّها لم تُفْصِحْ لها عنْ شيءٍ يَضَعُ حدّاً لتَساؤُلِها، بيدَ أنّها تُريدُ أنْ تَعْلَمَ، ومَنْ لها غَيْرُ مَيْمونَةَ؟

بَدَرَتْها فاطِمَةُ: لَعَلَّكِ أَتَيْتِني اليومَ بخَبَرِ إسْلامِ كَعْبِ الأَشْرافِ وفُلانٍ وفُلانٍ؟ فآبْتَسَمَتْ مَيْمونَةُ، وأَدْرَكَتْ أنّها تُريدُ أنْ تَعْلَمَ عِلْمَ ما كانَ بالأَمْسِ.

فقالتْ: كأَنَّهُ لا يَهُمُّكِ كثيراً إسلامُ هؤلاء...

قالتْ: بَلَى، يَهُمُّني ولكنّي لَحَظْتُ بالأَمْسِ أنّكِ حِدْتِ عن حَديثٍ بحَديث.

قالت مَيْمونَةُ: كانَ الأَمْرُ يتَعَلَّقُ بآبْنِ عَمِّكِ عَليٍّ... وأفاضَتْ في إطْرائِهِ مِثْلَ مُعْجَبَةٍ آتَّصَلَ بها إعْجابٌ وُحبّ.

قالتْ فاطمةُ، وقدْ شَعَرَتْ أنّها تَحيدُ أيْضاً: وَمَا أنا مِنْ هذا الآنَ؟

قالتْ مَيْمونَةُ: أَوَلَسْتِ تُحبّينَهُ وتُعْجَبينَ به؟ وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ، اليَوْمَ، إلّا وهو يُحِبُّهُ ويُعْجَبُ به، ثم لا يَمَلُّ الحَديثَ عنه؟

قالتْ فاطمةُ: بَلى، إنّي لأُحِبُّهُ بحُبِّ أبي له وأُعْجَبُ... فَقاطَعَتْها ميمونة: وإنّكِ سوفَ تُحِبّينَهُ بحُبِّ قَلْبِكِ وحُبِّ أَبْنائِكِ أيْضاً.

جَمَدَتْ فاطِمَةُ ساعَةً، وصَبَغَها لَوْنٌ قد يكونُ أَزْهَرَ، وقد يَكونُ ناطِقاً، ثمَّ قالتْ بعدَ لأْيٍ: حَسْبُكِ، لقدْ فَهِمْتُ الآنَ، فَهِمْتُ كُلَّ شيءٍ. إنّهُ يُحِبُّهُ، ويُحِبُّهُ إلى حَدٍّ كَبيرٍ ولكنْ... وضَغَطَتْ على كلامِها وأَخَذَتْها إطْراقَةٌ مُفَكِّرَةٌ لم تُحاوِلْها مَيْمونَةُ صَرْفاً عنْها، ورَأَتْ حَسَناً أنْ تَنْصَرِفَ وتَتْرُكَها إلى خَواطِرِها وأفْكارِها.

بعدَ أيّامٍ من حِوارِهِما أَدْناها النّبيُّ إليه، وأَعْلَمَها في أحاديثَ بينَ الحنانِ والإشْفاقِ، فَمَرَّتْ فاطِمَةُ في سُباتٍ واجِمٍ، وكانَ طويلاً غالَبَتْ فيهِ عواطِفَها مُغالَبَةً شاقَّةً، وقالتْ في جُهْدٍ مِنْ مَشاعِرِها:

«يا رسولَ اللّهِ! زَوَّجْتَني برَجُلٍ فَقيرٍ لا شَيءَ له.

فقالَ النّبيُّ: أَمَا تَرْضَيْنَ يا فاطِمَةُ أنّ اللّهَ آخْتارَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ رَجُلَيْنِ، جَعَلَ أحَدَهُما أباكِ، والآخَرَ بَعْلَكِ»[٣].

وكانَ لكَلِمَةِ النّبيِّ في أُذُنِ فاطِمَةَ مَعْنىً كما تَحْمِلُ الألْفاظُ، وفي قَلْبِها معنىً آخَرُ هذهِ ألْفاظُهُ: إنّ الغِنى ليسَ شيئاً في المالِ، وهو آصْطِلاحٌ زائِفٌ آخْتَرَعَهُ مَكْرُ الشَّهَواتِ في عَقْلِ المَدنيّةِ المَدْخولِ، وإنّما الغِنى شيءٌ في المَعْنى الإنْسانيِّ الّذي هو ناموسٌ خالِدٌ يَدورُ عليهِ التّفاضُلُ في ظِلِّ الوُجودِ. فالزَّهْرَةُ تكونُ أَبْهى وأَحَبَّ وأَغْنى بما فيها من المَعْنى الزَّهْرِيِّ، الّذي هو الجَمالُ والعَبيرُ، وليسَ بِما يَعْلَقُ عليها وهو خارِجٌ عن مَعْناها. والضَّوْءُ يكونُ أَغْنى بما فيهِ من المَعْنى الضَّوْئيِّ كذلك، والأَسَدُ يكونُ أَغْنى بما فيه من المَعْنى الأَسَدِيِّ، وهكذا كُلُّ شيءٍ غِناهُ على مِقْدارِ ما فيهِ مِنْ مَعْناهُ... فالغِنى ذاتِيّةٌ مُطْلَقَةٌ ثابِتَةٌ، والمالُ نِسْبِيَّةٌ مُضْمَحِلَّةٌ، ولا تَكونُ شيئاً إذا لم تَكُنِ الشَّهَواتُ كُلَّ شَيءٍ، ولا تَجِدُ قيمَتَها إلّا في مَدى مَسافِ الغرائِزِ ومساقِطِها.

والمَرْأَةُ تَسْتَكْمِلُ مَعْناها بإنْسانيّةِ الرَّجُلِ دونَ بَهيمِيَّتِهِ وما يَزينُ هذه البَهيمِيَّةَ ويُكْمِلُها، كما يَسْتَكْمِلُ الرجُلُ مَعناهُ بإنْسانِيّةِ المَرْأةِ دونَ بهيمِيَّتِها وما يُكْمِلُها. والمالُ مُكْمِلٌ للبَهيمِيَّةِ الطائِشَةِ، وليسَ شيئاً وراءَها أو بعيداً عنْها. ولنْ تَشْعُرَ المَرْأَةُ بِذاتِيَّتِها، وتَعْتَدَّ بكِبْرياءِ مَعْناها، إذا كانَ المالُ شارِياً والرُّجولَةُ، من ورائِهِ، كَسِيفَةً خائِبَةً وبائِرَةً مُتوارِيَةً، وإنّما يَأْخُذُها إحْساسٌ عَميقٌ بأنّه لم يَضُمَّ بِهِ مَعْنىً إلى معنىً بَلْ حَيَوانيّةٌ مَبْذولَةٌ وَجَدَتْ ضَعْفَها إلى حَيَوانِيّةٍ باذِلَةٍ وَجَدَتْ قُوَّتَها، فَتَذْهَبُ تلكَ ذاوِيَةً ويَأْخُذُها تَلاشٍ سَريعٌ، وتَذْهَبُ هذهِ مُنْتَفِخَةً ويَأْخُذُها جَبَروتٌ سَريعٌ، ويَنْتَهي المالُ وقَدْ عَمِلَ بأنْ أَلْصَقَ عبداً بِرَبٍّ، ولمْ يَضُمَّ إنْسانِيّةً إلى إنْسانِيّةٍ تَجِدانِ وَحْدَتَهما، بل تَبايُنٌ على مِثلِ الطَّيْرِ في مِخْلَبِ الطَّيْرِ تكونُ الدَّعابَةُ منه نَهْسَةً يُشْعِرُهُ فيها بهَوانِهِ، وإنّه في مَكانِ النّهايَةِ من فَمِهِ؛ وتَكونُ نِهايَةُ زَواجِ المالِ آسْتِرْقاقاً أوِ

---

(٣) راجع كتاب: **الرّياض النَّضِرَة في مناقب العشرة** للمُحِبّ الطّبري، ج ٢، ص ١٨٢.

آفتِراساً في شُعورِ القَلْبِ، وتَكونُ في شُعورِ المُجتَمَعِ آختِلالاً في تَوازُنِ الأُسْرَةِ يُصيبُها بالفَساد، ويَتجاوَزُ بأَثَرِهِ إلى تَوازُنِ الجَماعَةِ فَتَخْتَلُّ وتَضطَّرِبُ. وفي كَلِمَتَيْ: زَواجٍ وقِرانٍ رائِحَةُ هذا المَعْنى، بيدَ أنَّ الأُولى قُصِدَ فيها إلى الرّوحِ وأحاسِيسِها، والثّانيَةَ قُصِدَ فيها إلى الواقِعِ الاجْتِماعيّ وآرْتِساماتِهِ. فَزَواجُ المالِ ليسَ فيه مَعْناه، وإنّما فيهِ مَعْنى العَقْدِ الّذي هو آحْتِيالٌ بِقانون.

والأُنْثى إذا لمْ تُنِرْ فضاءَ الرَّجُلِ النّفْسيَّ فَمَا تَزيدُ عن أنّها جَسَدٌ فقطْ. والرّجَلُ إذا لم يُنِرْ فَضاءَ المَرْأَةِ النّفْسيَّ فَمَا يَزيدُ عن أنّه جَسَدٌ فقطْ، والزّواجُ في حِسِّ الرُّوحِ فَضيلةٌ تُكْمِلُ فَضيلةً، ونورٌ يَمُدُّه نور.

وكانَ مَعْنى آخْتيارِ عليٍّ إلى جَنْبِ النّبيِّ جَمْعَ كُلِّ الإنْسانيّةِ فيه، وجاءَ معهُ عَلامَةً على أنّ الإنسانيَّةَ بكُلِّ ما ثَبتَ فيها، لنْ تَنْحَرِفَ عن النّبُوّةِ الجَديدَةِ بكل ما ثَبَتَ فيها. فكانَتْ فاطِمَةُ منْهُما بينَ مَصْدَرِ إشْراقِ النُّورِ ومَجْلى آنعِكاسِهِ، ومَوْجاتُ الشُّعاعِ تَمورُ مُتَألِّقَةً في جَوِّ نَفْسِها المُتَسامِيَةِ أبداً.

ومَرّ في نَجْوى قَلْبِها: إنّ أبي يَقولُ في تَعْبيرٍ آخَرَ، ظَهَرَتْ حَقيقَةُ الخَلْقِ في عالَمِ الإبْداعِ الإلهِيِّ بِمَظْهَرَيْنِ: مَظْهَرِ النّبيِّ الكامِلِ، ومَظْهَرِ الإنْسانِ الكامِلِ، وحَبيبٌ إلى نَفْسي أنْ يكونَ حَظّي هذا الإنْسان.

«وأمر النّبيُّ أنْ يُجَهِّزوا فاطِمَةَ فَحَمَل لها سَريراً مُشَرَّطاً بالشُّرُطِ، وقال لعَليٍّ: إذا أَتَتْكَ فَلا تُحْدِثْ شيئاً حتّى آتيَكَ... فجاءَتْ مَعَ أُمِّ أَيْمَنَ حَتّى قَعَدَتْ في جانِبِ البيتِ وعليٌّ في جانِبٍ، وجاءَ رَسولُ اللّهِ، فقالَ:

ـ ههُنا أخي؟

قالتْ أُمُّ أيمَن: أخوكَ وقدْ زَوَّجْتَهُ آبْنَتَك!

قال: نعمْ...

ودَخلَ رَسولُ اللّهِ البيتَ، فَدَعا بماءٍ، فقالَ فيهِ ما شاءَ اللّهُ أنْ يَقولَ، ودَعا فاطِمَة فَجاءَتْ خَرِقَةً مِنَ الحَياءِ تَعْثُرُ في مِرْطِها، فَنَضَحَ عليْها وقالَ لها:

ـ إنّي لمْ آلُ أنْ أُنْكِحَكِ أَحَبَّ أَهْلي إليّ، اللّهُمَّ إنّي أُعيذُها بك وذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرّجيم...

ورَأى رَسولُ اللّهِ سَواداً وراءَ البابِ، فقالَ:

ـ مَنْ هذا؟

قالت: ميمونَة.

قالَ: مَيْمونَةُ أختُ بنتِ عُمَيْس؟

قالتْ: نَعَمْ.

قال: أمَعَ بِنْتِ رَسولِ اللّهِ جِئْتِ كَرامَةً؟

قالتْ: إي وايْمُ اللّهِ... فَدَعا لي دُعاءً أنّهُ لأوثَقُ عَمَلي، ثُمّ خَرَجَ فما زالَ يَدْعو لهما حتّى ضَمَّهُ مَنْزِلُه»[٤].

*

يَظَلُّ الزّمانُ حَقيقةً مَوْهومَةً، لَوْلا بَعْضُ الأعْمالِ الخالِدَةِ الّتي تُؤَرِّخُهُ...

وتكونُ هذهِ الأعمالُ أكْبَرَ مِنَ الزَّمَنِ، لأنّ حقيقَتَهُ بعضُ هِباتِها...

فيومُ عَليٍّ وفاطِمَةَ أكْبَرُ مِنَ الزّمَنِ، وأخْلَدُ مِنَ التّاريخ!...

أَثْبَتَتِ النُّبوّةُ مَعْناها الخالِدَ في رُوحِيّةِ الإنسانِ على وَجْهِهِ...

وأَثْبَتَتِ النُّبوّةُ ذاتيَّتَها الخالِدَةَ في دَمِ الإنْسانِ على وَجْهِهِ...

(٤) راجع كتاب: **الرّياض النضرة، في مناقب العشرة** للمحبّ الطّبري، ج ٢، ص ١٨١ و١٨٢.

فيومُ عَليٍّ وفاطِمَةَ، بَداءَةُ حَياةِ النُّبوَّةِ الخالِدَةِ في الدِّماءِ!...

*

كانَتِ النُّبوَّةُ سَتَظَلُّ ذِكْرى فَقَطْ...

ولكنْ شاءَ اللّهُ أنْ تَكونَ حَياةً أيضاً...

فيومُ عَليٍّ وفاطِمَةَ، إبْقاءٌ لِحَياةِ النُّبوَّةِ على الدُّهورا!...

*

تَضَعُ الحَقيقَةُ الكُبْرى خَصائِصَ مَعْناها في النَّواةِ، لأنّها تُريدُ البَقاءَ...

والنَّواةُ لا تَخْتَلِفُ في خَصائِصِها إلّا إذا كانَ لِناموسِ الوِراثَةِ الطّبيعيِّ أنْ يَخْتَلِفَ...

فيومُ عليٍّ وفاطِمَةَ، يَوْمُ بُروزِ النَّواةِ عَنْ مِثْلِ خصائِصِها في شَكْلٍ آخَرَ!...

*

تَذْهَبُ النَّواةُ الّتي هي مَخْزونُ الخصائِصِ، تُتِمُّ دَوْرَتَها وتُعْطي أشْياءَها...

والنُّبوَّةُ فِكْرَةُ السّماءِ المُصْلِحَةُ في مُحيطِ البَشَرِ...

فيومُ عليٍّ وفاطِمَةَ، طَبْعٌ لِعَقْليَّةِ النّبوّةِ في عَقْلِ النّاسِ!...

*

إجْتَمَعَتْ في عَليٍّ قابِليّاتٌ لا حَدَّ لها...

وآجْتَمَعَتْ في فاطِمَةَ إشْراقاتٌ لا حَدَّ لها...

فيومُ عليٍّ وفاطِمَةَ، يَوْمُ نَظَرِ النُّبوَّةِ إلى نَفْسِها في المِرْآةِ!...

* * *

يوم الإيمان الشامخ(*)

جَمَدَتْ في مآقي النّاسِ دَمْعَةٌ حَرّى لم يَكُنِ الحُزْنُ كُلَّ مَعْناها، كَما لَمْ تَخْلُ مِنْ بَعْضِ مَعْناه، فَقَدِ آتَّصَلَتْ بكُلِّ قَلْبٍ أسْبابُ حُزْنٍ مَريرٍ، حينَ آسْتَفاقَ النّاسُ بَعْدَ أُحُدٍ[1] على مَشْهَدِ البُطولَةِ الكَليمَةِ الجَريحَة.

وجِراحُ البُطولَةِ لا تَقْذِفُ في النُّفوسِ ضَعْفَ الأَلَمِ بلْ كِبْرياءَه، ولا تَلُفُّها بِذِلَّةِ التَّجْرِبَةِ ولكنْ بتَجْديدِها في عَزيمَةٍ تَضاعَفَتْ حَقيقَتُها، وتَمَدَّدَتْ في كُلِّ أشْياءِ الحِسِّ. فإنّ الأَلَمَ، مع الإيمانِ، ظُهورٌ لِذاتيَّةِ الوُجودِ بقُوَّتِها، كما يَكُون الأَلَمُ، مع الجُحودِ، ظُهوراً لذاتيّةِ العَدَم بتَلاشيها.

وإنّ الأَلَمَ في غايتِهِ تَحَدٍّ، وتَحَدّي القُوّةِ مُبالَغَةُ القُوّةِ في إظْهارِ طبيعَتِها ومَعْناها، وتَحَدّي الضَّعْفِ مُبالَغَةُ الضَّعْفِ في إظْهارِ طَبيعَتِه ومَعْناه.

وتَزْأَرُ القُوَّةُ إذا أُصيبَتْ زَئيرَ القُنْبُلَةِ إذا آنفَجَرَتْ، وهي تُعَبِّرُ عَنْ أنّ في بَعْضِ

(*) أُلقِيَ هذا الفَصْلُ لِأَوّلِ مرّةٍ سنة ١٩٤٢ في قاعةِ الوِسْتِ هول بمُناسَبَةِ حَفْلِ المَوْلِدِ النّبويّ، وكانَ مَقْصوراً عَلَيّ وعلى الدّكتور عُمَر الدّسوقي الّذي أَلْقى قَصيدَةً، وكانَ عريفَ الحَفْل الدّكتور جميل عرداتي أُسْتاذ الطّبّ في الجامِعَة الأميركيّة.

(١) جَبَلٌ في الحِجازِ قُرْبَ المَدينَةِ، كانَتْ فيه مَعْرَكَةٌ شَهيرَةٌ بينَ النّبيّ وأتْباعِهِ، وبينَ المُشْرِكينَ وشَنَّها المُشْرِكونَ كَمَعْرَكَةٍ ثَأْرِيَّةٍ بِمَعْرَكَةِ بَدْرٍ الكُبْرى، وَوَقَعَتِ الواقِعَةُ في صُفوفِ أتْباعِ النّبيّ لأنّهم تَرَكوا المَواقِعَ السّتراتيجيّة التي عَيّنها لهُم النّبيُّ قَبْلَ نِهايَةِ المَعْرَكَةِ، حِينَ ظَهَرَتْ تَباشيرُ الظُّفَرِ أوّلاً في جانِبِهِمْ، كما هو مَعْروفٌ في كُتُبِ السِّيَرِ والتّاريخ.

الكَسْرِ ما هو آنطِلاقٌ لأَعْمَقِ القُوّاتِ الكامِنَةِ. وتُرْعِدُ إِرْعادَ الأَسَدِ إذا خانَهُ المَوْقِفُ، وهو يُعَبِّرُ عن أنّه الأَسَدُ بطبيعَتِه المَخْزونَةِ الّتي شاءَ المَوْقِفُ أنْ يُطْلِقَها بِهِ. وتلكَ القُوّاتُ وهذهِ الطّبيعَةُ لا تَنْطَلِقانِ إلّا بكَسْرٍ أو جَرْحٍ، وهما تُحِسّانِ به إحْساسَ المادّةِ المُلْتَهِبَةِ بالنّارِ، لا تَميلُ بها إلى ضُمورِ العَدَمِ بل إلى كِبْرِياءِ الوُجودِ، ثم لا تَدْفَعُها إلى آسْتِسْلامٍ كَسيفٍ، وصُموتٍ طامِسٍ، بل إلى آعْتِدادٍ رَهيبٍ وَرَدٍّ مصْمٍ، ويَكونُ الكَسْرُ، أو الجَرْحُ، قَدْ أضافَ إلى مَعْناها مَعْنىً جَديداً، أوْ سَمَحَ لكلِّ طَبائِعِها بالظُّهور.

وكذلكَ يكونُ شُعورُ القَوِيِّ بالأَلَمِ إغْراءً لقُوَّتِهِ على أنْ تَنْطَلِقَ وتَنْقَضَّ ظامِئَةً، كما يكونُ شُعورُ الضّعيفِ بالأَلَمِ إغْراءً لضَعْفِهِ على أنْ يَبْرُزَ ويَبْدُوَ في أتْعَسِ أشْكالِ العُبودِيّاتِ الذّليلَةِ(٢) مهانَةً وخَوَراً.

والإيمانُ قُوّةٌ تَصْنَعُ البُطولاتِ المُشتَهينَةَ. ويومُ أُحُدٍ يومٌ أُصيبَتِ البُطولَةُ فيهِ، فكانَ آبْتِداءُ إحْساسِها بالأَلم آبْتِداءَ شُموخِها الذّاهِبِ في السّماءِ والمُتَحَدِّبِ مع الآفاقِ... والدِّماءُ الصّبيبةُ لا تُلْهِمُ الأبْطالَ رَوْعَةَ الدَّمِ الرّاهِبَةَ بل رَجْفَةَ الدّمِ النابِضَةَ، ولا تَمُرُّ بهمْ إلّا وقَدِ آسْتَحالوا قُوىً مُرْعِدَةً مُنْقَضَّةً في مَسافاتِ أشْواطِها، لا يحولُ دونَها إلّا ما قُدِرَ له أنْ لا يكون.

والأَلمُ للإيمانِ كالحَرَكَةِ للحَياةِ، يُمْرِيانِ الحَرارَةَ فيهِما، وكما تَذْهَبُ الحياةُ بدونِ الحَرَكَةِ في ضُمورٍ، يَحورُ الإيمانُ بدونِ الأَلمِ في تَلاشٍ، ويَأْخُذُهُ هُمودٌ سَحيقٌ. والإيمانُ قُوّةٌ، ولكن سَرعانَ ما تَتَفَلَّلُ حرارَتُهُ في أعْماقِ النَّفْسِ، إذا لم يُرَكِّزْها الأَلَمُ ويُقَرِّبْها من عَمَلِيَّةِ الحياة.

وإنّ حَركاتِ التّاريخِ، برُمَّتِهِ، تَقَعُ بينَ جَواذِبِ الأَلمِ ودَوافِعِهِ، بلْ خُطى

---

(٢) العُبودِيّاتُ الذَّليلَةُ هي عُبودِيَّةُ الإنْسانِ للإنسانِ على أشْكالِها. وأمّا العُبودِيَّةُ للّهِ الّتي جاءَتْ بها الأَدْيانُ فإنّها تَحْريرٌ لِنَفْسِ الإنْسانِ مِن شَتّى العُبوديّاتِ، وإشْعارُها بِكِبْرِياءِ الذّاتِ.

النُّشوءِ للكُلِّ الاجْتِماعيِّ تَنتَظِمُ بينَ هذا الدّفْعِ وهذا الجَذْبِ، وكانتْ أكْبَرُ الحَرَكاتِ لا تَزيدُ، في جَوْهَرِها، عنْ أنّها إيمانٌ بفِكْرَةٍ وألَمٍ في الإيمانِ، وأبَداً لا يَشْتَدُّ الإيمانُ ويَخْطو صُعُداً إلّا إذا قَدَحَ الألَمُ زِنادَهُ، وطايَرَ بالشّرَرِ. وفي مُحيطِ المادّةِ، في مُحيطِ الرّوحِ، نَفْسُ النّاموسِ، فإنّ الجِسْمَ المادّيَّ الضّعيفَ يَلينُ على الألمِ، بينَما الجِسْمُ القَويُّ يَشْتَدُّ ويَهيجُ حتّى يَمْلأَ الفَضاءَ، مُشيراً إلى قُوّتِهِ وأنَّهُ لمْ يَهُنْ.

فإذا كانَ في يَوْمِ بَدْرٍ بَعْضُ الظَّفَرِ، ففي يَوْمِ أُحُدٍ كُلُّ الظَّفَرِ لأنّ الإيمانَ أَحَسَّ بقُوَّتِهِ، وأنّه شيءٌ، وبَدَأ يَخْطو في ذاتِيَّةٍ وٱعْتِداد.

إنْدَفَعَ النّاسُ إلى النّاسِ «يُهَنِّىءُ بَعْضُهُم بَعْضاً» بأنّهُمْ، وإن خَسِروا المَعْرَكَةَ، فَقَدْ رَبحوا الإيمانَ بالمَبادِىءِ، ورَبحوا العَقيدَةَ الّتي ظَهَرَتْ سَلامَتُها، وأنّها رَباطٌ تَسَنّى له أنْ يَجْمَعَ قَلْباً إلى قَلْبٍ ويَمْزُجَ نَفْساً بنَفْسٍ، وأنّه لنْ يتفَلَّلَ على الضَّغْطِ، مهما كانَ عُنْفُوانُه، ومهْما جاءَ مِنه.

ظَهَرَ أنّهُم لا تَجْمَعُهُمْ جامِعَةٌ مِنْ شَهَواتِ الأرْضِ بما ٱكْتَظَّتْ بِهِ مِنْ أهْواءٍ، وٱحْتَفَلَتْ بِهِ مِنْ مَطامِعَ، وإنّما تَجْمَعُهُمْ جامِعَةٌ مِنْ رَغَباتِ السّماءِ، ورَغْبَةُ السّماءِ في تَطْهيرِ ما على الأرْضِ مِنْ شَهَواتٍ وأَرْجاسٍ تَمُور مَوَراناً، وتَسوقُ الجُموعَ الإنْسانيّةَ بعُنْفٍ وقَسْرٍ إلى حَيْثُ لا تكونُ إنْسانِيّتُها، وتَخْسَرُ مَعْناها... وكانتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ تَجْرِبَةً سَعيدَةً لاَخْتِبارِ بِنايَةِ مُحَمَّدٍ الجَديدَةِ في أعْماقِ النُّفوسِ، فقدْ ثَبَتَتْ على العاصِفَةِ الّتي تَمَزَّقَتْ رِياحُها على صَخَراتِ الإيمانِ الشّامِخ.

ما الشّهَواتُ النَّهِمَة؟

ما اللّذائِذُ الدُّنْيا؟

ما البُلَهْنِيَةُ والتَّرَف؟

إنّها لا شيءَ في مَذْهَبِ رَغَباتِهِم الكبيرَةِ، إنّها لا تَمُرُّ بأَفْئِدَتِهِم الّتي بَلْوَرَها السُّمُوُّ بمَعْناهُ القُدْسِيِّ، وحاطَها حتّى لا تَهْوِيَ مُسِفَّةً، وتَرْتَطِمَ بالأَوْحالِ، إنّها أَوْحالٌ من سَفْسافِ الأَرْضِ، فهم يَنْظُرونَ إليها بتَقَزُّزٍ وآسْتِعْلاء.

همْ فِكْرَةٌ مِنَ التّطْهيرِ، وفِكْرَةٌ مِنَ الإصْلاحِ والعُمْرانِ، وصَيَّرَهُمُ الجِهادُ فِكْرَةً مِنَ التّنْظيمِ، فكانوا مُعَلِّمينَ أَطْلَقَهُمُ الإيمانُ الجَديدُ ليحُلّوا في عَقْلِ المُجتَمَعِ المَحمومِ، كما يَحُلُّ الإِكْسيرُ الّذي يَحْمِلُ في مَعْنَى الدّواءِ أَبَدِيَّةَ النّشاطِ، وخُلودَ الحرارَةِ والحَرَكَةِ والحياة.

لم يَكُنْ فَسادُ المُجتَمَعِ بمَعْنى ذاتِهِ، وإنّما كانَ بفِكْرَةِ أَهْوائِهِ الّتي نَفَذَتْ إلى مَحَلِّ الضّمائِرِ وتَمَدَّدَتْ، فَوَقَفَ الفَرْدُ للفَرْدِ، والجَماعَةُ للجَماعَةِ في كُلِّ مَكانٍ، وقَدْ تَمَلَّؤوا بضَراوَةٍ وَحْشِيَّةٍ كالحِقْدِ، وذَهَبَ كُلُّ حَيٍّ يُكافِحُ التّيارَ، والمُجتَمَعُ يَطْفو ويَرْسُبُ في فَوْضى اللُّجَّةِ العاتيةِ النَّكْراء.

لوْ تَأَتّى لأَتْباعِ مُحَمَّدٍ الظَّفَرُ دائِماً لَتَحَوَّلَ الإيمانُ، بدونِ شُعورٍ، إلى فِكْرَةٍ مادّيّةٍ مِنَ الغَنائِمِ والأَسْلابِ، وتَبخَّرَ عليهِمْ مَعْناهُ، ولكنْ شاءَ اللّهُ أنْ يَكونَ جِهادُهُمْ جِهادَ إيمانٍ فقط، فكانَ في ظَفَرِهِمْ وإخْفاقِهِمْ ظَفَرٌ لفِكْرَةِ الإصْلاحِ الّتي يَحْمِلونَها، ذاكَ في التّفَوُّقِ وحَيِّزُهُ الواقِعُ، وهذا في التّركيزِ وحَيِّزُهُ النَّفْسُ.

وقدْ أَظْهَروا أنّهمْ مُؤْمِنونَ فَقَط، آسْتَهْوَتْهُمُ الفِكْرَةُ وأَخَذَتْ عليهِمْ أَحاسيسَهُمْ، وتَفَجَّرَتْ في خَلايا نُفوسِهِمْ يَنابيعَ، فهم لا يَنْدَفِعونَ بِدافِعٍ من شَهْوَةِ النّاسِ في لَذّةِ الحياةِ، بلْ بِدافِعٍ مِنْ تَطَلُّعِ العَقْلِ وشُعورِ القَلْبِ في لَذَّةِ الإيمانِ. وقدْ أرادَ النّبيُّ أنْ يُلَقِّنَهُمْ دَرْساً بالِغاً في أنّ الإيمانَ لا تَظْهَرُ حقيقَتُهُ إلّا في الأَلَمِ، وأنّ الإيمانَ في مَظْهَرِ الغَضارَةِ الرَّخِيَّةِ إيمانٌ بَليدٌ مُنْحَلٌّ، أو لَيْسَ شيئاً خالِداً في شُعورِ النَّفْس.

«أَذَّنَ مُؤَذِّنُ رَسولِ اللّهِ، غَداةَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ أُحُدٍ، بالخُروجِ في طَلَبِ العَدُوِّ، وأنْ لا يَخْرُجَ إلّا من حَضَرَ مَعْرَكَةَ الأَمْسِ، وأَتْباعُهُ مُثْخَنونَ بالجِراح.

قالَ رَجُلٌ مِنْ بَني عَبْدِ الأَشْهَلِ لأخيهِ: أَتَفوتُنا غَزْوَةٌ مَعَ رَسولِ اللّهِ؟... وَوَاللّهِ ما لَنا دابَّةٌ نَرْكَبُها، وما مِنّا إلّا جريحٌ ثَقيلٌ. فَخَرَجْنا وكُنْتُ أَيْسَرَ جُرْحاً منهُ، فكانَ إذا غُلِبَ حَمَلْتُهُ عُقْبَةً ومَشى عُقْبَةً، حتّى آنتهَيْنا إلى ما آنتَهى إليهِ المُسْلمونَ. وكانَ النّبيُّ قدِ آنتَهى إلى حَمْراءِ الأَسَدِ، وهي مِنَ المَدينَةِ على ثمانيَةِ أَمْيالٍ، وأَقامَ بها الإِثْنَيْنِ، والثُّلاثاءَ والأَرْبعاءَ»[٣].

كانَ رَجْعُ الأَلَمِ في الإيمانِ هَبَّةً لا تَعْرِفُ الوَنى، ولا تَتَّصِلُ بالفُتورِ والاسْتِخْذاءِ، إنّها آنطَلَقَتْ أَشَدَّ مَضاءً وأَكْثَرَ آندِفاعاً، فقدْ أَحَسَّتِ القُوَّةَ بآعْتِدادِيَّتِها، وغَمَرَتْها مَوْجَةُ الكِبْرِياءِ لأَنّهمْ تَحَدَّوْها وآسْتَثاروها، والقُوَّةُ، إذا آسْتُثيرَتْ، تَنْتَشِرُ طاقاتٍ في أُخرى أَكْبَرَ مِنْها، حتّى تَسُدَّ الآفاقَ وتَمْلأَ أَقْطارَ الفَضاءِ، كمادّةِ الفَحْمِ وفيها مَخْزونٌ مِنَ القُوّةِ، تَعْلَقُ بها شَرارَةٌ وتَتَّصِلُ حتّى تُؤَجِّجَ بالشَّرَرَ.

قالتِ الإِنْسانيّةُ الجَديدَةُ، بعدَ التّحَدّي وآنتِظارِ الرَّجْعِ، (أنا) وهيَ شامِخَةٌ بمَعْناها، وَوَلَّتِ الإِنْسانيّةُ العَتيقَةُ المُتَهَرِّئَةُ مُتَساقِطَةً مُتوارِدَةً إلى أَوْكارِها، وهيَ شامِخَةٌ بخَيالِ المَعْنى الضّائِعِ والمُصادَفَةِ العارِضَةِ، كالّذي تَعْثُرُ بهِ قَدَمُهُ فَيَهْوي إلى حَفيرٍ فيهِ كَنْزٌ، فإنّه يُحِسُّ بالارْتِياحِ إلى ما صادَفَ من الثَّرْوَةِ، ولكنّهُ لا يُحِسُّ أبداً بفَخارِ الثَّرْوَةِ، لأنّها لا تَتَّصِلُ بذاتِهِ آتّصالَ الإِيجادِ، وإنّما تَتَّصِلُ بأَطْماعِهِ آتّصالَ الرَّغْبَةِ بما يُثيرُها ويُحَرِّكُها.

وكانَ الفَرْقُ بينَ الشّاعِرِ بمَعْناه، والغائِضِ فيهِ مَعْناه، كالفَرْقِ بينَ مَنْ يَسْقُطُ

---

(٣) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٠.

في حَفيرٍ فَيَنْسى الأَلَمَ، ويَشْتَدُّ في إحساسِ أنّهُ لم يَزَلْ حيّاً وسَيُعيدُ التّجْرِبَةَ، أو يَطْمَئِنُّ في إحْساسِ أنّهُ حَيٌّ بحَياةِ المَبْدَأِ الّذي قَضى دونَهُ... وبينَ مَنْ يَسْقُطُ في حَفيرٍ فَينسى الحَياةَ والقُوّةَ، ويَهونُ في إحساسِ جِراحاتِهِ وكُسورِهِ، أو يَيأَسُ في إحْساسِ أنّهُ مُضْغَةٌ بينَ فَكّي العَدَمِ الصّامِتِ. فأوَّلُهُما يَطْرُدُ ضَعْفاً بقُوَّةٍ، وثانيهما يُضيفُ ضَعْفاً إلى ضَعْفٍ... ومَرَّ على مَسْرَحِ أُحُدٍ صورَةُ هذيْنِ الرّجُلَيْنِ:

«أَرْسَلَ النّبيُّ مَنْ يَبْحَثُ عَنْ سَعْدِ بْنِ الرّبيعِ، أفي الأَحياءِ هو، أم في الأمْواتِ؟... فَنَظَرَ فَوَجَدَهُ جَريحاً وبهِ رَمَقٌ في القَتْلى.

فقالَ لهُ: إنّ رَسولَ اللّهِ أَمَرَني أنْ أنْظُرَ أفي الأحْياءِ أنتَ أم في الأمْواتِ.

قالَ: أنا في الأمْواتِ. فَأَبْلِغْ رَسولَ اللّهِ عَنّي السّلامَ، وقُلْ لهُ إنّ سَعْدَ بْنَ الرّبيعِ يقولُ لكَ: جَزاكَ اللّهُ عنّا خَيْرَ ما جَزى نَبيّاً عنْ أُمَّتِهِ. وأَبْلِغْ قَوْمَكَ عنّي السّلامَ، وقُلْ لهمْ: إنّ سَعْداً يقولُ: ألا إنّهُ لا عُذْرَ لكمْ عِنْدَ اللّهِ إنْ خُلِصَ إلى نَبيِّكُمْ وفيكُم عينٌ تَطْرُف»[٤].

كَلِماتٌ كُلُّها يَقينٌ وآطْمِئْنانٌ ورِضاً بهذا المَصيرِ، وهذهِ النّهاية الّتي يُحِسُّ أنّها كَبيرةٌ خالِدَةٌ.

«قاتَلَ قُزْمانُ قِتالاً شَديداً فَقَتَلَ، وَحْدَهُ، ثمانيةً أوْ سَبْعَةً مِنَ المُشْرِكينَ، وكانَ ذا بَأْسٍ فَأَثْبَتَتْهُ الجِراحَةُ. فَآحْتُمِلَ إلى دارِ بَني ظَفَرٍ، فَجَعَلَ رِجالٌ من المُسلِمينَ يقولونَ له:

واللّهِ لَقَدْ أَبْلَيْتَ اليَوْمَ يا قُزْمانُ فأَبْشِرْ.

قالَ: بِماذا أُبْشِرُ، فَوَاللّهِ إنْ قاتَلْتُ إلّا عنْ أحْسابِ قَوْمي... فَلَمّا آشْتَدَّتْ عليهِ جِراحَتُهُ أَخَذَ سَهْماً من كِنانَتِهِ فَقَتَل به نَفْسَه»[٥].

---

(٤) راجعْ: **سيرة ابن هشام**، ح ٢، ص ٨٦ .

(٥) راجعْ: **سيرة ابن هشام**، ج ٢، ص ٨٢ .

وسَدَلَ التّاريخُ من دونِهما سِتارَهُ وأعْلَنَ هذهِ الحَقيقَةَ: قَضى أَوَّلُهما دون فِكْرَةِ العَقيدَةِ فكانَ بَطَلاً وتَلَفَّعَ بالخُلودِ؛ وقَضَى ثانيهما دونَ فِكْرَةِ الأحْقادِ ونَزَغاتِ الأعْصابِ فآنحَلَّ بآنحِلالِها، وتَلَفَّعَ بالعَدَمِ.

وَقَفَ النّبيُّ وأصحابُهُ في حَمْراءِ الأسدِ وِقْفَةَ الأسَدِ في وَثْبَتِهِ الحَمْراءِ، وتَحَدّى طَويلاً، ورَجَّعَ الفَضاءُ دَوِيَّهُ الرّهيبَ، وصَمَتَ كُلُّ شَيءٍ، وبَقِيَ الصَّدى يُعْلِنُ غَلَبَةَ الإنْسانِ الجديد.

لَفَّتِ المَدينَةَ أيّامٌ لم يَكُنْ فيها من سَوادِ الأسى أَثَرٌ كَبيرٌ، وهي إلى أنّها أيّامُ تَأْبينٍ أَقْرَبُ مِنْها إلى أنّها أيّامُ أَحْزانٍ ودُموعٍ، على أنّ مِنَ الحُزْنِ ما هُو بَهيجٌ وَليدُ شُعورٍ بالإعْجابِ، ومِنَ الدّمْعِ ما هو ضاحِكٌ وليدُ شُعورٍ بالأمَلِ.

حينَ شاعَ الإيمانُ، بمَعْناه الهُياميِّ في النّاسِ، شاعَتِ البُطولَةُ بمَعْناها الرّائِعِ في الرِّجالِ والنِّساءِ جميعاً، وأعْطَوْا صُوَراً خالِدَةً تُضافُ إلى أشْياء التّاريخِ الكبيرَةِ. فكانَ لنا مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، أبْطالٌ في شَخْصِ الشُّهَداءِ كحَمْزَةَ، وأبْطالٌ في شَخْصِ الأحْياءِ كعَليٍّ، وأبْطالٌ في شَخْصِ النِّساءِ كنُسَيْبَةَ المازِنيّةِ(٦)، حتّى الطّفولَةُ(٧) لم يَفُتْها نَصيبٌ من البُطولَةِ...

في ظِلالِ النّخيلِ الّتي بَدَتْ واجِمَةً في إطْراقَةِ الحالِمِ، كانَ الشّاعِرُ يَسْتَوْحي ويَسْتَلْهِمُ، وجَرَتْ على خَدَّيْ حَسّانِ بنِ ثابتٍ عَبَراتُ الإعْجابِ الّذي آتَّصَلَ

---

(٦) كانَ مِن قِصَّتِها أنّها خَرَجَتْ، في يَوْمِ أُحُدٍ، ومعَها سِقاءٌ تَسْقي منهُ الجَرْحى والرّيحُ للمُسْلِمينَ، فلَمّا هَبَّتْ عليهِمْ آنحازَتْ إلى النّبيِّ، وباشَرَتِ القِتالَ عنهُ تَذُبُّ بالسَّيْفِ وتَرْمي عنِ القَوْسِ، حتّى حَصَلَتِ الجِراحَةُ لها، وفيها قالَ النّبيُّ: «ما آلتَفَتُّ يَميناً ولا شِمالاً يَوْمَ أُحُدٍ إلّا وَرَأَيْتُها تُقاتِلُ دوني» راجع: **السيرة الحلبية**، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٧) قُتِلَ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ لَمّا رَدَّهُ النّبيُّ يَوْمَ أُحُدٍ لِصِغَرِ سِنِّهِ، وأجازَ رافِعَ بْنَ خُدَيْجٍ، قالَ لِزَوْجِ أُمِّهِ: أجازَ النّبيُّ رافِعاً وأنا أَصْرَعُهُ، فقالَ النّبيُّ: تَصارَعا فَصَرَعَهُ، فأجازَهُ وضَمَّهُ إلى الجَيْشِ. راجع: **السيرة الحلبية**، ج ٢، ص ٢٢٠.

بعاطِفَةٍ مُلْتاعَةٍ مَحْزونَةٍ، وكانَتْ نَفْسُهُ مُكْتَظَّةً بِمَشاعِرَ شَتّى، اكْتِظاظَ اليَوْمِ الغابرِ بالرّوائِعِ الخالِدَةِ، ومَرَّتْ به نَسَماتٌ أجاشَتْ عليهِ شاعِرِيَّتَهُ، فَأَطْلقها على هَيْئَتِها في كُلِّ مَجالٍ.

لقدْ كانَ هذا اليَوْمُ مادَّةَ المَلْحَمَةِ العَرَبِيّةِ المَفْقودَةِ، لو تَأَتّى لِشاعِرٍ خالِدٍ أنْ يَسْتَلْهِمَهُ، ويُبْرِزَ ما قَدْ طَفا على سَطْحِهِ من رَوائِعَ، يَنْقُلُها نَقْلاً أَميناً لا تَقِلُّ عن رَوْعَةِ واقِعِها. فإنّ مَلْحَمَةً تَكونُ مادَّتُها هذا اليَوْمَ تَظَلُّ، بِدونِ رَيْبٍ، أداةَ بَعْثٍ في كُلِّ يَوْمٍ من أيّامِ العَرَبِ والمُسْلِمينَ، وتَتَجَدَّدُ كُلّما جَدَّدَ العَرَبُ والمُسْلِمونَ حَرَكاتِ الانْبِعاثِ وعَزْمَةَ النُّهوضِ، وكانَ أبْرزَ ما تَرَكَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ هذهِ الحقائِقُ:

إنَّ نَجاحَ الأعْصابِ في الكِفاحِ على مِقْدارِ نَجاحِ الإيمانِ مِنَ السَّيْطَرَةِ، وإنّ قيمَةَ الكِفاحِ على مِقْدارِ قيمَةِ الفِكْرَةِ الّتي يَحْتَدِمُ مِنْ أجْلِ تَرْكيزِها، وإنّ الكِفاحَ الظّافِرَ لا يكونُ إلّا حَيْثُ تكونُ العَقيدةُ الصّليبَةُ، وإذا لم يَكُنِ الإيمانُ فلا يَزيدُ الكِفاحُ عنْ أنّه فَوْرَةٌ مُتَراجِعَةٌ، وحَرَكَةٌ مُحْتَضَرَةٌ، ولا يَزيدُ هذا البَعْثُ عنْ أنّه بَعْثٌ فيهِ بُرودَةُ المَوْتِ ومَغْزى الانْحِلال.

وطَلَعَ عليهِ، وهو في لَذَّةِ إنْشائِهِ وإنْشادِهِ، الحَجّاجُ بْنُ عِلاطٍ السَّلَميُّ، وكانَ شاعِراً مَفْتونَ الشّاعِرِيَّةِ بِبُطولَةِ عليٍّ يَوْمَ أُحُدٍ، فراحَ يَفْتَنُّ بِأَلْوانِها ويَتَغَنّى بآياتِها. فَأَوْسَعَ له حَسّانٌ في مَجْلِسِه، وقال:

كُنْتُ أَشْتَهي لِقاءَكَ مُنْذُ اليَومِ، وأَحْسَبُ ما يُقالُ، مِنْ أنّ في قُلوبِ الأخلّاءِ آذاناً تَتَّصِلُ بكُلِّ ما في النَّفْسِ من رَغَباتٍ وخَلَجاتٍ، وتُحِسُّ بها لِحينها، حَقيقيّاً جِدّاً.

فقالَ السَّلَميُّ في دُعابَةٍ مُفْتَرَّةٍ: ولا سِيَّما إذا كانَ الأمْرُ بَيْنَ شاعِرَيْنِ شَيْطاناهما أَلْمَعِيّانِ.

فلمْ يَبْدُ على حَسّانٍ ما كانَ يَنتَظِرُ مِنْ أَثَرِ الدُّعابَةِ العارِضَةِ، وإنّما أخَذَهُ إطْراقٌ

خاشِعٌ، حتّى لقد أَحَسَّ السُّلَميُّ أنّه لا يُشارِكُهُ المَجلِسَ والحَديث.

فقالَ له: ما بكَ؟ أراكَ كالمأخوذِ عَنْ نَفْسِه!

قالَ حسّانٌ: تَعاظَمَني يَوْمُ أُحُدٍ بتَهاويلِهِ، حتّى لقدْ ضاقَتْ شاعِرِيّتي بِبَعْضِ ما جَمَعَ، وأحْسَبُ أنّ القَوْلَ فيهِ إلْهامٌ من الإلْهامِ، وليسَ شِعْراً من الشِّعْرِ. أمَا بَلَغَكَ نَبأُ مُخَيْريق؟

قالَ السُّلَميُّ: أنبأُ إسْلامِهِ الّذي فاجأَ به مُنْذُ حينٍ غيرِ بَعيدٍ؟

قالَ حَسّانٌ: كلّا، ولكنْ نَبأُ آسْتِشْهادِهِ الرّائِعِ الّذي جَعَلَ نَفْسي، وكلَّ نَفْسٍ، تَذْهَبُ في الدَّهْشَةِ كُلَّ مَذْهَب.

قالَ السُّلَميّ: ماذا تقولُ؟!

قالَ حَسّانٌ: نَعَمْ! إنّهُ آسْتَبْسَلَ دونَ العَقيدَةِ الّتي عَهِدَها جَديدَةً في قَلْبِهِ، آسْتِشْهادَ مَنْ يُريدُ المَوْتَ أوِ الحَياةَ في دُنْيا الفِكْرِ الجديد.

قالَ السُّلَميُّ: عَجيبٌ أنتَ يا مُحَمَّدُ. وعجيبٌ إيمانُكَ الّذي يَقْتَلِعُ رَسيسَ النَّفْسِ، بَلِ النَّفْسَ، من أقْطارِها ونَواحيها حتّى لا يُحِسَّ المَرْءُ بشيءٍ وَراءَ مَعْناه.

ونَهَضَ الرَّجُلانِ في آسْتِغْراقِ الشّاعِرِ حتّى أفْضَيا إلى الحَيّ، وما آنتَبَها إلّا على حَديثِ النّاسِ «إنّ النّبيَّ لمّا آنتهى إلى أهْلِهِ ناوَلَ سَيْفَهُ آبْنَتَهُ، فقالَ: آغْسِلي عنْ هذا دَمَهُ يا بُنَيّةُ فَوَاللّهِ لقدْ صَدَقَني اليَوْمَ... وناوَلَها عَليُّ بْنُ أبي طالِبٍ سَيْفَهُ، فقالَ: وهذا أيْضاً فآغْسِلي عنْهُ دَمَهُ فَوَاللّهِ لقدْ صَدَقَ اليَوْمَ رَسولَ اللّهِ... فقالَ النّبيُّ: وصَدَقَ اليَوْمَ القِتالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وأبو دُجانَة».

كانَتْ فاطِمَةُ تَمُرُّ بها هذهِ الأحْداثُ وهي بمَرْأىً ومَسْمَعٍ، وفي أحْشائِها[8]

---

(٨) لا يُظَنَّ أنّ هذا القَوْلَ يَدْخُلُ في حَدّ الخَيالِ الشِّعْريّ، بل هو حَقيقَةٌ نَفْسِيّةٌ تَثْبُتُ على البَحْثِ الجَديد، فقدْ قَرّرَ العُلماءُ وِراثَةَ الجَنينِ لِكُلّ ما يَخْتَلِفُ ويَتَراوَحُ على الأُمّ في دَوْرِ الحَمْلِ مِنْ تأثُّراتٍ ومَشاعِرَ وإحْساسات.

رُوحٌ جَديدَةٌ تتآلَفُ أمْشاجُها، فكانَ في جُمْلَةِ عناصِرِها، بل أكْبَرَ عناصِرِها، عُنْصُرُ التَّضْحِيَةِ الدّامِيَةِ للفِكْرَةِ والعَقيدَة.

وَقفتْ فاطِمَةُ تُزيلُ أَثَرَ الدِّماءِ وقدْ ضَمَّتْ سيفاً إلى سيفٍ، أيْ[٩] قُوَّةً إلى قُوّةٍ، فإنّ السَّيْفَ رَمْزُ العَزْمِ على العَمَلِ، وكانَ مَعْناهُ أنّ سَيْفَ العَقيدَةِ مُصْلَتٌ في مَدى سَيْفِ المَبادِىءِ، وأنّهُما معاً يَنْجَحانِ جَميعاً. فأَحَدُهُما سيفُ المَبادِىءِ، وفِعْلُهُ في الفِكْرِ، وثانِيهما سَيْفُ العَقيدَةِ، وفِعْلُه في المُجْتَمَعِ، وبهِما تَتَكَوَّنُ الرّوحِيّةُ العامّةُ الظّافِرَةُ، فكُلٌّ منْهُما يَكونُ في حاجَةِ الآخَرِ، وهُما جميعاً في حاجَةِ الأُمّةِ إذا أُريدَ خَلْقُها أوْ بَعْثُها من جَديدٍ. فالنّبيُّ حينَما خَلَقَ الأُمّةَ جَرى على هذا الطّريقِ، ونحنُ، حينَما نُريدُ تَجْديدَ الأُمّةِ، نَجْري على نَفْسِ الطّريق.

ضَمَّتْ فاطِمَةُ سَيْفاً إلى سَيْفٍ، وكانَ مَعْناهُ أنّ حَرَكاتِ الخَلْقِ لا تَنْجَحُ إلّا بقُوّةِ الفِكْرَةِ وقُوّةِ التّضْحِيَةِ لها. وكانَ مَعْنى إصْلاتِ النّبيِّ سَيْفَهُ أنّ صاحِبَ الفِكْرَةِ يَنْبَغي أنْ يَكونَ أشَدَّ المُؤْمِنينَ بها، والمكافِحينَ من أجْلِها، ولوْ على أَمَرِّ صُورَةٍ.

فَنَحْنُ نُجِلُّ مُحَمّداً لِرِسالَتِهِ إلى حَدٍّ كَبيرٍ، ونُجِلُّ مُحَمّداً لِكِفاحِهِ وآسْتِبْسالِهِ وآلامِهِ في سَبيلِها، إجْلالاً غيرَ مَحْدودٍ، فإنَّ الّذي يُعْطي فِكْرَةً ولا يُوقِفُ كُلَّ أشْياءِ حِسِّهِ ونَفْسِهِ عليْها، جِهاداً وتَضْحِيَةً، يُبَلْبِلُ فِكْرَ الجَماعَةِ ثُمّ لا يُنْقِذُ المُجتَمَعَ، بلْ يَزيدُ في مَعْنى دائِهِ، فإنّ فِكْرَةَ الإصْلاحِ لا تَكونُ شَيْئاً نَبيلاً إذا لم يَجْعَلْها الكِفاحُ كُلَّ شيءٍ.

إنّ الفِكْرَةَ قدْ تُشيرُ إلى آمْتِيازِ مُلْهِمِها، ولكنّها لا تُشيرُ إلى خُلودِهِ إلّا إذا تَحَمَّلَ آلامَها. وقدْ بارَكَ اللّهُ آلامَ مُحَمَّدٍ الخالِدِ حينَ أَدّى رِسالَتَهُ، وحَمَلَ ثِقْلَ الكِفاحِ

---

(٩) إنَّ السَّيفَ في كلامِنا رَمْزِيٌّ بَحتٌ، يُشيرُ إلى القُوّةِ، فَسَيْفُ النَّبيِّ رَمْزٌ لِقُوّةِ المَبادِىءِ، وسَيْفُ عَليٍّ رَمْزٌ لِقُوّةِ العَقيدَةِ. ولا يُتَوَهَمَنَّ أنّ كلامَنا يَدورُ على السَّيْفِ، الآلَةِ المحدَّدَةِ، بلْ نَعْني القُوّةَ الأَدَبِيّةَ. هذا التَّنبيهُ لكي لا يَتَوَهَّمَ البُسَطاءُ أنّ الإسْلامَ كانَتْ قاعِدَتُهُ السَّيْفَ، وإنّنا نُهيبُ بالنّاسِ إلى نَهْضَةِ السَّيْفُ قاعِدَتُها.

والجِهادِ «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ، الّذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ»... والوِزْرُ في الآيةِ بمَعْنى الثِّقْلِ، وهو ثِقْلُ آلامِ الكِفاحِ بسَبيلِ الرِّسالَةِ الجَديدَةِ.

وكانَ وَضْعُ الثِّقْلِ عنْه إعْلاناً بأنّ إنْسانيَّةَ مُحَمَّدٍ أخَذَتْ طَريقَ نَجاحِها، وقامَتْ على قاعِدَتِها، ونَفَتْ مَرارَةُ الدَّواءِ أَلَمَ الدّاءِ المُصْمِتِ الجَهيد...

بعدَ حينٍ، تَراءى أُحُدٌ للنّبيِّ من بَعيدٍ، فأثارَ فيهِ ذِكْرياتٍ عَذْبَةً بأَشْيائِها الكَبيرَةِ، وأطْيافِها اللاّمِعَةِ الرّائِعَةِ...

وكانتْ هذهِ الذِّكْرياتُ قَدِ آسْتِحالَتْ إلى حَنينٍ فَحُبٍّ، جَعلاهُ رَمْزاً مِنْ رُموزِ الانْبِعاثِ والانقِلابِ والتَّجْديدِ في ضَميرِ المُؤْمِنينَ الشّاعِرين...

فقالَ النّبيُّ يُكْرِمُهُ «إنّ أُحُداً جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ»، يُحِبُّنا لأنَّهُ رَضِيَ عَنِ آسْتِبْسالِنا وثَباتِنا، ونُحِبُّهُ لأنَّهُ رَمْزُ هذا الاسْتِبْسالِ وهذا الثَّباتِ...

وكأنّ النّبيَّ «دَشَّنَ» بهذا المَقالِ في أُحُدٍ تِمْثالَ الإيمانِ الشّامِخ...

*

كانَ يَوْمُ أُحُدٍ يَوْمَ الشُّهَداءِ...

والشّهيدُ، في سَبيلِ أُمّةٍ، ذِكْرى حَيّةٌ في ضَميرِها، ومادّةٌ هامّةٌ في كِبْرياءِ مَجْدِها...

فيومُ أُحُدٍ يَوْمُ الذِّكْرياتِ الحَيَّةِ الخالِدَةِ، ولذلكَ أَحَبَّهُ النّبيُّ، ونَحْنُ نُحِبُّهُ ولا نَنْسى عِظَتَهُ النّاطِقَةَ في الضّميرِ!...

إسْتَحالَ يَوْمُ أُحُدٍ إلى ذِكْرى مِنَ الرّوائِعِ...

وآسْتَحالَتِ الذِّكْرى إلى حُبٍّ وهُيامٍ بالأمْجادِ، ما دامَ على الأرْضِ عَرَبٌ أوْ مُسْلِمونَ...

وأَبْرَزَ الغَيْبُ، بعدَ ذلكَ، روحاً جَديدَةً، جَمَعَتْ طائِفَةَ هذِهِ المَعاني وسَمّاها النَّبِيُّ حُسَيْناً...

ودارَ الزَّمَنُ دَوْرَةً قَصيرَةً، وثارَ الحُسَيْنُ وصَوْتُ الحَقِّ يُدَوّي في صَوْتِهِ المُرْسَل...

وٱنْطَلَقَ النّاسُ يقولُ بعْضُهم لبَعْض:

تَحَرَّكَ اليَوْمَ أُحُدٌ مَرَّةً أُخْرى، وثارَ بُرْكانُ الإِصْلاحِ يُزَلْزِلُ بالحِمَم!...

* * *

يوم الميلاد

تَنادَتْ نِساءُ الحَيِّ أنّ فاطِمَةَ جاءَها المَخاضُ، وكُنَّ يُلْمِمْنَ بدارِها كَوْكَباتٍ كَوْكَباتٍ، ويَنْتَظِمْنَ هُنا وهُناكَ كما شاءَ المَجْلِسُ لهُنّ. ومَرَّتْ لَحَظاتٌ أَخَذَتْ عَلَيْهِنّ كُلَّ ما كانَ يَبدو مِنْ حَرَكاتٍ شاءَها الظَّرْفُ والبِشْرُ، وشَمَلَهُنَّ صُموتٌ خاشِعٌ فيهِ بادِيَةُ الحَذَرِ، حتّى لَيُخَيَّلُ للنّاظِرِ أنّهنّ دُمىً مُجَنَّحَةٌ تَطْمَحُ إلى شيءٍ في غَيْرِ مَرْأى العَيْنِ.

وكانَتْ مَيْمونَةُ أختُ بِنْتِ عُمَيْسٍ وَحْدَها تُرى غادِيَةً رائِحَةً، ومَرَّ خاطِرٌ أَنْكَرَتْ معهُ مَوْضِعَها. فَقَدْ تراءى لها أنّها في مَعْبَدٍ آكْتَظَّ بالمُجَنَّحاتِ الّتي تُطِلُّ في صُوَرِها ملائِكُ في فَرْحَةٍ خاشِعَةٍ.

وسَبَحَتْ معَ خاطِرِها وراحَتْ في مَقْعَدِ الأحْلامِ، حتّى لَقَدِ آنفَصَلَتْ فَوْقَ حُدودِ الزّمانِ والمكانِ، فكانَ لها عالَمُها الجَديدُ الّذي يُغاديها بُرؤىً يَقْظى على خُيوطِ النّور.

حَسِبَتْ كُلَّ شَيءٍ واقِعاً، وحَسِبَتْ أنّها تَغْدو وتَروحُ في عالَمِ ما تَرى. إنّها أحَسَّتْ بلَذاذاتِهِ طافِحَةً حتّى لقدْ غَمَرتْها.

لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ هذا حُلُماً، إنّه لأَكْبَرُ مِنَ الحُلُمِ في مَذْهَبِ الحِسِّ البادي... هكذا تَناجَتْ في حَديثِ نَفْسِها حينَما أَنْبَهَتْها زَغْرَداتُ النِّساءِ الّتي

بَدَأَتْ هَمَساتٍ حُلْوَةً ناعِمَةً:

فقدْ أَسْلَمَتْ فاطِمَةُ وَليدَها...

ولكنْ أينَ ما كُنْتُ أَرى؟ أيْنَ هو أو أيْنَ أنا؟! لَسْتُ، لَسْتُ أدْري. أحْسَبُني في مَعْرِضِ العجائِبِ. أَحْسَبُني في عُرْسِ الأمْلاكِ. حَقّاً إنّ للإنْسانِ عَوالِمَ شَتّى، وهو يَعيشُ في أَقَلِّها تَطْرِيَةً، أو يَجْعَلُها واقِعُ الزّمانِ والمكانِ أَقَلَّ تَطْرِيَةً وبَهَجاتٍ. هُناكَ في غَيْرِ واقِعِ الزّمانِ والمكانِ يُحِسُّ الإنْسانُ بالأشْياءِ مُكَبَّرَةً، ويَتَّصِلُ بكُلِّيّاتِ مَعانيها لأنّهُ يُحِسُّ بكُلِّ نَفْسِهِ، وأمّا هُنا فإنّه يُحِسُّ ببَعْضِ نَفْسِهِ على مِقْدارِ ما يَسَعُ الواقِعُ الجامِدُ، ويَبْقى كُلُّ النَّفْسِ ظامِئاً.

لمْ يَكُنْ ما رَأَيْتُ حُلُماً؟! إنّه خالَطَني حتّى لأَلْمُسُهُ. نَعَمْ. نَعَمْ. لقدْ أَدْرَكْتُ الآنَ، والآنَ فَقَطْ، سِرَّ النُّبوّاتِ، وسِرَّ القَداساتِ، وسِرَّ الإلْهامِ والهُيامِ في الفِكْرِ والفَنِّ والأشْياءِ... وإنْ يَكُنْ حُلُماً فَلَيتَني أَظَلُّ حالِمَةً، ولكنْ هَيْهاتَ أنْ يَكونَ في كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ وَليدِ فاطِمَةَ، أَرى على وَجْهِهِ أو أحْلُمُ... هكذا كانتْ تَقُول بينَها وبينَ نَفْسِها قَبْلَ أنِ آنـطَلَقَتْ وغابَتْ في الجُموعِ المائِجَةِ الفَرِحَةِ، وضاعَ وَقْعُ خُطاها في الرّنينِ الضّاحِكِ...

كانَ جَميلاً كخَفْقَةِ الضَّوْءِ، وبَهِيّاً كقَطْرَةِ النَّدى وقدْ تَحاضَنَتْها أكْمامُ الزَّهْرِ، حتّى لَكَأَنّها في جَوِّ أَحْلامٍ ذابَتْ فيهِ النَّشَواتُ، وآسْتَحالَتْ إلى أريجٍ تُهَدْهِدهُ أيْدي النَّسيمِ، وكانَ لألاءً كَزَنْبَقَةِ الغَوْرِ وقَدْ مَصَّتْ إشْراقَةَ الغُروبِ الّتي خَلَّفَتْ فيها الشَّمْسُ ذِكْراها السَّعيدَةَ إلى اللَّيْلِ، وكانَ مِلْءَ العَيْنِ والهَوى، حتّى لقدْ قُلْنَ: إنّ الجَمالَ آخْتُصِرَ بِهِ، أو إنّ سَنا الوُجودِ المُفرَّقَ جُمِعَ عليهِ، وكانَتْ تَحوطُهُ، إلى ذلكَ، هالَةٌ مُشِعَّةٌ، فيها جَلالُ النُّبوَّةِ وجَمالُ الطُّهْرِ البَرِيءِ، وكان عابِقاً كأنّ السَّماءَ آطَّلَعَتْ على الأرْضِ بالأريجِ.

خَرَجَ الحُضورُ عن صُموتِهِم، وغَمَرَتِ الأثيرَ مَوْجَةُ بِشْرٍ ظاهِرَةٌ خَفَقَ لها خَفَقاتٍ كانَتْ مُؤْذِنَةً بالوَليدِ السّعيد...

بَرَزَ النّبيُّ (ص) وَسَطَ الجُموعِ كَما تَبْرُزُ المَنارَةُ وَسَطَ الضَّبابِ، هادِيَةً بشُعاعَتِها المُسْتَطيلَةِ في آنبثاقٍ وتَدَفُّقٍ، وأَخَذَ وَليدَهُ السَّنيَّ بِيَدَيْنِ كانتْ حَرَكاتُ أناملِهِما تُعَبِّرُ عَنْ فَرْطِ السُّرورِ، وَحَنا عليهِ حُنُوَّ المُرْضِعِ يَهْمِسُ في أُذُنِهِ كَلِمَةَ الإسْلامِ الشّامِخَةَ «اللّهُ أَكْبَرُ! اللّهُ أَكْبَر!».

وغامَ على مَيْمونَةَ، فقدْ كانَتِ اليَوْمَ في حَساسِيّةٍ جِدّ نافِذَةٍ. وشَعَرَتْ حِيالَ هذا المَشْهَدِ أنّ الأَحْياءَ بنَزَعاتِهِمْ هُمْ ضَبابُ الحَياةِ، وكَثيراً ما يَكونُ مُطْبِقاً داكِناً، حتّى لَتَبْدو الحَياةُ نَفْسُها كُرَةً من الضَّبابِ، تَدورُ في مِثْلِ حَرَكَةِ الإعصْارِ هادِرَةً بِما فيها مِنَ الأهْواءِ. ولكنَّ الشّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ ورائِها فتُبَخِّرُ ما آسْتَوى فيها وتَراكَبَ علَيْها وعَلِقَ بأَنحائِها، وتَمُدُّها بمَعْنى الضِّياءِ فَتَغْدو مُزْدَهِيَةً مُتَأَلِّقَةً، ويَخْشَعُ الإنْسانُ عندَها في مِحْرابِ اللّهِ الأزَليِّ. إنّه خَرَجَ من التّيهِ، ونَفَضَ غُبارَ البَيْداءِ، وآسْتَعْلى على السَّراب.

أُفٍّ... للّذينِ يَظُنّونَ أنّ الحَياةَ ضَبابٌ مُنْتَشِرٌ في آفاقِ هذا الوُجودِ، والإنْسانُ يَطْفو ويَرْسُبُ مُغْمَضَ العَيْنَيْنِ... إنّ وُجودَهُمْ لم تُشْرِقْ عليهِ هذهِ الشَّمسُ الّتي تَغْمُرُنا بشُعاعِها، إنّ صورَةَ الحَياةِ في خَيالِ الأَعْمى مَلأى بالظَّلامِ، وفي خَيالِ الأعْشى مَليئَةٌ بالرَّمادِ أوِ الضَّبابِ، ولكنْ هَلِ الحياةُ كما تَنْعَكِسُ في مَرائيهِمِ المُتَحَجِّبَةِ؟ إنّ شَمْسَ النّبُوّةِ، وفيها المَعْنى الأتَـمُّ المُشْرِقُ للإنْسانيّةِ والحَياةِ، لم تَسْطَعْ في سَماوَةِ فَضائِهِم.

هنا، وفي هذا المكانِ، أَجِدُ حَقيقَةَ الحياةِ العارِيَةَ تَحْتَ يَنْبوعِ النُّبوَّةِ وشُعاعَتِها الخالِدَةِ... هُنا، وفي هذا المكانِ، حيثُ يُبارِكُ النّبيُّ إنْسانيّةً جَديدَةً ويَتَفرّعُ منه رافِدٌ نَميرٌ وتَمَدُّ فَوّارٌ في صُلْبِ الإنْسانيّةِ الحَيَّةِ، في دِمائِها المُنْصَبّةِ إلى بُحَيْرَةِ المُسْتَقْبَلِ

البَعيدِ القَرارِ، يَجِدُ الظِّماءُ ما يُبَرِّدُ حَرارَةَ عُقولِهِمْ وقُلوبِهِمْ، يَجِدونَ اليَنبوعَ الّذي حَجَبَهُمْ عنهُ سَرابُ الفِكْرِ المَدْخول...

قالَ قائِلٌ في الظَّلام ـ والنّاسُ يَخْرُجُ أحَدُهُم في إِثْرِ الآخَرِ ـ إيه أبا رافِع... ورَبَتَ على كَتِفِهِ: أرَأَيْتَ أعْجَبَ مِنَ اليَوْمِ، النّبيُّ يُسِرُّ في أُذُنِ الوَليدِ وكَأَنّهُ يَقولُ شيئاً!...

قالَ أبو رافِعٍ: نَعَمْ. إنّه «أَذَّنَ في أُذُنِهِ كَما يُؤَذِّنُ للصّلاةِ».

قالَ الرَّجُلُ: ولكنْ أَترَى أنّ لهُ نَفْساً مُدْرِكَةً تَعي ما يُقالُ لها وما تُخاطَبُ بِهِ؟

قالَ أبو رافِعٍ: نَعَمْ. وماذا تَظُنُّ أنْتَ؟ لَعَلّكَ ٱنصَرَفْتَ بظَنِّكَ إلى أنّ نَفْسَ الوَليدِ خَلاءٌ مِنَ القُوى، إنْ كانَ ذاكَ فبُعْدَ ما تَظُنُّ. إنّها واعِيَةٌ كأَتَمِّ ما تكونُ نَفْسٌ من الوَعْيِ، ولكنّها غائِمَةٌ بما في التّرْكيبِ العُضْوِيِّ من الوَهَنِ وضَعْفِ الحَساسِيّة.

والنّبيُّ تَوَجَّهَ إلى هذا الوَعْيِ وهو في أَكْمامِهِ ليضَعَ فيهِ شيئاً خالِداً، ليضَعَ فيهِ كَلِمَةَ اللّهِ، فَلا يَحولُ عنْها ولا يَزولُ مهما ٱضطَّرَبَتْ عليهِ بَواعِثُ الشّبابِ، وٱضطَّرَمَتْ فيهِ نَزَواتُهُ، لأنّها سَوْفَ تَأْسِرُهُ بحَنينِ الرَّجْعِ البَعيد.

إنّه وَضَعَ، في آخِرِ مَرْحَلَةِ التَّخَلُّقِ وَأَوَّلِ مَرْحَلَةِ التَّفَتُّحِ والازْدِهارِ، عَبَقَ المُثُلِ الإلهيّةِ، عَبَقَ الحَقيقَةِ المُطْلَقَةِ، الّذي يَنْفَحُ ولا يَنْقَطِعُ، الّذي يَفيضُ ولا يَغيضُ... تَمُرّ بِهِ الأَهْوِيَةُ الهادِرَةُ ٱلهابَّةُ فلا تُغَيِّرُ فيهِ وإنّما يُغَيِّرُ فيها، بِما يُحَمِّلُها من أَريجِهِ الفَوّاحِ، فَتَغْدو وقدْ فَقَدَتْ ما تُنْذِرُ به بما تُبَشِّرُ، إنّها حَمَلَتْ روحَ الزَّهْرَةِ في الحَقْل...

إنّ النّبيَّ، لنا اليَوْمَ، زَهْرَةُ الحقلِ، وهو يَمُدُّ يَدَهُ في أَحْشاءِ الزَّمَنِ بزَهْرةِ حَقْلِ المُسْتَقْبَلِ، فَعَسى أنْ يَتْرُكَها الإنْسانُ تُضَمِّخُ فَضاءَ الغَوْرِ في عَيْنِ الشُّروقِ والغُروبِ، ولا تَلْتَفُّ عليْها أَفْعى الشَّهَواتِ فَتَقْضُمُها، إنّي لَحَذِرٌ، إنّي... تَلَعْثَمَ، وَوَضَعَ يَدَهُ

على قَلْبِهِ مَخافَةَ السُّقوطِ، وأغْمَضَ عَيْنَيْهِ في خَيالٍ رَهيب.

وكانَ أبو رافِعٍ مَوْلىً للنّبيِّ، فلمْ يُطِقْ ما مَرّ بخَيالِهِ، وتَحامَلَ على صاحِبِهِ مُدّةً ظَلَّ فيها صامِتاً صُموتَ اللّيْلِ الّذي تَزيدُ في رَهْبَتِهِ أصْواتٌ مُتَقَطِّعَةٌ للذِّئاب.

وشَمَلَ الرَّجُلَ تَيّارُ أبي رافِعٍ فاسْتَغْرَقَ في وُجومٍ، وسارا يَقْطَعانِ اللّيْلَ في خُطُواتٍ تُعَبِّرُ عنْ أنّها ذاهِلَةٌ لا تَقْصِدُ إلى شَيءٍ ولا تَتَّصِلُ بما تَنْتَهي إليه. وما آسْتَفاقا إلّا على صَوْتِ الإنْسانِ في الغَلَسِ يُنادي بكَلِمَةِ اللّهِ الأرْواحَ الشّارِدَةَ الهائِمَةَ. وآخْتَلَطَ الصَّوْتُ بسُكونِ اللّيْلِ فَعَبَّرَ عنْ أنّه قالَ كَلِمَتَهُ، وآسْتَحالَ صَدىً فيهِ شُرودُ السُّكون.

خَفَّ النّاسُ منْ كُلِّ مَكانٍ، وفي أَعْيُنِهِمْ بَقايا الحُلُمِ السّادِرِ، مُتَوافِدينَ معَ النِّداءِ إلى حَيْثُ يَمْتزِجونَ بالمَجهولِ، إلى حَيْثُ يُصَحِّحونَ ضَمائِرَهُم في عَمَلِ الحَياةِ، إلى حَيْثُ يُجَدِّدونَ عُقودَهُمْ معَ اللّهِ على الخَيْرِ والحُبِّ والمُثُلِ، بجَعْلِها مَبْدَأَ عَمَلٍ وَواقِعَ حَياةٍ... مَدَّ الرّجُلُ خُطاهُ وَهَبَّ يَطْلُبُ ما يَطْلُبُ سائِرُ النّاسِ.

قالَ أبو رافِعٍ: على رِسْلِكَ يا هذا، إنّنا لم نَزَلْ في صَلاةٍ مُذْ خَطَوْنا!

قالَ الرّجُلُ: والآنَ نَصِلُ صَلاةً بصَلاة[1].

---

(١) لا رَيْبَ في أنّ الصّلاةَ عَقْدٌ (كونترا)، بينَ اللّهِ والإنْسانِ. وإذا تَأَمَّلْنا الفاتِحَةَ نَجِدُ فيها شُروطَ عَقْدٍ مُتَبادَلٍ. وعلى ضَوْءِ هذهِ المُلاحَظَةِ يَنْكَشِفُ لنا سِرُّ تَكْرارِ الصَّلاةِ اليَوْمِيّةِ، على الشَّكْلِ المَعْروفِ في الإسْلامِ، وجَعْلِها لَيْليّةً ونَهارِيّةً. وهذا السِّرُّ هو تَجْديدُ العَقْدِ وتَوْكيدُهُ، حَتّى لا تَضْعُفَ فَعالِيَّتُهُ، وحَتّى لا تَمُرَّ بالمَرْءِ ساعاتُ فُتورٍ وآسْتِرْخاءٍ يُحِلُّ فيها بأَحْكامِ العَقْدِ، فَيَظَلُّ بذلكَ دائِماً طَرَفاً في عَقْدٍ جَديدٍ. وكما هو مَعْروفٌ على البَحْثِ أنّ الضَّميرَ والوِجْدانَ والعَقائِدَ تَتَوَلَّدُ مِنَ التَّكْرارِ والتَّلْقينِ، والصَّلاةُ صيغَةُ تَلْقينٍ وعَمَليّةُ تَكْرارٍ مَعاً. هذا فَهْمُنا للصَّلاةِ في الإسْلامِ مِن ناحِيَةٍ عَمَليّةٍ. وأمّا هي مِنْ ناحِيَةٍ فَلْسَفِيّةٍ فإنّها أصَحُّ طَريقَةٍ وأُسْلوبٍ، وأصَحُّ شَكْلٍ وصيغَةٍ لِما يُسَمّيهِ ساندرسون، أحدُ عُلَماءِ النَّفْسِ التَّطْبيقيّ، مَعْبَدَ الرُّؤْيا، هذا المَعْبَدَ الّذي يَتَأَمَّلُ فيهِ المَرْءُ مُنْفَرِداً، ويَخْشَعُ مُسْتَغْرِقاً مُتَفَكِّراً، وهو يَرى أنّه لا صَلاحَ للفَرْدِ، وبالتّالي للجَماعَةِ، إلّا بمَعْبَدِ الرُّؤْيا، أو ساعَةِ التَّأَمُّلِ اليَوْمِيّةِ، وقدْ ضَمِنَها الإسْلامُ على شَكْلٍ مُدْهِشٍ مِن التَّكْرارِ في صَخَبِ النَّهارِ وفي هُدوءِ اللَّيْلِ، وكأنَّ الإسلامَ بصَلاةِ النَّهارِ يَنْتَزِعُ الإنسانَ آنْتِزاعاً لِيُغْرِقَهُ في التّأَمُّلِ والإشْراقِ ولو لِلَحَظاتٍ.

قالَ أبو رافِعٍ: نَعَمْ. ولكنْ رُوَيْدَكَ، فإنّ النّبيَّ رَأى جَماعَةً تَتراكَضُ إلى الصّلاةِ، فقالَ: «لِيَأتِ أحَدُكُمَ الصَّلاةَ هَوْناً». وهو يُشيرُ بهذا إلى أنّ الصّلاةَ لا تَكونُ واعِيَةً إلّا إذا تَلَبَّسَتْ فِكْرَ فاعِلِها ونَفْسَه، فهي لَيْسَتْ عَمَلاً خالِصاً بل فِكْراً في العَمَلِ، وبذلك يَكونُ لها عَمَلٌ في الفِكْرِ، والإعْجالُ يُضِيعُ على الفِكْرِ آطّرادَهُ وآنْسِجامَهُ. والنّبيُّ يُريدُنا أنْ نَبْدَأَها صَلاةً بالفِكْرِ، صَلاةً بالرُّوحِ، وإلّا فهي صَلاةٌ شارِدَةٌ غيْرُ واعِيَةٍ، لِروحٍ أكْثَرَ إمْعاناً في الشّرود.

قالَ الرّجُلُ: إنّ حديثَكَ مَلَكَ عَلَيَّ نَفْسي مُنْذُ اللّيْلِ، ولقَدْ مازَجَتْني حَسْرَةٌ حينَ قَطَعَ الوُجومُ عليكَ الحَديث.

قالَ أبو رافِعٍ: لَعَلّ صِلَةَ الحَديثِ، الّذي آنقَطَعَ بينَنا، تَجُرُّ الشُّجونَ إلى آسْتِدْراكِها يَوْماً مِنَ اليَوْم.

قالَ الرَّجُلُ: ولكنّي أجِدُ في نَفْسي أَسْرَ الحَديثِ ومَدَّ الدّاعِيَةِ إليه، ولعلّ نَفْسي لا تَجْتَمِعُ كما آجْتَمَعَتْ عَلَيَّ اللّيْلَةَ مِنْ أقْطارها. وأَجِدُني أشَدَّ ما أكونُ آنصِرافاً إلى مَغْزى الأذانِ في أُذُنِ الوَليدِ، ومَغزى الأذانِ الذّاهِبِ كُلَّ يَوْمٍ، مَرّاتٍ فَوْقَ ضَجيجِ الحَياةِ وصَخَبِها، الأذانِ القارِعِ في دُنيا الأباطيل.

قالَ أبو رافِعٍ: إنّني لمْ أزَلْ أخْشَعُ تَحْتَ ذِكْرى الرّنّاتِ الهامِسَةِ الّتي أرْسَلَها النّبيُّ في أُذُنِ وَليدِهِ، لِتَكونَ كَلِمَةُ اللّهِ أوّلَ شَيءٍ يتَمَدَّدُ في فَضاءِ تِلْكَ الرّوحِ، وأوّلَ شَيءٍ تَتَمَوَّجُ بِهِ وتَشْتَمِلُ عليهِ. وبذلكَ يَبْقى فَضاؤُها خَلِيّاً مِنَ الضّبابِ، فلا تَمُرُّ بِهِ حُلْكَةٌ قاتِمَةٌ، ولا تَجْثُمُ فيه ظَلامِيَّةٌ أو دُجُنَّةٌ، فَيَتَكَوَّرُ فَضاءُ الرّوحِ تَكَوُّرَ الفَلَكِ على الشّمْس.

والأذانُ الّذي يُقْصَدُ به إلى الرّوحِ لا تكونُ فيه أَلْفاظُ الأذانِ بلْ روحانِيَّتُه، لأنّها تَسْمو، بمَحَلِّها ومُسْتَواها، عنِ الألْفاظِ ومذاهِبِها في التّعْبيرِ، هذهِ الألْفاظِ الّتي

تُؤَلِّفُ كائِناً آليّاً لا حِسّ فيه، وآستَأْتى بهِ الإنسانُ إلى إكْمالِ آلِيّةِ الحَياةِ وحَرَكاتِها الرّتيبَةِ. ولِذا ظَلّ كائِنُنا الدّاخِليّ المَجهولُ أكْثَرَ آنفِعالاً بالمعاني المُطْلَقَةِ عَنِ الأداءِ، كالألْحانِ الّتي هي في حَقيقَتِها مَعانٍ لم تَسْتَحْجِرْ، فَتَتّجِهُ إلى إحْساسِ الرّوحِ قُدُماً فَتَتَمَوّجُ بها سَريعاً، بينَما الأداءُ الآليّ (الألْفاظُ) يَمُرّ في الفِكْرِ وما وَراءَهُ من مَعابِرَ، حتّى يَتَجَرّدَ[٢] ويَسْتَحيلَ مَعْنىً مُطْلَقاً في إحْساسِ الرّوحِ.

فهذهِ الرّوحُ الجَديدَةُ، الّتي لمْ تُحَلّها آلِيّةُ الحَياةِ المُخْتَرَعَةُ بَعْدُ بأشْيائِها، والّتي لا تَزالُ غَضّةً، لم تَتَحَجّرْ أطْرافُها، تَمَوّجَتْ أوّلَ ما تَمَوّجَتْ، وآتّسَعَتْ أوّلَ ما آتّسَعَتْ، لكَلِمَةِ اللّهِ الخالِدَةِ. فمَهْما مَرّ بها مِنَ العَواصِفِ المُتَناوِحَةِ لَنْ تَنْطَلِقَ مَعَ الهَوى. إنّها بِجاذِبِيّةِ الكَلِمَةِ الأولى، وهيَ، إذا رَمَتْ بالزّبَدِ، فلنْ يَكونَ إلّا حَبابَ المُثُلِ المُتراكِبِ، فإنْسانيّةُ هذا الوَليدِ السّعيدِ جاءَتْ كما شاءَتِ النّبُوّةُ.

إنّني لا تَمُرّ بي ذِكْرى الأذانِ في أُذُنِ الوَليدِ إلّا وأخْشَعُ معَها، إنّها تَفْعَلُ بي فِعْلاً عَنيفاً وعَميقاً، ولا أدْري كيفَ أُطَوّعُ ألْفاظَ اللّغَةِ لتُعَبّرَ عنْها...

فَصَلْتُ مُنْذُ بَعيدٍ وأنا دَهِشٌ بالأذانِ الّذي يَعْلَوْلي مُذَكّراً الحَياةَ بقاعِدَتِها، والإنْسانيّةَ بأنْبَلِ مُثُلِها الخَوالِدِ، ويُصْغي الوُجودُ إلى كَلِمَةِ اللّهِ في فَمِ الإنْسانِ كأنّهُ يَشْهَد.

وعَلا ضَجيجُ النّاسِ بالتّكْبيرِ، وكانا قَدْ بَلَغا بابَ المَسْجِدِ فآنتَظَما في صُفوفِ المُصَلّينَ، وعادَ الكَوْنُ إلى صُموتِهِ يُصْغي إلى صَوْتِ النّبيّ المُرْسَلِ في أُذُنِ الفَجْرِ يَقْرَأ:

---

(٢) توجَدُ ألْفاظٌ في اللّغَةِ لم تَسْتَحْجِرْ بما أغْدَقَ عليْها الشّعُورُ، حتّى لَتَتّصِلُ بما وَراءَ القُوى الواعِيَةِ، وتُحَرّكُها رأساً بدونِ أنْ تَمُرّ في الفِكْرِ، كألْفاظِ القَوْمِيّةِ والحُبّ. وهُناكَ ألْفاظٌ تَتّصِلُ بمَوطِنِ الحَياةِ وتُؤَثّرُ مُتَخَطّيَةً الفِكْرَ أيْضاً، أو تَمُرّ به مَرّاً سَريعاً، وهيَ ألْفاظُ الغَرائِزِ وما إليها، ونُسَمّيها لُغَةً حَيَوِيّةً. وما بَقِيَ مِن ألْفاظِ اللّغَةِ الأُخرى فهي ألْفاظُ فِكْرٍ، لأنّها تُؤَثّرُ عَنْ طَريقِهِ، ونُسَمّيها لُغَةً آلِيّةً مُسْتَحجِرة.

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الّذي وَهَبَ لي عَلى آلكِبَرِ إسْماعِيلَ وإسْحقَ إنّ رَبّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ آجْعَلْني مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِيَّتي رَبَّنا وتَقَبَّلْ دُعاءِ».

*

في حَقْلِ البَشَرِيَّة الشّائِكِ، غَرَسَ النّبيُّ نَواةً...
عَمِلَتْ فيها النّواميسُ، فَبَرَزَتْ زَهْرَةٌ لم تَتَفَتَّقْ عنْها الأَكْمامُ...
ومَسَحَها النّبيُّ بِيَدَيْه كِلْتَيْهِما، فَنَوَّرَتْ بينَ أصابِعِه...
وماسَتْ فَوّاحَةً تَمْلأُ الحَقلَ بالعَبيرِ، حتّى لَيُخَيَّلُ أنّ الحَقلَ زَهْرٌ كُلُّه!...

*

قَصَدَتْ إليْها، من بَعيدٍ، أفْعى فاحِمَةٌ لَمّاعَةُ الأديم...
وكانَتْ تَفُحُّ فَحيحاً لاهِباً، ويَؤُجُّ مِنْ فِيها الحِمَمُ...
وآلتَفَّتْ عِنْدَ أصْلِ الزَّهْرَةِ، وتَكَوَّرَتْ كعُقَد القَضاء...
وفي هَدْأَةِ اللّيْلِ، حينَ كانَ الكَوْنُ في سُباتٍ قَضَمَتْها...
وعادَتْ وقدْ عادَ الحَقْلُ شَوْكاً مُلْهِباً، وغَدَتْ زَهْرَةُ الحَقْلِ ذِكْرى رَمْزٍ سَعيدٍ!...
زَهْرَةٌ كانتْ من صُنْعِ النُّبوَّةِ في آفتِنانِها وسُمُوِّها...
والنُّبوَّةُ شُعْلَةٌ في الحَياةِ، وشَفَقٌ في الفِكْرِ لا يَتَناهى مَداهُ...
وزَهْرَةُ الحَقْلِ نَثَرَها باطِلُ الإنْسانِ، ولكِنّها آجْتَمَعَتْ في الذِّكْرى الخالِدَةِ...
فقدْ غَرَسَتْها نُبُوَّةٌ صَناعٌ، والنُّبوَّةُ لا تَحور!...

*

زَهْرَةٌ وَضَعَتْ فيها اللّانهايةُ أَسْرارَها...
فَلَبِثَتْ رُغْمَ باطِلِ الإنْسانِ ولنْ تُدْرِكَها نِهايةٌ...
وحارَ الباطِلُ إلى رَمادٍ في زَوْبعةِ الرِّياحِ!...

*

تَحَوَّلَ الباطِلُ، فكانَ ظِلالَ الحياةِ...
وتَحَوَّلَ الحقُّ، فكانَ شَمْسَ الحياةِ...
وأَخيراً، وبَعْدَ حينٍ، ضاعَ الظِّلُّ في الشَّمْسِ!

* * *

مشاهد

مَضى، بينَ يَوْمِ الميلادِ وهذا اليَوْمِ الّذي تَقاطَرَتْ فيهِ زَرافاتُ النّاسِ من كُلِّ مَكانٍ، أُسْبوعٌ مُتَأَلِّقٌ وَضِيءٌ كأنّما تَنَفَّسَتْ في جَوِّهِ السَّعادَةُ، وطَفَرَتْ مِنْ أَعْماقِ الحُلُمِ لتَموجَ في واقِعِيَّةِ الجُموعِ ودُنيا الحَياةِ.

كانَ البَصَرُ يَذْهَبُ مَذاهِبَهُ ثُمّ لا يَقَعُ إلّا على أَوْزاعٍ مُجْتَمِعين ومُتَفَرِّقينَ، فَقَدْ حَفَلَ النّبيُّ بسابعِ أيامِ وَليدِهِ وعَقَّ عَنْه.

إفْتَداهُ بكَبْشٍ ذَهَبَ خَيْرُهُ في أُشابَةِ الفُقَراءِ، وكانَ مَغْزاهُ أنّ الإنْسانيّةَ المِثاليّةَ السامِيَةَ، أوّلُ ما تَقومُ عليهِ هو إهْراقُ النَّزَواتِ الحَيَوانيّةِ ونَزَعاتِ ضَراوَتِها، مُجْتَمِعَةً في حَيَوانٍ يُهَراقُ. فإذا كانَ في نَحْرِ الحَيَوانِ من أجْلِ الغِذاءِ مَعْنى الجسَدِ وتَوْكيدُ أنّه حَيَوانٌ قَرِمٌ، فإنّ في نَحْرِ الحَيَوانِ من أَجْلِ الفِداءِ مَعْنى الرُّوحِ المُتَسامِيَةِ إلى العَلاءِ، وكانَ وَحيٌ وإشارَةٌ لشَيءٍ آخَرَ مُتَرَتِّبٍ تَرَتُّبَ النّتائِجِ على المُقَدِّماتِ: الحَيوانُ يُفْدى بِهِ الإنْسانُ الشّاعِرُ بمَعْناهُ، ليَتَعلّمَ هذا الإنْسانُ كيفَ يَفْدي فِكْرَةَ الإنْسانيّةِ وكَيْفَ يُضَحّي بِسَبيلِ مِثاليّاتِها.. ولذا لم يَجِدِ[1] المُكافِحونَ المُسْتَبْسِلونَ، إلى

(١) كانَ من عادَةِ الجُنودِ في القَديمِ نَحْرُ حَيَوانٍ تَحْتَ العَلَمِ، وعلى مَرْأًى من الجُنْدِ، وبَقِيَتْ هذهِ العادَةُ حَتّى زَمَنِ مُحَمَّد عَلي باشا خِدْيوي مِصْر.

زَمَنٍ قَريبٍ، رَمْزاً لصِدْقِ الكِفاحِ الدّامي وللآرتِكاضِ إلى المَوتِ سِوى إهْراقِ حَيَوانٍ بينَ يَدَيِ الصِّراعِ، مُشيرينَ إلى المَصيرِ ولوْ كانَ هَوْلاً.

وطَعِمَتْهُ جُموعُ الفُقَراءِ ليَكونَ مَعْناهُ أنّ تَضْحِيَةَ الإنْسانِ جانِبَ الحيَوانيّةِ فيه، كي يَمْلأَ الفَراغَ في هذا الجانِبِ بجَماعاتِ المُجتَمَعِ المَحْرومَةِ، فَيَجِدَ في شُعورِهِمْ شُعورَهُ، وفي آلامِهِمْ أَلَمَهُ، وفي سَعادَتِهِمْ سعادَتَه. فقدْ مَزَجَهُمْ بنَفْسِهِ وخَلَطَهُمْ بهَواهُ، وقامَتْ طَبيعَةُ الإنْسانيّةِ فيهِ على ثُنائيَّةٍ مِنَ الفَرْدِيَّةِ المُهَذَّبَةِ والغَيْرِيَّةِ النّبيلَةِ، يَجِدُ في طَبيعَتِهِ سِرَّ الجَماعَةِ، وفي الجَماعَةِ سِرَّهُ، وبهذا يَتِمُّ التَّواصُلُ الإنْسانيُّ الصّحيحُ الّذي لم يَزَلْ خَياليّاً، وكانَ في وَليدِ النّبيِّ واقِعاً.

طَبيعَةٌ سَمَتْ عن الأنانيّاتِ، فإنّ النّبيَّ آسْتَطاعَ، في مُجْتَمَعِه، أنْ يُذيبَ «أنا» في «نحن»، وحارَبَ طَوالَ جِهادِهِ الّذين أذابوا بأَحابيلِهِمْ «نحن» في «أنا»، فكانَ لِكُلِّ آمْرِىءٍ في مُجْتَمَعِ مُحَمَّدٍ أنْ يَقولَ «نحن» وليسَ فيها كِبْرِياءُ الفَرْدِيَّة وعُتُوُّها، وإنّما فيها نُبْلُ الغَيْرِيَّة وَوَحْدَتُها، وآشْتِراكِيَّتُها وتَعاوُنُها.

وقدْ تَرَكَتْ ذِكْرى هذا الفِداءِ في طَبيعَتِهِ، بَعْدَ أنِ آسْتَوى رَجُلاً، رَمْزَها الإنْسانيَّ ومَغْناها النَّبيلَ. فلمْ يُبالِ تَحْتَ ذِكْراهُ أنْ يُحقِّقَ في ذاتِه مَغْزاهُ، وأنْ يُقَدِّمَ، في نَفْسِهِ، فِداءَ الفِكْرَةِ الّتي إذا تَجَرَّدَ الإنْسانُ منْها عادَ مَخْلوقاً بَغيضاً، يَنْحَطُّ عنْ أنْ يَكونَ فِداءَ الحَيَوانِ ذي الطّبيعَةِ السّاذَجَةِ، وفيها إيثارٌ دونَ قَصْدٍ، وفيها قَناعَةٌ دونَ شُعورٍ، وفيها رَغَباتٌ[٢] قاصِرَةٌ.

(٢) نَعْني بالرَّغَباتِ القاصِرَةِ أنّ الحَيَوانَ يَنْفَعِلُ بباعِثِ الغَريزَةِ كالجُوعِ، فإذا سَقَطَ على طَعامٍ تناوَلَ منهُ حاجَتَهُ، وعَفَّ عَنِ الباقي، بينَما الإنْسانُ يتَناوَلُ حاجَتَهُ، ثُمَّ تَتَحَرَّكُ فيهِ رَغْبَةُ النَّهَمِ حَرَكَتَها فتَحْمِلُهُ على آدِّخارِ ما فَضَلَ عنهُ دونَ الآخَرينَ. فلَدى الحَيَوانِ إيثارٌ دونَ شُعورٍ، وبالجُمْلَةِ تَكونُ رَغَباتُهُ قاصِرَةً، بينَما رَغَباتُ الإنسانِ شَرِهَةٌ مُسْتَحوذَة. والتّناحُرُ لَدى الحيَوانِ على المُقَوِّماتِ الحَيَويَّةِ لا يَكونُ إلّا حينَ الشُّعورِ بباعِثِ الغَريزَةِ والحاجَةِ، ولكنَّ التّناحُرَ لَدى الإنْسانِ عليْها قائِمٌ على آدِّخارِها شَرَهاً وآحتِيازاً، فكانَ الحَيَوانُ بالطَّبيعَةِ أَفْضَلَ مِنَ الإنْسانِ.

أَشْرَفَ النّبيُّ في هَناءِ الجُموعِ وبَهاءِ الحَفْلِ، قالَ:

«أروني ٱبْني ما سَمَّيتُموهُ؟

قالَ عَليٌّ: سَمَّيْتُهُ حَرْباً.

فقالَ: بَلْ هُو حُسَيْنٌ!».

تَهامَسَ النّاسُ بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ: سَمّاهُ النّبيُّ حُسَيْناً، وهو كذلكَ في سَمْتِهِ ونَفْسِه.

قال عِمْرانُ بْنُ سُلَيْمانَ: هو كذلكَ حُسَيْنٌ، ولكنْ فيهِ مَعْنى التَّكْبيرِ.

فقالَ قائِلٌ لهُ: لَكَأَنَّ النّبيَّ كَرِهَ ٱسْمَ حَرْبٍ.

قالَ عِمْرانُ: نَعَمْ. إنّ الحَرْبَ شُذوذٌ في طَبيعَةِ الإنْسانِ يُصيبُها بالانْتِكاسِ، والنَّبيُّ نَصيرُ الإنْسانيَّةِ، يَكْرَهُ ما هو مِنَ الحَرْبِ ولو بِمَنْزِلَةِ الاَسْمِ، لأنَّهُ جاءَ لِيُقيمَ الإنْسانَ على قاعِدَةِ الإحْسانِ.

قالَ الرَّجُلُ: فَفيمَ حَرْبُنا إذاً؟

قال عِمْرانُ: إنّ الحَرْبَ هو العُدْوانُ طَمَعاً وعُتُوّاً وٱضطِهاداً، وهو رُجوعٌ إلى الحَيَوانيَّةِ الضّارِيَةِ الّتي تَسْتَضيقُ، على رَحابَةِ الوُجودِ، بِغَيْرِ ذاتِها فَتَسْتَجيبُ إلى العُدْوانِ وتُنازِعُ الآمِنينَ على بقائِهِمْ. وأمّا نَحْنُ فإنّنا نُكافِحُ هذا العُدْوانَ لِنُخَلِّصَ الإنْسانيَّةَ مِنْ أدْرانِ الضَّراوَةِ الباغِيَةِ، فلَسْنا نُحارِبُ مُنازَعَةً على البَقاءِ بل تَعْميماً لحُرِّيَّة البقاءِ، وهذا ليسَ حَرْباً بل نِضالٌ ضِدَّ الحَرْبِ، وإنّ النِّضالَ مِنْ أَجْلِ حُقوقِ الإنْسانِ ودُونَها إحْسَانٌ.

فالنّبيُّ جاءَ بالإحْسانِ مَبْدَأً على شَتّى وُجوهِهِ ومنْ أقْطارِهِ، لِيُطْفِىءَ نارَ الحَرْبِ في السِّلْمِ الظّالِمِ وفي الصِّراعِ العاتي، وليَرُدَّ ذِئابَ البَشَرِ إلى الذِّئابِ بِتَمْزيقِ

أقْنِعَتِهِمْ فَيَسْلَمَ الإنْسان.

وبهذا كانَ النّبيُّ أوَّلَ مَنْ حارَبَ الحَرْبَ، وألْغى مَشْرُوعِيَّتَها، وأعْلَنَ حُرْمَةَ الإنْسانِ أيّاً كانَ، ورَوَّى التّاريخَ نُبْلَ الجِهادِ. وكان في تَسْمِيَتِهِ الوَليدَ حُسَيْناً، بعْدَ تَسْمِيَتِهِ حَرْباً، إعْلانٌ بأنَّ طَبيعَةَ الحَرْبِ لنْ تَتَحَرَّكَ عَلَيْهِ إلّا إحْساناً، وفي سَبيله.

وفي تهامُسِ النّاسِ، أنَّ الوَليدُ أنَّةَ ألَمٍ زاهِقَةً، كانتْ إيذاناً بخِتانِهِ. وكانَ مَغْزى الخِتانِ، في إشْراقِ الرُّوحِ، أنّ في طَبيعَةِ الغَرائِزِ زائِدَةً تَذْهَبُ في شُذوذِها والْتِوائِها حَدّاً تَضَعُها في مَسافِ المَساقِطِ ومآتيها. فلا بُدّ مِنْ تَشْذيبِ الغَرائِزِ لسُمُوِّ الرُّوحِ وكَمالِها، ولا بُدَّ من تَقْليمِ الغرائِزِ لدَرْكِ المِثاليّةِ ونَبالَتِها الّتي، بها جَميعاً، يَمْلِكُ البَشَرِيُّ إنْسانيّةً صَحيحةً تَضَعُهُ فَوْقَ الواقِعِ ودونَ الأحْلام...

*

بعدَ حينٍ، كثيراً ما كانَ يُرى هذا الوَليدُ السّعيدُ يَموجُ في حِجْرِ جَدِّهِ العَظيم...

وهو يَرْمي بعَيْنَيْنِ سادِرَتَيْنِ، أرْخَتْ عَلَيْهِما الجُفونُ كِلَلَها فلا تَزَحْزَحُ إلّا بفُتورٍ...

ضَجْعَةٌ في جَوِّ الأحْلامِ، كانَ يَرْتَضِعُ فيها الوَليدُ «إبْهامَ جَدِّهِ» البَطَلِ النّبيِّ...

ولم يَكُنْ في هذا الرّضاعِ مَعْنى الثَّدْيِ بل مَعْنى القَلْبِ، فَلا بِدْعَ إنْ كانَ له من النُّبوَّةِ طِباعُها، ومنَ البُطولَةِ تَضْحِياتُها...

*

ضَجْعَةٌ كأنّها ضَجْعَةُ المَلاكِ في هالَةِ النُّورِ، أوْ ضَجْعَةُ النَّجْمِ في الأُفُقِ

المَسْحورِ!...

أَغْفى فيها إِغْفاءَةَ الخَشْفِ على ثَدْيِ الأُمومَةِ الحانيةِ...

وٱرْتَسَمَتْ ظِلالُ هذا المَشْهَدِ على لَوْحٍ، كانَ صورَةً لِبُطولَةٍ تُغَذِّيها نُبُوَّةٌ!...

إِبْهامٌ كانَ صِلَةَ مَعْنىً بِمَعْنىً، وشَريطاً تَسْري عليهِ روحٌ إلى روحٍ...

فلَمّا ٱسْتَوَتْ نَفْسُ الوَليدِ تَأَلَّـقَتْ، وكانتْ بُطولَةً مُضِيَّةً من ورائِها نُبُوَّةٌ تَمُدُّها بالضِّياءِ...

*

هُناكَ في وادي العَقيقِ[٣] كانتْ جُموعُ السُّمّارِ تَنتَظِمُ حَلَقاتٍ حَلَقاتٍ كما شاءَ الهَوَى في عَفَوٍ ودونَ تَكَلُّفٍ، وكانَ هذا النَّوْعُ من السَّمَرِ مُحَبَّباً إلى أَهْلِ المَدينَةِ، بِما في طَبيعَتِهِمْ من رُوحٍ مَرِحَةٍ، لا حَرج فيها ولا تَعْقيدَ. ولم يَكُنْ مَرَحُهُمْ أَثَرَ رُوحٍ مَكْدودَةٍ عَراها تَطَيُّرٌ وتَشاؤُمٌ بالحَياةِ وأَسْبابِها، فهيَ تَفِرُّ إلى الخَلاءِ، إلى الفَضاءِ الرَّحْبِ، وهي تَصْطَنِعُ هذا النَّوْعَ مِنَ المَرَحِ لِتَنْسى هُمومَها المُشْتَعِلَةَ وضَناها اللُّغوبَ، وهي تَنْضو أثوابَها الثَّقيلَةَ وأَغْلالَها الآسِرَةَ العانِيَةَ لِتَنْسى ذاتِيَّتَها، بما فيها من عُنْصُرَيِ المكانِ والزّمانِ المُرْهِقَيْنِ، لِتَعْبَثَ، لِتَلْهُوَ هارِبَةً مَذْعورَةً... تلكَ طَبيعةُ رُوحٍ مُعَقَّدَةٍ حَجَّرَها الجِدُّ الخَشِنُ، فهيَ لا تَفْتَأُ شاعِرَةً بالخُشونَةِ فَيشيعُ فيها التَّجَهُّمُ والتَّقْطيبُ.

لم تَكُنْ هذهِ الطَّبيعَةُ تَتَّصِلُ بطَبيعَةِ أَهْلِ المَدينةِ في قَليلٍ أو كَثيرٍ، من قُربٍ أو مِنْ بُعْدٍ، وإِنّما بُنِيَتْ طَبيعَتُهُمْ، أَوَّلَ ما بُنِيَتْ، على مَرَحٍ كادَ يَكونُ مُجوناً دونَ قَيْدٍ،

---

(٣) إنّ العَرَبَ تَقولُ لِكُلِّ مَسيلٍ يَشُقُّ الأَرْضَ ويوسِعُها عَقيقاً. وفي بِلادِ العَرَبِ أَرْبَعَةُ أَعِقَّةٍ، ومِنْها العَقيقُ الّذي هو بناحِيَةِ المَدينَةِ فيه عُيونٌ ونَخيلٌ وقُصورٌ ودورٌ ومنازِل. راجع: **معجم البلدان**، لياقوت، ج ٦، ص ١٩٨.

وعلى يُسْرٍ كادَ يَكونُ آنطِلاقاً منْ كُلِّ قَيْدٍ، فشاعَتْ فيهِمْ سَماحَةٌ مُشْرِقَةٌ، وآنطَبَعَتْ على أفْواهِهِمْ بَسَماتٌ مُشِعَّةٌ تُمُدُّها نُعومَةٌ في الطَّبْعِ تَأْبى إلّا أنْ تَظْهَرَ في دُعابَةٍ مُنْطَلِقَةٍ عارِضَةٍ، وهي إنْ جَدَّتْ تَكونُ مُتَكَلِّفَةً في الجِدِّ، كما تَكونُ تلكَ الطَّبيعَةُ مُتَكَلِّفَةً في المَرَح.

وأيُّ شَيءٍ هذهِ الحَياةُ إذا كانَتْ لا تَمْنَحُنا قَلْباً سَعيداً لمْ تَتَحَجَّرْ فيهِ السَّعادَةُ، والجِدُّ لا يَصِلُ المَرْءَ بالسَّعادَةِ، لأنَّها آنطِلاقٌ، وهو جُمودٌ يُحَجِّرُها كَما يُحَجِّرُ كُلَّ شيءٍ ويَتَّصِلُ بِهِ، فَيُضيعُ فيهِ حَيَويَّتَهُ ويَعْزِلُهُ من رُوحِهِ... هكذا كانَ يَتَحَدَّثُ، في مَجْمَعِ وادي العَقيقِ، نُعَيْمانُ[٤]، طُرْفَةُ أهْلِ المَدينَةِ، الّذي لَوْلا ما دَخَلَهُ من عُنْصُرِ المادّةِ الحَيَّةِ لكانَ رُوحَ النّادِرَةِ المُبْدِعَة.

لَيْلَةٌ كانتْ من هِباتِ القَمَرِ، وهو يَدْنو فيها كَثيراً، ويَشِعُّ كَثيراً حَتّى لَيُخَيَّلُ أنّه يتَحَدّى الشَّمْسَ في بَهاءٍ وطَراوَةٍ يُشْعِرانِ بالجَمالِ. ودَعاها العَرَبُ «أُضْحِيانَةً»، كأنَّما جُمِعَ فيها الضُّحى أو جُمِعَتْ فيهِ، والضُّحى إغْراءٌ باليَقَظَةِ، بيدَ أنّ ضُحى الشَّمْسِ إغْراءٌ بحَياةِ التّكاليفِ والذِّكْرى واليَقَظَةِ على الجسَدِ والواقِعِ القَطوبِ، وضُحى القَمَرِ إغْراءٌ بحَياةٍ وَراءَ الحَياةِ، كُلُّها حُرِّيَّةٌ وآنطِلاقٌ، وكُلُّها نِسْيانٌ ووِلادَةٌ من جَديدٍ في اللَّحَظات.

إنّ الذِّكرى، وفيها عُنْصُرُ الثَّباتِ والجُمودِ، تَجْعَلُ الحَياةَ ضَرْبَةَ لازِبٍ في مَرارَتِها وسَآمَتِها ومَلالِها، والنِّسْيانُ سَيْلٌ مِنَ التَّجَدُّدِ والصَّيْرورَةِ، يَجْعَلُ الحيَّ في كُلِّ الآناتِ مَوْلوداً جَديداً يَنْقَلِبُ في أسْبابِ الطفولَةِ النّاعِمَةِ الهانِئَةِ. فَمَدارُ الشَّمْسِ دُنْيا من العَمَلِ والوَعْيِ الجَهيدِ، ومَدارُ القَمَرِ دُنْيا مِنَ النَّشْوَةِ واللّاوَعْيِ الحالِمِ... كذا

(٤) هو نُعَيْمانُ بْنُ عَمْرِو بْنِ رِفاعَةَ مِن بَني النَّجّارِ. تُوُفِّيَ في زَمَنِ مُعاوِيَةَ. كانَتْ تَغْلِبُ عليهِ روحُ الفُكاهَةِ والنّادِرَةِ، وكانَ يُداعِبُ النَّبيَّ. ذَكَرَهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكّارٍ في كتاب: **الفُكاهة والمزاح**، وذَكَرَهُ آبْنُ الحَوْزي في كِتاب: **الظِّراف والمُتماجنين**، وتَرْجَمَ له بتَوَسُّعٍ آبْنُ حُجْرِ العَسْقَلانيّ في كتاب: **الإصابة**، ح ٦، ص ٢٥٠

قال نُعَيْمانُ وهو يَتَدَفَّقُ في تَنَدُّرِهِ، وكانَ يُسَمِّي لَيالِيَ القَمَرِ ضُحى الأَحْلامِ، لأَنَّها صَحَواتٌ في أَعْمَقِ سُكْرٍ، ولَحَظاتٌ شِعْرِيَّةٌ تَفِرُّ من عَتَباتِ الأَبَدِيَّةِ الَّتي أَدْنانا القَمَرُ المَسْحورُ من آفاقِها المُطِلَّةِ القَريبَةِ.

قالَ رَجُلٌ من الحُضورِ: لوْ شاءَ نُعَيْمانُ حَدَّثَنا حَديثَ هَداياهُ(٥) الَّتي سَتَبْقى رَمْزَ خُلودِهِ، وإنْ كانَتْ تَطْفيلاً في الكَرَمِ يُشْبِهُ، في المَعْنى، التَّطْفيلَ في النَّهَمِ ولَيْسَتْ تَفْضُلُه، وعلى أيِّ حالٍ فإنّها سَخاءٌ مُضْحِكٌ، وهو مَعَهَا ضُحَكَةُ الأَسْخِياءِ. فَسَرَتْ بينَ الجُمْهورِ رَنَّةٌ مُقَهْقِهَةٌ، آنطَلَقَتْ وتَرامَتْ أَبْعَدَ ما تَتَرامى الأَصْداءُ في مَطارِحِ الخُلَطاءِ.

قالَ نُعَيْمانُ: أمّا أَنْتَ فَضُحَكَةُ البُخَلاءِ، ومَعْناهُ أنّكَ أَكْثَرُ من بَخيلٍ. وأنا يَسُرُّني أَنْ أَكونَ، كما تَقولُ، أَكْثَرَ من كَريمٍ، وإنّي لا أَراكَ في طَبيعَتِكَ إلّا كَمِثْلِ زَهْرَةِ الحَنْظَلِ. فَآرْتَفَعَتِ الأَصْواتُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ: وما مَثَلُ الزَّهْرَةِ الّذي ذَكَرْتَ؟

قالَ نُعَيْمانُ: زَعَموا أنّ فَراشَةً مُلَوَّنَةً تُخالُ كَأَنَّها زَهْرَةٌ حَيَّةٌ طائِرَةٌ، مَسَّها نَصَبُ التَّزْنيقِ ولَغَبُ الطَّنينِ الّذي هو نَشيدُ أمانيِّ الفَراشِ، وهي قاصِدَةٌ إلى الحُقولِ. فحَطَّتْ مُغْتَبِطَةً على زَهْرَةِ حَنْظَلٍ كانَتْ تَميسُ بينَ أَيْدي الرِّياحِ في غَضارَةٍ وتَمَلُّؤٍ حتّى لَتَحْسَبُ أنّها تَفيضُ عُصارَةً ومائيَّةً، فدارَت عليْها الفَراشَةُ دَوْراتٍ يائِسَةً كظامِيءٍ سَقَطَ على آلٍ خَفيٍّ، فَمَدَّتْ جَناحَيْها وخَفَّتْ تَطيرُ.

قالَتِ الزَّهْرَةُ: إذا عُدْتِ بعدَ حينٍ فَسَأَسْقيكِ مِنْ ماءِ ثِماري الوَفيرِ.

قالَتِ الفَراشَةُ: إذا كُنْتِ وأَنْتِ زَهْرَةٌ من بَناتِ السَّرابِ، فإنّ ماءَكِ، وأنْتِ

---

(٥) ذَكَرَ خَبَرَها آبْنُ حُجْرٍ في: **الإصابة**، قال: كانَ لا يَدْخُلُ المَدينَةَ طُرْفَةٌ إلّا آشْتَرى مِنْها ثُمّ جاءَ بِها إلى النَّبِيِّ، فَيقولُ ها أَهْدَيْتُهُ لكَ. فإذا جاءَ صاحِبُهُ يَطْلُبُ نُعَيْمانَ بثَمَنِهِ أَحْضَرَهُ إلى النَّبيِّ وقالَ: آعْطِ هذا ثَمَنَ مَتاعِهِ، فَيقولُ النَّبيُّ: أَوَلَمْ تُهْدِهِ لي؟ فَيَقولُ: إنّه واللّهِ لم يَكُنْ عِنْدي ثَمَنُهُ، ولَقَدْ أَحْبَبْتُ أنْ تَأْكُلَهُ، فَيَضْحَكُ وَيَأْمُرُ لصاحِبِهِ بالثَّمَنِ، وذَكَرَها آبْنُ الجَوْزي في كِتاب: **الظِّراف والمُتماجنين**، وغيرُ واحِدٍ مِنَ المُؤَلِّفينَ في النَّوادِرِ.

ثَمَرَةٌ، عُصارَةُ مُسْتَنْقَعٍ كَريهٍ، فَزَهْرُكِ باطِلٌ بينَ الزَّهَرِ وثَمَرُكِ باطِلٌ بينَ الثَّمَرِ، فإنّ الزُّورَ إذا آسْتَحالَ فإنّما يَسْتَحيلُ إلى زُورٍ أكْبَرَ.

وهَداياي الّتي كُنْتُ أسوقُها إلى النّبيِّ إنْ كانَتْ تُعَبِّرُ عنْ شَيءٍ، فإنّما تُعَبِّرُ عنْ مكانِ النّدى والسّماحَةِ مِنْ قَلْبِ النّبيِّ الكَبيرِ، وهو لا يَفْتَأُ يَأْخُذُنا بألْوانٍ منهُ، ويَمْلأُ جَوَّ حَياتِنا بطَراوَتِه، وقُصاراهُ أنّه أخْرَجَنا من بَداوَةِ الطَّبْعِ، وزَوَّدَنا بقَلْبِ الإنْسان.

قالَ أبو هُرَيْرَة، وكانَ أحَدَ الحُضورِ: إنّ الحَديثَ ذو شُجونٍ، وقدْ أذْكَرْتَني بلَحْنِ حَديثِكَ واقِعَةً شَهِدْتُها. كُنْتُ عندَ النّبيِّ «وقدْ أخَذَ وَليدَهُ الحُسَيْنَ يَدْلَعُ له لِسانَهُ فَيَرى الصّبيُّ حُمْرَتَهُ فَيَهَشُّ إليهِ، وعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ حاضِرٌ فَقالَ:

يا رسولَ اللّهِ تَصْنَعُ هذا بهذا، فَواللّهِ إنّ لي الوَلَدَ وما قَبَّلْتُهُ قَطّ.

قالَ النّبيُّ: مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ».

قالَ أبو الدَّرْداءِ، وكانَ حكيماً: كمْ كُنْتَ جِدَّ مُحْسِنٍ يا نُعَيْمانُ بقَوْلِكَ «وقُصارى النّبيِّ أنّه زَوَّدَنا بقَلْبِ الإنْسانِ»، فَقَدْ جَمَعْتَ غايَةَ ما يُقالُ في أَخْصَرِ مَقالٍ، وإنّهُ لَيوحي بشَيءٍ كَثيرٍ. ثُمَّ أطْرَقَ في تَأَمُّلٍ لمْ يَطُلْ بِهِ كَثيراً ولكِنَّهُ مَسَّ الجَمْعَ، فَنقَلَهُمْ مِنْ جَوِّ أنْفُسِهِمْ في مَرَحِهِ إلى جَوِّ نَفْسِهِ في تَأمُّلِهِ. وما هو إلّا أنِ آطَّرَدَ يَقولُ: لا أدْري ماذا تَرَكَ في أَنْفُسِكُمْ خَبَرُ أبي هُرَيْرَة، فإنّه أيْقَظَ نَفْسي على السِّرِّ الإلهِيِّ في مُحيطِ الكَوْنِ الّذي هو مَصْدَرُ ما فيهِ مِنْ تَناسُقٍ ونِظامٍ، وجَمالٍ وتَناغُمٍ. وإذا كانَتْ قِصَّةُ المُثُلِ[٦] تُعَبِّرُ عنْ واقِعِيَّةٍ كَوْنِيّةٍ فإنّه يَقَعُ على قِمَّتِها، وذلكَ السِّرُّ هو الرَّحْمَةُ، فإنّها المَعْنى الأَزَليُّ الّذي آنبَثَقَتْ منهُ الحقائِقُ، وكانَ الوُجودُ إحْدى ظاهِراتِها، وهي فيهِ مِقْياسُ القِيَمِ، ونحنُ لنْ نَتَّصِلَ بالحَقيقَةِ

---

(٦) أيْ قِصّةُ المُثُلِ الأَفْلاطونيّةِ الّتي تَجْعَلُ الخَيْرَ رَأْسَ المُثُلِ.

الأخْلاقيَّةِ والطَّبيعيَّةِ، وننْفُذَ إلى أغْوارِ المُطْلَقِ إلّا مِنْ طَريقها، وعلى أضْوائِها المُلْتَمِعَةِ، على أنّ الخَيْرَ الّذي آعْتَبَرَتْهُ قِصَّةُ المُثُلِ رأْساً ليسَ في حقيقَتِه إلّا آمْتِدادَ الرَّحْمَةِ، وظاهِرَةً مِنْ تَحَرُّكِها، والجَمالُ تَجَسُّدٌ للرَّحْمَةِ بأكْثَرَ مِمّا هو تَجَسُّدٌ للخَيْرِ، فهيَ أُلْفَةُ الحقَائِقِ الّتي بها نَفْهَمُ الكَوْنيَّةَ والأخْلاقيَّةَ فَهْماً مُطْلَقاً، ونَضَعُ اليَدَ على مِقْياسِ القيمَةِ الحقِّ.

وميزَةُ الإسْلامِ أنّهُ جَعَلَ الرَّحْمَةَ دِعامَتَهُ وقامَ عليْها، ولَعَلَّهُ الدّينُ الوَحيدُ الّذي تَهَدَّى بها إلى فَهْمِ الوُجودِ، وقياسِ الأخْلاقِ، وتَرْكيزِ القانونِ والاجْتِماعِ، وجَعَلَها نَظَريَّةَ فَلْسفَتِهِ الأُولى. فَقَدْ سَمَّى الإسلامُ اللّهَ أحْياناً رحيماً وأحْياناً رَحْماناً، وحينَ تَحَدَّثَ عَنِ الكَوْنِ قال في مَقامٍ «وَسِعَتْ رَحْمَتي كُلَّ شَيءٍ». وفي مَقامٍ آخَرَ قالَ: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ». وحينَ تَحَدَّثَ عَنِ المُجتَمَعِ العامِّ قالَ: «وما أرْسَلْناكَ إلّا رَحْمَةً للعالَمينَ». وعَنِ الأُسْرَةِ قالَ: «وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً ورَحْمَةً». وقالَ النّبيُّ يَصِفُ نَفْسَهُ: «أنا الرَّحْمَةُ المُهْداةُ». وحينَ تَحَدَّثَ عَنِ الأخْلاقِ قالَ: «الرّاحِمونَ يَرْحَمُهُمُ الرّحْمنُ، إرْحَموا مَنْ في الأرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ». وما حَدَّثَكُمْ بِهِ أبو هُرَيْرَة الآنَ «مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحمْ» فَفَلْسَفَةُ الإسلامِ قامَتْ على قاعِدَةِ الرَّحْمَةِ الّتي عالَجَ بها نِظامَ الحَياةِ مِنْ شَتّى وُجوهِهِ وجَوانِبِهِ، وبَثَّها في قانونِهِ وأَناظيمِهِ، ودَخَلَ بها إلى الهَيْكَلِ المُسْتَغْرِقِ الخاشِعِ، والمُجتَمَعِ الصّاخِبِ الدّاوي، وكَسَرَ بها شِرَّةَ الأنانيّاتِ الضّارِيَةِ، وحَدَّ بها من مَدِّ الرَّغباتِ النَّهِمَةِ.

وبالرَّحْمَةِ عالَجَ الإسْلامُ طَبيعَةَ الإنْسانِ المُعَقَّدَةَ، ليَبْلُغَ بها مَبْلَغَ المَثَلِ الأعْلى الّذي عَبَّرَ عنهُ بقَوْلِهِ: «رُحَماءُ بَينَهُم»، وليُحقِّقَ بها مَبْدَأَ التّآخي العَامِّ «إنَّما المُؤْمِنونَ أُخْوَةٌ».

وليسَ هُناكَ كَلِمَةٌ كَفيلَةٌ بأنْ تَدُلَّ على رُوحِ الإسْلامِ الشّائِعَةِ في كُلِّ أوْضاعِهِ وتَعاليمِهِ سِوى الرَّحْمَةِ، فهيَ رَمْزٌ جامِعٌ لِمجموعَةِ حقائِقِهِ؛ كالمَحَبَّةِ الّتي هي

الرَّمْزُ الجامِعُ للمسيحيَّةِ مِنْ أَقْطارِها وحَواشيها، وفَرْقُ ما بَيْنَهُما أنّ في طبيعَةِ الرّحْمَةِ تَوازُنَ القانونِ، وفي طَبيعَةِ الثّانيَةِ خَياليَّةَ التّجْريدِ.

وعلى أساسٍ مِنَ الرَّحْمَةِ يُقيمُ النّبيُّ التَّرْبيَةَ، ويَضَعُ مناهِجَ الرِباتَةِ[٧] السَّمْحَةِ الّتي تَأْذَنُ لِكُلِّ الطّبائِعِ بالنّماءِ في تَقْديرٍ مَوْزونٍ، دونَ ما كَبْتٍ يورِثُ آنتِكاساً وآلتِواءً في الطَّبيعَةِ المُتَفَتِّحَةِ. ولِذا ذَهَبَ وليدُهُ بحَنانِهِ، ولا يَفْتأُ يُغاديه بشَآبيبِ حُبِّهِ النّمير.

قالَ شَدّادُ بْنُ الهادي: لِلّهِ دَرُّكَ أَبا الدَّرْداءِ، فإنّ فيما أَذْكُرُهُ الآنَ شاهِداً على ما تَقولُ: «إنّ رَسولَ اللّهِ خَرَجَ علَيْنا في إحْدى صَلاتَيِ العِشاءِ وهو حامِلٌ حُسَيْناً، فَتَقَدَّمَ النّبيُّ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ للصّلاةِ، فأَطالَ سُجودَهُ فَرَفَعْتُ رَأْسي فإذا الصّبيُّ على ظَهْرِ رَسولِ اللّهِ وهو ساجِدٌ، فَرَجَعْتُ إلى سُجودي، فَلَمّا قَضى الصّلاةَ قيلَ: يا رَسولَ اللّهِ إنّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَيْ صَلاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَها حتّى ظَنَنّا أنّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أو أنّه يُوحى إليكَ، قالَ: كُلُّ ذلكَ لم يَكُنْ، ولكنَّ آبْني آرْتَحَلَني فكَرِهْتُ أنْ أُعْجِلَهُ حتّى يَقْضيَ حاجَتَه».

فقالَ أُسامَةُ بْنُ زَيْدٍ: «طَرَقْتُ النّبيَّ ذاتَ لَيْلَةٍ في بَعْضِ الحاجَةِ، فَخَرَجَ النّبيُّ وهو مُشْتَمِلٌ على شَيءٍ لا أدْري ما هُو. فَلَمّا فَرَغْتُ من حاجَتي، قُلْتُ: ما الّذي أنْتَ مُشتَمِلٌ عَلَيهِ؟ فكَشَفَهُ فإذا حَسَنٌ وحُسَيْنٌ على وَرِكَيْهِ، فقالَ: هذانِ آبْنايَ وآبْنا آبْنَتي، اللّهُمَّ إنّي أُحِبُّهُما فَأَحِبَّهُما وأحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُما».

وآسْتَأْنفَ أبو الدّرْداءِ حَديثَهَ فقالَ: إنّ الرَّحْمَة في العُضْويّات ـ ومَظْهَرُها الرِّقَّةُ والحَدْبُ ـ هي سِرُّ كِيانِ المَوْجودِ الاجْتِماعيِّ وبَقائِهِ، وإنّ الطُّفولَةَ إذا لَمْ تُؤْخَذْ برَحْمَةِ الكِبَرِ فَلا بُدَّ أنْ تَقَعَ هُوَّةٌ بينَ الطَّوْرَيْنِ، تَذْهَبُ مُتَّسِعَةً كُلَّما ذَهَبَتِ الأيّامُ مُمْتَدَّةً، وتَمْتَلِئُ وتَطْفَحُ بالأحْقادِ، فَتَخْبو النَّشَواتُ المُغْرِيَةُ بالحَياةِ، لأنّ الطِّفْلَ لم يَعُدْ

---

(٧) مِنْ وَضْعِنا الحَديد بمَعْنى تَرْبيَةِ الطِّفْلِ، من ثلاثي: ربت.

يَجِدُ حاضِرَهُ اللّاذَّ في الكَبيرِ، ولأنّ الكَبيرَ لم يَعُدْ يَجِدُ في الطِّفْلِ مُسْتَقْبَلَ وُجودِهِ كحُلُمِ الخَمْرَةِ في العُنْقودِ.

فمِثْلُ نَظْرَةِ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ إلى الطِّفْلِ تُوَرِّثُ البُغْضَ الخَفِيَّ، وتُذْكي الصِّراعَ بينَهُما على نَحْوٍ غَيْرِ مَشْعورٍ بِهِ، فلا تَتَجاذَبُ أجْزاءُ الكائِنِ، بَلْ تَتَدافَعُ، ولا تَتَجانَسُ بل تَتَنافَرُ، وبذلكَ يَنْدَثِرُ حُبُّ الذّاتِ في مَظْهَرِهِ الاجْتِماعِيِّ وتَبْهَتُ أحْلامُهُ فَتَبْدو خابِيَةً.

إنّ النّبيَّ يبُثُّ، في الشّبابِ المُسْتَوي، الرّحْمَةَ على شَتّى أطْوارِها: بالشَّيْخوخَةِ لأنّـها الماضي، فهو يَسْتَميلُنا بالحَنينِ، وبالطُّفولَةِ لأنّـها المُسْتَقْبَلُ، فهو يَسْتَهْوينا بالأمَلِ، فَتَتَواصَلُ أطْرافُ الكائِنِ وتَتَّحِدُ في بَقاءٍ طَويلٍ، ومَحالٌ أنْ يَقومَ مُجْتَمَعٌ على القَسْوَةِ. فَنَحْنُ وآباؤُنا وأبْناؤُنا أطْوارُ كائِنٍ كُرَوِيٍّ واحِدٍ، يَدورُ ويُرينا في كُلِّ وَضْعٍ وحينٍ وَجْهاً، وكُرَةُ هذا الكائِنِ إنّما تَدورُ بالرَّحْمَةِ، فإذا نَفِدَتْ جَمَدَتِ الكُرَةُ وذَوَتْ فيها الرُّوحُ. والحَياةُ لا بُدَّ أنْ تَتَفَسَّخَ وتُجْتَوى إذا لم تَكُنْ دُنْيا مِنَ الرَّحْمَةِ، وهذا ما حقَّقَهُ النّبيُّ في فِرْدَوْسِهِ الّذي تَزْهو بِهِ أرْضُ العَرَبِ، ويَلْتَمِعُ إلى بَعيدٍ في إغْراء.

إنّ الطِّفْلَ حَيَوانٌ يَعيشُ بالغَريزَةِ، وبالرَّحْمَةِ يُسْتطاعُ جَعْلُهُ إنْساناً يَعيشُ بالقَلْبِ.

قالَ نُعَيْمانُ، ولمْ تُفارِقْهُ دُعابَتُهُ: لا غَرْوَ أنْ كانَتْ كُلُّ أَضْراسِكَ ـ أبا الدّرْداءِ ـ ضِرْسَ عَقْلٍ، أو لَعَلَّ لكَ، وَحْدَكَ من بينِنا، ذلكَ الضِّرْسَ... فَضَحِكوا وهمْ يَتَنادَوْنَ مُتَواثِبينَ إلى الرَّواحِ... «وسالَتْ بأعْناقِ المَطِيِّ الأباطِحُ»...

*

في بِلادِ العَرَبِ المُتبَدِّيَة وَضَعَ النّبيُّ تَصْميمَ مَدينَةٍ فاضِلَةٍ...

وما إنِ آسْتَوَتْ على قَواعِدِها، حتّى وَجَدَ فيها الظِّماءُ التّائِهونَ هَيْكَلَ السّعادَةِ الشّارِدَ...

ودُحِيَتْ لَبِناتُها من كُلِّ مِثاليَّةٍ آلتَقَى فيها الفِكْرُ والعَمَلُ، فَلَمْ تَغْلُ بالمِثاليَّةِ فَتطيرَ بها اللَّبِناتُ وتَذْهَبَ في شُرودٍ...

وكانَتِ الرَّحْمَةُ ناموسَ تَماسُكِها وتَجاذُبِها...

*

في هَياكِلِ هذهِ المَدينَةِ السّعيدَةِ كان حُسَيْنٌ يَحْبو...

وهو يتَسامى في مُنْبَثَقِ إشراقاتِها يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، كما تَتَسامى اللآلىءُ في رَقارِقِ النَّميرِ العَذْبِ...

فكانَ كائِناً كالألماسِ، صَقَلَتْهُ الأَضْواءُ وآنطَبَعَتْ فيه...

وغَدا، بَعْدَ حينٍ، مِشْكاةً مُتَألِّقَةً، تَميسُ في فَضاءِ الهَيْكَلِ السّعيدِ...

وتَهَبُ الحائِرينَ طُمَأْنينَةَ النُّفوسِ، وأَحْلامَ السُّعَداءِ!...

* * *

يوم الدولــة

أَصْبَحَ النّبيُّ وقدْ جَمَعَ إليهِ جَزيرَةَ العَرَبِ إلّا قليلاً، على أنَّ ذلكَ القليلَ كانَ ذاهِباً أيْضاً في طَريقِ سائِرِها، كما تَذْهَبُ الرَّحى راسِمَةً خَطَّ دائِرَتِها في غَيْرِ تَوَقُّفٍ. وكانَ لا بُدّ لهذه الرّحى، وفيها آنطِلاقٌ وفيها حَياةٌ، أنْ تَرْسُمَ دَوائِرَها واحِدَةً في أُخْرى أوْسَعَ مِنْها، حتّى تَتَّصِلَ أبْعَدَ ما يَكونُ الأُفُقُ المُطْبِقُ، الّذي هو، في نَفْسِهِ، أقْصى الدّوائِرِ في طاقَةِ الحياةِ.

والنّبيُّ، إلى هذهِ الآوِنَةِ من الزَّمَنِ، كانَ قَدْ قَذَفَ الدّينَ في حَياةِ العَرَبِ رُوحاً، وسَوّى الدَّوْلَةَ قُطْبَ الرّحى في حَرَكَةِ الحَياةِ الجَديدَةِ، فَآنطَلَقَتْ ولم تَقِفْ، وتَفَرَّجَتْ ولم تَنْكَمِشْ. وأبداً يَقَعُ مِقْياسُ الحَياةِ الشامِخَةِ في الحَرَكَةِ، بِمِقْدارِ ما تَسْتَطيعُ أنْ تَخُطَّ خُطوطاً جَديدَةً دائِماً، وتَنْثُرَ في مَدى خُطوطِها حَيَواتٍ لا تَغيضُ دَفَقاتُها، ولا تَخْبو إشْعاعاتُها، ولا تَبْهَتُ ألْوانُ أحْلامِها...

كانَتْ سَنَةُ سَبْعٍ، وكانَ النّاسُ يَسْتَقْبِلونَ بها عَهْداً جَديداً، فَقَدْ هَيّأَ النّبيُّ الأسْبابَ للإعْلانِ عنْ وِلادَةِ دَوْلَةٍ في المَنْأى البعيدِ المجهولِ القُوى، والمَمْدودِ الرَّغَباتِ. فَنَظَّمَ طائِفَةً مِنَ الرُّسُلِ إلى مَمالِكِ العالَمِ القَديمِ، تَحْمِلُ رِسالَةَ الدّينِ والدَّوْلَةِ جَميعاً، فقدْ أَضْحى نَبيَّ فِكْرَةٍ وزَعيمَ دَوْلَة.

وكانَتِ الفِكْرَةُ الّتي آنبَجَسَتْ مِنْ يَنْبوعِ النُّبوَّةِ، قَدِ آمْتَدَّتَ وهي تَمْتَدُّ، فكانَ

لا بُدَّ للدَّوْلَةِ، وقَدْ تَرَكَّزَتْ، أنْ تَتَحَرَّكَ لِتَمْتَدَّ أيْضاً. ودائِماً تَظَلُّ الفِكْرَةُ في إحْساسِ التّاريخِ هَزيلَةً، إذا لم تُرافِقْها الدَّوْلَةُ الّتي تَجْعَلُها خَلّاقَةً ومُغَيِّرَةً، والفِكْرَةُ لا تَكونُ قابِلَةً لِتقومَ على أساسِها الدَّوْلَةُ دائماً، وإنّما هي فَقَط الفِكْرَةُ الّتي آجْتَمَعَتْ[1] فيها كُلُّ قُوى التّاريخِ وقابِلِيّاتِهِ الرّاكِدَةِ، وآنبَعَثَتْ فيها على شَكْلٍ من الحَياةِ، وبذلِكَ تكونُ في آعْتِبارِ الزَّمَنِ أنّها منهُ، ومَصيرُ الأفْكارِ الأُخْرى أنّها تَسْتَحيلُ إلى نَأَماتٍ خافِتَةٍ في أُذُنِ الدَّهْرِ، وسَمْعِ التّاريخ.

ومِنْ طَبيعَةِ الفِكْرَةِ، الّتي تَجْتَمِعُ فيها قُوىً تاريخِيَّةٌ كُبْرى وتَنْجَحُ في إقامَةِ دَوْلَةٍ جَديدَةٍ وخَلْقِ تاريخٍ جَديدٍ، أنْ تَكونَ فيها عَناصِرُ الثَّوْرَةِ كامِلَةً، الثَّوْرَةِ الّتي هي ظاهِرَةٌ مِنْ يَقَظَةِ قُوى التّاريخِ الرّاكِدَةِ.

ولأنّ تَعاليمَ النّبيِّ من هذا النَّوْعِ الّذي آجْتَمَعَتْ فيهِ قُوى التّاريخ كانَتْ لا تَتَّصِلُ بمُجْتَمَعٍ إلّا وتَعْمَلُ فيه عَمَلَها، فَتُلْهِبُهُ وتُحْرِقُ عليه زُيوفَهُ وتُغَيِّرُهُ تَغْييراً تامّاً، حتّى كَأَنّ ما لَيْسَ منْها لَيسَ مِنَ الحَياةِ. بذلكَ نَجَحَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ونَجَحَتْ دَوْلَتُهُ، وفيها القُوى لِتَنْجَحَ كُلَّما حُرِّكَتْ وآنبَعَثَتْ.

وكانَتْ كُتُبُ النّبيِّ إلى المُلوكِ أوَّلَ دَعْوَةٍ مِنْ نَوْعِها في التّاريخِ، دَعْوَةٍ دَوْلِيّةٍ عامّةٍ للدُّخولِ في النِّظامِ الجديدِ، وُجِّهَتْ على شَكْلِ كِتابٍ رَسْميٍّ. كما كانَتْ إعْلاناً بوِلادَةِ دَوْلَةِ الإسْلامِ والعَرَبِ، الّتي في ضَميرِ الزَّمَنِ عنْها: أنّها كُلَّما وُلِدَتْ حَقّاً يتَغَيَّرُ وَجْهُ التّاريخ.

---

(١) ومَعْنى آجْتِمَاعِ قُوى التّاريخِ الرّاكِدَةِ في الفِكْرَةِ، أنْ تَشْتَمِلَ الفِكْرَةُ الجَديدَةُ على كُلِّ الضَّروراتِ الإصْلاحِيَّةِ، سَواءٌ في الأخْلاقِ والحياةِ والاجْتماعِ، ومِثالُهُ: أنّ القُوى التّاريخيّةَ الّتي ظَهَرَتْ في دَوْلَةِ فارِسَ ثُمَّ تَخَلَّفَتْ، وكَذلكَ في دَوْلَةِ الرّومانِ، ودُوَلِ الأرْضِ إذْ ذاكَ، وَجَدَتْ سَبيلَ ظُهورِها وقابليّةَ آنبِعاثِها في الفِكْرَةِ الجَديدَةِ الّتي دَلَّ عليْها النّبيُّ مُحَمَّدٌ، فَآنبَعَثَتْ فيها كُلُّ قُوى التّاريخِ الّتي كانَتْ قدْ رَكَدَتْ في الأُمَمِ حينَئِذٍ، وكَذلكَ كُلُّ فِكْرَةٍ في كُلِّ دَوْرٍ لا تَمْلِكُ قُوَّةَ الامْتِدادِ والحَياةِ والسَّيْطَرَةِ إلّا إذا كانَتْ فيها قابليّةٌ لآنبِعاثِ القُوى التّاريخِيّةِ فيها الّتي تَخَلَّفَتْ في أَوْضاعِ الأُمِ الأُخْرى.

في هذهِ الفَتْرَةِ كُنْتَ تُحِسُّ في كُلِّ نَحْوٍ من أَنْحاءِ المَدينَةِ بحَرَكَةِ نَشاطٍ غَريبَةٍ، وتَسْمَعُ هَمَساتٍ مُسْتَطيلَةً مُتَّصِلَةَ الهَمْهماتِ، ولمْ يَكُنْ لِلنّاسِ حَديثٌ إلّا حَديثَ الكُتُبِ، وماذا سَيَكونُ رَجْعُها وَرَدُّ المُلوكِ عليْها؟ وكانَ، في الطَّريقِ الآخِذِ إلى العَوالي، جَماعَةٌ آنتَحَتْ بنَفْسِها ناحِيةً ظَليلَةً تَكاثَفَتْها أَوْراقُ الأَغْصانِ الوارِفَة.

فقالَ قائِلٌ: أَمَا تَرَوْنَ أَنّها مُحاوَلَةٌ خَطِرَةٌ، قَدْ تؤَلِّبُ عَلَيْنا جَماعاتِ الأُمَم، وهي تُحيطُ بجَزيرَتِنا إحاطَةَ السُّوارِ بالمِعْصَمِ، فإنّ نَفْسي تَنْتاشُها المَخاوِفُ، وتَتَقَسَّمُها شَعاعاً.

قالَ المِقْدادُ بْنُ الأَسْوَدِ: لا يَنْتَفِخْ سَحْرُكَ[2] بآلأَوْهامِ، ولا تُرَعْ، وسَرِّ عن نَفْسِكَ المَخاوِفَ. إنّ لنا مِنْ قُوانا الجميعَةِ ما يَجْعَلُنا كُتْلَةً مِنَ الصُّلْبِ، مِنْ وَرائِها الإيمانُ يَشُدُّنا، ومِنْ وَراءِ الإيمانِ اللّهُ واهِبُ القُوى والقَدَرِ، فَلَسْنا نَرْهَبُ عاتياً من البَشَرِ. وإنّ النَّفْسَ الّتي رَأَتْ وُجودَها في اللّهِ، تَتَطاوَلُ بِها القُوى، وتَتَقاصَرُ في مَدى آعْتِبارِها أَيَّةُ قُوىً أُخْرى، فتنقَذِفُ، وهي قِلَّةٌ راعِدَةٌ، مِنْ مَصْدَرِ القُوَّةِ الكُبْرى. وحَظُّ الإنْسانِ مِنَ الحَياةِ، كما هو في مِرآةِ نَفْسِهِ الّتي هي يَنْبوعُ المُطْلَق، وليسَ كما هو في مِرآةِ الوُجودِ الّتي لا تَعْكِسُ إلّا نِسْبيَّةً وظِلالاً خادِعَةً مُخْتَلِطَةً. وإنّ الوُجودَ كائِنٌ بَسيطٌ، وهو لا يَمْلِكُ إلّا حقائِقَ بسيطَةً، وأمّا حقائِقُ الوُجودِ العُظْمى فهي من هِباتِ الإنْسانِ على الوُجودِ. والإنْسانُ ليسَ كائِناً مُنْفَصِلاً مِنَ الوُجودِ فَقَطْ، بلْ هو أَداةُ خلْقٍ وتَكْميلٍ فيه... فالحَياةُ وأَشْياؤُها، والوُجودُ المَعْنَوِيُّ وفِكْرَتُهُ، بِدْعَةُ هذا الإنْسانِ العَجيبِ الّذي لَوْلاهُ لَظَلَّ الوُجودُ بَسيطاً ساذَجاً خُلْواً من الإغْراء.

والإنْسانُ الّذي لا يَفْتَأُ يَطْلُبُ كِبْرِياءَ الوُجودِ، ويُحِسُّ بنَشْوَةِ وُجودِهِ في حُدودِ هذهِ الكِبْرياءِ، بلْ لا يُحِسُّ بالوُجودِ بَعيداً، ليسَ كائِناً طَبيعيّاً، وإلّا فهو،

(٢) تَعْبيرٌ كِنائيٌّ آسْتَعْمَلَهُ العَرَبُ في الجاهِلِيّةِ وفي الإسْلامِ تَعْني: لا يَمْلأُ الرُّعْبُ والهَلَعُ أَحْشاءَكَ ورِئَتَيكَ.

كَكائِنٍ طَبيعيٍّ، شَيءٌ تافِهٌ مِثْلُ أيِّ كائِنٍ آخَرَ يَنْمو ويَذْوي بَيْنَ فَتَراتٍ مِنَ الزَّمَنِ.

والإيمانُ باللّهِ الّذي دَعا إليه الإسلامُ، في حَقيقَتِه، إيمانٌ بالإنْسانِ، وهَدْمٌ للإيمانِ بالوُجودِ الصّامِتِ الّذي هو وثَنِيَّةٌ تَحُولُ بَيْنَ الإنْسانِ والإيمانِ بنَفْسِهِ ومَعْرِفَتِها، وإلى هذا يَرْمُزُ قَوْلُ النّبيِّ الأعْظَمِ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهَ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ».

فالإنْسانُ كائِنٌ إلهِيٌّ إذا فَهِمَ نَفْسَهُ، وكُلَّما رَسَبَ إلى الطّبيعَةِ، وآمَنَ بقُواها، فقَدْ رَسَبَ وتَلاشى في غِمارِ الوُجودِ الصّامِتِ، وعادَ كَحَفْنَةٍ هامِدَةٍ مِنَ الرِّمالِ. والنّبيُّ بَشَّرَ بالإنسانِ «ولَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ» وحارَبَ الوَثَنِيَّةَ لأنّها كُفْرٌ بهِ، وآرْتدادٌ إلى تَأليهِ مَظاهِرِ الوُجودِ الخادِعَةِ، وجاءَ بتَوْحيدِ الآلِهَةِ لأنَّها كُلَّما تَعَدَّدَتْ تَلاشى الإنْسانُ في ساحَتِها.

وما آنكَسَفَ قَمَرُ الإنْسانِ في أُمَّةٍ، وآرْتَدَّتْ بعِبادَتِها إلى تَقْديسِ الطّبيعَةِ دونَ الإنْسانِ، إلّا هَوَتْ مُضْمَحِلَّةً، وكانَ ذلكَ أوَّلَ عَلائِمِ آحْتِضارِها، فإنَّ الإنْسانَ، وحْدَهُ، هو الحَقيقَةُ الكُبْرى في الحَياةِ والوُجودِ حين خَلَقَهُ اللّهُ على صورَتِه.

والقُوَّةُ ـ يا هذا ـ كَيْفِيَّةٌ لا كَمِّيَّةٌ، ولَيْسَتْ كما هي في مِرْآةِ الوُجودِ، بل كما هيَ في وِجْدانِ الإنْسانِ، والظَّفَرُ دائِماً يَكونُ بخَيالِ القُوّةِ ومُبالَغاتِها في النّفْسِ «كَمْ منْ فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَةً بإذْنِ اللّهِ». فَوَاللّهِ لَوْ قَذَفَ بِنا النّبيُّ إلى بَرْكِ الغِمادِ وإلى كُلِّ مدائِنِ كِسْرى وقَيْصَرَ ما وَنَيْنا ولا نَكَلْنا؛ ونَحْنُ لا بُدَّ ظافِرونَ.

قالَ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ: عَهِدْنا بكَ أنّكَ بَطَلٌ، فَها أنْتَ حَكيمٌ أيْضاً...

قال المِقْدادُ: إنّ البُطولةَ مَعْرِفَةُ الإنْسانِ نَفْسَه، فإذا بَرَزَتْ في العَمَلِ قيلَ عنْها بُطولةٌ، وإذا بَرَزَتْ في الفِكْرِ قيلَ عنْها حِكْمَةٌ. فالبُطولةُ حِكْمَةٌ صامِتَةٌ، ولنْ يَكونَ المَرْءُ بَطَلاً إلّا إذا سَبَقَ وعَرَفَ نَفْسَه، أي كانَ حَكيماً، والنّبيُّ سَبَقَ وعَرَّفَنا بأنْفُسِنا،

فَلا جَرَمَ إنْ كانَ كُلُّ أَتْباعِ مُحَمَّدٍ أبطالاً.

وبَيْنا هُمْ على تَبسُّطِهِمْ في الحَديثِ، عَرَضَ راكِبٌ مُجِدٌّ يُغذُّ الخُطى غَذّاً، وحينَ حاذاهُمْ قامَ إليهِ الجَمْعُ وحَفُّوا بِهِ مُلْقينَ إليه رُؤوسَهُم.

وقالوا بلَهْجَةِ المُنْتَظِرِ: ما وَراءَكَ؟ وكانَ هو الرسولَ الّذي بَعَثَهُ النَّبيُّ بالكِتابِ إلى كِسْرى.

قالَ الرّاكِبُ، وقدْ أَلْوى رَأْسَهُ حتّى حاذى رُؤوسَهُم: إنَّ كِسْرى بَلَغتْ بِهِ حَماقَتُهُ أنّهُ مَزَّقَ كِتابَ رَسولِ اللّهِ مُسْتَخِفّاً حانِقاً، فَمَا أَتَتْ عليْهِ لَيْلَتُهُ سالِماً عَدا عليهِ آبْنُهُ فَقَتَلَهُ، وقامَ مَقامَهُ، وشَمَلَ النّاسَ كافَّتَهُمْ نَوْعٌ، بل أنْواعٌ، من الذُّهولِ والدَّهْشَةِ والاضطِّرابِ، وتَرَكْتُهُمْ وهم يَموجونَ كالآذِيِّ ذي الأمْواجِ العارِماتِ... فَتَعَلَّقوا بمُساءَلَتِه من كُلِّ جانِبٍ، ولكنّهُ حَثَّ مَطِيَّتَهُ وآنطَلَقَ يَسيرُ، فآنقَلَبوا إلى بَعْضِهِمْ يتَعَجَّبون.

قالَ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ: لقدْ صَدَقَ المِقْدادُ واللّهِ حينَ قالَ: إنَّ الإيمانَ إذا خَبا، حَلَّ مَحَلَّهُ جَهْلُ الإنْسانِ قيمَتَهُ. والمُثُلُ العُلْيا والمَعْنَوِيّاتُ الخالِدَةُ، وهي تَنْبُعُ مِنْ مَعْرِفَةِ الإنْسانِ بِنَفْسِهِ، لا يَعودُ لها وُجودٌ في جَوِّهِ وفَضائِهِ، فَيُسَيْطِرُ عليهِ نَوْعٌ حادٌّ من التَّفاهَةِ يَقْعُدُ به عَنِ المجدِ، ونَوْعٌ حادٌّ آخَرُ من المَلالِ يَهْبِطُ بِهِ إلى الرَّغامِ. وفي ما نَقَلَ إلينا الرَّسولُ الآنَ مِنْ حالِ الفُرْسِ شاهِدٌ جِدُّ خَطيرٍ، فهُمْ أُمَّةٌ جَهِلَ الإنْسانُ فيها قيمَتَهُ، فلا بُدَّ أنْ تَعودَ ولا قيمَةَ لَها، رُوَيْدَ أنْ تُشرِقَ عليهِمْ شَمْسُ إنْسانِيّتِنا الجَديدَة.

ولمْ يَكُنْ طَويلاً حتّى خَفُّوا، بعْضُهُم في إثْرِ بَعْضٍ، وَوافَوْا المدينَةَ، وكانَ النّاسُ يَموجونَ مَوْجاً، فَقَدْ هَبَطَ أيْضاً الرّسولُ إلى قَيْصَرَ وهو يَنْقُلُ مِقْدارَ آحْتِرامِ قَيْصَرَ لِلْكِتابِ، وهَبَطَ سائِرُ الرُّسُلِ الآخَرونَ يَنْقُلونَ مِثْلَ ذلكَ؛ فبارَكَهُمُ النّبيُّ ونادى

المُؤَذِّنُ «حَيَّ على الصَّلاةِ، حَيَّ على الفَلاحِ» فٱسْتَوى النّبيُّ في مُصَلّاهُ، وخَفَّ النّاسُ يَنْتَظِمونَ صُفوفاً.

قالَ قائِلٌ لآخَرَ، وقدْ تَوَجَّهَ النّاسُ يُكَبِّرونَ بالصَّلاةِ: إنّي لَيَسْتَخِفُّني شُعورٌ عَنيفٌ أنا مَعَهُ جِدُّ مُغْتَبِطٍ، فَقَدْ طَفَرْنا إلى قِمّةِ التّاريخِ، وغَدَوْنا أُولي فِكْرَةٍ أسْمى ما يَكونُ الفِكْرُ، وأُولي مُجْتَمَعٍ أسْمى ما يَكونُ المُجتَمَعُ، وإنّه سَيَظَلُّ لنا تَذْكارانِ خالِدانِ: يَوْمُ الهِجْرَةِ وهو تَذكارُ نَجاحِ النُّبوَّةِ، ويَوْمُ الرُّسُلِ أوِ السُّفَراءِ وهو تَذْكارُ نَجاحِ الدَّوْلَةِ. «وجاء حُسَيْنٌ يَشْتَدُّ بينَ الصُّفوفِ، وقدْ سَجَدَ النّبيُّ يُصَلّي فٱلْتَزَمَ عُنُقَهُ، فَقامَ وأخَذَهُ بِيَدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُمْسِكُهُ حَتّى رَكَعَ».

مَضَتْ سَنَةُ سَبْعٍ وأُهِلَّتْ سَنَةُ ثَمانٍ، وكانَ الحُسَيْنُ قدْ شارَفَ الرّابِعَةَ أو عَبَرَها، حينَ ٱتَّجَهَ النّبيُّ لِدَكِّ آخِرِ مَعْقِلٍ من معاقِلِ الأوْهامِ، (مَكّةَ)، الّتي هَوَتْ بالإنْسانِ إلى دَرْكِ التّاريخِ، ومَلأَتْ أجْواءَهُ بالأساطيرِ، حتّى ٱنقَلَبَ معَها وهو أُسْطورَةٌ حَيّةٌ، وٱنقَلَبَتْ دُنْياهُ الّتي يَحْياها وهيَ حَياةٌ في أُسْطورَة.

هَبَطَتْ جُموعُ النّبيِّ مَكّةَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، ودَلَفوا إلَيها مِنْ كُلِّ حَدْبٍ، وبَرَزَ النّبيُّ كالنَّسْرِ الطّائِرِ، وهو رَمْزُ فِكْرَةٍ وتَفَوُّقٍ، وسارَ حتّى دَخَلَ البَيْتَ، ومِنْ أيّةِ جِهاتِهِ أوْهامٌ مُتَجَسِّدَةٌ (أصْنامٌ)، عَبَدَها الإنْسانُ، فكانَ يُشيرُ إليها بِيَدَيْه كِلْتَيْهِما، ويَهْتِفُ بكَلِمَةِ اللّهِ القارِعَةِ «جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنّ الباطِلَ كانَ زَهوقاً». فَهَوَتْ مُكِبَّةً، وغابَ رَجْعُ صَداها في الغَوْرِ السَّحيقِ، وتَمَجَّدَ الحقُّ يَوْماً في دُنْيا الإنْسانِ، وعَرا النّاسَ جَلالُ المَوْقِفِ، وراحوا في يَقَظَةِ ٱسْتِغْراقٍ كانَتْ واعِيَةً، وجرى على لِسانِ فُضالَةَ اللّيْثيّ:

لو ما رَأيْتَ مُحَمّداً وجُنودَهُ   بالفَتْحِ يَوْمَ تَكَسُّرُ الأصْنامُ
لَرَأيْتَ نورَ اللّهِ أصْبَحَ بينَنا   والشِّرْكُ يَغْشى وَجْهَهُ الإظْلامُ

وحُشِدَتْ قُرَيْشٌ أُشاباتٍ أُشاباتٍ، وراحَ النّبيُّ يَخْطُرُ بينَهُم، ورُؤوسُهُمْ قد ساوَتِ الصُّدورَ.

قال: ما تَرَوني فاعِلاً بِكُم؟

قالوا: أخٌ كَريمٌ وآبْنُ أخٍ كَريمٍ!

فَقالَ، وقد جَمَعَ نُبْلَ الإنْسانِ من أطْرافِهِ: إذْهَبوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقاءُ!...

ورَدَّدَ الصَّدى في كُلِّ مَكانٍ «إذْهبوا فأَنْتُمُ الطُّلَقاءُ»، الّذي كان إعْلاناً للبَشَرِيَّةِ بأنّ هذا يَوْمُ حُرِّيَّتِها. فلمْ تَكُنْ حَرْبُ النّبيِّ عُتُوّاً وآضطِّهاداً وقدْ وَجَدَ سَبيلَهُ إلَيْهِما، وإنّما كانَتْ خَلاصاً وتَحريراً لكيْ يتنفَّسَ الإنْسانُ بِمِلْءِ رِئتَيْهِ في العَراءِ...

وتَرَدَّدَ في الدَّهْرِ أنّ مُحَمّداً أطْلَقَ القَفيرَ، وكَسَرَ قُيودَه...

وراحَ الفَراشُ يَطِنُّ في الحُقولِ تَتَحاضَنُهُ أيْدي الزَّهَرات.

قَفَلَ النّبيُّ راجِعاً إلى المَدينَةِ، وقدِ آزْدَهَتْ بِبَهَجاتِها، وأصْبَحَتْ وفي كل بَيْتٍ صَدى فَرْحَةٍ آنطَلَقَتْ مُتَماوِجَةً وكَبيرَةً، وكانَ النّبيُّ يُلَبّي دَعَواتِهِمْ ويُشارِكُهُم مِراحَ الظَّفَرِ وفَخارَه.

قالَ يَعْلى بْنُ مُرّةَ: «خَرَجَ رَسولُ اللّهِ إلى طَعامٍ وأنا مَعَهُ، فإذا حُسَيْنٌ في السِّكَّةِ مَعَ غِلْمانٍ يَلْعَبُ. فَتَقَدَّمَ النّبيُّ أمامَ القَوْمِ وبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الغُلامُ يَفِرُّ ها هُنا وها هُنا، وجَعَلَ رَسولُ اللّهِ يُضاحِكُهُ حتّى أخَذَهُ، فَوَضَعَ إحْدى يَدَيْهِ تَحْتَ قَفاهُ والأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ وقَبَّلَهُ، وقالَ:

حُسَيْنٌ مِنّي وأنا من حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً، وحُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الأسْباط».

*

نُحِبُّ البُنُوَّةَ لأنّها خُلودٌ للذّات...

وفي الحُسَيْنِ كان النّبيُّ يَرى خُلودَ ذاتِهِ...

فلا جَرَمَ إنْ كانَ يَغْمُرُهُ بهذا الحُبِّ لأنّه آسْتِمرارُ ذِكْرى النُّبوَّةِ...

*

ضَمَّهُ إليهِ مَلِيّاً بينَ الحُبِّ والمجدِ...

وحَنا طَويلاً عليهِ بينَ القَلْبِ والفِكْرِ...

فكانَ لهُ مِنْ قَلْبِهِ وفِكْرِه جَميعاً...

وظَلَّ أبَداً رَمْزَ مَجْدٍ شامِخٍ، وقُبْلَةَ حُبٍّ كَتَنَفُّسِ أزْهارِ السِّحْرِ وعَبَقِ الخُلْدِ!...

*

الحُبُّ شُعورٌ إلى شُعورٍ، وخَفْقَةُ قَلْبٍ إلى خَفْقَةِ قَلْبٍ...

والشُّعورُ جَوْهَرٌ فَرْدٌ ليسَ يَنْقَسِمُ...

فكانَ حُسَيْنٌ منهُ وكانَ مِنْ حُسَيْنٍ!...

*

إذْهَبوا فأَنْتُمُ الطُّلَقاءُ!...

خِطابٌ لقُرَيْشٍ مُشيراً إلى كُلِّ إنْسانٍ في كُلِّ مَكانٍ...

ليَقِفَ شاعِراً بوُجودِه على حُطامِ الأغْلالِ ورُفاتِ أرْبابِ القُيودِ...

فهذا صَوْتٌ مِنَ السّماءِ ينادي بالحُرِّيّةِ ويُنادي بالخَلاصِ...

إذْهَبوا فأَنْتُمُ الطُّلَقاءُ!...

كَلِمَةٌ صَدَرَتْ مِنْ رِسالَةِ مُحَمَّدٍ وبَيْتِ مُحَمّد...

فكانَتْ إيذاناً بأنّ مَوْكِبَ الحُرِّيَّة مِنْ هذا البَيْتِ يَسيرُ، وفي الطَّليعَةِ أبَداً يَكونُ...

وطَبيعةُ الطّليقِ، لا تَجْعَلُهُ بأعْباءِ هذا الأمْرِ خَليقاً!...

فأبْناءُ الإسارِ يَنْطَبِعونَ على شَهْوَةِ الأسْرِ!...

فقد عَشَّشَتِ القُيودُ في رُوحِيَّتِهِمْ وتَوَلَّدَتْ منْها عَقْلِيَّتُهم!...

*

ولكنْ حاوَلَ الطَّليقُ الانْتِهازَ وكان...

فعادَتْ قُيودُ السِّجْنِ والسَّجّان...

فَحَمَلَ حُسَيْنٌ ـ وهو راموزُ بَيْتِ الحُرِّيَّـةِ وحارِسُها ـ الشُّعْلَةَ المُقَدَّسَةَ إلى كُلِّ مَكان...

فقدْ سَمِعَ زُمْرَةً تُحْرِقُ الأُرَّمَ مِنْ وَراءِ القُبورِ، فَأَعْلَنَ النُّكْران...

وهَبَّ تَحْتَ صَوْتِ الواجِبِ يُغالِبُ البُحْران... وهو وإنْ لَمْ يَكْبَحْ جِماحَ الطُّغْيان...

فَقَدْ تَرَكَ في جَنْبِهِ ثَوْرَةَ البُرْكان...

* * *

دمـــوع

كَثيراً ما كانَ النّبيُّ يُرى، في أُخْرَياتِ أيّامِهِ، بينَ ذَويه وأبْنائِهِ يُؤانِسُهُمْ، ويَطْمَئِنُّ في نَشْوَةٍ خَفِيَّةٍ إلى أشْياءِ لَهْوِهِمِ البَريءِ ومَرَحِهِمِ الحُلْوِ، ويُعاطِيهِمْ أسْبابَ هذا اللّهْوِ وهذا المَرَحِ، ويَمُدُّ لهمْ فيهِما، فقدْ حقّقَ حُلُمَ المجدِ وأدّى غايَةَ الرّسالَةِ القُصْوى، فهوَ يَشْعُرُ بالاطْمِئْنانِ والرِّضا، ويُحِسُّ بتَزاحُمِ سُرورٍ عَميق.

وكانَ يَأْنَسُ كَثيراً إلى هذا الجَوِّ الّذي تَشيعُ فيهِ حَرَكاتُ الطُّفولَةِ ناعِمَةً ببَراءَتِـها، هانِئَةً بسَذاجَتِها، مُنْتَشِيَةً بطَراوَتِها... وهيَ، رُغْمَ قَسْوَتِها أحْياناً، تَجِدُ وَقْعَها اللّذيذَ، فإنّ البَراءَةَ جَمالٌ على شَتّى صُوَرِها وألْوانِها.

والطُّفولَةُ، وَحْدَها، أثْبَتُ حَقائِقِ الحَياةِ، وما وراءَها سُخْرِيّاتٌ وأشْباهُ سُخْرِيّاتٍ تَبْدو خَشِنَةً، وكُلَّما أوْغَلْنا في مَدى الحَياةِ تَزيدُ خُشونَةً وتَوَعُّراً. وحينَ تُدْرِكُنا لَذّاتُها عَرَضاً فإنّما تَكونُ في شَكْلٍ مِنْ أشْكالِ الرَّجْعَةِ إلى الطُّفولَةِ، وفي إنْضاءِ زُيوفٍ ثَقيلَةٍ مِنْ أثْوابِ التَّكَلُّفِ المُرْهِقَةِ... والتَّكَلُّفُ رِياءٌ وأنانِيَّةٌ على كُلِّ وُجوهِهِ، ولذلكَ انْصَرَفَ جُهْدُ النّبيِّ إلى أنْ يَضَعَ في كُلِّ الحَياةِ بَراءَةَ الطُّفولَة.

ونَحْنُ لا نَسْتَطيعُ الرَّجْعَةَ إلى الطُّفولَةِ وبَعْثَها مِن جَديدٍ على أيّةِ صُوَرِها، كَمَا نَعْجِزُ دائِماً عن خَلْقِ جَوِّها المُتْرَفِ، فَنَطْلُبُها في الطِّفْلِ بتَشَوُّقٍ مُلِحٍّ، وفي نَوْعٍ من الحَنينِ الآسِرِ، ليَغْمُرَنا برُوحِيَّتِها الّتي تَظَلُّ فينا أمَلاً مَنْشوداً، ورَغْبَةً حادّة.

والنّبيُّ كانَ يَجِدُ طُفولَةَ حَياتِهِ اللّاذَّةَ في أبْنائِهِ كما كانَتْ وعلى ما كانَتْ، فَيَأْخُذُهُمْ بصُنوفِ اللِّعابِ في حَنانٍ وآفتِرارٍ. وكثيراً ما كانَ يُرى الحَسَنُ والحُسَيْنُ يَصْطَرِعانِ وهو يُحَمِّسُهُما، أو يَلْعَبانِ بالمداحي[1] وهو يَعُبُّ الهَناءَةَ عَبّاً، ويَتَمَلَّأُ مِنْها، ويَتَذَوَّقُ «حَلواءَ البنينَ» الّتي هي النَّشوَةُ الكُبْرى في ظِلالِ العُمْرِ. فإنّ لَذاذَةَ الحَياةِ تَقومُ في نَشْوَتَيْنِ: نَشْوَةٍ بالطُّفولَةِ، ونَشْوَةٍ بذِكْراها في الطِّفْلِ، وما بَقِيَ من فُصولِ الحَياةِ هَجيرٌ كَهَجيرِ الظَّهيرَةِ، ولَذْعٌ كَلَذْعِ اللَّهَبِ، وحُرْقَةٌ تَنْتَهي بَمَرارَتِها.

والطِّفْلُ طائِرٌ يَرِفُّ بينَ أَيْدينا لِنَلْحَقَ به إلى جَوِّ حَقائِقِه وأَحْلامِنا، وكَأَنَّ الحَياةَ تَضَعُ الحَقيقَةَ العارِيَةَ السَّعيدَةَ، بكُلِّ فُتونِها، بينَ يَدَي الطِّفْلِ، فَيَغْرَقُ في خُمارِها زَمَناً، ولكنّها تَنْأى وهو في قِمَّةِ شُعورِهِ باللَّذَّةِ المُطْلَقَةِ، فَيَحْبو وراءَها في لَهَفاتٍ، ثُمَّ يَعْدو في لَهَثاتٍ، وهي تَنْأى وتَنْأى حتّى تَحورَ في كَوْنٍ مِنَ الضَّبابِ يَحولُ الأُفُقُ دونَها، ويَنْقَطِعُ بالحَيِّ المَسيرُ فَيَسْتَغْرِقُ حالِماً، هائِماً، فقدْ سَقَطَ في السَّرابِ، تَطوفُ بِهِ وتتنازَعُهُ أحْلامُ الماء.

وإذْ يَصْطَرِعانِ، كانَ النّبيُّ يُهيجُ حَرَكاتِ طُفولَتِهِما المُتَشابِكَةِ التي هي رَمْزُ عَبَثٍ في جِدٍّ، وجِدٌّ في عَبَثٍ، تَنتَظِمُها براءَةٌ مارِحَة.

فَيَقولُ: «إيهاً حَسَنُ».

قالَتْ فاطِمَةُ: أَتَسْتَنْهِضُ الكَبيرَ على الصَّغيرِ؟!

قالَ: هذا جِبْريلُ يَقولُ: «إيهاً حُسَيْنُ!».

وجِبْريلُ رَمْزٌ من المُطْلَقِ، وآسْمٌ من المِثالِ، وفي لَحْظَةِ آسْتِغْراقٍ وآسْتِعْلاءٍ طافَتْ بنَفْسِ النّبيِّ صُورَةٌ مِنَ التَّجْريدِ بَرَزَتْ مُجَسَّمَةً ومُكَبَّرَةً، وهي تُشارِكُهُ نَشْوَتَهُ

---

(١) المَداحي: أَحْجارٌ، كانوا يَحْفِرونَ حَفيرةً ويَدْحونَ فيها بِتِلْكَ الأَحْجارِ، فإنْ وَقَعَ الحَجَرُ فيها فَقَدْ غَلَبَ صاحِبُها، وإنْ لمْ يَقَعْ غُلِبَ، والدَّحْوُ رَمْيُ اللّاعِبِ بِالحَجَرِ والجَوْزِ وغَيْرِه. أي أشبه ما تكون بالغولف اليوم.

وبَهْجَةَ ما يَجِدُ حِيالَ مَرَحِ سِبْطَيْهِ. ولمْ يَكُنْ جِبْريلُ غَريباً عَنْ جَوِّهِ، فهوَ رَمْزُ رِسالَتِهِ، ولم يَكُنْ حُسَيْنٌ بَعيداً عن قَلْبِهِ، فهو رَمْزُ حُبِّهِ. وفي هذا الاسْتِنْهاضِ التَمْثيليّ رَمْزِيَّةٌ تُشيرُ إلى أنَّ الحُسَيْنَ سَيَكونُ رائِدَ الرِّسالَةِ وعَلَمَ الهُدى، ففي أعماقِ ضَميرِهِ صَوْتٌ مِنَ الغَيْبِ يَتَرَدَّدُ أبداً: إيهاً حُسَيْنُ!...

مَعَ الأصيلِ كان في أقْصى الصَّحْراءِ راكِبٌ يَسيرُ بينَ الجِدِّ والهُوَيْنا آخِذاً نَحْوَ المَدينَةِ، وهو يَبْدو من بَعيدٍ كُرَةً يُدَحْرِجُها الأُفُقُ على الرِّمالِ، والصَّحْراءُ هَيْكَلُ أبَدِيَّةٍ مَكْشوفَةٍ، تَتَمَدَّدُ في النَّفْسِ على رُحْبِها، فَتَتَمَدَّدُ بها النَّفْس لا مُتَناهِيَةً تطالِعُ المَجهول.

وكانَ الرّاكِبُ أبا ذُؤَيْبٍ الشّاعرَ الحَزينَ الّذي ضَفَّرَ الحُزْنُ على هامَتِهِ إكْليلاً تَناثَرَتْ أوراقُهُ، وبَقِيَتْ أشْواكُهُ القاسِيَةُ تَأْبُرُهُ في خَطَراتِ الذِّكْرى، وخَلَجاتِ الحَنينِ، ورَجْفَةِ الهَوى، وتَأَوُّداتِ الطَّيْف[٢].

والصَّحْراءُ يَنْبوعُ ذِكْرَياتٍ سِيَّما لِنَفْسِ إنْسانٍ مَحْزونٍ تَكَسَّرَتْ أصْداءُ الأسى في أُذُنَيْهِ، فهوَ يُحِسُّ بَوَقْرِها في الخَلاءِ ضاجّاً عَنيفاً، والنَّفْسُ البائِسَةُ يَزْدادُ فيها صِدْقُ الحِسِّ والحَدْسِ، وتتأثَّرُ بالفَواجِعِ من بَعيدٍ،وَبرعَشاتِ الغَيْبِ والمجهول.

عَرَتْهُ، والمَطِيَّةُ تَتَهادى بِهِ، هِزَّةُ شَجِيٍّ، وتَأَوَّدَتْ في أعْطافِ الصَّحْراءِ أمامَ ناظِرَيْهِ طُيوفٌ رامِزَةٌ. «وكانَ قَدْ بَلَغَهُ أنّ النَبيَّ عَليلٌ، وكانَ قَدِ آسْتَشْعَرَ حُزْناً مُذيباً، وكانَ قَدْ باتَ بأَطْوَلِ لَيْلَةٍ لا يَنْجابُ دَيْجورُها، ولا يَطْلُعُ نورُها قَبْلَ أنِ آبْتَدَأَ المَسيرَ، فَهَوَّمَ مَعَ السَّحَرِ، فَسَمِعَ صَوْتَ الشّاعِرِ يَهْتِفُ به في الأحْلامِ:

خَطْبٌ أَجَلُّ أناخَ بالإسْلامِ بَيْنَ النَّخيلِ ومَعْقِدِ الآطامِ

---

(٢) عَيْنِيَّتُهُ أَجْمَلُ ما قيلَ في الرِّثاءِ والتَّفَجُّعِ ومِنْها البيتُ الذّاهِبُ مَثَلاً:

وإذا المَنِيَّةُ أنْشَبَتْ أظْفارَها ألْفَيْتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنْفَعُ

قُبِضَ النَّبيُّ مُحَمَّدٌ، فَعُيونُنا تَذْري الدُّموعَ عَلَيْهِ بالتَّسْجامِ

قال: فَأُصْحيتُ من مَنامي فَزِعاً، فَنَظَرْتُ فلمْ أَرَ إلّا سَعْدَ الذّابح، فَأَوَّلْتُهُ ذَبْحاً يَقَعُ في العَرَبِ، وعَلِمْتُ أنّ النَّبيَّ قَدْ قُبِض.

فَحَثَثْتُ راحِلَتي وسِرْتُ. فَلَمّا أصْبَحْتُ طَلَبْتُ شَيْئاً أَزْجُرُ بِهِ، فَعَرَضَ لي شَيْهَمٌ، قَدْ قَبَضَ على صِلٍّ، فهي تَلْتَوي عليهِ والشَّيْهَمُ يَقْضُمُها حتّى أَكَلَها، فَزَجَرْتُ ذلك وقُلْتُ: شَيْهَمٌ، شَيءٌ هَمّ. وآلتِواءُ الصِّلِّ: تَلَوّي النّاسِ على القائِمِ بَعْدَ رَسولِ اللّهِ».

فأَدْرَكَتْني حَيْرَةٌ مُتَلَظِّيَةٌ عَرَضَ لي فيها شَبَحُ إنْسانٍ مُجِدٌّ نَفَقَتْ تَحْتَهُ راحِلَتُه من طولِ ما حَمَّلَها وراحَ يُحَمِّلُها، ولمْ يَقْعُدْ بِهِ الانْقِطاعُ بلْ هَبَّ في غَيْرِ تَوَقُّفٍ، يَخْطو خُطُواتٍ واسِعاتٍ، فَقُلْتُ في نَفْسي: لأَمْرٍ ما جَدَعَ قَصيرٌ أَنْفَه!!

«فَمَدَدْتُ الخُطى مَدّاً عَنيفاً حَتّى هَبَطْتُ المَدينَةَ، ولها ضَجيجٌ بالبُكاءِ كضَجيجِ الحَجيجِ إذا أَهَلّوا بالإحْرامِ، وهم في ذُهولٍ مُسْتَطيلٍ ووُجومٍ.

فَقُلْتُ: ما الخَبَرُ؟

قالوا: قُبِضَ النَّبيُّ!

فَجِئْتُ إلى المَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ خالياً، فَأَتَيْتُ بَيْتَ النَّبيِّ فَوَجَدْتُ بابَهُ مُرْتَجاً، وقيلَ: هو مُسَجّىً وقدْ خَلا بِهِ أَهْلُهُ.

فقلتُ: أينَ النّاسُ؟

قيل: في سَقيفَةِ بَني ساعِدَة»(٣).

وفيما أنا في بَعْضِ طُرُقِ المَدينَةِ أَمْشي مِشْيَةَ الحَزينِ الحائِرِ، رَأَيْتُ عارِضَ

(٣) راجع: **حياة الحيوان الكبرى** للدميري، ج٢، ص: ٦٧.

الصَّحْراءِ فَتَبَيَّنْتُهُ، فإذا هو مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ عَرَتْهُ سَحابَةُ حُزْنٍ صامِتٍ مَكْظوم، فَتَلَقَّيْتُهُ بينَ يَدَيَّ، وقُلْتُ: أأَنْت؟!

فآنفَجَرَ وآنفَجَرْتُ معهُ بدُموعٍ حِرارٍ تَزيدُ الجَوى لَوْعَةً، والأَسى لَذْعاً، وكانَ نَشيجُهُ مَريراً كَمَنْ ثكِلَ كُلَّ ذَويه في مِيتاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ مُتَلاحِقَةٍ، لا تَفْصِلُ بينَها إلّا هُنَيْهاتٌ وفَيْنات. وكانَ الحُزْنُ يَشْتَدُّ بهِ دَراكاً حتّى لم يَعُدْ يَتَماسَكُ، فأَخَذْتُهُ إليَّ وهو نِضْوٌ يتشنَّجُ، وشِلْوٌ يتنزّى.

وبَعْدَ لأْيٍ أفاقَ، وكانَتْ إفاقَتُهُ جِدَّ مَريرةٍ، فقدْ هَبَّ كالمَمْرورِ يَطْلُبُ شيئاً وأنا وَراءَهُ، حتّى آنتَهى إلى كُلِّ بابٍ يَقْرعُهُ، ولا يَلْبَثُ أنْ يَرْتَدَّ عنه. فقدْ كانَ يَرْغَبُ في أنْ يَرى النّاسَ لِيَخْرُجَ مِنْ وَحْدَتِه المُمِضَّةِ القاتِلَةِ، ولكنّهُ لا يَكادُ يَرى أحداً حتّى تَزيدَ أَزْمَةُ نَفْسِهِ، وتَتَجَدَّدَ له ذِكْرى تَبْعَثُ نَفْسَهُ أَشَدَّ آلتياعاً.

ولمْ يَزَلْ يَدْنو ويَنْأى، في رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، حتّى قادَهُ المَطافُ إلى بَيْتِ عَليٍّ، وكأنّهُ أرادَ أنْ يُداوِيَ الأسى بالأسى، ويُلاشيَ الألمَ بالألم. وأحَسَّ بالارْتياحِ العَميقِ حَقيقَةً، فإنّ الألمَ كُلَّهُ يَذوبُ في مُضاعفاتِ الألمِ، ويَتَلَبَّسُ النَّفْسَ شُعورٌ سَلْبيٌّ مُبْهَمٌ لا يَتَجاوَبُ معهُ، في النَّفْسِ، غُلَواءُ الالْتياعِ وبُرَحاءُ الأحْزانِ، فإنّ المَشاعِرَ، على آخْتِلافِها، نِسْبيّةٌ ولا فَواصِلَ بينَ أطْرافِها، فهيَ إذا بَلَغَتْ غايَتَها هُبوطاً، أو آرْتِفاعاً، تَتَحَوَّلُ أو تَهْمُدُ.

رَغِبَ كَثيراً، وآطْمَأَنّ إلى أنْ يُجابِهَ الأسى في هَيْكَلِهِ، لِيَسْتَغْرِقَ في لَحَظاتِ المَرارَةِ المُطْلَقَةِ الّتي تَتَجَرَّدُ في الإطْلاقِ، عن مَعْناها وَوَقْعِها الأليم، فقدْ غَدَتْ لاعُضْوِيَّةً دونَ أعْصابٍ تَتَقَلَّصُ أو تَتَمَدَّدُ، إنّها أصْبَحَتْ خَفْقَةَ روحٍ في غَيْرِ لَوْن.

فَمَضى مُعاذٌ بإحْساسٍ وِجْدانيٍّ عَفَوِيٍّ إلى بَيْتِ عَليٍّ، ليُواجِهَ أَشَدَّ أنْواعِ الأسى في شَخْصِ النَّسْرِ الحَزينِ وفِراخِهِ الحَيارى، فهو يَشْتَهي، ويُفَضِّلُ كَثيراً، حَيْرَةَ

الأسى اللّاشاعِرَة، والغَفْوَةَ في الألمِ على أنْ يَظَلَّ في يَقَظَةِ الآلام.

وَقَفَ دونَ البَيْتِ طَويلاً ثُمَّ قَرَعَ البابَ، وما أشَدَّها وأمَرَّها مُصادَفَةً، فقدْ «بَرَزَتْ إليهِ فاطِمَةُ» تجولُ في مَآقيها عُصارَةُ حُبِّ خالِدٍ، وتَعَلَّقَتْ في أهْدابِها الواسِعَةِ دَمْعَةٌ كَبيرَةٌ، لَيْتَها سَقَطَتْ!...

وفي ناحِيَةٍ مِنَ البَيْتِ رَأى الحُسَيْنَ، وَليدَ النّبيِّ المُحَبَّب، مُنْكَمِشاً على نَفْسِهِ، يُديرُ لِحاظَهُ فَلا يَرى إلّا دُموعاً، فَغَرِقَ في الدُّموعِ، وكانَ بينَ حينٍ وآخَرَ يُناجي نَفْسَهُ، ويُطارِحُها في حديثٍ خَفيضٍ مَسْموع.

أَبتاه!.. أينَ هو؟ لمْ أعُدْ أراهُ! أَلَيْسَ لي أنْ أَراهُ بعدَ اليَومِ؟ بالأمْسِ القَريبِ كانَ يُلاعِبُني، كيفَ نَأى؟ لمْ يَعُدْ لي، بعدَ الآنَ، حَنانُ ذلكَ القَلْبِ الكَبير!!

فَيَزيدُ الفَجيعَةَ ويُحَرِّكُ النَّشيجَ، ومُعاذٌ حالِمٌ أمامَ هذا المَشْهَدِ مُسْتَغْرِقٌ، إنّه لمْ يَعُدْ يُحِسُّ بشيءٍ، إنّه غَدا خَلاءً من كُلِّ شُعور...

*

ماتَ مُحَمَّدٌ البَشَرِيُّ لِيَخْلُدَ محمّدٌ النّبيّ...
فَاسْتَعْبَرَ الحُسَيْنُ لأوَّلِهِما بالعاطِفَةِ والحَنين...
وافْتَدى ثانِيَهُما بالدَّمِ القاني الصّبيب...
حينَما حاوَلَ مَسَّ جَلالِ الخُلودِ، غُواةٌ مُحَمَّقون...

*

بَعْدَ أشْهُرٍ مَعْدوداتٍ رُزِىءَ أُمَّهُ الزَّهْراءَ وملاكَهُ الآخَر...
الّذي كانَ يَشِعُّ عليه بالأمَلِ الهاني والسَّعادَةِ الحالِمَة...
فَجَمَدَتْ في عَيْنِهِ دُموعٌ وفي قَلْبِه دُموع...
جَعَلَتْهُ، في حَياتِه كُلِّها، يَنْظُرُ إلى الأُفُقِ البَعيد...

يَوَدُّ لو يَذوبُ في الشَّفَقِ المُلْتَمِعِ من كُوى الأبَدِيّاتِ بإغْراء...

*

مرارَةٌ قاتِلةٌ على قَلْبٍ غَضٍّ، هَبَطَتْ فَجْأَةً فآنتَقَلَتْ به من حالٍ إلى حال...

وآسْتَوى دُفْعَةً، فَنَظَرَ إلى الحَياةِ من فَوْقِ كُوَّةِ الرَّغَباتِ فَرَأى حَمْأَتَـها...

فَوَجَّهَ تَيّارَهُ الطَّهورَ، فَتَمَدَّدَتْ وآنتَفَخَتْ مُتَجَهِّمَةً تُريدُ الصِّراع...

فَتَقَزَّزَها وآسْتَعْلى، فقدْ تَرَكَ فيها دَفَقاتٍ مِنَ اليَنْبوعِ الأَقْدَسِ وهو لا بُدَّ مُطَهِّرُها...

ولمْ يَزَلْ يَسْتَعْلي حتّى لم يَعُدْ يُرى، إلّا نَجْماً يَتَوارى في التَّحْليقِ بإشْعاعاتٍ وآغْتِماضات...

* * *

مِن أيّامِ العهدِ الرّاشدي



مع خليفة

في قِمَّةِ المَجْدِ العَرَبِيِّ، حينَما كانَتِ الرَّايَةُ الإسْلامِيَّةُ تُنْسَجُ وتُنْظَمُ خُيوطُها مِنْ مَمالِكِ العالَمِ القَديمِ، وتَتَهادى مُتَطاوِلَةً في الفَضاءِ، كأنَّها تُوَشِّحُ الآفاقَ، وتُطِلُّ على عالَمٍ يَمورُ بالخُلودِ، وتَحْتَضِنُ جَداوِلَ الأبَدِيَّاتِ بِما فيها من فُتونٍ، وَقَفَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُبارِكُ هذا المَجْدَ ويَقولُ كَلِمَتَهُ بِلِسانِ التّاريخِ، ويُوَدِّعُ عالَماً يَدْفَعُهُ بِمَنْكِبَيْهِ، ويَسْتَقْبِلُ عالَماً بِكِلْتا يَدَيْه.

عالَمٌ من طوبى مُحَمَّدٍ، ولكنّها طوبى مُتَحَيِّزَةٌ تَحَيّزَ الواقِعِ، ومُتَأَلِّقَةٌ تَأَلُّقَ الشُّعاعِ، وهي، إلى هذا، مِلءُ السَّمْعِ والبَصَرِ، ومَرادُ الأماني... عالَمٌ انْطَبَعَ على آفاقِهِ وَجْهُ مُحَمَّدٍ في هالَةِ القُرْآنِ، والقُرْآنُ هو اللَّوْحَةُ الّتي شاءَتِ الحَقيقَةُ الخالِدَةُ أنْ تَبْرُزَ فيها كامِلَةً، قدْ نَضَتْ عنْها شَتّى الأثْواب.

جَلَسَ على أريكَةِ هذا العالَمِ الجديدِ الّذي هو مِنْ عَمَلِ نَبِيِّ الخُلودِ، ولَمْ تَكُنْ هذِهِ الأريكَةُ، أو العَرْشُ، إلاّ مِنْبَرَ المَسْجِدِ الّذي كانَ مُحَمَّدٌ يَقِفُ عليهِ، ويَهْتِفُ بِلِسانِ السَّماءِ، يَهْدي التّائِهينَ، والأثيرُ، مِن وَرائِهِ، يُرَدِّدُ النِّداءَ أبْعَدَ ما يَتَناهى، فَمَحا كَوْناً وأثْبَتَ كَوْناً، وظَلَّ يِمْثالَ الحَقيقَةِ الباقِيَةِ بينَ الكَوْنَيْنِ، وصَوْتَ اللّهِ في وَعْيِ العالَمينَ مُتَجاوِباً بِصَدى الأبَد.

لم يَكُنْ في عالَمِ مُحَمَّدٍ عَرْشٌ لأنّه لم يَكُنْ فيه عُبودِيَّةٌ، ولَمْ يَكُنْ فيه بَلاطٌ

لأنّه لمْ يَكُنْ فيه إرْهابٌ وآسْتِصْناعُ عَظَماتٍ مُزَيَّفاتٍ، وإنّما كانَ المِنْبَرُ فيهِ هو العَرْشَ، والمِنْبَرُ رَمْزٌ يُشيرُ إلى الكُوَّةِ الّتي شَعَّ مِنْها الهُدى، وآنبَثَقَ منْها الضِّياءُ. وكانَ المَسْجِدُ فيه هو البَلاطَ، والمَسْجِدُ رَمْزٌ يُشيرُ إلى التّلاشي في الرُّوحِ، والفَناءِ في الإشراقِ، والنَّشْوَةِ الواعِيَةِ في التّأَمُّلِ والاَستِغْراقِ.

وَقَفَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، وكَأَنّـما زُوِيَ العالَمُ إليهِ مِنْ أَقْطارِهِ، وتَآزَحَ في حُدودِ مَوْضِعِهِ، والنّاسُ كَأَنَّ على رُؤوسِهِم الطَّيْرَ يُصْغونَ، والكَوْنُ مِنْ ورائِهِ يَسْمَعُ ويَخْشَعُ... ومِنْ أقْصى المَسْجِدِ جاءَ يَخْطُرُ بينَ الصُّفوفِ الحُسَيْنُ، وليدُ النّبيِّ، حتّى بَلَغَ مِرْقاةَ المِنْبَرِ فَما تَهَيَّبَها، بلْ صَعِدَ رابِطَ الجأْشِ حتّى آنتَهى إلى حَيْثُ يَجْلِسُ عُمَرُ، فشارَكَهُ مَوْضِعَه.

وكانَ مَنْظَراً بَدا غَريباً، أعْطى النّاسَ لَحْظَةَ آنتِباهٍ شَرَعوا معَها يُتلعونَ رُؤوسَهُم ويتَهامَسونَ، لَحَظاتُ ذِكْرى آنتَقَلَتْ بِهِمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ومِنْ زَمَنٍ يَعيشونَ فيهِ إلى زَمَنٍ يَحِنّونَ إليه، وقدْ ظَلَّ شائعاً حيّاً في الخَطَراتِ الحُلْوَةِ، يَوْمَ كانَ الحُسَيْنُ يتَّخِذُ مَوْضِعَهُ إلى جَنْبِ جَدِّهِ العَظيمِ، في هذا الشّكْلِ وهذهِ الصّورة.

ذِكْرى سَعيدةٌ جَرَّتْ وَراءَها نَوْعاً مَنِ اللّاشعُورِ، وتَمَدَّدَتْ في تَأَمُّلٍ طَويلٍ، وكانَ آسْتِغْراقاً كُلُّهُ السَّكينَةُ والاطمِئْنانُ، وإن بَدا كالوُجومِ الرّاني.

شَخَصَ النّاسُ إلى الغُلامِ يَنْتَظِرونَ ما سَيَجيءُ بهِ ويَصْدُرُ عنه، وكانَ الغُلامُ أكْثَرَ منهُمْ آسْتِغْراقاً، وأكْثَرَ نُفوذاً في الذِّكْرى، فَراحَ يُمَلِّىءُ ناظِرَيْهِ ويُمَتِّعُهُما مِمَّنْ آسْتَيْقَظَتْ نَفْسُه على أنّه جَدُّه.

هو شَديدُ الحَنينِ، وشَديدُ الهَوى إلى أنْ يَرى جَدَّهُ وقَدْ فَصَلَ عنهُ زَمَنٌ كانَ طَويلاً في حِسّ القَلْبِ، وكانَ خَيالاً شَديدَ الأَسْرِ لَه، فلمّا لَمْ يَجِدْ فيهِ جَدَّهُ وَجَمَ مُلْتاعاً، فَقَدِ آنـهارَ ما آجْتَمَعَ في خيالِهِ مِنْ لَذاذاتٍ دُفْعَةً، كمَنْ حِيلَ بينَهُ وبيْنَ ما

يَشْتَهي، وهو في أَدَقِّ فَتْرَةٍ مِنْ لَذَّةِ التَّذَوُّقِ، فَرَسَبَ فيهِ خَيالٌ بُهِتَتْ به لَذَّةٌ، وطَفا فيهِ خَيالٌ آسْتَوى معهُ أَلَم.

فقالَ له ـ أي لعُمَرَ ـ في شيءٍ من التَّحَدّي الصّارِمِ: «إنْزِلْ عنِ منْبَرِ أبي وآذْهَبْ إلى مِنْبَرِ أبيكَ»... فآشْتَمَلَهُ عُمَرُ وحَنا عليهِ طَويلاً، ثُمّ قالَ لهُ في أشْياءَ مِنْ ديمُقراطِيّةِ الحقِّ والاعْتِرافِ الفَكِهِ الجَميلِ:

«إنّه لمْ يَكُنْ لأبي مِنْبرٌ»... ومالَ عُمَرُ عليهِ ثانيَةً، فقالَ له في شيءٍ مِنَ التَّرَقُّبِ والامْتِحانِ النَّفْسيّ: «مَنْ عَلَّمَك؟».

فقالَ الحُسَيْنُ في أشْياءَ مِنَ الذّاتيّةِ المُتفَتِّحَةِ: «واللّهِ ما عَلَّمَني أَحَدٌ»... وكأنّـما رَدَّ عليهِ: بأنّهُ شُعورُ النَّفْسِ بالنَّفْسِ، وتَحَسُّسُ الشَّخْصِيّةِ على مَحَلِّها ومَوْضِعِها.

وخفّ النّاسُ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ يَقولونَ: إنّ الحُسَيْنَ يُطِلُّ من نافِذَةِ مُقْلَتَيْهِ البطَلُ...

وكانَ عُمَرُ قَدْ أُعْجِبَ بهِ في غَيْرِ حَدٍّ، وكانَ قدْ أُخِذَ بشَخْصِيَّتهِ القَوِيَّةِ في غَيْرِ مِقْدارٍ، فَرَأى لِزاماً عليهِ أنْ يُبْرِزَهُ في حَياةِ الجِدِّ الحاكِمَةِ، وأنْ يَأْخُذَهُ بأَسْبابِ التَّوْجيهِ والإشْرافِ على تَصْريف المُقَدَّراتِ العُلْيا، فقالَ له:

«بأبي! لو جَعَلْتَ تَغْشانا»... وآنقَضى وَقْتٌ قَبْلَما آجْتَمَع إليهِ ثانيَةً، وتَخَلَّلَتْ أحْداثٌ، فقدْ رُفِعَتْ إليهِ شَكْوى من أطْرافِ الشّامِ على مُعاوِيَةَ، فآهْتَمّ لها عُمَرُ، وكانَ رَجُلاً صَليباً، فآسْتقْدَمَهُ مَعَ البَريدِ مُسْرِعاً وخَلا بِه، وكانَتِ الطّريقُ قَدْ جَمَعَتِ الحُسَيْنَ بِعَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَصدا إلى مَقَرِّ الخَليفَةِ يَزورانِهِ، فَطَلَبَ ثانيهما الدُّخولَ، فقيلَ له:

«إنّه خالٍ بمُعاوِيَةَ»... فآنقَلَبَ آبْنُ عُمَرَ، وآنقَلَبَ الحُسَيْنُ مَعَه، وفَصَلَ زَمَنٌ

لم يَكُنْ بَعيداً حينَ صادَفَ عُمَرُ، في بَعْضِ طُرُقاتِ المَدينَةِ، الحُسَيْنَ، فقالَ له:

«لم أرَكَ»... فرَوى له كَيْفَ حِيلَ بَيْنَ عَبْدِ اللّهِ آبْنِهِ والدُّخولِ، وكيفَ رَجَعَ مَعَه، فتَصَوَّرَ عُمَرُ، بِشَكْلِ الجِدِّ، إشْعاراً بالفَرْقِ الكَبيرِ، وقالَ، وصوتُ الحقِّ يُدَوّي في مَقالِه:

«أنتَ أَحقُّ مِن آبْنِ عُمَرَ. إنّما أنْبتَ ما تَرى في رُؤوسِنا، اللّهُ ثُمَّ أَنْتُمْ»... وصَمَتا يَمْشيانِ، وَوَقَفَ التّاريخُ مِنْ وَرائِهِما يُرَدِّدُها كَلِمَةً خالِدَةً في سَمْعِ الدَّهْرِ، وأُذُنِ الأبَد...

جهاد الشّباب

حينَ كانَ الفَتْحُ الإسْلاميُّ يَضَعُ إحْدى قائِمَتَيْهِ في أَقْصى الشَّرْقِ، والأُخْرى عندَ بابِ الغَرْبِ ـ يَقْرَعُ عليهِ هُجوعَهُ ويَنْفُضُ عنْ جَفْنَيِ الغَرْبِ الباقياتِ من رَقْدَةِ الأيّامِ، والهباءَةِ الّتي آسْتَحالَتْ إلى ظَلامٍ كَثيفٍ حالِكٍ حَوْلَ مُقْلَتَيْهِ، وبينَ يَدَيْ حَياتِهِ، كأنّما لم تُنْعِشْهُ بَعْدُ أوَّلُ إشْراقَةٍ منْ صَحْوَةِ الشَّمْسِ ـ ذَهَبَ حُسَيْنٌ شَرْقاً، وذَهَبَ غَرْباً، كأنّه يَضَعُ بكِلْتا يَدَيْهِ حَجَرَ الأساسِ في قاعِدَتَيْ قَوْسِ النَّصْرِ مُبارِكاً.

كانَ حُسَيْنٌ يُناهِزُ الثّانِيَةَ والعِشْرينَ من سِنيهِ، حينَما ذَهَبَ جُنْدِيّاً يُلَوِّحُ بشُعْلَةِ البَعْثِ والإصْلاحِ في الحَفْلَةِ إلى الغَرْبِ.

وكانَ جَوّاً حَماسِيّاً ذلكَ الجَوُّ الّذي صَبَغَ المَدينَةَ، فقدْ تَحَوَّلَتْ مِن بَلَدٍ ناءٍ مَجْهولٍ، تُحيطُ به الصَّحْراءُ، وتَغْمُرُه من كُلِّ جانِبٍ ـ والصَّحْراءُ مُحيطٌ زاخِرٌ تَقومُ فيهِ الرِّمالُ مَقامَ الماءِ ـ إلى عاصِمَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ تَتَوَلَّدُ فيها الحَرارَةُ وتُوَزِّعُها، إلى قَلْبٍ عالَمِيٍّ تَخْفُقُ فيهِ الحَياةُ، ويَنْبِضُ بالخَلَجاتِ إلى كُلِّ مَكانٍ.

في هذا الجَوِّ الحَماسِيِّ كانَ التّسابُقُ على الجِهادِ قَدِ آتَّخَذَ شَكْلَ مُباراةٍ بينَ الشّبابِ والكُهولِ، ومَنْ دونَ الشّبابِ ومَنْ فَوْقَ الكُهولِ.

هي أُمَّةٌ جَديدَةٌ بَعَثَتْها روحٌ جَديدَةٌ، فآنطَلَقَتْ، وفي عُروقِها عُصاراتٌ من حَيَواتٍ فائِضَةٍ، تُجْريها في جِسْمِ العالَمِ المُمَدَّدِ المُحْتَضَرِ، وتَصِلُ عُروقَه بعُروقِها،

فَتَمْشي، طائِفَةً عليهِ، دائِرَةً فيهِ، مَشْيَ الرُّوحِ الّتي تَمَسُّهُ بتيّارِها.

كان السّائِرُ في طُرُقِ المَدينَةِ ومُنْعَطَفاتِها لا يَسْمَعُ إلّا الأَصْداءَ قَوِيَّةً مَزْهُوَّةً، هي بَقايا هُتافاتٍ تُثيرُ الأعْصابَ. وكانَ الغَلَمَةُ يَتَقاذَفونَ بالأزْهارِ، والعِلْيَةُ يَتَحايَوْنَ بالعَمارِ[1] والمَسَرّةِ[2]. فقدْ تَرَكوا لأعْصابِهِم المائِجَةِ بصُنوفِ الفَخارِ والمَجْدِ، سَبيلَ هَواها ومَجالاتِ التَّعْبيرِ عنِ آزْدِهائِها. فقدْ وَرَدَتِ الأنْباءُ بالانْتِصارِ المُؤَزَّرِ في بَرْقَةَ، وآنكِفاءِ البَرْبَرِ هُناك.

وكُنْتَ لا تَجِدُ، كيفَما سِرْتَ وأنّى ذَهَبْتَ، إلّا جُموعاً تَموجُ في جُموعٍ، من ظاهِرِ المَدينَةِ إلى داخِلِها، وعلى فَجْأَةٍ أخَذَ بَصَرَهُمْ فارِساً يَطْوي الهِضابَ، وهو يَمُرُّ بينَها مَرّاً سَريعاً، فَشَمَلَتْهُمْ هَدْأَةٌ غَطَّتْ على الضّجيجِ، وضَمَّتْهُمْ لَحْظَةُ آنتِباهٍ وسُكونٍ أَلْقَتْهُمْ في صُموتٍ مُتَسائِلٍ ناطِقٍ، وما حَلَّ بينَهم حتّى آلتَفّوا عليهِ، وأحاطوا به إحاطَةَ السِّوارِ بالمِعْصَمِ، وأخَذوه بسَيْلٍ مِنَ الأسْئِلَةِ مِنْ كُلِّ جانبٍ، فآسْتَوى على الرِّكابِ مُنتَصِباً، وخاطَبَهُمْ بِصَوْتِهِ الجَهْوَرِيِّ الحادِّ النَّبَراتِ، والمُشْتَعِلِ المَقاطِعِ والكَلِماتِ:

أيُّها الأنْصارُ! أيُّها الأبْطالُ! اليومَ يَوْمُكُم، فقدْ دَقَّتْ ساعَةُ الكِفاحِ. أفْسِحوا لي الطّريقَ إلى المَسْجِدِ، إلى مَقَرِّ الخَليفَةِ وآتبعوني!

فَتَدافَعَ النّاسُ عن طَريقِهِ صاخِبينَ هاتِفينَ: اليومَ يَوْمُنا. إلى مَقَرِّ الخَليفَةِ...

وَقَفَ الرَّجُلُ على مَقْرُبَةٍ من الخَليفَةِ، وَوَجَّهَ مَقالَهُ، تارَةً للجُموعِ وتارَةً إليه:

«إنَّ جُرجيرَ المُمَلَّكَ، ما بينَ طَرابُلُسَ إلى طَنْجَةَ، أَشَّبَ الجُموعَ، وحَشَدَ الجُنْدَ مِنْ أطْرافِ مَمْلَكَتِهِ، للإحْداقِ والإيقاعِ بجَيْشِ العَرَبِ، وهو يَتَرَبَّصُ بنا الدّوائِرَ،

---

(١) الأزْهارُ والرَّيْحانُ تُجْعَلُ باقاتٍ ويُحَيّا بِها. قالَ عَبيدُ بْنُ الأَبْرَصِ:
سَجَدْنا له ورَفَعْنا العَمارا.

(٢) المَسَرَّة: أَطْرافُ الرَّياحينِ يُحَيّا بها، ويُقالُ سَرَّهُ أي حَيّاه بالمَسَرَّة.

وباتَ الخَطْبُ على قابِ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنى. وإنّ عُقْبَةَ بْنَ نافِعٍ، قائِدَنا المُظَفَّرَ، قد باتَ في ضائِقَةٍ مِنَ الأمْرِ، ولكنّهُ مُسْتَبْسِلٌ أشَدَّ آسْتِبْسالٍ» يُكافِحُ كِفاحَ المُسْتَميتِ في الدِّفاعِ والهُجومِ ومُداوَرَةِ الخُصومِ، وهذا يَوْمٌ لهُ ما بَعْدَه.

فإلى الجِهادِ أيُّها المُؤْمِنونَ! إلى القِيامِ بآلتِزاماتِ العَقْدِ بينَكم وبينَ اللّهِ، على تَجْديدِ العالَمِ، وأخْذِهِ بالمَبادِىءِ الإنْسانيّةِ الفُضْلى: «إنّ اللّهَ آشْتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوَالَهُمْ بِأنَّ لَهُمُ الجنَّةَ، يُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللّهِ فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلونَ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْراةِ والإنْجيلِ والقُرْآنِ، وَمَنْ أوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ، فَآسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الّذي بَايَعْتُمْ بِهِ، وذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ». إنّ إخْوانَكُم، مِنْ قَبْلُ، رَوَّوا الرِّمالَ الرّابيةَ إلى أفْريقْيَةَ بدِمائِهِم الصَّبيبَةِ، وهُمْ أسْخِياءُ، وبَنَوْا مِنْ جَماجِمِهِمْ مَعاقِلَ الصَّحْراءِ. وها هِيَ دِماؤُهُمُ اليَوْمَ تُناديكُمْ وتَسْتَصْرِخُكُمْ بصَوْتِها الرَّجّافِ الرَّعودِ، مِنْ وراءِ الرُّجُمِ وتَسْتَنْدِبُكُم إلى التَّضْحِيَة.

فإلى الكِفاحِ! إلى النَّصْرِ!

وما هو حتّى آخْتَلَطَ صَوْتُهُ بأصْواتِ الجُموعِ، وذابَ في دَوِيِّها العَميقِ: بَلْ إلى الشَّهادَةِ! إلى المَوْتِ!... وبَقِيَتِ الأصْداءُ يُرَدِّدُها الفَضاءُ، ويَطوفُ بها الأثيرُ في كِبرياءٍ وخُيَلاء.

وتَدَفَّقَ النّاسُ على التَّطَوُّعِ، وكانَ في «مُقَدِّمَتِهِم الحَسَنُ والحُسَيْنُ وعَبْدُ اللّهِ آبْنُ عَبّاسٍ وعِلْيَةٌ لا تُحْصى» وخَفّوا راحِلين:

أَجْمَعوا أمْرَهُمْ بلَيْلٍ فلمّا   أصْبَحوا أصْبَحَتْ لهم ضَوْضاءُ
مِنْ مُنادٍ ومِنْ مُجيبٍ ومِنْ   تَصْهالِ خَيْلٍ، خِلالَ ذاكَ رُغَاءُ

ولم يَكُنْ طَويلاً حتّى هَبَطوا مَصافَّ القِتالِ، فَأَخَذوا مَواضِعَهُمْ، ودارَتْ رَحى الحَرْبِ أَمَداً ليسَ بالقَصيرِ ضاقَ الخِناقُ فيهِ على البَرْبَرِ، فآنكَفَؤُوا مُتَمَزِّقينَ

يَتيهونَ بَيْنَ الحُزونِ والسُّهولِ، وبينَ الأودِيَةِ والهِضابِ.

وبَعْدَ بِضْعِ سِنينَ «آنتَظَمَ الحُسَيْنُ في الجَيْشِ الذّاهِبِ شَرْقاً إلى طَبَرِستانَ» باذِلاً نَفْسَهُ، مُضَحِّياً حَوْباءَهُ بسَبيلِ كَلِمَةِ اللّهِ الّتي عاشَ لها، وقَضى كَريماً تَحْتَ ظِلالِها الدّامِيَةِ وبُنودِها الحَمْراءِ.

كانَتِ الأنْباءُ عن تَضْحِيَةِ الشّبابِ وآسْتِبْسالِهِمْ تَرِدُ إلى المدينَةِ طافِحَةً إعْجاباً وبِشْراً. وكانتْ حَديثَ اليَوْمِ بينَ النّاسِ، في الأنْدِيَةِ والمَنازِلِ، وفي مُنْعَطَفاتِ الطُّرُقِ، حيثُ يَحْلو الوُقوفُ عندَ الأصيلِ لِفِئَةٍ تَجِدُ في هذا النّوْعِ منَ اللّهْوِ تَسْلِيَةً رائِعَةً، وتُحِسُّ بظَمَأٍ إلى الصَّخَبِ، يَمُدُّهُ الفُضولُ أحْياناً فتَمْلأُ جَوَّ نَفْسِها المُقْفِرِ بهذا اللّوْنِ مِنَ الانْغِماسِ في الضّجيجِ.

وفي طَرَفٍ مِنْ أطْرافِ المَدينَةِ آنفَرَدَ جَمْعٌ، بينَهُمُ البَراءُ بْنُ عازِبٍ، يَتَجاذَبونَ أطْرافَ الحَديثِ عنْ أبْطالِ الجِهادِ الشّبابِ. فقالَ: إنّ الشّبابَ مَعْناهُ تَفَتُّحُ بَراعِمِ الصِّبا عن حَياةِ الجِدِّ والواجِبِ، وعنْ تَبِعاتِ الحَياةِ؛ وفِئَةُ الشّبابِ هم أشِعَّةُ حاضِرِنا في وَقْدَةِ تَألُّقِها، فإذا بَدَتْ كَسيفَةً كَليلَةً فقدْ خَسِرْنا الحاضِرَ والمُسْتَقْبَلَ جَميعاً، وكانوا إعْلاناً عنْ أنّنا غيرُ جَديرينَ بالحياةِ.

فإنّ الحَياةَ قُوىً سائِبَةٌ كمِثْلِ الرَّقارِقِ على وَجْهِ الرِّمالِ، ولكنّها تَتَجَمَّعُ في فَتْرَةِ الشّبابِ بمِثْلِ خَزّانِ الماءِ، فتَتَكسَّرُ عِنْدَ حَناياهُ القُوى، وتَتَوَلَّدُ فيها التّيّاراتُ، فتَتَدَفَّقُ جَيّاشَةً هادِرَة.

فالشّبابُ مَجْموعَةٌ مِنْ تَيّاراتِ قُوى الحَياةِ، فإذا كانَ الخَزّانُ مَمْلوءاً بالثُّقوبِ والشُّقوقِ، آنسابَتِ المِياهُ في كُلِّ وَجْهٍ، وتَبَعْثَرَتْ قُواها، وغاضَتْ بينَ الوِهادِ والحُزونِ مُتَرَسِّبَةً في مُسْتَنْقَعاتٍ آجِنَةٍ. وحينَ لا يَكونُ للشّبابِ حَصاناتٌ ومَناعاتٌ يَمُدُّها شُعورٌ بالحُقوقِ والواجِباتِ وحِسٌّ مُرْهَفٌ بالتَّبِعاتِ، فقدْ عادَ شَباباً رِخْواً،

أفضلُ مِنْهُ شَيْخوخَةٌ فانيةٌ.

وشَبابُنا الّذينَ آبتعَثَتْهُمُ المَبادِىءُ آبتعاثاً، لا مَحيدَ عَنْ أنْ تَنْطَلِقَ بهِمْ تَيّاراتُ القُوى، آنطِلاقاً يَنْتَهي بالسَّيْلِ الإسْلاميِّ المُطَهِّرِ الجارِفِ إلى غايَتِهِ، فَيَغْمُرُ حتّى الرُّبى، لِيَنْكَشِفَ عَنْ حَياةٍ جَديدَةٍ ودُنْيا جَديدَةٍ.

ونحنُ الّذينَ قُمْنا بواجِبِنا مَعَ صاحِبِ الرِّسالَةِ، وكانَ أدْنى ما بَذَلْناهُ أَنْفُسَنا ـ وما بَقاؤُنا في عَيْنِ اليَوْمِ إلّا ذِكْرى جِهادٍ وتِمْثالُ كِفاحٍ ـ لا يَسَعُنا إلّا أنْ نُبارِكَ شَبابَهُمُ الغَضَّ وجِهادَهُمُ المُظَفَّرَ. وإذا كانَ لِشَيءٍ أنْ يَأْخُذَ بآنتِباهِنا طَويلاً فإنّما هو ذلك الإقْبالُ على التَّضْحِيَةِ بسَبيلِ المَبادِىءِ للمَبادِىءِ دونَ ما أنانيَّةٍ رَعْناءَ وزَنانيَّةٍ[3] حَقودٍ، فَقَدْ ذابَتْ عِظاميَّةُ (أرستقراطيّةُ) مَنْ كانَ مِنْهم عظامِيّاً في بَوْتَقَةِ الإيمانِ. والرِّسالَةُ النّاجِحَةُ هي الّتي تَسْتَطيعُ أنْ تَكْفُلَ تَحْويلَ العِظامِيّةِ مِنْ قاعِدَةِ الدِّماءِ والثَّراءِ، إلى قاعِدَةِ المَبادِىءِ والتَّضْحِياتِ.

فهذا الحُسَيْنُ، سِبْطُ النّبيِّ، له مِنْ عِظامِيّةِ الدَّمِ ما لَيْسَ لأحَدٍ اليَوْمَ، أوْ قَبْلَ اليَوْمِ، ومعَ ذلك فهو يَمْضي تَحْتَ رايَةِ الواجِبِ كأيِّ جُنْديٍّ تَحْدوهُ مُثُلُ غايَتِهِ. ولا أَراهُ إلّا مُعْتَقِداً أنّ القَديمَ، إنّما يَجِدُ روحَه في الجَديدِ لِيَغْدُوَ كائِناً حَيّاً رائِعاً، وإلّا فالقَديمُ وَحْدَهُ، إنْ كانَ يُعَبِّرُ عَنْ شَيءٍ، فإنّما يُعَبِّرُ عَنْ مومْياءِ مَجْدٍ فَقَطْ تَظَلُّ رَمْزاً مِنْ رُموزِ التّاريخِ...

فأطْرَقَ الجَمْعُ وشَمَلَهُمْ صَمْتٌ واعٍ ثُمّ خَفّوا إلى رَواحِلِهِم وهمْ يُرَدِّدونَ قَوْلَه:

«وإلّا فالقَديمُ وَحْدَهُ، إن كانَ يُعَبِّرُ عن شيءٍ، فإنّما يُعَبِّرُ عنْ مومياءِ مَجْدٍ فقطْ...».

* * *

(٣) الزَّنانيّةُ تُرادِفُ الأنانيّةَ تماماً عندَ العَرَبِ القُدامى، والزَّنانيُّ: الأنانيّ كَذلكَ.

في الثّورة

مِنَ المَدينَةِ إلى كُلِّ مكانٍ، كمِصْرَ والعِراقِ واليَمَنِ والشّام، خَيَّمَ جَوٌّ مُكْفَهِرٌّ يُنْذِرُ بشيءٍ. وكانتْ أَلْوانُهُ مُخْتَلِطَةً إلّا أنّها بَدَأَتْ تَسْتَحيلُ، خَيْطاً بَعْدَ خَيْطٍ، وتَتَكَشَّفُ عَنْ لَوْنٍ أحْمَرَ قانٍ، كَأَنَّهُ لَوْنُ الدّمِ الحانِقِ، أو لَوْنُ الشَّفَقِ الّذي أطْبَقَ به لَيْلٌ بَهيم.

وكانَ الهَمْسُ في أيِّ مَكانٍ يَطولُ ولا يَقْصُرُ، ويَتَناوَحُ في زَفَراتٍ تَبْعَثُ أَسىً، ولكنّهُ مِنْ نَوْعِ الأسى الغاضِبِ الّذي يَزْدادُ اشْتِعالاً بالذِّكْرى والتَّرْدادِ. فَقَدِ اشْتفاقَ النّاسُ على وَضْعٍ غَيْرِ مُحَبَّبٍ بلْ كَريهٍ بَغيضٍ، اشْتَفاقوا على مُجْتَمَعٍ بَدَأَ يَتَعَقَّدُ وتَطْفو على سطْحِهِ طَبقاتٌ تَجُرُّ وَراءَها نِضالاً هادِراً وتَناحُراً رَهيباً، بعدَ أنْ كانوا شَعْباً يَقومُ على قاعِدَةِ المُساواةِ، فهو مُجْتَمَعٌ مُنْسَجِم.

كَثْرَةٌ مُعْدِمَةٌ، وهي مُعْتَدَّةٌ بِذاتِها شاعِرَةٌ بشَخْصِيَّتِها، فَخورٌ بما أبْدَتْ مِنْ قُوَّةٍ وَقَدَّمَتْ مِنْ تَضْحِياتٍ، وقِلَّةٌ زادَ بها الثَّراءُ زِيادَةً جَعَلَها تُحْرِزُ كُلَّ قُوى النَّشاطِ وتَدَّخِرُ مُقَوِّماتِ الحياةِ كافّةً. ولم يَكُنْ وَسَطاً دَرَجَ على السُّخْرِيَّةِ والعَمَلِ في الأَرْضِ، فَيظَلُّ النِّضالُ فيهِ خَفِيّاً وبَطيئاً في إعْطاءِ نَتائِجِهِ، بلْ كانَ وَسَطاً فُروسِيّاً، والفُروسِيَّةُ اعْتِدادِيَّةٌ وشُعورٌ بوُجودِ الذّاتِ، وزادَتْها الفُتوحُ إحْساساً بقيمَتِها، فكانَ أنْ تَفاعَلَتْ تَفاعُلاً تَنافُرِيّاً مَعَ الوَضْعِ الجَديدِ، وكانَ أنِ انْقَدَحَتْ وقَذَفَتْ بالشَّرَرِ

إلى مَكانٍ قَصِيٍّ.

والشُّعورُ بالذّاتِ قاعِدَةُ الأُمَّةِ النّاهِضَةِ، فهي لا تَقْبَلُ سِيادَةً ولا تَتَوَلَّدُ فيها السَّادةُ مِنْ أيِّ نَوْعٍ كانَ، وتَظَلُّ أبَداً تَوّاقَةً إلى الإصْلاحِ آخِذَةً بأَسْبابِهِ مُتَقَلِّبَةً في مَدَى أطْوارِه.

رَكَدَتِ الفُتوحُ فَنَضَبَتْ أهَمُّ مَوارِدِ الدَّوْلَةِ، وكانَ العَمَلُ السِّياسِيُّ قَدِ آتَّجَهَ، فيما سَبَقَ هذهِ الحِقْبَةَ، إلى جَعْلِ العَرَبِ مادّةَ حَرْبٍ فقطْ، فلمْ يَنالوا نَصيباً في الأرْضِ. ولكنَّ الجُنْدِيَّ لنْ يَبْقى جُنْدِيّاً أبَداً خُصوصاً والدَّوْلَةُ العَرَبيّةُ قَدْ أخَذَتِ الأُمَمَ بحَرْبِ إصْلاحِيّةٍ عالَميَّةٍ، فكانَتْ حاجَتُها إلى الجُنودِ كَبيرَةً غَيْرَ مُقْتَصِدَةٍ، فَشَمَلَتِ العَرَبَ عامّةً، وسَرْعانَ ما وُفِّقَ العَرَبُ إلى غايَتِهم، وسَرْعانَ ما أَدَّوْا رِسالَتَهم، فرَكَدَتْ حَرارَةُ الفَتْحِ إلى دَرَجَةِ الهُمودِ، وعَجَزَتِ الدَّوْلَةُ بعدَ ذلكَ عن كِفايَتِهِم، فإذا هم طَبَقَةٌ فَقيرةٌ غايَةً في الفَقْرِ والخَصاصَةِ والعَدْمِ، وإذا بِجانِبِهِمْ طَبَقَةٌ أُخْرى ثَرِيَّةٌ غايَةً في الثَّراءِ، وهيَ لمْ تَجْهَدْ أيَّ جُهْدٍ ولم تَبْلُ أيَّ بَلاءٍ، وإنَّما آمْتَصَّتْ وتَمَلأَتْ.

كَبُرَ على هؤلاءِ أنْ يَسْتَسيغوا وَضْعِيَّةً نابِيَةً بغَيضَةً على هذا الشَّكْلِ، لا سِيَّما والإسْلامُ في تَشْريعهِ جَعَلَ للمُحارِبِ نَصيباً في المَغانم كافَّةً، وبذلكَ مَكَّنَهُ مِنْ أنْ يَتَحَوَّلَ رَجُلاً مَدَنياً، دونَ أنْ يَكونَ كَلّاً على الدَّولَةِ والخَزينَةِ العامّةِ. ولمْ يُقَرِّرِ الإسلامُ الجُنْدِيَّةَ نِظاماً دائِماً، لأنّه لا يَرْمي إلى أنْ يَجْعَلَ مِنْ حُكومَتِهِ دَوْلَةَ حَرْبٍ، بلْ سَنَّ الجُنْدِيَّةَ، عِنْدَ الضَّرورَةِ، مِنَ المَدَنيينَ أنْفُسِهم، وبهذا ضَمِنَ شَيْئَيْنِ خَطيرَيْن:

١ ـ جَعْلَ مَسْؤوليَّةِ الدِّفاعِ عامَّةً، لكيْ يَشْعُرَ بها الشَّعْبُ شُعوراً شامِلاً بدونِ تَفاوُت.

٢ ـ الحَدَّ مِنْ طُغْيانِ الجُنْدِ وروحِيَّتِهِم، حتّى لا يَدْفَعوا الدَّوْلَةَ كُلَّ حينٍ إلى

مَضايِقِ حُروبٍ جَديدَةٍ، فالإسْلامُ وَضَعَ في نِظامِهِ ما يَحولُ بينَ الدَّوْلَةِ المُشْتَقَّةِ مِنْ طَبيعَتِهِ، وبينَ حَرْبِ الأطْماعِ.

وكانَتِ الهُوَّةُ تَتَّسِعُ بينَ الطَّبقاتِ آتِّساعاً عَظيماً، وعلى شَكْلٍ مُخيفٍ، كما أَخَذَ الوَضْعُ يَتَطَوَّرُ مِنْ سَيِّىءٍ إلى أَسْوَأَ حَتّى آسْتَفْحَلَ شَرُّهُ، وباتَ يُنْذِرُ بِخَطْبٍ خَطيرٍ وآنكفاءٍ آنقِلابيٍّ كَبيرِ الأَثَرِ. وزادَ في يَقَظَةِ الخَطْبِ تَناحُرُ الأحْزابِ الكَثيرةِ[1]، فهُناكَ أحْزابٌ رَئيسِيَّةٌ أَهَمُّها:

حِزْبُ الأُمَوِيِّينَ: وأَكْبَرُ رِجالِهِ المُنْتَسِبينَ إليهِ أبو سُفْيانَ، وآبْنُهُ مُعاوِيَةُ ومَرْوانُ آبْنُ الحَكَمِ، والمُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

والحِزْبُ الشُّعوبيُّ: وأَكْبَرُ رِجالِهِ أَبو لُؤْلُؤَةَ، وجُفَيْنَةُ النَّجْرانيُّ، وكَعْبُ الأَحْبارِ، وهذا الحِزْبُ كانَ صَنيعَةً للحِزْبِ الأُمَويِّ، ومُنَفِّذاً لأغْراضِهِ الدَّمَوِيَّةِ ومآرِبِه الإرْهابِيّة.

وحِزْبُ المُحافِظينَ: وأَكْبَرُ رِجالِهِ عَليُّ بْنُ أبي طالِبٍ وأبو أيّوبِ الأنْصارِيُّ، وعبدُ اللّهِ بْنُ عَبّاسٍ، وعَمّارُ بْنُ ياسِرٍ، والمِقْدادُ بْنُ الأَسْوَد.

وحِزْبُ الشَّعْبِ: وأكبَرُ رِجالِهِ أبو ذَرٍّ الغِفارِيُّ، وعَبْدُ اللّه بْنُ سَبَأٍ، ومُحَمَّدُ بْنُ أبي بَكْرٍ، والأَشْتَرُ النَّخَعيُّ، وعَبْدُ اللّهِ بْنُ حُذَيْفَةَ، وكانَ هذا الحِزْبُ يَسْتَنيمُ إلى سِياسَةِ حِزْبِ المُحافِظين، وطابَعُه أنَّهُ ثَوْرِيٌّ عَنيفٌ.

وحِزْبُ أَهْلِ المَدينَةِ: وأَكْبَرُ رِجالِهِ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ، وآبْنُهُ قَيْسٌ، والحُبابُ بْنُ المُنْذِرِ، وعبْدُ الرّحْمنِ بْنُ حَسّانٍ، وكانَ أَهَمَّ أَهْدافِ هذا الحِزْبِ مُناهَضَةُ الحِزْبِ الأُمَويِّ وتَحْطيمُ مُحاوَلاتِه.

وإلى جانِبِ هذهِ الأحْزابِ كانتْ تَقومُ أحْزابٌ أُخْرى ثانَوِيَّةٌ أَهَمُّها:

---

(١) راجِعْ تَفْصيلَ الكلامِ عليهِ في كتاب: **تاريخ الحسين: نقد وتحليل**، طبعة مكتبة العرفان، ١٩٤١.

حِزْبُ طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ: وأكْبَرُ المُنْتَسِبينَ إليه عائِشَةُ.

وحِزْبُ أبْناءِ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ: وأكْبَرُ المُنْتَسبينَ إليه أبو موسى الأشْعَرِيّ.

والحِزْبُ الأُمَوِيُّ المُنْشَقُّ: وكَبيرُ أقْطابِهِ عَمْرو بْنُ العَاص.

وما إنِ آسْتَحْوَذَ الحِزْبُ الأُمَوِيُّ على شُؤونِ السُّلْطَةِ العُلْيا في عَهْدِ عُثْمانَ، حَتّى ألَّفَتْ بَعْضُ هذهِ الأحْزابِ جَبْهَةً مُعارِضَةً قَوِيَّةً. فقدْ شاءَ البَيْتُ الأُمَوِيُّ أنْ يَجْعَلَ مِن نَفْسِهِ طَبَقَةً حاكِمَةً، وشاءَ، إلى ذلكَ، أنْ يَجْعَلَ مِنْ قُرَيْشٍ طَبَقَةً عِظامِيَّةً (أرستقراطيّة). وهؤلاءِ الأُمَوِيّونَ لم يَكْتَفوا بأنْ يَفْرِضوا أنْفُسَهُم ووُجودَهُمُ الخالي مِنَ الحَياةِ والجُهْدِ، بلْ تجاوَزوا هذا إلى تَعْبِئَةِ المُجْتَمَعِ في طَبقاتٍ لها آمْتيازاتُها وقِيَمُها، الّتي تَهَبُها حُقوقاً دونَ ما واجِباتٍ، وبسَبَبِها تَفْتاتُ لنَفْسِها مِنَ الاعْتِباراتِ الاجْتِماعيّةِ، ما يُخَوِّلُها آنتِهابَ كُلِّ غُنْمٍ، يَغْرَمُ بِسَبيلِ حِيازَتِهِ سَوادُ الجُمْهور.

وكُلّما وُجِدَتْ لجَماعَةٍ ما حُقوقٌ دونَ واجِباتٍ، فقدْ وُجِدَ لَدَيْها شَرُّ أنواعِ التَّطَفُّلِ الاجتِماعيّ، وحينَما تَنْتقِلُ هذهِ الاعْتِباراتُ إلى القانونِ يَنتَقِضُ الانْسِجامُ والتّوازُنُ الاجْتِماعِيّانِ، ويَنْساقُ المُجْتَمَعُ، كُرْهاً، في مآزِقِ التّناحُرِ الّذي يَبْدَأُ مِنْ أجْلِ الذّاتيّةِ، ويَنتَهي من أجْلِ الحَياةِ، وهُنا يَأْخُذُ شَكْلَهُ الدّامِيَ، ومَظْهَرَهُ الكالِحَ الرّهيبَ، وإلى هذا يُشيرُ قَوْلُ النّبيِّ «إنّما أُهْلِكَ مَنْ قَبْلكُم أنّه إذا أَثِمَ فيهِمُ الشَّريفُ تَرَكوه، وإذا أَثِمَ فيهِمُ الضَّعيفُ أقاموا عَليْهِ الحَدَّ». فإذا أبو سُفْيانَ يَقولُ، عِنْدما وَلِيَ الخِلافَةَ عُثْمانُ: «يا بَني أُمَيَّةَ تَداوَلوها بَيْنَكُم تَداوُلَ الكُرَةِ، فَوالّذي يَحْلِفُ بِهِ أبو سُفْيانَ ما زِلْتُ أنْتَظِرُها لكمْ، ولَتَصيرَنَّ إلى أبْنائِكُمْ وِراثَةً»، وإذا سَعيدُ بْنُ العاصِ يَجْعَلُ سَوادَ العِراقِ بُسْتاناً لقُرَيْشٍ، وإذا الثَّرَواتُ الفاحِشَةُ تَصيرُ وتَجْتَمِعُ في أيْدي الأُمَوِيّينَ وأنْصارِهِمْ، وإذا مَرْوانُ يَسْتَبِدُّ بالمُقَدَّراتِ العُلْيا على هَواهُ، وإذا أَكْثَرُ الأقاليمِ تَذْهَبُ إقْطاعاتٍ بينَ فُلانٍ وفُلانٍ، وإذا القانونُ يُعْبَثُ بِهِ فلا يُطَبَّقُ أحْياناً وكَثيراً، بلْ ذَهَبوا بِهِ مَعَ الهوى إلى حَدٍّ أَشْعَرَ النّاسَ أنّهم لمْ يَعودوا سَواءً في نَظَرِيَّةِ الحَقِّ ونَظَرِيَّةِ الجزَاء فَسَبَقَ إلى الأذهان أنّ هُناكَ فَوْضى دونَ ما شَكٍّ، وأنّ هُناكَ فَساداً

في أداةِ الحكْمِ سَبَّبَ هذهِ الفَوْضى دونَ ما رَيْبٍ، والفَسادُ يُبيحُ الثَّوْرَةَ، فَتَدافَعَتِ الجُموعُ في تيّاراتِها.

كان الرّائِدُ الطّوّافُ بينَ مِصْرَ والحِجازِ والعِراقِ، والّذي يَجوبُ مُتَرَدِّداً بينَ هذهِ الأقاليمِ يَلْمُسُ، ويَرى مِنْ فَواجِعِ الوَضْعِ القائِمِ ما يَمْلأُهُ حَنقاً وثَوْرَةً، كانَ يَرى بُؤْساً في غَيْرِ حَدٍّ وشَقاءً مُخيفاً، وفَقْراً مُتَغَوِّلاً، وكانَ هذا الفَقْرُ والشّقاءُ والبُؤْسُ يَتَوَزَّعُ هُنا وهُناكَ، ليجْتَمِعَ ويأْتَلِفَ خُصوصاً في بيئاتِ الّذينَ كانوا، إلى زَمَنٍ قَريبٍ، رَمْزَ الفَخارِ العَرَبيِّ والإسْلاميِّ، رَمْزَ الكِفاحِ والجِهادِ في كُلِّ مَكانٍ.

نَعَمْ كانَتْ هذهِ الطّوائِفُ تَنْعَمُ بذِكْرى أمْجادِها الكَبيرَةِ، ولكنّها تَتَحَرَّقُ أيْضاً، وهي تَرى مِقْدارَ ما تَبْذُخُ بِهِ أَقَلِّيَّةٌ فَرَضَتْ نَفْسَها، وآسْتَحْوَذَت على الثَّرْوَةِ، دونَ أيِّ جُهْدٍ وسابِقَةِ كِفاحٍ. فيَعْلى بْنُ أُمَيَّةَ يَمْلِكُ ما قيمَتُهُ مائَةُ أَلْفِ دينارٍ عدا عَقاراتِهِ الكَثيرَةِ، وعبدُ الرّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ يَمْلِكُ ما قيمَتُهُ خَمسمائَةُ ألفِ دينارٍ، وزَيْدُ بْنُ ثابِتٍ يَمْلِكُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ما كانَ يُكْسَرُ بالفُؤوسِ... إلخ. وأيضاً رَأَوْا أنّ هذا البَذْخَ المُتْرَفَ جَرَّ وراءَهُ أنْواعاً مِنَ المُجاوَزاتِ في السُّلوكِ الّذي سَنَّ نَهْجَهُ النَّبيُّ، وعَهْدُهُم بِهِ لمْ يَكُنْ بَعيداً. كَما كَوَّنَتْ هذهِ الغَضارَةُ واللَّدانَةُ، في بيئاتِ الأَقَلِّيَّةِ المَذْكورَةِ، طائِفَةً مِنَ الآراءِ المُتَطَرِّفَةِ وَجَدَتْ سَبيلَ شُيوعها في المُجْتَمَعِ، فقابَلَها بكَثيرٍ مِنَ الاسْتِنْكارِ، ولكنْ لم تَعْدَم، مَعَ ذلكَ، جَماعَةً مِنَ الأَنْصارِ، فَتَوَلَّدَتْ في الوَسَطِ دَعْوَةٌ إلى هذا الجَديدِ المائِعِ المُثيرِ، ودُعاةٌ إلى التَّجْديدِ الرِّخْوِ.

بَيْدَ أنّ الكَثْرَةَ مُحافِظَةٌ مُتَمَسِّكَةٌ بذلكَ القَديمِ الّذي وَجَدَتْ فيه سَبيلَ قُوَّتِها، وآنتَشَرَتْ مُؤْمِنَةً بأَفْكارِهِ، وصَلاحِيَّتِهِ كطِبٍّ للبَشَرِيَّةِ اللاهِثَةِ المُحْتَضَرَةِ، فَهُمْ جُنودُ رِسالَةٍ جاءَتْهُمْ بهذا القَديمِ الّذي لَمَسوا فيه خَيْرَهُم. فلا بِدْعَ إنِ آسْتَنْكَرَتِ الكَثْرَةُ خُطَّةَ هذا الجَديدِ، ولا بِدْعَ إنْ تَحَدَّوْا أنْصارَهُ وآتَّهموهُمْ بالمُروقِ، ولا بِدْعَ إنْ دَخَلوا مَعَهم في صِراعٍ بَدَأَ خَفِيّاً، ثُمّ آمْتَدَّ حَمِيّاً.

وصادَفَ، في هذِهِ الفَتْرَةِ اللّاهِبَةِ، تَطْوافُ رَجُلٍ نَعْرِفُ أنّ آسْمَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَبَأٍ، وكانَ على ما يَظْهَرُ، إنْ صَحَّ أنّهُ وُجِدَ، صاحِبَ نَفْسٍ حَسّاسَةٍ شاعِرَةٍ، وصاحِبَ فِكْرَةٍ مُنَظَّمَةٍ إصْلاحِيّةٍ، مِنْ وَرائِهِما روحٌ ثائِرَةٌ. فآتَّصَلَ بكُلِّ وَسَطٍ إسْلاميٍّ إذْ ذاكَ، وآسْتَلْهَمَ الحَياةَ العامَّةَ الّتي آنعَكَسَتْ صورَتُها وألْوانُها في نَفْسِهِ، فآسْتَعَرَ ضَميرُه، وآتَّقَدَتْ جَوانِحُهُ، فلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ يَلْتَهِبَ، ولمْ يَكُنْ مَناصٌ مِنْ أنْ يَهْتِفَ بالإصْلاحِ وضَرورَةِ تَغْييرِ الوَضْعِ البائِسِ اليائِسِ، وكانَ عَنيفاً في طَبيعَتِهِ، وزادَتْهُ الحالَةُ العامّةُ عُنْفاً، فقدْ تَفاعَلَتِ الصِّفَةُ الحَيَوِيَّةُ الشّائِعَةُ في المُجْتَمَعِ بطَبيعَتِه تَفاعُلاً جَعَلَهُ يثورُ، وجَعَلَهُ يُبَشِّرُ بمَبادِىءِ الإصْلاحِ الثَّوْرِيّةِ. ولم يَكُنِ المجتَمَعُ حينَذاكَ في حاجَةٍ إلى أكْثَرَ مِنَ التّنادي بِهِ وآسْتِصراخِهِ، فقدْ كانَ بحالَةٍ مِنَ التَّوَتُّرِ والتَّفاعُلِ إلى دَرَجَةِ القَدْحِ بالأُوارِ.

وهو، إلى هذا، قدِ آجْتَمَعَ بأقْطابِ الحَرَكَةِ الثَّوْرِيّةِ في مِصْرَ والشّامِ والعِراقِ، وتَأَثَّرَ بِهِم، ولا سِيَّما أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ الّذي رَكَزَ[٢] أفْكارَ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَبَأٍ، وهذا وَجَدَ فيهِ يَنْبوعاً دينيّاً ومَعْنَوِيّاً خَصْباً، يُمْكِنُهُ أنْ يَسْتَمِدَّ مِنْ أخْبارِهِ عَنِ النّبيِّ، ما يَجْعَلُهُ سَنَداً لأفْكارِهِ، فإنّ أبا ذَرٍّ كان يُحَدِّثُ، من قَبْلِ وُرودِ آبْنِ سَبَأٍ إلى الشّامِ،

(٢) يَظُنُّ البُسَطاءُ مِنَ المُؤَرِّخينَ، تَبَعاً لتَقْديراتِ آسْتِشْراقِيّةٍ مُرْسَلَةٍ إرْسالاً، أنّ عَبْدَ اللّهِ بْنَ سَبَأٍ - تِلْكَ الشَّخْصِيّةَ الّتي هِي شِبْهُ تاريخيّةٍ، أي خُرافِيّةٌ، من شِدّةِ غُموضِهَا إلى حَدٍّ يُبيحُ لنا إنْكارُها مَرّةً - فَتَنَ مُجْتَمَعاً بأَسْرِهِ، وهذا مَنْقوضٌ على ضَوْءِ البسيكولوجيّةِ الاجْتِماعِيّةِ؛ وفَتَنَ أبا ذَرٍّ الّذي سايَرَ النُّشوءَ الدّينيَّ الجَديدَ في كُلِّ أَطْوارِهِ. ويَتَبَيَّنُ لنا دَرَجَةُ ما فيها مِن سَخَفٍ حينَما نَعْرِفُ أنّهم بِشَخْصِيّةٍ شِبْهِ تاريخيّةٍ يُريدونَ تَغْييرَ مَجْرى حادِثَةٍ تاريخيّةٍ هامّةٍ، ولا شَكَّ في أنّها طَريقَةٌ ميتافيزيقيّةٌ يُرادُ بها تَعْليلُ المَعْلومِ بالمَجهولِ، وما يَدْرينا فَلَعَلَّ عَبْدَ اللّهِ بْنَ سَبَأٍ عَنْتَرٌ آجْتِماعيٌّ مِثْلُ عَنْتَرِ الفُروسيِّ؟ وأنا إذا كُنْتُ أَسْتَطيعُ أنْ أُقِرَّ بهذا الشَّيءِ المَدْعُوِّ عَبْدَ اللّهِ بْنَ سَبَأٍ، فإنّما أَسْتَطيعُ الإقْرارَ به على أنّه تِلْميذُ المَدْرَسَةِ الغفّارِيّةِ، ويؤَكِّدُ هذا أنّه مِنْ أنصارِ عَليِّ بْن أبي طالِبٍ في الجانِبِ السّياسيِّ والدّينيِّ من أفْكارِهِ، ومَعْروفٌ أنّ أبا ذَرٍّ مِن أنصارِ عَليٍّ، فلو فَرَضْنا أنّه جاءَ بأفْكارٍ مَزْدَكِيّةٍ فلِماذا لمْ يَخْتَرْ إلّا مُناصَرَةَ عَليٍّ، وكانَ أرْوَجَ لدَعْوَتِهِ لو ناصَرَ ذِكْرى أبي بَكْرٍ وعُمَر. والسَّبَبُ في نَظَرِنا الّذي أدّى إلى نُشوءِ مَدْرَسَةِ أبي ذَرٍّ ودَعْوَتِهِ إنّما هو ذلكَ التَّوَرُّطُ والتَّهالُكُ على مَسْلَكِ الثَّراءِ المُتَطَرِّفِ الّذي أخَذَتْ بأَسْبابِهِ الأَقَلِّيّةُ الأُمَوِيّةُ وأعْوانُها، وبُروزُها ذلكَ البُروزَ الأَرِسْتُقراطيَّ واسْتِعْبادُها الإقْطاعيُّ، فكانَ في ذلكَ ما أغْرى أبا ذَرٍّ على فَهْمِ الشَّريعَةِ ذلكَ الفَهْمَ.

بأحاديثِهِ المُسْنَدَةِ إلى النَّبيِّ، وكُلُّها تَحْمِلُ عناصِرَ الأفْكارِ الّتي ٱنطَلَقَ ٱبْنُ سَبَأٍ يُرَوِّجُ لها. والّذي لَدَيْنا مِنْ وَثائِقِ التّاريخِ يَشْهَدُ أنَّ إعلانَ أبي ذَرٍّ عن هذهِ الأفْكارِ وَقَعَ قَبْلَ أوّلِ ٱلتِقاءَةٍ بينَهُما، كما يَشْهَدُ أيْضاً أنْ تَكَوُّنَ شَخْصِيَّةِ ٱبْنِ سَبَأٍ كانَ بَعْدَ أوَّلِ لِقاءٍ. فالتّاريخُ وكُتُبُ الحَديثِ تَعْرِفُ جَيِّداً أنّ أبا ذَرٍّ كانَ يُحَدِّثُ، في الشّامِ، بِمِثْلِ هذهِ القِصّةِ الّتي هيَ مِنْ وَقائِعِهِ عَهْدَ النّبيِّ.

قالَ: «سابَبْتُ رَجُلاً - وهو بِلالٌ - فَعَيَّرْتُهُ بأُمِّهِ، وكانَتْ رَقيقَةً، فقالَ ليَ النّبيُّ: يا أبا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بأُمِّهِ؟! إنّكَ ٱمْرُؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ. إخْوانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللّهُ تَحْتَ أيْديكُمْ، فَمَنْ كانَ أخوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمّا يَأْكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ مِمّا يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفوهُمْ ما يَغْلِبُهم، فإنْ كَلَّفْتُموهُمْ فأَعينوهُمْ».

يَرْوي أبو ذَرٍّ مِثْلَ هذهِ الواقِعَةِ، في حقِّ المَوالي الأرِقّاءِ بالقانونِ، قَصْدَ مُحارَبَةِ الوَضْعِ الّذي شاءَتْ بِهِ الأقَلِّيَّةُ جَعْلَ سَوادِ المُجْتَمَعِ أرِقّاءَ ٱجْتِماعِيّينَ.

فالّذي لا رَيْبَ فيهِ إذاً، أنّ ٱبْنَ سَبَأٍ كانَ يَحْمِلُ أفْكاراً ٱسْتَلْهَمَها مِنْ حالَةِ المُجْتَمَعِ القائِمَةِ، ولكنّهُ سَقَطَ عِنْدَ أبي ذَرٍّ على ما يَرْكُزُها ويوضِحُها، ويُعْطيها العُنْصُرَ الدِّينيَّ المفقودَ لَدَيْهِ مِن قَبْلُ، وكانَ سَبَبَ تَخَوُّفِهِ مِنْ نَشْرِ أفْكارِهِ الحُرَّةِ، وبٱلحَرِيِّ أفْكارِ الشَّريعَةِ، على طريقَةِ أبي ذَرٍّ، فَمَضى يُبَشِّر في طُولِ البِلادِ وعَرْضِها بما إنّه الدّينُ أيضاً.

رَأَيْنا كَمْ كانَتْ أقاليمُ المُجْتَمَعِ الإسْلاميِّ الكَبيرَةُ مُتَوَتِّرَةً، ورَأَيْنا إلى أيِّ حَدٍّ قدْ أَحَسَّ الشَّعْبُ أنّ الأَقَلِّيَّةَ الحاكِمَةَ تَحيكُ حَوْلَهُ مُؤامَرَةً واسِعَةَ النِّطاقِ، تُبالِغُ حتّى تَتَّصِلَ بحَياتِهِ، فٱنكَفَأَ الشَّعْبُ كُلُّهُ في الأقاليمِ يتآمَرُ بها، ويَنْسِجُ من حَوْلِها شِباكَهُ، ولقدْ باتَتِ الحالَةُ العامَّةُ تَجيءُ في كَلِمَتَيْنِ: حُكومَةٍ تَتَآمَرُ بالشَّعْبِ، وشَعْبٍ يتآمَرُ بالحكومَةِ، ولكنّ للشَّعْبِ الكَلِمَةَ الأخيرَةَ والعُلْيا دائماً.

وعَبْدُ اللهِ بْنُ سَبَأٍ أيّانَ مَرَّ، وأيْنَ آنطَلَقَ، يُصادِفُ جُموعاً تَعْتَلِجُ على جُموعٍ، وكُتَلُ المؤامَرَةِ تَنتَشِرُ في كُلِّ مَكانٍ، وتَتَوَزَّعُ لتَحْتَشِدَ. ولقدْ أحْسَنَ التَّعْبيرَ عن أماني الجَماعاتِ وتَصْويرِ أحْلامِهِمْ وآمالِهِم، فآفتُتِنوا بهِ وآفتُتِنَ بهِم، ولمْ يَكُنْ يَرْبُطُ بينَ هذهِ الجُموعِ إلّا رابِطَةُ الشُّعورِ بضَرورَةِ الإصْلاحِ السّريعِ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ الفَسادِ أنْ كانَ أكثَرَ النّاسَ تَحَمُّساً للثّورَةِ همْ أهْلُ المدينَةِ، والمَعْروفُ عنْ هؤلاء أنّهُمْ يُحاوِلونَ شَتّى المحاوَلاتِ للتَّرْقيعِ والتَّوْجيهِ، فكانَ شُعورُهُمْ بضَرورَةِ الثَّوْرَةِ مَعْناهُ أنّ الخَرْقَ قَدِ آتَّسَعَ على الرّاقِعِ، وأنّ حالَةَ الفَوْضى لا يَنْجَعُ مَعَها إلّا القَمْعُ العَنيفُ، فَتَخَلَّوْا عَنْ طَريقِ الجُمْهورِ، أو قُلْ كانوا في الطَّليعَة.

ولكنْ، معَ ذلكَ، فقدْ ظَلَّ حِزْبُ عَليٍّ، أو حِزْبُ المحافِظينَ، يَبذُلُ جُهوداً جَبّارَةً بسَبيلِ تَقْريبِ وُجْهَةِ النَّظَرِ بينَ كُتْلَةِ الشَّعْبِ وكُتْلَةِ الحكومَةِ، ويَحولُ، جُهدَ المُسْتَطاعِ، بينَ الجُمْهورِ وبَيْنَ مآرِبِهِ الدّامِيَةِ، وكَثيراً ما جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ ضَمانَةً لهَيْئَةِ الحُكْمِ. والشَّيءُ الجَديرُ بالتَّسْجيلِ ونَصاعَةِ الذِّكْرِ أنّ هذا الحزْبَ بَقيَ مُوالِياً، بعَطْفٍ صادِقٍ، للحُكومَةِ إلى السّاعَةِ الأخيرَةِ التي لم يَعُدْ مُمكِناً فيها ضَبْطُ أعْصابِ الجُمْهورِ الثّائِرَةِ، فطَغى على الحَواجِزِ وبَدَأَ التَّهْديم.

ومِنَ الإنْصافِ بل من الخَيْرِ أنْ نَذْكُرَ أنّ الجُمْهورَ، مَعَ ذلكَ، لم يَكُنْ أرْعَنَ في ثَوْرَتِهِ، فَقَدِ آتَّصَلَ بأَوْلياءِ الأمورِ والسُّلْطَةِ وطالَبَ مُسْتَشْفِعاً بمُمَثِّليهِ مِراراً وتَكْراراً، ولكنَّ مَطالِبَهُ، في كُلِّ مَرَّةٍ، كانَتْ تَبوءُ بالفَشَلِ، وكانَ فَشَلاً ذَريعاً مُتواصِلاً مِنَ النَّوْعِ المثيرِ، فلا بِدْعَ إنْ هَبَّ الشَّعْبُ هَبَّتَهُ العاتِيَةَ، وتَرَكَّزَتِ الثَّوْرَةُ الانْتِقامِيَّةُ في رَأْسِهِ تَرَكُّزَ الفِكْرَةِ الثّابِتَةِ، لا يَحولُ عنْها في كَثيرٍ أو قَليل.

هَبَطَتْ وُفودُ الأمْصارِ المَدينَةَ مَرّةً وأُخْرى إلى مَرّاتٍ كَثيرةٍ، وكانَتْ، في كُلِّ مُناسَبَةٍ، تَحْمِلُ طائِفَةً مِنْ أمانيها، وهيَ مَلأى بالرَّجاءِ تَوَدُّ لو صَدَقَتْ أحْلامُ آمالِها، وكانَتْ تَرْجِعُ، في كُلِّ مَرَّةٍ، بوُعودٍ مَغْسولَةٍ، ولكنْ لا تَلْبَثُ أنْ تَسْتَحيلَ إلى صَدى

يَأْسٍ فيهِ غُرورُ السَّراب.

ساءَها، في كُلِّ تَجْرِبَةٍ وكُلِّ مُحاولَةٍ، إخْفاقُ المُتَقَلِّبِ، فَأُغيظَتْ كَذي النَّفْسِ الجَريحَةِ على مَنْ لا يَفْتَأُ يَنْكَأُ جِراحَهُ ويُجْري دِماءَهُ، ولَمْ يَسَعْها كَظْمُ عواطِفِها المُلْتَهِبَةِ، فَهَدَرَتْ صاخِبَةً مُحْتَجَّةً، تُريدُ وَضْعَ حَدٍّ لآلامِها وبَأْسائِها المُسْتَعِرَةِ، فكانَتْ تَصْطَدِمُ تَكْراراً ومِراراً بِما يوقِظُ فيها شُعورَ الخَيْبَةِ المُنْتَقِمَ. لذلكَ لَمْ تَكُنِ الجَماعاتُ تُرى في أيِّ مَكانٍ إلا مُلْتَئِمَةً بعضاً على بَعْضٍ تَتَهامَسُ في أمْرٍ خَطير.

وفي هذهِ الفَتْرَةِ المُلْتَهِبَةِ كانَ يَطوفُ، كما قُلْنا، في أقطارِ المُجْتَمَعِ الإسْلاميِّ، عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَبَأٍ فيما زَعَمُوا، فما حَلَّ بُقْعَةً إلّا وسَمِعَ فيها تجاوُبَ نأْمَةٍ واحِدَةٍ مُسْتَنْكِرَةٍ، فاشْتَمَلَ على حَفيظَةٍ مُتَحَرِّقَةٍ تَأْتَكِلُ في حَناياهُ غَيْظاً وتُحْرِقُ الأُرَّمَ. وما هو إلّا أنْ هَبَطَ الشّامَ فاتَّصَلَتْ أسْبابُهُ بِأَسْبابِ أبي ذَرٍّ فقدْ سَمِعَهُ يَنتَقِدُ ولا يُبالي على أيِّ وَجْهٍ فُسِّرَ انْتِقادُهُ، ويَتَحَدّى المُجْتَمَعَ[٣] والدَّوْلَةَ، وكُلَّ أُسْرَةِ الحُكْمِ تَحَدِّياً جارِحاً بِمَنْطِقِ الدُّسْتورِ الإسْلاميِّ العامِّ، الّذي هو القُرْآنُ والسُّنَّةُ، ومَناهِجُ السُّلوكِ التَّقْليدِيَّةُ، ويَأْخُذُ على الانْطِلاقيِّينَ المُتَجاوِزينَ مَذاهِبَ سُلوكِهِمْ.

رَأى ولَمَسَ مِقْدارَ تَهاوي النّاسِ في التَّرَفِ بالعَدْوى، وتَهافُتِهِمْ على الرَّفاهِ مِنْ أيِّ طَريقٍ، وتَسْتَتْبِعُ خُطَّةَ هذا السُّلوكِ إباحِيَّةٌ ولا مُبالاةٌ، فَجَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ وأتْباعِهِ حاجِزاً يُقاوِمُ التَّيارَ، فَوَقَفَ في كُلِّ مَكانٍ يُبَشِّرُ بِمَبادِئِهِ، وبِعِبارَةٍ أصَحَّ يَقْرَعُ سَمْعَ النّاسِ بِما قَدْ عَهِدَ عليهِ النَّبيُّ، وبما قَدْ سَمِعَهُ منهُ وَوَعاهُ بينَ يَدَيْهِ، ولكنَّ بَعْضاً مِنَ النّاسِ كانوا قَدِ اسْتَناموا إلى هذا الجَديدِ، وتَذَوَّقوهُ ولَذَّتْهُم أشْياؤُهُ، فَأَبَوْا عليهِ وأبى عَلَيْهِم، فانْطَلَقَ لا يُبالي غَضَباً ولا رِضا.

وكانَ أَبو ذَرٍّ يَرَى أنّ فِكْرَةَ الحَياةِ الإنْسانيّةِ هي الفَضيلَةُ، والإنْسانَ هو

---

(٣) تَفْصيلُ رَأْيِنا في مَدْرَسَةِ أبي ذَرٍّ، وتَفْصيلُ آرائِهِ في الحَياةِ وغاياتِها، وفي المُجْتَمَعِ ونِظامِهِ، وفي الحُرِّيَّةِ الأَدَبِيَّةِ، وعَلاقَةِ الحَيِّ باللّهِ، تَجِدُهُ في كِتابِنا: **مدرسة أبي ذرّ والثورة الكبرى في الإسلام.**

الفاضِلُ فَقَطْ. فعلى النّاسِ إذاً أنْ يُحِلّوا أشْياءَ الفَضيلَةِ بينَهم، وأنْ يُوَفِّروا كُلَّ جُهودِهِمْ على تَحْقيقِها وآنتِهاجِ سُنَنِها وأساليبِها. وأمّا أولئكَ الّذينَ يَجْمَعونَ أكْبَرَ جُهْدِهِم وهَمِّهِمْ على التَّزَيُّدِ مِنْ مَخارِفِ الحياةِ النّاعِمَةِ وأسْبابِ العَيْشِ الرّفيهِ، فإنّهم لا يُفَضَّلونَ، في آعْتِبارِهِ، عنْ سائِماتٍ وَجَدَتْ سَبيلَ حُظوظِها. والإنسانُ عندَه، إذا جَمَعَ هَمَّهُ هذا الجَمْعَ، فإنّهُ يَنْقَلِبُ حَيَواناً فقط ميزتُهُ أنّه أقْدَرُ على التَّحَيُّلِ بما فيهِ مِنَ الفِكْرِ، وأمّا الإنْسانيّةُ فإنّها عُنْصُرٌ غَريبٌ عنهُ. ولكيْ يَكونَ إنْساناً، ويَظلَّ كذلكَ، لا بُدّ له مِن حياةٍ أُخْرى مادّتُها الفَضيلَةُ، والفَضيلَةُ، في نَظَرِهِ، هيَ التَّجَرُّدُ والعَمَل.

هو يُريدُنا أنْ نَعْمَلَ ونُكافِحَ بما آسْتَطَعْنا إلى ذلكَ، كما يُريدُنا أنْ نَتَجَرَّدَ أيضاً فلا نَنغَمِسَ في مَدى الفُتُونِ، يُريدُ مِنّا سَيْراً بما فينا من حَياةٍ عُضْوِيةٍ ذاتِ حَراراتٍ، وآسْتِعْلاءً بما فينا من رُوحٍ لا تَفْتَأُ تَنْشُدُ السُّمُوّ.

وليسَ أَضَرَّ على الكائِنِ الإنْسانيِّ من أنْ يَسيرَ بالحَياةِ فَقَطْ، إذْ بهذا يُشْبِهُ سَيْرَ الرَّحى تَتَحَرَّكُ وهي قابِعَةٌ بَمَحَلِّها. وفَرْقُ ما بَيْنَ الإنْسانِ والحَيَوانِ أنّ الثّانيَ تَسيرُ بِهِ الحَياةُ، والأوّلَ يَسيرُ بالحَياةِ، ويَسْتَعْلي دَوْماً بالرُّوحِ الّتي هي فِكْرَةُ الحَياةِ وغايَتُها وضَميرُها وأخْلاقِيَّتُها. وإذا كانَتِ الحرَكَةُ ضَرورِيَّةً للحَياةِ، والفَضيلَةُ، الّتي هي التَّجَرُّدُ، ضَرورِيَّةً للإنْسانيّةِ، فلكيْ نَكونَ أَحْياءً إنْسانيّينَ يَجِبُ أنْ نَعْمَلَ، ويَجِبُ أنْ نَتَجَرَّدَ، وأمّا إذا عَمِلْنا فَقَطْ فَقَدْ نَحَرْنا عُنْصُرَ الإنْسانيّةِ فينا وأَسْفَفْنا، كما تَتَعَقَّدُ الحَياةُ حينَ نَضَعُها في مُعْتَرَكِ أَطْماعِنا وشِباكِ شَهَواتِنا. فكانَ يُوصي ويُلِحُّ أنْ نَعْمَلَ، وأنْ نَتَجَرَّدَ، أيْ نَعْمَلَ ولا نَدَّخِرَ، فَحَضَّ بأَقسى أُسْلوبٍ وأَعْنَفِهِ على عَدَمِ الكَنْزِ، ولَوَّحَ ما شاءَتْ له فِكْرَتُهُ وشاءَ ضَميرُهُ بقَوْلِهِ تَعالى:

«والّذينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقونَها في سَبيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَليمٍ، يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وجُنوبُهُمْ وظُهورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزونَ».

وهو يَرَى أيْضاً أنّ الدَّوْلَةَ كالفَرْدِ سَواءٌ بسَواءٍ، فإذا كَنَزَتْ ولمْ تَتَجَرَّدِ آنحَطَّتْ، وتَوَلَّدَتْ لَدَيْها الأطْماعُ. فتَحدّى الدَّوْلَةَ كما تَحَدّى الأفْرادَ، وحارَبَ الكَنْزَ الاجْتِماعيَّ، كما حارَبَ الكَنْزَ الفَرْديَّ. وشَنَّها شَعْواءَ على دُنْيا القُصورِ وحَياةِ التَّرَفِ، فقدْ نَظَرَ إليْها نَظَرَهُ إلى مَأتَمٍ للمِثاليّةِ العُلْيا والأحْلامِ السّامِيَةِ، فمَوْكِبُ الإنْسانيّةِ لا بُدَّ أنْ يَتَوَقَّفَ ويَتَوَحَّلَ، ويَنْقَلِبَ مَوْكِبَ رُجُمٍ إذا شِئْنا الوُلوجَ بهِ في دُنْيا الشَّهَوات.

ومِن ناحِيَةٍ أُخْرى أَحَسَّ بآلامِ البُؤْسِ في النّاسِ، وأَحَسَّ أنّ الدَّوْلَةَ تَتَوَسَّلُ بالتَّسْمِياتِ القانونيّةِ إلى آنتِهابِ المُسَمَّياتِ الحُقوقيّةِ من أرْبابِها، والاسْتِحْواذِ على الثَّرْوَةِ الاجْتِماعِيّةِ وتَبْديدِها دونَ مُسْتَحِقّيها، فَقَدَّرَ وآسْتَنْتَجَ أنّ الحُكومَةَ المُنْتَخَبَةَ هي ذاتُ الحَقِّ الأوّلِ في التَّصَرُّفِ بالأمْوالِ الشّائِعَةِ. فَتَسْمِيَتُها مالَ الخزينَةِ بمالِ اللّهِ الّتي يُرادُ منْها الشُّيوعُ، وسَيلَةٌ إذاً للتّلاعُبِ والاسْتِحْواذِ، فَحَمَلَ حَمْلَةً نَكْراءَ على هذِهِ التَّسْمِيَةِ المَغْلوطَةِ، ونادى أنّها مالُ المُسْلِمينَ، هذهِ التَّسْمِيَةِ الّتي تُؤَدّي، في تَسَلْسُلِها المَنْطِقيِّ الحُقوقيِّ، إلى مَنْعِ حُرّيَّةِ التَّصَرُّفِ، وإلى وُجوبِ تَوْزيعِها عليهِمْ وتَعَلُّقِ حُقوقِهِمْ بِها.

وبَلَغَ من شِدّةِ وَطْأَةِ هذهِ الدَّعْوَةِ، أن جَعَلَ الأنانيّونَ الطّامِعونَ يَفِرّونَ مِنْ طَريقِهِ كُلَّما رَأوْهُ، وزادَ في تَأْثيرِ دَعْوَتِهِ وآنتِشارِها أنّه كانَ يَشْفَعُ أقْوالَهُ هذهِ بِأَحاديثَ مَأْثورَةٍ سَمِعَها مِنَ النَّبيِّ. فَوَجَدَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَبَأٍ في هذهِ الأفْكارِ، الّتي يَسْمَعُها من أبي ذَرٍّ، ما هو العِلاجُ النّاجِعُ لِروحِ المُجْتَمَعِ البائِسَةِ، وَوَجَدَ فيها أيْضاً خالِصَ أفْكارِهِ، وفَوْقَ ذلكَ وَجَدَ فيها ما تَتُوقُ إليهِ رَغْبَةُ المُطالِبينَ بالإصْلاحِ الحائِرينَ، فآنطَلَقَ على سُنّةِ أَبي ذَرٍّ يُبَشِّرُ ولا يَحْفِلُ.

تَوَقَّفَ في الكُوفَةِ وهو يَذْرَعُ الأقْطارَ، فَرَأى فيها حَرَكَةً أَقْوى من سائِرِ الحَرَكاتِ الأُخْرى في المُدنِ والعَواصِمِ، فآنخَرَطَ فيها ونَظَّمَها، وهُناكَ وُضِعَتْ

«عريضَةُ الحقِّ» أو «مَطالِبُ الإصْلاحِ» فلم تُقابَلْ مِنَ الهَيئَةِ الحاكِمَةِ بالحُسْنى بلْ بالإعْراضِ، فَتَألّبوا، وكانَ أنْ تَوَسَّطَ عَليُّ بْنُ أبي طالِبٍ بينَهم وبينَ الخَليفَةِ فَوُعِدوا خَيْراً، وما إنْ بارَحوا المَدينَةَ حتّى أوْعَزَتِ السُّلْطَةُ العُلْيا إلى مُعاوِيَةَ بالقَبْضِ عليهِمْ في حِمْصَ، وبَعْدَ لأْيٍ أُفْرِجَ عنْهم فَعادوا إلى المُطالَبَةِ مَرّةً أُخْرى، بَيْدَ أنّهم آسْتَعَدّوا للخُصومَةِ مَهْما نَجَمَ عنْها، ومهْما آحْتَبَكَتْ ألوانُها الكالِحَةُ. وكانتْ عَريضَةُ الحقِّ تَشْتَمِلُ على:

أ ـ إبْعادِ البِطانَةِ المُشْرِفَةِ على تَسْييرِ الأُمورِ حالياً ولا سِيَّما مَرْوانَ بْنِ الحكَم.

ب ـ الرّجوعِ إلى سِياسَةِ الأمْوالِ الّتي دَرَجَ عليْها النّبيُّ، دونَ السِّياسَةِ الّتي جَرَى على سَنَنِها الخليفَةُ الثّاني ولا تَزال.

ج ـ ضَرْبِ اليَدِ على طَماعِيَّةِ قُرَيْش.

د ـ الحَدِّ من صَلاحِيَّةِ الوُلاةِ والأُمَراءِ، فَيُقَيَّدُ تَصَرُّفُهم بالخَراجِ والأَمْوالِ العامّة.

هـ ـ الحَيْلولَةِ دونَ الأُمراءِ وآسْتِذلالِ الأهْلين.

وفَدَتِ الوُفودُ تَحْتَ سِتارِ الحَجِّ، وهي تُخْفي أغْراضَها الدّامِيَةَ الثَّوْرِيَّةَ، وشاعَ الهَمْسُ في المَدينَةِ، وآنطَلَقَتْ عِباراتُ الانْتِقادِ تَؤُجُّ كالنّارِ في الهَشيمِ، وقَدِ آتَّصَلَتْ بعَليٍّ أَخْبارُهُمْ فَتَخَوَّفَ مَغَبَّةَ الأمْرِ وبادَرَ إلى الاجْتِماعِ بعُثمانَ، فقالَ له:

«أَلنّاسُ ورائي وقدْ كَلّموني فيكَ، وَوَاللّهِ ما أَدْري ما أَقولُ لكَ، وما أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، ولا أَدُلُّكَ على أَمْرٍ لا تَعْرِفُه.

إنّكَ لَتَعْلَمُ ما نَعْلَمُ، ما سَبقْناكَ إلى شَيءٍ فَنُخْبِرَكَ عنهُ، ولا خَلَوْنا بشَيءٍ فَنُبْلِغَكَهُ، وما خُصِصْنا بأَمْرٍ دونَك. وقد رَأَيْتَ وسَمِعْتَ وصَحِبْتَ رسَولَ اللّهِ ونِلْتَ صِهْرَهُ، وما آبْنُ أبي قُحافَةَ بأَوْلى بعَمَلِ الحقِّ منكَ، ولا آبْنُ الخَطّابِ بأَوْلى بشَيءٍ

مِنَ الخَيْرِ مِنك...»

ثم يقولُ:

«فاللّهَ اللّهَ في نَفْسِكَ. فإنّكَ واللّهِ ما تُبَصَّرُ من عَمىً، وتُعَلَّمُ من جَهْلٍ، وإنّ الطّريقَ لَواضِحٌ بَيِّنٌ...»

فإذا آعْتَذَرَ عُثْمانُ إليهِ بأنّه يَقْتَفي أَثَرَ عُمَرَ أجابَهُ عَليٌّ:

«سَأُخْبِرُكَ أنّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ كانَ كُلُّ مَنْ وَليَ فإنّما يَطَأُ على صِماخِهِ، إنْ بَلَغَهُ عنه حَرَفٌ جَلَبَهُ ثُمَّ بَلَغَ به أقْصى الغايَة. وأنتَ لا تَفْعَلُ، ضَعُفْتَ ورَفَقْتَ على أَقْرِبائِكَ...»

فإذا ذَكَرَ له عُثْمانُ أنَّ مُعاوِيَةَ كانَ مِمَّنْ وَلّاهُ عُمَرُ مُدَّةَ خِلافَتِهِ كُلَّها، وأنّه يَقْتَدي كذلكَ بعُمَرَ في تَوْلِيَتِهِ، أبانَ له عَليٌّ الفَرْقَ بينَ العَمَلَيْنِ فقال:

«أَنْشُدُكَ اللّهَ! هل تَعْلَمُ أنّ مُعاوِيَةَ كانَ أَخْوَفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَرْفَأَ[4] غُلامِ عُمَرَ؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ عَليٌّ: إنّ مُعاوِيَةَ يَقْتَطِعُ الأمورَ دونَكَ وأنْتَ تَعْلَمُها، فَيقول للنّاسِ هذا أَمْرُ عُثْمانَ فَيَبْلُغُكَ ولا تُغَيِّرُ على مُعاوِيةَ».

ولكنّ مُعاوِيَةَ لمْ يَزَلْ بعُثْمانَ يُوغِرُ صَدْرَهُ على عَليٍّ، ويَضْرِبُ له المَثَلَ بشِدَّتِهِ عليهِ فيقول:

«هكذا يَسْتَقْبِلُكَ وأنْتَ إمامُهُ وسَلَفُهُ وآبْنُ عَمِّهِ وآبْنُ عَمَّتِهِ، فما ظَنُّكَ بما غابَ عنكَ منه؟»، وكذلكَ يَقولُ سَعيدُ بْنُ العاصِ وسائِرُ بِطانَتِهِ (حتّى أجْمَعَ ألّا يَقومَ دونَه). وعَليٌّ حِيالَ تَرَدُّدِ عُثْمانَ لم يَسَعْهُ إلّا أنْ يَقول:

«ما يُريدُ عُثْمانُ أنْ يَنْصَحَهُ أحَدٌ، آتَّخَذَ بِطانَةً أهْلَ غِشٍّ ليسَ مِنْهم أحَدٌ إلّا

(٤) يَرْفَأ: اسْمُ غُلامِ عُمَرَ، وكانَ إذا رَآهُ يَرْعَدُ منه رُعْباً، فَضُرِبَ المَثَلُ به في الرُّعْبِ.

وقَدْ تَسَبَّبَ بطائِفَةٍ مِنَ الأرْضِ، يَأْكُلُ خَراجَها ويَسْتَذِلُّ أهْلَها».

وكانَ عَمْرو بْنُ العاصِ في هذهِ الأثْناءِ يُحَرِّضُ النّاسَ على عُثْمانَ، ويَجْبَهُ سِياسَتَهُ علانيّةً ويَتَجَسَّسُ عليهِ، ويَفْضَحُ الأحاديثَ الّتي تَجْري داخِلَ دارِهِ، ولا يَلْقى أحَداً إلّا أدْخَلَ في رُوعِهِ كَراهِيَّتَهُ، ويَسْتَغِلُّ المُناسَباتِ والظُّروفَ حتّى قالَ يَصِفُ نَفْسَه:

«أنا أبو عَبْدِ اللّهِ إذا حَكَكْتُ قُرْحَةً نَكَأْتُها، إنْ كُنْتُ لألْقى الرّاعيَ فَأُحَرِّضُه على عُثْمان»... وهذا عُثْمانُ يَسْتَشيرُهُ في جَماعَةٍ مِنْ صَحْبِهِ فَيقولُ له عَمْرو:

«أرى أنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ النّاسَ بِما يَكْرَهونَ، فاْعتَزِمْ أنْ تَعْتَدِلَ، فإنْ أَبَيْتَ فاْعْتَزِمْ أنْ تَعْتَزِلَ، فإنْ أَبَيْتَ فاْعْتَزِمْ عَزْماً واْمْضِ فيهِ قُدُماً...» ويُقابِلُهُ حينَما خَطَبَ عُثْمانُ على مَلأٍ مِنَ الصّاخِبينَ المُتَمَرِّدينَ بقَوْلِه:

«يا أميرَ المُؤمنينَ: إنّكَ قَدْ رَكِبْتَ نَهابيرَ ورَكِبْناها مَعَك، فتُبْ نتُبْ...» وهذهِ عائِشَةُ تَجْتَرِىءُ وهو يَخْطُبُ، فتقولُ وقَدْ نَشَرَتْ قَميصَ النّبيِّ:

«هذا قَميصُ النَّبيِّ لم يَبْلَ، وقَدْ أَبْلَيْتَ سُنَّتَهُ...». وهذان طَلْحَةُ والزُّبيْرُ يُعينانِ الثّائرينَ بالمالِ.

والجُموعُ المُتَألِّبَةُ الوافِدَةُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ، حِيالَ ما تَرى وحِيالَ ما تُحِسُّ بهِ مِنْ آلامٍ في قَرارَتِها، تَفَتَّحَتْ ثائِرَتُها، ومَضَتْ في اْندِفاعِها مُتَنَمِّرَةً غاضِبَةً. فَبَذَلَ عَليٌّ كُلَّ جُهْدٍ لتَخْفيفِ ثائِرَتِهِمْ وتَبْريدِ غُلَوائِهِمْ، وحَمَلَ عُثْمانَ على إعْطائِهِمْ مُهْلَةَ ثَلاثَةِ أيّامٍ. فلمّا اْنتَهَتِ اْجْتَمَعوا على بابِهِ، مِثْلَ الجِبالِ، على حَدِّ تَعْبيرِ المُؤَرِّخينَ. قالَ عُثْمانُ لمَروانَ: «أُخْرُجْ وكَلِّمْهُمْ فإنّي أَسْتَحْيي أنْ أُكَلِّمَهُمْ»، فَخَرَجَ مَرْوانُ إلى البابِ، والنّاسُ يَرْكَبُ بَعْضُهُم بَعْضاً، فقالَ:

«ما شَأْنُكم قَدِ اْجْتَمَعْتُم كأنّما جِئْتُمْ لِنَهْبٍ؟ شاهَتِ الوُجوهُ، كُلُّ إنْسانٍ

آخِذٌ بأُذُنِ صاحِبِهِ؟ جِئْتُمْ تُريدونَ أنْ تَنْزِعوا مُلْكَنا مِنْ أَيْدينا؟ آخْرُجوا عَنّا. أما واللّهِ لَئِنْ رُمْتُمونا لَيَمُرَّنَّ عليْكُمْ أَمْرٌ لا يَسُرُّكُمْ، ولا تَحْمَدوا غِبَّ رَأْيِكُم. آرْجِعوا إلى مَنازِلِكُمْ، واللّهِ ما نَحْنُ بِمَغْلوبينَ على ما في أَيْدينا».

كانَتْ هذهِ الخُطْبَةُ المَمْلوءَةُ حُمْقاً ورُعونَةً، شَرارَةً شَديدَةَ الأَثرِ في إذْكاءِ الثَّوْرَةِ وتَقْريبِ خُطُواتِها، ومَرْوانُ لم يُفْلِحْ فيها بإثارَةِ النّاسِ فَقَطْ، بلْ أَفْلَحَ أيْضاً بإثارَةِ عَليٍّ نَفْسِه، الّذي ضَمِنَ للجُمْهورِ تَسْوِيَةَ الأُمورِ على ما يَرْغَبُ، وقَدْ أُسْقِطَ في يَدِهِ حَقّاً، وما وَسِعَهُ، تَحْتَ عاصِفَةِ نَفْسِهِ وعاصِفَةِ الجُمْهورِ المائِجِ، إلّا أنْ يَقولَ مقالَتَهُ المَشهورَة:

«ما رَضيتَ مِنْ مَرْوانَ ولا رَضِيَ عنْك، إلّا بتَحَرُّفِكَ عن دينِكَ وعنْ عَقْلِكَ، مِثْلَ جَمَلِ الظَّعينَةِ يُقادُ حيثُ يُسارُ بِهِ. واللّهِ ما مَرْوانُ بِذي رَأْيٍ في دينِهِ ولا في نَفْسِهِ. وايْمُ اللّهِ إنّي لأَراهُ سَيورِدُكَ ثم لا يُصْدِرُكَ، وما أنا بعائِدٍ بَعْدَ مَقامي هذا لمعاتَبَتِكَ، أَذْهَبْتَ شَرَفَكَ وغُلِبْتَ على أَمْرِكَ».

ودَخَلَتْ عليهِ آمْرَأَتُهُ نائِلَةُ آبْنَةُ الفَرافِصَةِ(٥)، فقالتْ:

«أَتَكَلَّمُ أوْ أَسْكُتُ»، فقال: «تَكَلَّمي» فقالتْ:

«قدْ سَمِعْتَ قَوْلَ عَليٍّ لكَ وإنَّهُ لَيْسَ يُعاوِدُكَ، وقدْ أَطَعْتَ مَرْوانَ يَقودُكَ حيثُ شاءَ» قالَ: «فما أَصْنَع»؟... قالت:

«تَتَّقي اللّهَ وتَتَّبِعُ سُنَّةَ صاحِبَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ، فإنّكَ مَتى أَطَعْتَ مَرْوانَ قَتَلَكَ. ومَرْوانُ ليسَ له عِنْدَ النّاسِ قَدْرٌ ولا هَيْبَةٌ ولا مَحَبَّةٌ. وإنّما تَرَكَكَ النّاسُ لمكانِ مَرْوانَ مِنْك، فأرْسِلْ إلى عَليٍّ فآسْتَصْلِحْهُ فإنّ لهُ منْك قَرابَةً وهو لا يُعْصَى». فَأَرْسَلَ عُثْمانُ إلى عَليٍّ فَأَبى أنْ يَأْتِيَهُ وقالَ: «قَدْ أَعْلَمْتُهُ أنّني لَسْتُ بعائِدٍ».

كَبُرَ على عَليٍّ مِثْلُ ذلكَ المَنْطِقِ، الّذي فاجَأَ بِهِ الجُموعَ مَرْوانُ بلسانِ

(٥) ليسَ في العَرَبِ مَنْ هُو بِفَتْحِ الفاءِ لا بِضَمِّها سِوى أبي نائِلَةَ هذا والأَحْوَصِ الكَلْبيّ

الخَليفَةِ، وهو يَعْلَمُ أنّه لم يَكُنْ بينَهم في هذهِ المَرْحَلَةِ العَصيبةِ وبينَ التّلَظّي وآلتِهامِ الوَضْعِ القائِمِ، إلّا كَلِمَةٌ رَعْناءُ كالّتي فاهَ بها مَرْوانُ، على أنّها هَدَمَتْ قيمَةَ وَساطَتِهِ، وألْقَتْ في رُوعِ النّاسِ آرْتياباً حَقيقيّاً حادّاً في جَدْوى مُداخَلَتِه، لهذا ـ وهو في مِقْياسِ كُلِّ عَصْرٍ مُبَرَّر ـ تَنَحّى وآعْتَزَلَ وآعْتَصَم في حُدودِ هذا التَّنَحّي والاعْتِزالِ. ولكنّ عَليّاً، مَعَ كُلِّ ما هو عاتِبٌ وَواجِدٌ، لم يَزَلْ يُقَدِّرُ ويَذْهَبُ في مَدى تَقديرِهِ بَعيداً، فينتَهي إلى الكارِثَةِ ويتراءى له شَبَحُها، فَيَرْهَبُ هَوْلَها ويَخْشى وُقوعَها. يَجِبُ إذاً أنْ لا يَظَلَّ بَعيداً، وإنْ تَوارى مِنَ المَيْدانِ إزاءَ مَوْقِفِ بِطانَةِ عُثْمانَ مِنَ الجُمْهورِ، هذا المَوْقِفَ النّابيَ المُثيرَ، فبادَرَ إلى تَقْديمِ وَلَدَيْه ـ لاعْتِباراتِهِما التَّقْديريّة ـ ومَواليهِ، كيْ يُنَهْنِهوا عَواديَ الأحْداثِ وطائِشاتِ الخُطوبِ. وحينَ بَلَغَهُ «أنّ النّاسَ حَصَروا دارَهُ ومَنَعوهُ الماءَ بَعَثَ إليهِ بِثَلاثِ قِرَبٍ، وقالَ للحَسَنِ والحُسَيْنِ: آذْهَبا بسَيْفَيْكُما حتّى تَقوما على بابِه ولا تَدَعا أحداً يَصِلُ إليه بمَكْروهٍ، وكانَ أنْ خُضِّبَ الحَسَنُ بالدِّماءِ وشُجَّ قَنْبرُ مَوْلاهُ».

وباتَ عَليٌّ مُطْمَئِنّاً، فَقَدْ رَتَّبَ الأُمورَ جَيِّداً، وهو واثِقٌ مِنْ أنّ مَجْرى الحادِثِ سَيَسيرُ على هذا الشَّكْلِ: يُضطَّرُ عُثْمانُ تَحْتَ ضَغْطِ الجُمْهورِ، إلى إجابَةِ مَطالِبِ الإصْلاحِ وتَنْحِيَةِ بِطانَتِهِ ولا سيّما مَرْوانَ، ولوُجودِ آبْنَيْهِ ومَواليهِ آطْمأنَّ مِنْ عَدَمِ دُنُوِّ الخَطْبِ مِنْه. فإنّ وُجودَهُم يُعَبِّرُ عن مُعارَضَةٍ عَمَليّةٍ أكيدَةٍ مِنْ جانِبِهِ، فلا يتَّصِلُ بِهِ مَكْروهٌ دامِ يَضَعُ حَدّاً لحَياتِهِ، وإنّما كُلُّ ما في الأمْرِ أنّه سَيَضَعُ حَدّاً لأساليبِ الحُكْمِ الاسْتِبْداديّة ومَهازِلِهِ العابِثَةِ. وما كانَ يَدْري أنّ المُغْرِضينَ، ذَوي المآرِبِ، كانوا قدِ آندَسّوا في الجُمْهورِ الّذي غَدا جِدَّ حَسّاسٍ وجِدَّ مُتَأثِّرٍ، فَتَدَفَّقَ السَّيْلُ جارِفاً و«جرَى الوادي فَطَمَّ على القَرِيِّ».

هذا ما عَرَفَ التّاريخُ عَنْ عَليٍّ وبَنيهِ إزاءَ المَصْرَعِ، بينَما عَرَفَ مِنْ ناحِيَةٍ ثانيَةٍ أنّ عُثْمانَ، وهو مُحاصَرٌ، كَتَبَ إلى مُعاوِيَةَ وهو بالشّام:

«إنَّ أهْلَ المَدينَةِ قَدْ كَفَروا، وأخْلَفوا الطّاعَةَ ونَكَثوا البَيْعَةَ، فَآبْعَثْ إليَّ مِنْ

قِبَلِكَ مِنْ مُقاتِلَةِ أَهْلِ الشّامِ على كُلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ»، فإذا مُعاوِيَةُ حينَما جاءَهُ كتابُهُ «يَتَرَبَّصُ بِهِ فَقَدْ كَرِهَ ـ على حَدِّ دَعْواهُ ـ مُخالَفَةَ أَصْحابِ الرّسولِ، وقدْ عَلِمَ آجْتِماعَهُم على ذلك».

ومِنْ تَهَكُّماتِ القَدَرِ أَنْ يُحَرِّضَ عَمْرو بْنُ العاصِ على قَتْلِ عُثْمان، وتَجْبَهُهُ عائِشَةُ علانيةً، ويتخَلّى مُعاوِيَةُ عن نَجْدَتِهِ، ويُعينُ عليهِ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ كِلاهُما، ثُمّ يَنْفِرُ هؤلاءِ أَنْفُسُهم هُنا وهُناكَ، يُطالِبونَ بدَمِهِ عَليَّ بْنَ أبي طالِبٍ الّذي أَخْلَصَ له النّصيحَةَ، وحَذَّرَهُ من هذا المَصيرِ، وكانَ مِجَنَّهُ دونَ رَواكِضِ الخُطوبِ.

*

بينَ حَقٍّ وباطِلٍ ومُسْتَصْرِخٍ وناكِلٍ، تَراقَصَ المُحيطُ مُضطَّرِباً مُتَرَنِّحاً كبَحْرٍ آسْتَقْبَلَ بينَ حَناياهُ العاصِفَة...

فمادَ بها ومادَتْ بهِ زَمَناً، وآنطَلَقَ يَقْذِفُ بالزَّبَدِ يُعَبِّرُ عَنْ أنّه حانِقٌ، ويَرْمي بالمَوْجِ مُتَطاوِلاً كأنّهُ يَتَهَدَّد...

فقدْ عَبِثَتِ العاصِفَةُ بأَبَدِيَّةِ السُّكونِ الجاثِمَةِ عليهِ. وهُدوءِ اللّانِهايَةِ الغامِضَةِ الحائِمَةِ فيه...

*

شَعَرَ البَحْرُ(٦) أنّ الصُّخورَ(٧) الشّامِخَةَ في أَرْجائِهِ لَيْسَتْ من طَبيعَتِه...

فآسْتَدارَ عَلَيْها يُزَمْجِرُ ثائِراً هادِراً، فقدْ أَيْقَنَ أنّها مَكْمَنُ العاصِفَةِ، فهو يَنوءُ بآقْتِلاعِها...

---

(٦) كِنايَةٌ عن الشَّعْبِ الّذي هو في الواقِعِ بَحْرٌ حَيَوِيٌّ يَفيضُ بالقُوى، وتاريخُهُ سَيْلٌ مِنَ الهُدُوءِ والعَواصِفِ والتَّياراتِ والتَّناحُراتِ بينَ أَحْيائِهِ.

(٧) كِنايَةٌ عنِ الأرستقراطِيَّة، وما حَلّ مَحَلَّها في المُجْتَمَعِ الحديثِ، وفي الواقِعِ أنّ لهذهِ الأرستقراطيَّةِ طَبيعَةَ الصَّخْرِ مِنْ كِبْرِياء قاسِيَةٍ وحِسٍّ بَليد.

وحينَ طاوَلَتْهُ طَما عَلَيْها وتَجاهَل وُجودَها...

وهو، وإنْ لم يَقْتَلِعْها، رَدَّها إلى حَيْثُ لا يَكونُ لها حِسابٌ في كِبْرِياءِ الوُجود...

*

إنَّ كِبْرِياءَ الواحِدِ تَجاهُلٌ لوُجودِ الآخَرينَ...

ولكنّ وُجودَهُم في حِسِّ الواقِعِ، أكْبَرُ مِنْ وُجودِهِ في حِسِّ الخَيال...

فإنَّ وُجودَهُ قَبْضَةٌ مِنَ الظَّلامِ، ووُجودَهُمْ قَبْضَةٌ مِنَ الشُّعاع...

وما تقابَلا إلّا ذابَ الأوَّلُ في الثّاني دونَ ما أثَرٍ يَقْفو...

إنّ الكِبْرِياءَ صِفَةٌ ذاتِيَّةٌ لِلْكَثْرَةِ، وهي تُشيرُ إلى العَدَد...

وإذا نَجَحَ الفَرْدُ في ٱبْتلاعِ الكُلِّ أحْياناً، فإنّه مُتَعَرِّضٌ لخَطَرِ التَّمَزُّعِ دائِماً...

فالكُلُّ قُنْبُلَةٌ قَدْ تَبورُ حيناً، ولكنّ فيها إمْكانِيَّةَ التَّفَجُّرِ أبَدا...

*

في طَبيعَةِ البَحْرِ رَشاقَةُ الحَرَكَةِ، وفي طَبيعَةِ الصَّخْرِ سُكونٌ بَليدٌ، وأيضاً قاسٍ مُتجَهِّم...

وبينَهما وَقَفَ إنْسانٌ[٨] فيهِ وَعْيُ السُّكونِ وقَصْدُ الحَرَكَةِ، يَصِلُ أسْبابَ أَحَدِهِما بأَسْبابِ الآخَر...

وكانَتِ كِبْرِياءُ الصَّخْرِ عَمْياءَ فلمْ تَقْنَعْ بِغَيْرِ وُجودِها، فٱنطَلَقَتْ أَعاصيرُ البَحْرِ تَزْأَرُ في مِثْلِ الفَحيح...

---

(٨) كِنايَةٌ عَنْ كُلِّ مُصْلِحٍ إنْسانيٍّ يَعْمَلُ في هَذي المَبادىءِ كعَليٍّ.

وَوَقَفَ هذا الإنْسانُ عندَ الشّاطِيءِ يَنْظُرُ مُتَفَجِّعاً، فإذا الوُجودُ المَخْدوعُ ـ الّذي أَضْحى غَوْراً ـ تَرْقُصُ فَوْقَهُ مَوْجَةٌ مارِحَةٌ... في نَغْمَةٍ تُخْبِرُ: أنّهُ كانَ هُنا شَيءٌ فيما زَعَموا...

*

مَضى ذلكَ الإنْسانُ وقَدْ أَبْصَرَ وسَمِعَ، مُطْرِقاً مُرَدِّداً: بهذا نَطَقَ الحقُّ في صَدى المَوْج...

ورَوى هذا الإنْسانُ لوَلَدِهِ[٩] أُمْثولَه ابْنِ البَحْرِ، فَلَبِثَ مُتَأَمِّلاً يُعَبِّرُ عَنْ أنّه وَعى...

ولمْ يَكُنْ طَويلاً، حتّى كانَ بِنَفْسِهِ رَجْفَةَ رَعَشاتٍ وخَلَجاتٍ، ورَجْعَةَ أصْداءِ المَوْجِ...

وشَرَعَ النّاسُ يَرْوُونَ، بَعْدَ ذلكَ، أُمْثولَةَ ٱبْنِ الإنْسان...

* * *

(٩) كِنايَةٌ عنْ أَسْمى أَبْناءِ الوَعْيِ الحَديدِ كالحُسَيْن.

في الزوبعة

عنْ مَأْساةٍ حَمْراءَ آخْتَلَطَتْ فيها الأشْلاءُ بالدِّماءِ، آنكَشَفَ الفَصْلُ الأخيرُ مِنْ فُصولِ الثَّورَةِ الّتي كانَتْ تَمْثُلُ على أَرْضِ المَدينَةِ وفي بَطْحائِها الفَسيحَةِ المدى، البَعيدَةِ الآفاقِ، والّتي كانَتْ تتجاوَبُ بأصْدائِها الهادِرَةِ هُنا وهُناكَ، قَريبَةً بَعيدَةً، فَتَتَفاعَلُ مَعَ الأحْياءِ تَفاعُلاً مُلَوِّنَ الرَّعَشاتِ، فَمِنْ بَيْضاءَ ناصِعَةٍ كالزَّبَدِ، ومِنْ سَوْداءَ فاحِمَةٍ كالقارِ، ومِنْ حَمْراءَ قانيَةٍ كالعَنَمِ، وأعْصابُ الجَماعاتِ تَتَمَدَّدُ وتَتقَلَّصُ وتَغْلو وتَهْبِطُ... فَجَذْلانُ هُناكَ وغَضْبانُ هُنا، وبينَ هذا وذاكَ تَنْبعِثُ نَأَماتٌ مُحْترِقَةٌ، أوْ زَفَراتٌ مُخْتَنِقَةٌ، أو بَقايا هُتافاتِ مُغْتَبِطٍ طَروب.

وَهُمْ، وإنْ لمْ يَجْمَعْهُمُ الأسى، فَقَدْ تَنَفَّسَ سائِرُهُمُ الصُّعَداءَ، ولكنْ لمْ تَلْبَثْ أنْ دارَتِ الثَّوْرَةُ على نَفْسِها بالِغَةً عَنيفَةً، فَقَدِ آفتُلِتَ قِيادُها وهَبَّتْ طائِشَةً على قُطْبِها، شارِدَةً في لَوْلَبِها.

كانَ الجُمْهورُ قَدِ آلتَهَبَ بِروحِيَّةِ الدِّماءِ وشِرَّتِها، فَغَدا دَمَوِيّاً وشَرِساً، يَصُرُّ على أَسْنانِهِ في شَكْلٍ كَريهٍ، كَأَنّهُ يتأَكَّلُها، أو كَأَنّما يتأَكَّلُ الأشْباحَ والطُّيوفَ الّتي آسْتَوَتْ في مَكانِ الحِسِّ مِنْ نِقْمَتِهِ، فهو يتوَعَّدُ ضارِباً بِقَبْضَتِهِ في الهَواءِ كَمَنْ يَبْحَثُ في مَكامِنِ الفَضاءِ عَمَّنْ أثارَ عليهِ حَفيظَتَهُ، والحَفائِظُ قاسِيَةٌ نَهِمَةٌ إذا آنطَلَقَتْ في مَدى الشُّعورِ المُتَضَرّي، وأعْصابُ الحَيِّ حينَما تَضْرى، وتُهَيِّجُها

النِّقْمَةُ لا تَذْهَبُ في آنتِقامِها إلى الإيقاع السّاحِقِ بمَنْ أسْعَرَها فقطْ، بلْ تَروحُ ماضِيَةً وَراءَ ذلكَ بَعيداً. فهيَ لم تَرْوِ حُرْقَةَ الظَّمَأِ الفائِرِ، فَتَطْلُبَ سَحْقَ أَخْيِلَتِها، وتُصارِعَ الخَيالَ البَغيضَ الّذي تَمَدَّد عليْها في ثَوْرَةِ الدِّماءِ... ومِثْلُ هذا الجُمْهورِ لا يَرْعى للمَوْتِ قَداسَةً وحُرْمَةً، وكذلكَ كانَ فقدْ حالَ بينَ جَسَدِ الخَليفَةِ المفْؤُودِ وبينَ الدَّفْنِ، أنّه حانِقٌ لا يُطيقُ أنْ يَرى شَيْئاً يُجَدِّدُ له الذِّكْرى أَشَدَّ هَوْلا.

إنْطَلَقَ النّاسُ في مَذْهَبِ أعْصابِهِم المُتَأَزِّمَةِ المُتَعَقِّدَةِ دونَ هَوادَةٍ أو لينٍ، يَدُكّونَ مَعالِمَ الماضي القَريبِ كَيْفَ حَلا لهمْ، ويَصْخَبونَ كيفَما شاءَتْ أهْواؤُهُمْ، وفي هذا التَّجَمْهُرِ الكَبيرِ قامَ الأشْتَرُ مُنْتَصِباً فَوْقَ الجُموعِ مُلَوِّحاً بسَيْفِه، هادِراً بمَنْطِقِه النّارِيِّ المُتَّقِدِ الّذي كانَ يَخْرُجُ مُمْتَدّاً كَأَلْسِنَةِ اللَّهَبِ قائِلاً:

أَلا سُحْقاً لِبطانَةِ الخَليفَةِ الأشْرار،

وَوَيْلٌ للظّالِمينَ مِنْ أَتونِ الشَّعْبِ الفَوّار،

فَيَدُ اللّهِ مِنْ وَراءِ الغَيْبِ تَغْتَصِرُ المُسْتَبِدّينَ الفُجّار،

ولا بُدّ للظُّلْمِ مِنْ أنْ يَلْتَهِمَهُ في ضَميرِ الكَوْنِ أُفْعوانٌ جَبّار،

ورَحِمَ اللّهُ الخَليفَةَ الرّفيقَ الّذي آنقَلَبَ لينُهُ مَعَهُم إلى آنقِيادٍ وصَغار،

وحَيّا اللّهُ غَضْبَةَ الأحْرار،

وكِبْرِياءَ بَطْشَةِ الشَّعْبِ إذا ثار،

الّتي آنتَصَفَتْ للمَظْلومينَ الأبْرار،

فهؤلاءِ إلى الجَنّةِ، وأولئِكَ، أعداءُ الشَّعْبِ، إلى النّار،

وحذارِ أنْ تَتْرُكوا للعادينَ فُرْصَةَ الفِرارِ والنِّفار،

فَهَلُمّوا كالسّيْلِ آنـدِفاعاً إلى بَطَلِ الأحداثِ الكِبار،

فقدْ أُعْطِيَتِ القَوْسُ بارِيَها وتَمّ آلانْتِصافُ وآلانْتِصار،

وآطْمَأَنّ مُشَرّدو الطُّغْيانِ في القِفار،

وآنتَحَر العُدْوانُ وأنْصارُه أيَّ آنـتِحار،

وآعْتَلى الحَقُّ على الباطِلِ، وذابَتْ حُلْكَةُ اللَّيْلِ في رائِعَةِ النّهار.

فآنـطَلَقَ النّاسُ، يَموجُ بَعْضُهُمْ في بَعْضٍ، وتَدافَعوا في كُلِّ طَريقٍ كالقُلَلِ السّاقِطَةِ المُتَدَحْرِجَةِ، إلى دارِ عَليٍّ يُنادونَ بهِ خَليفَةً وزَعيما.

كانَ في مَسْجِدِ المَدينَةِ جَماعَةٌ يَتَجاذَبونَ أَطْرافَ الحَديثِ، في شيءٍ مِنَ التّنافُرِ في الرَّأْيِ والنَّظَرِ إلى الحَدَثِ الدّامي الّذي تَمَّ على أَيْدي الثّائرين.

قالَ حَسّانُ بْنُ ثابِتٍ: لقدْ عَدا الثّائرونَ أَقْدارَهُمْ وَايْـمُ اللّهِ، وآسْتَطالوا على مَقامِ الخِلافَةِ، ولمْ يَرْعَوْا حَصانَةَ العُهْدَةِ الّتي تَمَّتْ بالانْتِخابِ، ولكنْ:

مَنْ سَرَّهُ المَوْتُ صِرْفاً لا مِزاجَ لهُ   فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً في دارِ عَفّانا
لَتَسْمَعَنَّ وشيكاً في دِيارِهِمُ   أَللّهُ أكْبَرُ يا ثاراتِ عُثْمانا

قالَ المُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: ماذا تَقولُ؟! عَدَوْا أَقْدارَهُمْ فَقَطْ! بلْ هُمْ أَئِمَّةٌ سَفّاكونَ، ونحنُ لم يَفُتْنا من إثْمِهِمْ، بلْ نَصيبٌ كَبيرٌ مِمّا آقـتَرَفوا. كانَتْ جِنايَةً ما أَهْوَلَها! إنّي لأَنْظُرُ إلى أيْدينا نَحْنُ، نَعَمْ، نَحْنُ، فلا أَراها إلّا مُلَطَّخَةً بالدّمِ الزّكيِّ البَريءِ. لقدْ شارَكْنا هؤلاءِ المجرمينَ إلى حَدٍّ كَبيرٍ، بلْ كُنّا أَكْثَرَ مِنْ ذلكَ، كُنّا مَطايا الجَريمَة.

لَعَلكُم لا تَدْرونَ أنّ في الحادِثَةِ يَداً مَجْهولَةً حاكَتْ هذهِ المُؤامَرَةَ الطّاغِيَةَ مِنْ أَطْرافِها، وأَحْكَمَتْ أَسْبابَها. نَعَمْ أَسْتَطيعُ أنْ أَتَّهِمَ وأُعْلِنَ بِمِلْءِ فَمي أَنَّ وراءَ الأَكَمَةِ ما وَراءَها... وآبْتَسَمَ آبْتِسامَةً صَفْراءَ كالفَحيحِ في شِفاهٍ مُلْتَوِيَةٍ مَقْلوبَةٍ صَحِبَها

تَكَسُّرٌ في الجُفونِ كَأَنَّهُ يُشيرُ... ولكنّها أَكَمَةٌ شَفّافَةٌ تُرى مِنْ خِلالِها الأَشْباح.

تَنَمَّرَ جَهْجاهٌ الغِفَارِيُّ ورَدَّ عليهِ: بلْ باءَ أَصْحابُكَ بِشَرِّ أعْمالِهِم، وإنّ مَنْ بَقيَ مِنْهُم لَيَنْتَظِرُهُ يَوْمٌ أَكْثَرُ سوءاً، ولو كانَتِ الأُمورُ إليَّ لَمَا تَرَدَّدْتُ في أنْ أَبْطُشَ بكَ أَوَّلَ ما أَبْطُشُ، فأَنْتَ هو رَأْسُ الأفْعى، وبنَفْسي أنْ أَرْوِيَ بكَ أعصابي الظّامِئَة.

فيكَ وفي أصْحابِكَ قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ: «مَتى آسْتَعْبَدْتُمُ النّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُم أُمَّهاتُهُمْ أحْراراً»، ألمْ يَقُلْها لعَمْرو بْنِ العاصِ وآبْنِهِ يَوْمَ ساما المِصْريَّ البَريءَ وآضطَّهداهُ آسْتِعْلاءً في الأرْضِ وعُتُوّاً. قالَ هذا فيكُم ولمْ تَتَرَبَّعوا على دَسْتِ الحُكْمِ، ولَمّا تَصِرْ مَقاليدُ الأُمورِ وأسْبابُ السُّلْطانِ إلى أيْديكُم، فكَيْفَ وقد تَسَوَّدْتُمْ؟ أَرَدْتُموها فِرْعَوْنيَّةً ورُبوبيَّةً، ورَكِبْتُمُ النّاسَ بالبَغْي مَطايا شَهَواتٍ... وثارَتْ بِهِ حَفيظَتُهُ، فآنقَلَبَتْ سَحْنَتُهُ وتجَهَّمَ على شَكْلٍ مُنْكَرٍ، وبَدَرَتْ منهُ حَرَكَةٌ تُنْذِرُ بِشَرٍّ، لوْلا أنْ خَفَّ عَمّارُ بْنُ ياسِرٍ فَحالَ دونَهُ، وتَناوَلَ الحَديث:

كما تَقولُ ـ يا مُغيرَةُ ـ إنّ وَراءَ الأَكَمَةِ ما وَراءَها، ولكنْ كَمْ يُسْقَطُ في يَدِكَ إذا لمْ يَكُنْ وراءَ الأَكَمَةِ إلّا بِطانَةُ الخَليفَةِ الرّاحِلِ نَفْسُها، ثُمّ لمْ تَنْكَشِفْ عن أحَدٍ سِواهُمْ، فأنا أَرى كَما تَرى وأُقَدِّرُ مثلما تُقَدِّرُ، بَيْدَ أنّي كُلَّما حَدَّقْتُ بينَ الخِلالِ، وأَطَلْتُ التّحْديقَ وأَنْعَمْتُ النَّظَرَ، فَلَسْتُ أَرى وَراءَ الأَكَمَةِ إلّا مَنْ ذَكَرْتُ لكَ، ثُمّ لا أَرى إلّا إيّاكَ وأَصْحابَك.

نَعَمْ في مَصْرَعِ الخَليفَةِ الفَظيعِ مُؤامَرَةٌ أَنْتُمْ نَظَّمْتُموها بأَنْفُسِكم، وقدْ يَقَعُ غَريباً عليْكَ أنْ يَتآمَرَ المَرْءُ بنَفْسِهِ، وقَدْ تَسْخَرُ في سِرِّكَ مِنْ قَوْلي، ولكنَّ المُتَهَوِّرَ الطّائِشَ طالما نالَ نَفْسَهُ بحُسامِهِ، كذلكَ الصّائِدُ الّذي حَمَلَ فِخاخَهُ وآنطَلَقَ يُريدُ الظِّباءَ، فقالَ لِنَفْسِهِ: لوْ حَمَلْتُها مَفتوحَةً مُهَيَّأَةً لَكُنْتُ أسْرَعَ إلى نَيْلِ الغايَةِ وأَرْجى في الفائِدَةِ، فَفَعَلَ وسارَ... ولمْ يَمْضِ بَعيداً حتّى أَطْبَقَ بِهِ فَخٌّ مَعَ حَرَكاتِ المَسيرِ،

فَسَقَطَ يَفْحَصُ في الأرْضِ[1]، وقدْ قَنَصَ نَفْسَهُ في شَهْوَةِ الظِّباء.

إنّك أدْرى مِنْ غَيْرِكَ بِما كانَ مِنْ سِياسَةِ بِطانَةِ الخَليفَةِ القائِمَةِ على العَسْفِ، حتّى لَكَأنّها تَمْشي على الجَماجِمِ وتَنْعَمُ على أشْلاءِ الأحْياءِ. لقدْ ضَنّوا عليْهِم حتّى بِما يَسُدُّ رَمَقَهُم ويَبُلُّ حُلوقَهُم، وبَخِلوا عَلَيْهِم بأَقَلَّ مِنَ القَليلِ، وساموهُمْ إذْلالاً، وأوْرَدوهُمْ مَوْرِدَ التَّهْلُكَةِ.

قَنِعَتْ تِلكَ البِطانَةُ بسُكْنى القُصورِ المَبْثوثَةِ بالرِّياشِ، وأصَمّوا آذانَهُمْ عن الأنينِ الصّارِخِ المُنْبَعِثِ مِنْ كُلِّ مَكانٍ، وأوْهَموا الخَليفَةَ الرّقيقَ الحاسَّةِ أنّ الشَّعْبَ في أسْعَدِ ما يَكونُ حَياةً، وضَرَبوا بينَه وبينَ النّاسِ بأَسْوارٍ وحُجُبٍ، ومَنَعوهُ عَنِ الشَّعْبِ ومَنَعوا الشَّعْبَ عَنْهُ، وسَمَّموا رَأْيَهُ في النّاصِحينَ المُـخْلِصينَ، وجَعَلوا مِنْ أنْفُسِهِمْ أوْصِياءَ على الخَليفَةِ الّذي شاؤُوا الحَجْرَ عليهِ، وغَفِلوا عنْ أنّ القُصورَ الّتي آعْتَصَموا بِها قامَتْ على أجْسادٍ حَيَّةٍ تَتَحَسَّسُ بالآلامِ، وكانَ في آنتِفاضَةٍ مِن آنتِفاضاتِها ما أحالَ دُنْيا تِلْكَ القُصورِ أطْلالاً وخَرائِب.

إنّ هؤلاءِ الثّائِرينَ لم تَحْدُهُمْ فِكْرَةُ الجَريمَةِ ولا شَهْوَتُها، وإنّـما حَداهُمْ تَنَفُّسُ الحُرِّيَّة المَضْغوطَةِ بينَ ضُلوعِهِمْ، كما راموا، بإخْلاصٍ، إنْقاذَ الخَليفَةِ مِنْ بِطانَتِهِ، ورَفْعَ وِصايَتِها القَسْرِيَّةِ عنهُ، وإنْ كانَ خَليقاً بهذِهِ الوِصايَةِ حَقّاً، وبمِثْلِ هؤلاءِ الأوْصياءِ، فما هو والخِلافَةُ إذاً ؟

ولكنْ طاشَ بالثّائِرينَ السَّهْمُ فأَصابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ هَدَفاً، بَيْدَ أنَّهُ يُعَزّي أنّ البِطانَةَ أُصيبَتْ في مَقْتَلِها بمَصابِهِ، فمَصابُهُ، وإنْ يَكُنْ خَطَأً في حِسابِ الشُّعورِ، فإنّ سُقوطَ تيكَ البِطانَةِ كُلُّ العَدْلِ في حِسابِ الفِكْرِ، والجُمْهورُ الشّاعِرُ لا يُحَدِّدُ التَّبِعَةَ بمَنطِقِ القانونِ بل بمَنْطِقِ الألـمِ، فليْسَ بِدْعاً إذا تَجاوَزَ وآسْتَفْحَلَ. ولوْ تَناوَلْنا

---

(١) تَعْبيرٌ كِنائيٌ يَعْنونَ به يَضْرِبُ أَديمَ التُّراب بباطِنِ القَدَم.

المَوْقِفَ، حتّى بِمَنْطِقِ القانونِ، فإنّ دَعْوى التَّغْريرِ بهِ لا تُنْقِذُهُ من الجَزاءِ، ولقدْ أَلَّـفَ الشَّعْبُ مَحْكَمَتَهُ، فلهُ الكَلِمَةُ الأُولى والأَخيرَةُ، ولقدْ قالَها بكُلِّ وُضوح.

وإنْ كانَ حَقّاً ما تَقُول مِنْ أنّ الثّائِرينَ عُصْبَةٌ مُجْرِمَةٌ، فإنّ تيكَ البِطانَةَ أَهْوَلُ جَريمَةً حينَ دَخَلوا بِها إلى كُلِّ بَيْتٍ. ولسْتُ بهذا أُريدُ تَبْريرَ الخَطْبِ، ولكنّني أَقْصِدُ إلى هَدْمِ فِكْرَةِ الجَريمَةِ عليكَ الّتي تُعْلِنُها، ولَعَلّكَ تَعي.

فقالَ جَهْجَاهُ الغِفَارِيّ: تقولُ لَعَلّهُ يَعي؟ أَأَنْتَ غَريبٌ عن شِباكِهِ وأَحابيلِهِ. إنّه يُريدُ بقَصْدِ تَسْميمِ رَأْيِ النّاسِ وبَلْبَلَتِهِمْ، ولا يَلْبَثُ هو ومَنْ فاتَنا مِنْ بِطانَةِ الخَليفَةِ، حتّى يُلَوِّحوا بينَ النّاسِ بالعُثْمانيّةِ، ويَجْعَلوا مِنْ عُثْمانَ مَوْضوعاً ثَأْرِيّاً قَصْدَ إلْقاءِ الشَّعْبِ في الفَوْضى، وآنكِفائِهِ كُتَلاً على نَفْسِهِ، وما أَسْرَعَ تَرَدُّدَ الجُموعِ، فهيَ لا تُحاكِمُ ولكنّها تَشْعُر بمُبالَغات.

فهذا ـ وأشارَ إلى المُغيرَة ـ يَعْتَمِدُ على رُوحِيّةِ الجُمْهورِ، قَصْدَ المُحارَبَةِ بالعُنْصُرِ النَّفْسيِّ القَلِقِ لإيجادِ حالَةِ فَوْضى شامِلَةٍ، وهو لا يَأْبَهُ، بِسَبيلِ ما يُريدُ، أنْ تَنْدَكَّ مَعالِمُ مُجْتَمَعِنا العَظيم. لِنَفْرِضْ أنّ عُثْمانَ صُرِعَ بِقَصْدِ أنْ يُصْرَعَ فَقَدْ صُرِعَ عُمَرُ مِنْ قَبْلِهِ، وما تَهُمُّنا فُروقُ المُلابساتِ الّتي تَجِدُ قيمَتَها في الاعْتِبارِ الفَرْدِيِّ دونَ الاعْتِبارِ الاجْتِماعيِّ، فهُما، كحادثَيْنِ، سَواءٌ بسَواءٍ. فلماذا يُحَرِّضُ بالاتِّهامِ، ويَسْتثيرُ بالتَّفَجُّعِ والتَّوَجُّعِ، إن لم يَكُنْ يَقْصِدُ شَرّاً ؟

قالَ عَمّارُ بْنُ ياسِرٍ: نَعَمْ، أجْدى علَيْنا، وأَوْلى بنا، أنْ نَعْتَبِرَ بالحادِثِ ولوْ لمْ يَخْلُ مِنْ خَطَأٍ، فَنُداويَ الوَضْعَ ونَجْتَهِدَ جَيِّداً بحُسْنِ التّأَتّي، كيْ نَحولَ بينَ الشَّعْبِ، بمَنْعِ الأَسْبابِ، وبَيْنَ العَوْدةِ إلى آرْتِكابِ خَطَأٍ جَديدٍ من شاكِلَتِهِ. قدْ ماتَ المَيِّتُ وبَقِيَ الحَيُّ مُضطَّرِباً، فَلْنَعْرِفْ كيفَ نُدْخِلُ الاطمِئنانَ إلى نَفْسِه، وبذلكَ نَكونُ قدْ أَصْلَحْنا الخَطَأَ ورَبِحْنا المُصيبَةَ. وأمّا تَرْويعُ الجُمهورِ، بتُهْمَةِ الإجْرامِ والدَّمِ، فإنّه تَكْبيرٌ لدائِرَةِ الخَطَأِ وتَوْسيعٌ لِحَواشي الدِّماءِ، وما أَرى هذا إلّا دَعْوَةً جاهِلِيّةً تَقومُ

على الانْتِقامِ في غَرَضِها القَريبِ، وعلى المُؤامَرَةِ بالنِّظامِ في غَرَضِها البَعيدِ...

وقَطَعَ حَسّانُ عليهِ تَسَلْسُلَ حَديثِهِ حينَ آنتَهى إلى هذهِ النُّقْطَةِ، فقدْ مَضى يُرَدِّدُ قَوْلَ الشّاعر:

قَوْمي هُمُو قَتَلوا أُمَيْمَ أخي   فإذا رَمَيْتُ يُصيبُني سَهْمي

أَصْبَحَ عَليٌّ الخَليفَةَ، وآجْتَمَعَتْ في يَدَيْهِ مَقاليدُ الأُمورِ، فَثابَ إلى المُجْتَمَعِ هُدُوؤُهُ مَشْفوعاً بالأَمَلِ وآرْتِقابِ فَجْرٍ جَديد.

وبَدَأَ عَليٌّ، أوّلَ ما بَدَأَ، بإعْطاءِ الحقِّ إلى الشَّعْبِ، فَقَدْ وَجَدَ أنّ مَشاكِلَهُمُ المُعَلَّقَةَ أضْحَتْ مُزْمِنَةً لم يُبَتَّ فيها بشَيْءٍ، فَعَطَفَ على آلامِ هذا الجُمْهورِ، وواساهُ بنَفْسِهِ وقَلْبِهِ ما وَجَدَ إلى ذلكَ سَبيلا.

وذَهَبَ مَعَ تَقْديرِهِ بأنّ المُجْتَمَعَ الّذي يَقومُ النِّظامُ فيه على بَرْنامجٍ غَيْرِ مَكْتوبٍ، يَظَلُّ عُرْضَةً للعَبَثِ والتّلاعُبِ والتَّصَرُّفاتِ التي مِنْ شَأْنِها أنْ تُضيرَهُ، إذا لَمْ يَقْصِدْ أوّلاً، وقَبْلَ كُلِّ شيءٍ، إلى الاخْتِيارِ وآنتِقاءِ الشّخْصيّاتِ الّتي تَضُمُّ، إلى الكفاءَةِ، الإخْلاصَ والضَّميرَ. بلْ مِنْ رَأْيِ عَليٍّ أنَّ الإصْلاحَ، حتّى في المُجْتَمعاتِ الّتي يَسْتَوي النِّظامُ فيها على بَرامِجَ مَكْتوبَةٍ، لا يَتِمُّ على وَجْهٍ مَضْمونٍ إلّا بالشَّخْصِيَّةِ المُنْتقاةِ، ولَمَسَ، إلى ذلكَ، أنّ أكْبَرَ عَناصِرِ الشَّكْوى وأَهَمَّ أجْزائِها هو الجُزْءُ الخاصُّ بالأُمَراءِ والوُلاةِ، فبادَرَ قُدُماً إلى تَغْييرِ التَّعْيينات.

وكانَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ كِلاهُما مُرَشَّحاً لِوِلايَةٍ من وِلاياتِ الأمْصارِ الكُبْرى، فَلَمّا أُظْهِرا على أنّ التَّعْييناتِ الجَديدَةَ لم يُصِبْهُما مِنْها نَصيبٌ، آمْتَعَضا نَوْعَ آمْتِعاضٍ، ولَمَسا في الظَّرْفِ الّذي لمْ يَزَلْ قَلِقاً مُضطَّرِباً، ما يُمَكِّنُهُما مِنَ القِيامِ بحَمْلَةِ ضَغْطٍ على الخَليفَةِ الجَديدِ، لا سِيَّما وَقَدْ وَجَدوا في النّاسِ مَنْ يُطالِبُ بإقامَةِ الحَدِّ الشَّرْعِيِّ على الّذينَ باشَروا الاغْتيالاتِ بالنَّفْس.

وعَليٌّ لم يُؤَخِّرْهُما من حيْثُ إنَّهُما لَيْسا بالجَديرَيْنِ، فهما مِنْ ذَوي السّابِقَةِ، ومِنْ أَقْدَرِ العَناصِرِ، بلْ لأنّ الظَّرْفَ لم يَزَلْ يَعُجُّ بالحِزْبيّةِ ولم يَزَلْ مُتَشَبِّعاً بروحِها. فإذا بَعَثَ بهما إلى الأقاليم الّتي تُناصِرُهُما، كالكوفَةِ بالنَّظَرِ إلى الزُّبَيْرِ، والبَصْرَةِ بالنَّظَرِ إلى طَلْحَةَ، فَقَدْ سَهَّلَ لهُما حُرِّيَةَ التَّصَرُّفِ والانْفِرادِ بالرَّأْيِ لمكانِ الثِّقَةِ الحِزْبيّة. وحُرّيّةُ التّصَرُّفِ هي التّي باتَ يَشْكو النّاسُ منْها، كما كانَ الحالُ بمُعاوِيَةَ في الشّامِ على عَهْدِ عُثْمانَ، على أنّ الأميرَ يُصْبحُ، بهذِهِ الحِزبيَّةِ المُناصِرَةِ، قَليلَ الاهْتِمامِ بأوامِرِ السُّلْطَةِ العُلْيا، بحَيْثُ تَتَّخِذُ به الأقاليمُ، في كُلِّ مَكانٍ، شَكْلَ إقْطاعِيّاتٍ لا تَتَّصِلُ بالمَرْجِعِ الأعْلى الإيجابيّ المَسْؤولِ إلّا آتّصالاً إسْمِيّاً. وإذا تَأَزَّمَتِ العَلاقَةُ بينَ الرِّئاسَةِ العُلْيا والأميرِ، آسْتَطاعَ الانْفِرادَ بإقليمِهِ، وقَطَعَ العَلاقَةَ الّتي لم تَكُنْ تُعَبِّرُ عَنِ آتِّصالٍ إيجابيٍّ. وهذا خَطَرٌ يُهَدِّدُ الدَّوْلَةَ، وَدَاءٌ وبَيلٌ في جِسْمِ الحُكْمِ، خُصوصاً إذا تَواطَأَ طائِفَةٌ من أُمَراءِ الأقاليم على العِصْيانِ بآتِّفاقِ المَصالِحِ المُوجِبَةِ، فإنّه يَقَعُ الخَطَرُ الحَقيقيُّ على الكِيانِ الحكوميّ، كما تَظَلُّ هذهِ الصِّلَةُ الإسْمِيَّةُ للإقْليمِ الإقْطاعيِّ يَنْبوعَ ضَرَرٍ للرَّئيسِ الأعْلى، وذلكَ حينَ لا يَحْفِلُ الأميرُ بالأوامِرِ الّتي تَصْدُرُ له، ولا يَرْهَبُ مَرْجِعَهُ فَيَعْبَثُ كيفَ شاءَ، ويَكونُ المَسؤولَ عن تَصَرُّفِهِ هو الرّئيسُ الأعْلى في نَظَرِ الشَّعْبِ، فَيُتَّهَمُ بالتَّواطُؤِ معهُ أو بالتّغافُلِ عنهُ، رُغْمَ أنّه، في الواقِعِ، لا يَسْتَطيعُ أن يَحيكَ معه حَبْكاً، مِثْلما كانَ الحالُ في زَمَنِ عُثْمانَ، فَقَدْ أصْبَحَ آتِّصالُ الأقاليمِ بمَرْكَزِ الخِلافَةِ إسْمِيّاً، والأميرُ الإقْطاعِيُّ يَتَصَرَّفُ كيفَ حَلا له، لا يَنتَظِرُ أمْراً ولا يَخْضَعُ لأمْرٍ. وإنّما يَسْتَخْدِمُ ذلِكَ الطّابَعَ (الإكليشه): «هذا أمْرُ الخَليفَةِ» سِتاراً فقطْ، كما كانَ يَفْعَلُ مُعاوِيَةُ في الشّامِ، فآتُّهِمَ الخَليفَةُ وآسْتُحْمِقَ ونَشَبَتِ الفَوضى.

وإذا بَعَثَ بهما عَليٌّ إلى الأقاليم الأُخْرى، وليسَ لهُما فيها أنصارٌ وأشْياعٌ، بلْ على العَكْسِ أعْداءٌ حِزْبيّونَ، فَقَدْ أعادَ الوَضْعَ إلى القَلَقِ، ودَفَعَ الجُمْهورَ إلى التَّمَرُّدِ بالشَّكْوى المُصْطَنَعَةِ، فعَمَدَ إلى مُداواةِ الحالَةِ العامّةِ، وخَنْقِ الحِزْبيَّةِ وعَنْعَناتِها،

وإيجادِ جِسْمٍ آجْتِماعيٍّ سَليمٍ أوّلاً. فَبَيْنَ يَدَيْهِ مُجْتَمَعٌ مَريضٌ، وهو يَتَطَلَّبُ شَخْصِيّاتٍ جَديدَةً لم تَنْخَرِطْ في الحَقْلِ العامِّ، والحياةِ السّياسِيّةِ الصّاخِبَةِ المُتَناحِرَةِ، حتّى إذا تَمّ له ما يُريدُ عادَ فَفَكَّرَ فيهِما وفي سِواهُما. ولكنَّهما فَسَّرا إغْفالَهُما بالعَداءِ، فآنصَرَفا إلى إيجادِ الوَسائِلِ القَمينَةِ بالضَّغْطِ، فَوَجَّها وَجْهَهُما شَطْرَ مَكَّةَ. وبَينا هُما في بَعْضِ الطُّرُقِ لَقِيا عائِشَةَ وهي قافِلَةٌ مِن مَكَّةَ، فَرَوَيا لها ما كانَ مِنْ أمْرِ الثّائِرينَ وعُثْمانَ، وما كانَ مِنْ أمْرِهِمْ وعَليٍّ، وكاشَفاها بِما عَزَما عليهِ. وصادَفَ هذا رَغْبَةً خَفِيَّةً في ضَميرِها وهَوىً كامِناً، مِمّا آسْتَطاعَ الزُّبَيْرُ، بما له من دالَّةٍ علَيْها، وهو زَوْجُ أُخْتِها أسْماءَ، ووالدُ مَنِ آسْتَخْلَصَتْهُ لنَفْسِها مِنْ أبْنائِه، حتّى آخْتارَتْ لكُنْيَتِها آسْمَهُ وذلكَ هو عَبْدُاللّهِ آبْنُهُ. فحَمَلاها على الرُّجوعِ، وسَهّلا لها الخَوْضَ في مَعْمَعَةٍ سِياسِيَّةٍ طاحِنَةٍ، آتَّصَلَتْ حتّى آنقَلَبَتْ دَمَوِيَّةً حادّةً.

ولمّا هَبَطوا مَكَّةَ وَجَدوا فيها فُلولَ الأُمَوِيّينَ، فَفَكّروا جَميعاً بآسْتِغْلالِ المَوْقِفِ وتَرتيبِهِ على هذا الشَّكْلِ:

يَعْصي بالشّامِ مُعاوِيَةُ، وهمْ يَعْصُونَ بالعِراقِ، حتّى إذا آسْتقامَ لهمُ الأمْرُ وآسْتَقَرّوا، حاصَروا الحِجازَ وآنتَزَعوا مُقَدَّراتِ السُّلْطَةِ العُلْيا، وأرْغَموا الخَليفَةَ على التّسْليمِ بمَطالِبِهِم.

إتَّصَلَ بعَليٍّ كُلُّ ما دارَ بخَلَدِهِمْ وما عَزَموا عَلَيْهِ، وآتَّصَلَ بِهِ، فوقَ ذلكَ، أنّ الخَطْبَ سَيَعْدو دائرَتَه الضَّيِّقَةَ، لِنُزولِ عائِشَةَ إلى المَيْدانِ بما تَبْعَثُهُ من خامِداتِ النُّفوسِ، وفي المُحيطِ العَرَبيِّ خُصوصاً. أَلَيْسَتِ آمْرَأَةً وآمْرَأَةً لها قيمَتُها ومَنْزِلَتُها الرّوحِيَّةُ الفَريدَةُ؟ فهيَ زَوْجُ النّبيِّ وآبْنَةُ الخَليفَةِ الأوَّلِ، ومَرْجِعٌ عِلْميٌّ فِقْهيٌّ. ومِن ناحِيَةٍ ثانِيَةٍ، أَلَيْسَ المَوْضوعُ نَفْسُهُ حَسّاساً مُثيراً؟ أليسَ كُلُّ الثّائرينَ الّذين تَمَّ الحادِثُ على أيْديهِمْ في صُفوفِ عَليٍّ؟ أَلَيْسَتْ نَفْسِيَّةُ الجُموعِ شَديدَةَ الحَساسِيَّةِ بِهَوْلِ الدَّمِ المَطْلولِ، وضَعيفَةَ المُحاكَمَةِ والمُوازَنَةِ؟ أَلَيْسَ الظَّرفُ مُتَبَلْبِلاً يَميدُ ويَمُورُ بالفَوْضى؟

ففي الأمْرِ إذاً عُقْدَةٌ خَطيرةٌ، ولا بُدَّ أنْ يَسْتَغِلَّها هؤلاءِ الواجِدون.

فَكَّرَ وقَدَّرَ وقَلَّبَ وُجوهَ الرَّأْيِ، حتّى آنتَهى إلى أنّ الحالَةَ النّاشِبَةَ البادِيَةَ، سَتَسْتَحيلُ إلى فَوْضى خَطيرَةٍ، قدْ تَنْدَكُّ معَها صُرُوحُ المُجْتَمَعِ الإسْلاميِّ، وآنتَهى أيْضاً إلى أنّ صِفَةَ التَّبَلْبُلِ، وهيَ تُساعِدُ على الدَّسِّ والانْتِهازِ، لا يَحْسِمُها إلّا عَمَلٌ سَريعٌ عَنيفٌ. وفَكَّرَ كَثيراً قَبْلَ أنِ آبْتَدَأَ بطَلْحَةَ والزُّبَيْرِ، ومِنْ ورائِهِما عائِشَةُ، فقدْ لَمَسَ خَطَرَ هؤلاءِ الّذينَ يَمْلِكونَ مِنْ أسْبابِ السَّيْطَرَةِ والتّأْثيرِ الرّوحيِّ قَدْراً كَبيراً، وقدْ أوْضَحَهُ بقَوْلِه:

«بُليتُ بأَنَضِّ النّاسِ، وأَنْطَقِ النّاسِ، وأَطْوَعِ النّاسِ في النّاسِ. يُريدُ بأَنَضِّ النّاسِ يَعْلى بْنَ أُمَيَّةَ، وكانَ أكْثَرَ النّاسِ مالاً وناضاً، وأَنْطَقِ النّاسِ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللّهِ، وأَطْوَعِ النّاسِ في النّاسِ عائِشَةَ».

ومِنْ ناحِيَةٍ ثانِيَةٍ فَقَدِ آسْتَجْلى طَبيعَةَ البَصْرَةِ، على ضَوْءِ الرّوحِيّةِ الّتي كانَتْ بارِزَةً في العِراقِ إذْ ذاكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ على مَكانِ التَّفَكُّكِ والتَّفَسُّخِ، وعَدَمِ الانْسِجامِ والتَّماسُكِ، بينَما الشّامُ كانَتْ على العَكْسِ مُتَماسِكَةً بوَحْدَةِ الدَّمِ والتَّغْريرِ. فالبَصْرَةُ إذاً أَقَلُّ عَناءً وأكْثَرُ خَطَراً وأَبْعَدُ نُفوذاً، بِما يَمْلِكُ اللاّجِئونَ إليْها مِنْ صَدىً بَعيدٍ، عَميقِ التَّجاوُبِ في النَّفْسيَّةِ العَرَبِيَّةِ العامّةِ. فكانَ لِزاماً أنْ يَنْبَعِثَ فَوْرَةُ إليْهِم، ويَتَّخِذَ البَصْرَةَ هَدَفَ ضَرْبَتِهِ الأُولى الخاطِفَةِ السّاحِقَةِ، فَيُرْهِبَ بها المُتَمَرِّدينَ في كُلِّ مَكانٍ ومَجال.

وأَقامَ خُطَّتَهَ على حَرْبِ السُّرْعَةِ لِيَكونَ نَجاحُها مَضْموناً، فَيُعيدَ الثِّقَةَ المَفْقودَةَ، بَعْدَ الثَّوْرَةِ، إلى الهَيْئَةِ الحاكِمَةِ الجَديدَةِ، ويَضْبُطَ العاصِفَةَ. كما آسْتَعانَ بالنَّقْدِ والدِّعايَةِ أَداةً حَرْبِيَّةً هائِلَةَ التأْثيرِ، وأَدْرَكَ ضَرورَةَ هذا العُنْصُرِ في الحَرْبِ. فَدَفَعَ أُمَّ سَلَمَةَ، زَوْجَ النَّبيِّ، وهيَ مِنْ أعْوانِهِ، إلى آنتِقادِ عائِشَةَ على شَكْلٍ حادٍّ، فيما أقْدَمَتْ عليهِ مِنْ مُغامَرَةٍ، فَكَتَبَتْ إليْها، ومن جِهَةٍ ثانِيَةٍ أُذيعَ الكِتابُ وهو:

«مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبيِّ، إلى عائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنينَ، فإنّي أحْمَدُ اللّهَ إليكِ الّذي لا إله إلّا هو.

أمّا بَعْدُ فَقَدْ هَتَكْتِ سُدَّةً بينَ رَسولِ اللّهِ وأُمَّتِهِ. جَمَعَ القُرآنُ ذُيولَكِ فلا تَسْحَبيها، وسَكَّرَ خَفارَتَكِ فلا تَبْتَذِليها، فاللّهُ مِنْ وَراءِ هذهِ الأُمّةِ... لَوْ عَلِمَ رَسولُ اللّهِ أنّ النِّساءَ يَحْتَمِلْنَ الجِهادَ عَهِدَ إلَيْكِ، أمَا عَلِمْتِ أنّه قَدْ نَهاكِ عَنِ الفَراطَةِ في الدّينِ. فإنّ عَمودَ الدّينِ لا يَثْبُتُ بالنِّساءِ إنْ مالَ، ولا يُرْأَبُ بهنّ إنِ آنصَدَعَ. جِهادُ النِّساءِ غَضُّ الأطْرافِ وضَمُّ الذُّيولِ وقَصْرُ المُوادَّةِ. ما كُنْتِ قائِلَةً لِرسولِ اللّهِ لو عارَضَكِ بِبَعْضِ هذه الفَلَواتِ، ناصَّةً قَعُوداً مِنْ مَنْهَلٍ إلى مَنْهَلٍ، وغَداً تَرِدين على رَسولِ اللّهِ، وأُقْسِمُ لوْ قيلَ لي يا أُمَّ سَلَمَةَ آدْخُلي الجَنَّةَ لاَسْتَحْيَيْتُ أنْ أَلْقى رَسولَ اللّهِ هاتِكَةً حِجاباً ضَرَبَهُ عَلَيَّ... فآجْعَليهِ سِتْرَكِ، وقاعَةَ البَيْتِ حِصْنَكِ، فإنّكِ أَنْصَحُ ما تكونينَ لهذهِ الأُمّةِ ما قَعَدْتِ عنْ نَصْرَتِهِمْ. ولَوْ أنّي حَدّثْتُكِ بحَديثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسولِ اللّهِ لَنَهَشْتِ نَهْشَ الرَّقْشاءِ المُطْرِقَةِ، والسّلام».

وكانَ لهذهِ الدِّعايَةِ الحَرْبِيّةِ أثَرُها الكَبيرُ، فأُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ المُؤمِنينَ أيضاً، وهيَ تَشْجُبُ على عائِشَةَ حَرَكَتَها، وتَتَنَقَّدُها آنتِقاداً لاذِعاً. وقد تَرَكَتْ أثَرَها المَرْغوبَ فيهِ والمُتَوَخّى نَيْلُهُ، وكانَ أبْرَزَ ما تَرَكَتْ أثَرانِ:

١ ـ إعطاءُ صُورةٍ نابيَةٍ عَنْ مُحاوَلَةِ النِّساءِ مِثْلَ هذهِ المُحاوَلَةِ، فقدْ رَوَوْا «أنّ آبْنَ أبي عَتيقٍ ـ وعائِشَةُ عَمَّتُهُ ـ لَقِيَها في بَعْضِ مَآتي الطُّرُقِ راكِبَةً على بَغْلَةٍ، فقالَ:

إلى أينَ يا أُمّاه؟

قالتْ: أُصْلِحُ بَيْنَ حَيَّيْنِ منْ أحْياءِ المُسْلِمينَ تَقاتَلا.

قال: عَزَمْتُ عليكِ إلّا رَجَعْتِ، فما غَسَلْنا أيْدِيَنا من يَوْمِ الجَمَلِ حتّى نَعودَ إلى يومِ البَغْلَةِ».

٢ ـ شَجَعُ الزُّعَماءِ والأُمَراءِ على أن يُنْكِروا عليْها، فقدْ كَتَبَ إليها زَيْدُ بْنُ صَوْحانَ رَدّاً على كِتابِها إليه:

«سَلامٌ عَليكِ، أمّا بَعْدُ: فإنّكِ أُمِرْتِ بأَمْرٍ وأُمِرْنا بِغَيْرِه، أُمِرْتِ أنْ تَقَرّي في بَيْتِكِ وأُمِرْنا أنْ نُقاتِلَ النّاسَ حتّى لا تَكونَ فِتْنَةٌ. فَتَرَكْتِ ما أُمِرْتِ به وكَتَبْتِ تَنْهَيْنَنا عَمّا أُمِرْنا بِهِ، والسَّلام»... ومَضى الخُطباءُ يُحصُوْنَ عليْها تَبَلْبُلَها وتَناقُضَها. فَبَعْدَ أنْ كانَتْ تُشيرُ بعَليٍّ في زَمَنِ عُثْمانَ، وكذلكَ طَلْحَةُ والزُّبيْرُ يَنْصَحانِ بأنْ يَكونَ عَليٌّ الخَليفَةَ، إذا هم يَخْرُجونَ جَميعاً لحَرْبِهِ ومُقارَعَتِهِ في أحْرَجِ السّاعاتِ العَصيبَةِ، وبذلكَ يُسَهِّلونَ سَبيلَ العَمَلِ للانْتِهازِيّينَ النَّفْعِيّين.

فَحَرْبُ الدِّعايَةِ الّتي آصْطَنَعَها عَليٌّ وقَذَفَ بها خُصومَهُ، أثّرَتْ أَثَرَها الكَبيرَ، وفَكَّكَتِ الوَحْدَةَ في المُعَسْكَرِ الآخَرِ. «فآعْتَزَلَ بالجَلْحاءِ ـ مِنَ البصْرَةِ على فَرْسَخَيْنِ ـ الأحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وآعْتَزَلَ معهُ زُهاءُ سِتَّةِ آلافٍ مِنْ بَني تَميمٍ».

وعلى هذا الوَضْعِ فاجَأَهُمْ عَلِيٌّ بجُنْدِهِ «وفيهِ ثمانمائَةٍ مِنَ الأنْصارِ وأرْبَعُمائَةٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَيْعَةَ الرِّضْوانِ، وكانَتْ رايَةُ عَليٍّ مَعَ آبْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ الحَنَفيَّةِ، وعلى مَيْمَنَتِهِ الحَسَنُ، وعلى مَيْسَرَتِهِ الحُسَيْنَ، وعلى الخَيْلِ عَمّارُ بْنُ ياسِرٍ، وعلى الرّجّالَةِ مُحَمَّدُ بْنُ أبي بَكْرٍ، وعلى المُقَدِّمَةِ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عبّاسٍ. وزَحَفَ عَليٌّ نَحْوَ الجَمَلِ بنَفْسِهِ في كَتيبَتِهِ الخَضْراءِ من المُهاجِرينَ والأنْصارِ، وحَوْلَهُ بَنوهُ حَسَنٌ وحُسَيْنٌ ومُحَمَّدٌ، ودَفَعَ الرّايَةَ إلى مُحَمَّدٍ وقالَ: أقْدِمْ بها حَتّى تَرْكُزَها في عَيْنِ الجَمَلِ. يا بُنَيَّ تَزولُ الجِبالُ ولا تَزُلْ، عَضَّ على ناجِذِكَ، أَعِرِ اللّهَ جُمْجُمَتَك، تِدْ في الأرْضِ قَدَمَك، إرْمِ بِبَصَرِك أقْصى القَوْمِ وغُضَّ بَصَرَكَ وآعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ. فَتَقَدَّمَ مُحَمَّدٌ فَرَشَقَتْهُ السِّهامُ فقالَ لأَصْحابِهِ: رُوَيْداً حتّى تَنْفَدَ سِهامُهُم... فَأَنْفَذَ عَليٌّ يَسْتَحِثُّهُ، فَلَمّا أَبْطَأَ عليهِ جاءَ بنَفْسِهِ. وقالَ له: أقْدِمْ لا أُمَّ لكَ. ثُمَّ أدْرَكَتْهُ رِقَّةٌ عليهِ، فتَناوَلَ الرّايَةَ منهُ بِيَدِهِ اليُسْرى وذو الفِقارِ مَشْهورٌ في يُمْنى يَدَيْهِ، ونادى بِعَقْرِ الجَمَلِ

فوَقَعَتِ الهَزيمَةُ».

كانَتْ مَعْرَكَةُ الجَمَلِ، بِدونِ رَيْبٍ، أو كادَتْ تَكونُ هيَ المَعْرَكَةَ الفاصِلَةَ، وأنْ تَنْقَلِبَ مِنْ حَيثُ القيمَةُ ثانَوِيَّةً، وأنْ تُعْتَبَرَ حَرَكَةً فَرْعِيَّةً لِتَطْهيرِ بَعْضِ عَناصِرِ الشَّغَبِ الباقِيَةِ، خُصوصاً والمُقاوَمَةُ الكِفاحِيَّةُ آخِذَةٌ بهذا الشَّكْلِ من السُّرْعَةِ والدِّعايَةِ المُوَفَّقَةِ، التي أشْعَرَتِ النّاسَ كافَّةً بالاشْمِئْزازِ مِنْ شَغَبِ المُشاغِبينَ. بَيْدَ أنّ الحالَ تَبَدَّلَتْ وجَعَلَتْ لصِفّينَ الصِّفَةَ الحاسِمَةَ الرَّئيسيّةَ لاعتِبارات:

١ ـ إسْتِحالَةُ فِكْرَةِ العَقيدَةِ وروحِيَّتِها الأخْلاقيّةِ عندَ عَليٍّ إلى فِكْرَةٍ ثابِتَةٍ، والفِكْرَةُ مِنَ الثّوابِتِ تَصْرِفُ كُلَّ قُوى المَرْءِ الرّوحيَّةَ والمَعْنَوِيَّةَ إليْها، وتَقِفُ جُهودَهُ العَمَلِيَّةَ في سَبيلِها ومَدى غايَتِها، فقدْ تَرَكَّزَتْ تَرَكُّزَ الأعْصابِ، فَصاحِبُها لا يُفَكِّر ولا يَرى ولا يُحِسُّ أوْ لا يُحِبُّ أنْ يُفَكِّرَ، وأنْ يَرى، وأنْ يُحِسَّ، إلّا في مواقِعِ مُيولِها، كَمَا لا يُدَبِّرُ ويُقَدِّرُ إلّا على ضَوْئِها. لذلكَ لمْ تَكُنْ سِياسَةُ عَليٍّ مُشْتَقَّةً مِنْ صَميمِ الحَياةِ كما هي بمَساوِئِها، بلْ مِنْ روحِ الحَياةِ كما يَنْبَغي أنْ تَكونَ بفَضائِلِها. فهذا الرَّجُلُ الّذي عَرَفْناهُ دَمَوِيّاً في قَضِيَّةِ الانْتِصارِ للعَقيدَةِ، نَراهُ شَديدَ الكَراهِيَةِ لسِياسَةِ الدِّماءِ وأساليبِها في قَضيَّةِ قَمْعِ حَرَكاتِ المُتَمَرِّدينَ، فهو يُفَرِّقُ جَيِّداً بينَ الكُفْرِ والعِصْيانِ. ولكنَّ وَسَطَهُ لم يَكُنْ يَفْهَمُ هذا الفَرْقَ فَهْماً حَسَناً، أو لا يُفَرِّقُ بَيْنَهُما ألْبَتَّةَ، فَقَدْ رَأيْنا عُثْمانَ الخَليفَةَ يُسَمّي تَمَرُّدَ أهْلِ المَدينَةِ كُفْراً في كِتابِهِ إلى مُعاوِيَةَ، ونَرى عَمّاراً ومُحَمّدَ بْنَ أبي بَكْرٍ، ومِنْ وَرائِهما سائِرُ النّاسِ، يَنْظُرونَ إلى خُصومِهِمْ نَظْرَةَ المارِقينَ مِنَ الدّينِ، وبالتّالي يَجِبُ أنْ يُطَبِّقوا عَلَيْهِم أحْكامَ الكُفّارِ وقانونَ الارْتِداد.

كانَ الجُمْهورُ مُتَشَبِّعاً بهذِهِ الفِكْرَةِ وما يَتَرَتَّبُ عَلَيْها ويُلابِسُها، فإذا عَليٌّ وهو المُتَشَرِّعُ العَبْقَرِيُّ والمُسْلِمُ الواعي لحَقيقَةِ الإسْلامِ يَحْمِلُ على أساسِ هذِه الفِكْرَةِ، لئلّا يَتَوَرَّطَ النّاسُ في آسْتِباحَةِ مُقْتَضَياتِها القانونِيّةِ الّتي تُخَوِّلُها حالَةُ الحَرْبِ

في الأُسْرَةِ والمالِ والمِلْكِ والقيمَةِ الشّخْصِيّةِ، الّتي يَتْبَعُ فَقْدَها الأسْرُ والاسْتِرْقاقُ. وبَيَّنَ للنّاسِ، بمَنْطِقِهِ العَميقِ، أنّ هُناكَ صِفَةً ثالِثَةً هيَ الفِسْقُ، وهو لا يَبْعُدُ بالمَرْءِ ألْبَتَّةَ عنْ دائِرَةِ الإيمانِ، كما لاَ تَتَرَتَّبُ عليهِ الاسْتِباحَةُ بَلِ التَّأْديبُ فَقَطْ.

وانْظُر كيفَ يتَأتّى إلى إقْناعِهِمْ بَخطأِ فِكْرَتِهِمْ حينَ قالوا «أَحَلَّ لنا دِماءَهُم وحَرَّمَ علَيْنا أمْوالَهُم، فقالَ عَليٌّ:

هي السُّنَّةُ في أَهْلِ القِبْلَةِ.

قالوا: ما نَدْري ما هذا؟

قال: فهذهِ عائِشَةُ رَأْسُ القَوْمِ أتتَساهَمونَ عليْها؟

قالوا: سُبْحانَ اللّه!؟ أُمُّنا.

قال: فهيَ حَرامٌ

قالوا: نَعَمْ.

قال: فإنّهُ يُحَرَّمُ من أبْنائِها ما حُرِّمَ مِنْها»... فَنادى في النّاسِ: لا يُسْلَبَنَّ قَتيلٌ ولا يُتْبَعْ مُدْبِرٌ، ولا يُجْهَزْ على جَريحٍ ولا يُحَلَّ مَتاعٌ. ولكنّ الجَمْهَرَةَ الكُبْرى سَاذَجَةٌ بَسيطَةٌ في فِكْرَةِ التّدَيُّنِ، فَوَقَعَ عليهِمْ هذا النِّداءُ وَقْعَ اليَأْسِ في مَحَلِّ الأَمَلِ، وجَعَلَهُم يَلْغَطونَ كَثيراً، ويَتَأَفّفونَ كَثيراً، وحَمَلَهُمْ على تَفْكيرٍ طَويلٍ فيما هو الفَرْقُ بينَ الكُفْرِ والعِصْيانِ، وفيما هو الفَرْقُ بينَهما وبينَ الإيمانِ.

فأمّا أُولئكَ البُداةُ الأعْرابُ الّذينَ لمْ يَفْهَموا الدّينَ إلّا على شَكْلٍ سَطْحيٍّ، آسْتَعْصى على تَفْكيرِهِمْ فَهْمُ الفُروقِ الدّقيقَةِ بينَهُما، فَمَضَوْا على أنّه لا فَرْقَ، وآقْتَنَعوا بِما آنتَهَوْا إليهِ، وآشْتَمَلوا على نَوْعٍ مِنَ التّسَخُّطِ الخَفيِّ كانَ غَيْرَ مَشْعورٍ بِهِ إلّا قَليلاً، لأنّهُمْ، بمُقْتَضى نَظَرِيَّتِهِمْ، حالَ الخَليفَةُ بينَهُم وبينَ حقِّهِمْ في الغُنْمِ

ومَنَعَهُمْ إيّاهُ. ومِنْ هؤلاءِ كانَتْ نَواةُ الخَوارِجِ، وقد صاغوا فِكْرَتَهُمْ هذه، فيما بَعْدُ، بأنّ مُرْتَكِبَ الكَبيرَةِ كافِر.

وأولئك الّذينَ صَحِبوا النّبيَّ طَويلاً، وعَرَفوا كَثيراً مِنْ مَنْطِقِ الدّينِ، آشْتَمَلوا على آطْمِئْنانٍ كَبيرٍ، حينَما أوْضَحَ لهمْ عَليٌّ الفَرْقَ كما لوْ لَمَسوهُ. وكانَ بَيْنَ هؤلاءِ مَنْ فَهِمَ الفَرْقَ بينَ الكُفْرِ والفِسْقِ، على نَوْعٍ فِيهِ مُبالَغَةٌ وتَكْبيرٌ، فقالَ بالمَنْزِلَةِ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ[٢]. وكانَتْ هذهِ الاسْتِنْتاجاتُ المُخْتَلِفَةُ كُلُّها، حَوْلَ المَوْضوعِ الّذي أثارَتْهُ مُشْكِلَةُ الغَنائِمِ بَعْدَ يَوْمِ الجَمَلِ، أفكاراً غَيْرَ واضِحَةٍ كَثيراً، وآتَّخَذَتْ سَبيلَ وُضوحِها فيما بَعْدُ، وقامَتْ على أساسِها الفِرَقُ الإسْلامِيَّةُ الّتي عُرِفَتْ بأسْمائِها أخيراً.

٢ ـ نَظَرِيَّتُهُ في خُصومِهِ أنّهم مُسْلِمونَ، فلا يَجوزُ أخْذُهُم في غَيْرِ حُدودِ الإسلامِ وقانونِه، وهو يُسْتَفْتى بهم «أَمُشْرِكونَ هُمْ؟

قالَ: مِنَ الشِّرْكِ فَرّوا... قيلَ: فمُنافِقونَ هُمْ؟

قالَ: إنّ المُنافِقينَ لا يَذْكُرونَ اللّهَ إلّا قَليلاً. قيلَ: فما هُمْ؟

قالَ: إخْوانُنا بَغَوْا علينا... وكانَ لا يَفْتَأُ يَقولُ: لا تَقولوا كَفَرَ أهْلُ الشّامِ، ولكنْ قولوا: فَسَقوا وظَلَموا». فلا بُدَّ إذاً أنْ يُفاوِضَهُم، ولا بُدَّ مِنْ أنْ يُقيمَ الحُجَّةَ علَيْهِم، ولا بُدَّ مِنْ أنْ يُلايِنَهُم ما وَسِعَهُ ذلكَ وَوَجَدَ فيهِمْ أمَلاً، دونَ لُجوءٍ إلى العُنْفِ الّذي لا يَسْتَحِلُّهُ إلّا بَعْد أنْ يُعْيِيَهُ.

فَنَراهُ يُفاوِضُ مُعاوِيَةَ، ويُرْسِلُ إليهِ الرّسولَ بَعْدَ الرّسولِ، والكِتابَ تِلْوَ الكِتابِ، حتّى آسْتَعْمَلَ معهُ أُسْلوباً يَقْرُبُ مِنَ الرّجاءِ. فإذا بهِ يُذَكِّرُهُ بمَوْقِفِ أبيهِ مِنْه،

(٢) أخطأَ مؤرِّخو الفِرَقِ حِينَ تَوَهَّموا أنّ فِكْرَةَ الاعْتِزالِ في المَنْزِلَةِ بينَ المَنْزِلَتَيْنِ لم تُعْرَفْ إلّا في حَلْقَةِ الحَسَنِ البَصْريِّ، على لِسانِ واصِلِ بْنِ عَطاءٍ وعَمْرو بْنِ عُبَيْدٍ، وإنّما أنْشأها بَعْدَ مَعْرَكَةِ الجَمَلِ خَيالُ مُشْكِلَةِ الغَنائِمِ، وتَوْضيحُ عَلِيٍّ الفَرْقَ بَيْنَ الكُفْرِ والعِصْيانِ.

وإذا بهِ يَتَّهِمُهُ بالعُقوقِ في رِفْقٍ. قالَ في بَعْضِ كُتُبِه إليه:

«وقدْ كانَ أَبوكَ، أبو سُفيانَ، أَتاني حينَ قُبِضَ رَسولُ اللّهِ، فقالَ آبْسُطْ يَدَكَ أُبايِعْكَ فَأَنتَ أَحقُّ النّاسِ بهذا الأمْرِ، فكُنْتُ أنا الّذي أَبيْتُ عليهِ مَخافَةَ الفُرْقَةِ بينَ المُسْلِمينَ لِقُرْبِ عَهْدِ النّاسِ بالكُفْرِ. فأبوكَ كانَ أعْلَمَ بحَقّي منكَ، وإنْ تَعْرِفْ مِنْ حَقّي ما كانَ أَبوكَ يَعْرِفُهُ تُصِبْ رُشْدَكَ وإلّا فَتَتَعَيَّنِ اللّهَ عليْكَ».

ولكنّ مُعاوِيَةَ كانَ قد ساوَرَهُ الطَّمَعُ، ولَعِبَتْ أَحْلامُهُ الكُبْرى أمامَ ناظِرَيْه، وقدْ فَهِمَ مِثاليَّةَ عَليٍّ وتَقْواهُ فَعَمَدَ لاسْتِغْلالِها. فإذا هو يُصانِعُهُ، ويُظْهِرُ له خُيوطاً واضِحَةً من الأمَلِ بَعْدَ أنْ يَضَعَ عُقْدَةً يَتَعايا بها، فَيَعْذُرُه عَليٌّ ويَمْضي في مُفاوَضَتِه. ومُعاوِيَةُ لم يَكُنْ يُريدُ مِنْ ذلكَ إلّا آكْتِسابَ الوَقْتِ لِتَهْيِيءِ نَفْسِهِ، وبَعْثِ روحِ المللِ في جَيْشِ عَليٍّ، فهو يَتَمَنّى طولَ الوَقْتِ وطولَ الصّراعِ مَعَ ظُهورِهِ بِمَظْهَرِ المُسْتَسْلِمِ إذا آنحَلَّتِ العُقَدُ أو أقْنَعَهُ بحَلِّها، وبهذا المَظْهَرِ يَضْمَنُ أنْ لا يَأْخُذَهُ عَليٌّ بحَرْبٍ خاطِفَةٍ سَاحِقَةٍ، بل يَرْفُقُ به، فَتَتَحَوَّلُ المَعْرَكَةُ الجِدِّيَّةُ إلى حَرْبِ إنْهاكٍ وإزْعاجٍ، وهي لا مَحالَةَ سَتُشيعُ صِفَةَ التَّمَلْمُلِ واليَأْسِ في جَيْشِ عَليٍّ. أَضِفْ إلى هذا أنّ هذا الجَيْشَ، مُنْذُ حينٍ، قدْ خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةٍ كُبْرى، ومِنْ قَبْلُ كانَ نَهيكاً بالفُتوحِ في كُلِّ مَكانٍ، ولا يَلْبَثُ أنْ يَدورَ هذا التَّمَلْمُلُ دَوْرَتَهُ ويَعْمَلَ عَمَلَهُ، ولا بُدّ أنْ يَتْرُكَ صُدوعاً وآختِلافاً في الرَّأْيِ، فَيَنْقَسِمَ الجَيْشُ شِيَعاً، ويُفَلِتَ مِنْ يَدِ عَليٍّ الزِّمامُ.

أَمَا يَراهُ يُجيبُهُ حينَما طَلَبَ تَأْجيلَ الحَرْبِ شَهْراً، أَلَيْسَ يَسْمَحُ لجَيْشِ الشّامِ، حينَ آسْتَوْلى جَيْشُهُ على الشّريعَةِ، بالسُّقْيا «حتّى آزْدَحَم عليْها السُّقاةُ مِنَ العَسْكَرَيْنِ وما يُؤْذي إنْسانٌ إنْساناً»[٣] فَطالَ أَمَدُ المَعْرَكَةِ مائَةً وعِشْرينَ يَوْماً، وهذا وَقْتٌ طَويلٌ

(٣) رَوى التّاريخُ أنّ جَيْشَ الشّامِ سَبَقَ إلى الشَّريعَةِ، فَطَلَبَ عَليٌّ السّماحَ لجَيْشِهِ فأَبى مُعاوِيَةُ عليهِ، فَلَمّا غَلَبَهُ عَلَيْها وطَلَبوا إليه ذلكَ سَمَحَ لَهُم. فَبَرْهَنَ بهذا عَليٌّ على أنّه يُحارِبُ للحقِّ وليسَ يُحارِبُ للغَلَبَةِ وشَهْوَةِ=

في عُمْرِ حَرْبٍ مِنْ هذا النَّوْعِ، وسَمَحَ طولُ الوَقْتِ للأفْكارِ الَّتي نَبَتَتْ في رُؤوسِ الجُموعِ أنْ تَنْمُوَ وَتَسْتَفْحِلَ، وتُشَكِّلَ نَظَرِيَّةً لها أَسْرُها وتَأْثيرُها في قَرارَتِهِمْ، وكانَ هذا النَّماءُ مَشْفوعاً بعاصِفَةٍ مِنَ المللِ واليَأْس.

ولمْ يَكُنْ شَيءٌ من هذا خافِياً على عَليٍّ، بل كانَ يَنْظُرُ ويَبْتَسِمُ، فهوَ يُريدُ أنْ يَحُلَّ المُشْكِلَةَ القائِمَةَ، ولكنْ على طَريقَتِهِ المِثاليَّةِ، وبِمَنْطِقِ القانونِ الّذي يُقَدِّسُهُ. وعَليٌّ، وإنْ لَمَسَ أنّ الظَّرْفَ يَتَأَزَّمُ عليهِ، والوَقْتَ يَتَعَقَّدُ، والفُرْصَةَ تَكادُ تُفْلِتُ منه إلى خَصْمِهِ، يُريدُ أنْ يُحارِبَ حَرْبَ الحَقِّ، ويَنْتَصِرَ للعَدالَةِ بالعَدْلِ، وإلّا فهو، في نَظَرِهِ، يَخْدَعُ ضَميرَهُ ويَخْدَعُ النّاسَ، إذا سَمَحَ لنَفْسِهِ بآنتِهاكِ قَداسَةِ الحقِّ بسَبيلِ تَأْييدِ قَضايا الحَقّ.

على أنّه كانَ راضِياً، فلمْ يَبْتَئِسْ لأنّه واثِقٌ مِنْ أنّ النِّهايَةَ الظّافِرَةَ في مُتَناوَلِ يَدِهِ، يَضُمُّها إليهِ ساعَةَ يُريدُ، وكذلكَ كانَ حينَ يَئِسَ منْهم، وضَرَبَهَمُ الضَّرْبَةَ القاصِمَةَ الّتي أَلْجَأَتْهُمْ إلى حيلَةِ رَفْعِ المَصاحِفِ المُعْتادَةِ كَثيراً، فَقَدْ رُفِعَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ يَوْمَ الجَمَلِ، فهيَ إذاً لا تَمْلِكُ تَأْثيرَ المُفاجَأَةِ بلْ مُعْتادَةٌ بارِدَةُ الأثرِ ضَعيفَةُ المَفْعولِ، لوْلا ما كانَ قَدِ آسْتَحْوَذَ على الجُموعِ مِنِ آسْتِفْحالِ الأفْكارِ الخَطِرَةِ الّتي سَبَقَ وأَشَرْنا إليها، فَتَصَدَّعَتْ وَحْدَةُ الصُّفوفِ بهذا السَّبَب.

لقدْ عادَتِ الزَّوْبَعَةُ إلى الهُبوبِ مَرّةً أُخرى أشَدَّ عُنْفاً، فَتَمَزَّقَ شِراعُ السَّفينَةِ، ومَيَّلَتْها الأمْواجُ المُتعاظِمَةُ المُتَكَسِّرَةُ على جَوانِبِها في جَبَروتٍ. وعَليٌّ في هذهِ الغَمْرَةِ الطّائِشَةِ كانَ يَنْشَطُ إلى كَشْفِ المَهْزَلَةِ وسَحْقِ طَواغيتِها، ولكنْ بجَيْشٍ مَريضٍ فَتَعايا عليهِ وتَرَكَهُ حيثُ يَشاءُ في المَيْدان. لم يَجِدْ بُدّاً من مُسايَرَةِ الجُمْهورِ الكَبيرِ، ولمْ يَجِدْ بُدّاً مِنَ الخَوْضِ في تَيّارِ المَهْزَلَةِ الّتي آسْتَوْلَتْ بروحِها على الجُمْهورِ إلى

= السُّلْطانِ. وأعْطى مَثَلاً فَذّاً في التّاريخِ كُلِّه، إذا آضْطُرَّ إنسانٌ إلى الحَرْبِ، كيفَ يَجِبُ أنْ يَكونَ إنْساناً شَريفاً قَبْلَ أيِّ آعْتِبار.

النِّهايةِ. فلَيْسَ مِنْ سَبيلٍ لِمُداواةِ الرّوحيَّةِ العامَّةِ على ضَوْءِ النَّفْسِيَّةِ الاجْتِماعِيَّةِ، إلّا الأَخْذُ بالنّاسِ حتّى نِهايَـةِ الطَّريقِ في مَدَى ما آسْتَحْوَذَ عليْهِم، فإنّ الأَمْراضَ الاجْتِماعِيَّةَ، من نَوْعِ الهيسْتيريا الحادّةِ، يُداوى مَعَها الوَهْمُ بالوَهْمِ، وعلى ذلكَ نَزَلَ عندَ رَأْيِهِمْ ليُهَيِّىءَ الظُّروفَ المُناسِبَ من جَديد.

فَعَليٌّ إذاً لم يَشَأْ قَصْداً أنْ يَسْتَغِلَّ سُرْعَتَهُ، وهيَ تَقْتَضي البَطْشَ، آسْتِغْلالاً حازِماً وسَريعاً، وكانَ هو الواجبَ إذْ ذاكَ مِن وُجْهَةِ نَظَرٍ عَسْكَرِيَّةٍ. نَحْنُ نَعْرِفُ عَلِيّاً بَطَلَ الحَرْبِ، فلِماذا أَعْرَضَ هذا الإعْراضَ، وآخْتارَ البُطْءَ في الإيقاعِ بالخَصْمِ بَعْدَ تِلكَ السُّرْعَةِ المُوَفَّقَةِ في الانْتِقالِ والإعْدادِ؟ لأنّ عَليّاً لم يَكُنْ يَطْلُبُ السُّلْطانَ مِنْ أَجْلِ السُّلْطانِ، بلْ من أجْلِ إحْقاقِ الحقِّ وإحْلالِ المَثَلِ الأَعْلى الاجْتِماعيِّ في دُنْيا النّاسِ، وإلّا فالسُّلْطانُ في كِبْرِياءِ نَفْسِهِ وفي كِبْرِياءِ مَعْنَوِيَّتِهِ «لا يُساوي عَفْطَةَ عَنْزٍ» كما كانَ يَقول.

هو يُريدُ السُّلْطانَ مِنْ أَجْلِ الحقِّ، فإذا آنتَهَكَ الحقَّ من أجْلِ السُّلْطانِ فَقَدْ خَنَقَ ضَميرَهُ، وآعْتَصَرَ بِيَدَيهِ قَلْبَهُ في قَسْوَةٍ وَوَحْشِيَّة.

فَماذا يُريدُ مِنْ كِفاحِهِ إذاً؟ إنّه يُريدُ تَطْبيقَ قَضايا العَدْلِ حتّى في السّاعَةِ الّتي يَجوزُ فيها الجَوْرُ، إنّه يُريدُ الحقَّ حتّى في ساعَةِ جَيَشانِ الباطِلِ وطُغْيانِ المُنْكَرِ. ولكنْ هُمْ قِلّةٌ الّذينَ تَسامَوْا إلى فَهْمِهِ، وهَيْهاتَ لِحَياةِ الأَطْماعِ، المَحْدُوَّةِ بالشّرايينِ والأَعْصابِ، أنْ تَنْبِضَ بِمِثْلِ خَلَجاتِ قَلْبِهِ، وتُحِسَّ بحِسِّهِ، وتَنْدى بِمِثْلِ شُعورِه. كانَ أَكْبَرَ مِنْ مُحيطِهِ ولا بِدْعَ، وأَسْمى مِنْ مُجْتَمَعِهِ ولا رَيْبَ، فهو رَبيبُ مُحَمَّدٍ المُتَبَلْوِرُ مِنْ سَناءِ الوَحْيِ وضِياءِ النُّبوَّةِ، وهو أَكْبَرُ اللآلىءِ الّتي آنكَشَفَتْ عنْها دُنْيا القُرْآنِ. فَهَلْ يَعْبَثُ بوُجودِهِ وضَميرِهِ في مَلْهى يَدَيْهِ طائِعاً مُخْتاراً، ومِنْ أَجْلِ ما لا يَراهُ شَيْئاً؟!

إنّهُ لمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ بِما يُقالُ «إذا لَم يَكُنْ ما تُريدُ فأَرِدْ ما يَكونُ»، فهذهِ خُطَّةُ

صَغارٍ وخِيانَةٍ وجُبْنٍ وخَوَرٍ، بل كانَ يُؤمِنُ بغايَةٍ أَسْمى ويُبَشِّرُ بمَبْدَأ:

إذا لمْ تَكُنِ الحَيَاةُ كما تُريدُ، فحاوِلْ أن تجْعَلَها كذلكَ. فإذا لمْ تَنْجَحْ أيْضاً فلا تَخُنْ ضَميرَكَ، وعِشْ وَحْدَكَ مِثالاً للحَياةِ الفاضِلَةِ. ولا تَأْلُ جُهْداً في الدَّعْوَةِ إلى التَّغْييرِ، كيْ يَبْقى للحقِّ في تاريخِ الباطِلِ مَثَلاً يَضْرِبُهُ...

إنّ الّذينَ يَنْتَهِكونَ كُلَّ قداسَةٍ، بسبَيلِ الفَوْزِ، ساقِطونَ في مِيزانِ الأخْلاقِ وقِسْطاسِ الرّوحِ، وعَليٌّ ليسَ من طينَتِهِم، بل ذلكَ الأُسْلوبُ، في حِسِّ عَليٍّ، أَبْرَزُ أُسْلوبٍ من أساليبِ الخِيانَةِ وأنكَرُها. والغَلَبَةُ تَكونُ مِقْياسَ النَّجاحِ في حِسِّ الجامِدينَ جُمودَ المادَّةِ والطّبيعَةِ الصّمّاءِ، بينَما مِقْياسُ نَجاحِكَ، في حِسِّ الشّاعِرينَ، بِمِقْدارِ ما تَكونُ أَبْيَضَ ناصِعاً في ضَوْءِ المِصْباحِ وسَنى الفَجْرِ.

والوُجودُ نَوْعانِ: وُجودٌ بالحَياةِ، ووُجودٌ في أَبَدِيَّةِ المَبادِىءِ، والثّاني مِنْهُما أكْبَرُ الوُجودَيْنِ، فإنّ عُمْرَ أوَّلِهِما في حُدودِ اللَّحْمِ والدَّمِ، وعُمْرَ ثانيهِما في حُدودِ الخُلودِ، وأيْن مداه؟...

وإذا بَقيَ ذو الوُجودِ الأوَّلِ، فإنّما يَبْقى في ذِكْرى التّاريخِ شَوْهَةَ مومِياءَ، بينَما يَظَلُّ ذو الوُجودِ الثّاني، في ذِكْرى الأبَدِ، مِشْكاةَ حيَاةٍ تَفيضُ بالنّور بالضياء.

ولم يَشَأْ عَليٌّ، وقدْ أخَذَ بِمِقْوَدِ السّفينَةِ، أنْ يَتْرُكَها هائِمَةً، ويَتْرُكَ للخاطِفينَ (القُرْصان) آنْتِهابَها. فعالَجَها بِمِقْدارٍ ومِقْدارٍ كَبيرٍ، والعَواصِفُ تَتَناوَحُ مِنْ حَوْلِها وبينَ يَدَيْها، وعَليٌّ كالرُّبّانِ الماهِرِ يُرْخي الشِّراعَ أحْياناً، فَيَمْضي في مَدى مَيْلِ الجُمْهورِ، ويَرْضى بالتَّحْكيمِ، ويَشُدُّ الشِّراعَ أحْياناً فَيَضْرِبُ ضَرْبَتَهُ بالنَّهْرَوان.

وخُروجُ الخَوارِجِ إنّما تَمَّ بآسْتِفْحالِ فِكْرَةِ أنْ لا فَرْقَ بَيْنَ الكُفْرِ والعِصيانِ، فإنّ قَضِيَّةَ الإيمانِ والكُفْرِ، في تَفْكيرِهِمْ، كَقَضِيَّةِ الحقِّ والباطِلِ، وليسَ يُمْكِنُ أنْ يَكونَ بَيْنَهُما واسِطَةٌ يَلْتَقِيانِ، فيها. فالتَّحْكيمُ إذاً خَطَأٌ، والخَطَأُ مَعْصِيَةٌ، والمَعْصِيَةُ كُفْرٌ، فآنتَهَوْا، في سِلْسِلَةِ النّتائِجِ، إلى ضَرورَةِ الإيمانِ مِنْ جَديدٍ. وهذهِ الفِكْرَةُ، في

جَوْهَرِها، لا تَزيدُ عَنْ عُقْدَةٍ مَسْرَحِيّةٍ، إلّا أنّها، مَعَ ضَعْفِ المُحاكَمَةِ العَقْلِيّةِ والنَّقْدِ الفِكْرِيِّ، تَبْدو عُقْدَةً عَسيرَةَ الحَلِّ. فَلَدى البُداةِ تَسْليمٌ عَفَوِيٌّ بِكُلِّ خاطِرَةٍ وإنْ تَكُنْ سَخيفَةً، وفي نَفْسِيَّتِهِمْ قابليّةٌ للاسْتِحْجارِ والتَّصَلُّبِ على شَكْلٍ عَفَوِيٍّ أيْضاً، بِحَيْثُ تَسْتَحيلُ إماعَتُهُ إلّا بِتَحْطيمِ الرُّؤوسِ الّتي تَحْمِلُهُ، وكذلكَ حَدَث.

ولَقَدْ تَمَلّأَ الحُسَيْنُ بِعِظاتِ مَوْقِفِ أبيهِ في كُلِّ مراحِلِهِ، وحَلَّلَها في نَفْسِهِ، وأَحَلَّها مِنْ قَلْبِهِ مَحَلّاً ثابِتاً. وخاضَ مَعَ والِدِهِ العَظيمِ الصِّراعَ على شَتّى أَلْوانِهِ، وكانَ لهُ أَثَرٌ أَيُّ أَثَرٍ، ولمْ يَقِفْ عِنْدَ الشّاطِىءِ مُتَرَقِّباً بل عائِمٌ خائِضٌ تَقومُ بِهِ لُجَّةٌ وتَقْعُدُ به أُخْرى، وتَدْفَعُهُ مَوْجَةٌ لِتَسْتَقْبِلَهُ المَوْجَةُ الثّانِيَةُ، وآلْتَقى(٤) سَيْفُهُ بِسَيْفِ أخيهِ مُحَمَّدٍ، فَشَكَّلا قَوْساً قاعِدَتُها المبادِىءُ الّتي مِنْ أَجْلِها خاضَ أبوهُما الكَبيرُ الكِفاحَ دونَ هُدْنَةٍ أو هَوادَة.

وبَقِيَ في سَمْعِ التّاريخِ وبَصَرِهِ ماثِلاً حَيّاً:

أنّ عَلِيّاً بَطَلُ الحَقِّ في السِّلْمِ وفي الحَرْبِ، وهو الإنْسانُ الّذي آسْتَحالَ إلى طاقَةٍ في وُجودِ الحَقِّ وكِيانِهِ...

*

شاءَ اللّهُ أنْ لا يُحقِّقَ مَغْزى أُمْثولَةِ عَلِيٍّ إلّا آبْنُهُ الحُسَيْنُ، آبْنُهُ الحَبيب...

فَرَدَّدَ على شَكْلٍ آخَرَ: إذا لمْ تَكُنِ الحَياةُ كما تُريدُ، فَحاوِلْ أنْ تَجْعَلَها كذلك...

فإذا لَمْ تَنْجَحْ أيْضاً، فَلا تَخُنْ ضَميرَكَ، وعِشْ وَحْدَكَ مِثالاً لِلحَياةِ الفاضِلَة...

---

(٤) إشارَةٌ إلى ما ذَكَرَ المُؤَرِّخونَ مِنْ أنّ أَحْمَرَ بَني أُمَيَّةَ بَصُرَ بِعَلِيٍّ فأرادَ قَتْلَهُ، فَخَرَجَ إليهِ كَيْسانُ مَوْلى عَلِيٍّ فَآخْتَلَفا ضَرْبَتَيْنِ سَقَطَ بَيْنَهُما كَيْسانُ، فَجَذَبَ عَلِيٌّ أَحْمَرَ بَني أُمَيَّةَ، وضَرَبَ بِهِ الأرْضَ فَكَسَرَ مَنْكِبَهُ وعَضُدَيْهِ، وشَدَّ عَلَيْهِ آبْنا عَلِيٍّ حُسَيْنٌ ومُحَمَّدٌ فَضَرَباهُ بِأَسْيافِهِما فَقَتَلاه.

ولا تَأْلُ جُهْداً بِبَذْلِ النَفْسِ، كيْ يَبْقى لِلْحقِّ في تاريخِ الباطِلِ مَثَلٌ يَضْرِبُه...

*

على أنّهُ أضافَ إليْها أُمْثولَتَهُ الأُخْرى...

إذا لمْ تَكُنِ الحَياةُ كما تُريدُ، فَلْيَكُنِ المَوْتُ كما تُريد...

وإلّا فهَيْهاتَ أنْ تَشْعُرَ بحَلاوَةِ المِثاليَّةِ في الإيمانِ، وتَكونَ مِنَ الأحْرار...

*

بَقِيَ طابَعُ الإنْسانِ الكامِلِ عَليٍّ، الّذي لا يُحَرِّكُهُ الحِقْدُ، ولا تَميلُ بِهِ النَّزَغاتُ والنَّزَوات...

طابَعاً لأبْنائِهِ، فقدْ قيلَ لآبْنِهِ مُحَمَّدٍ، دَسّاً، تَوْليداً للمَوْجِدَةِ:

لِمَ يَدْفَعُ بكَ أَبوكَ في الحَرْبِ ولا يَدْفَعُ بالحَسَنِ والحُسَيْنِ؟...

فقالَ بوَحْيِ القَلْبِ المِثاليِّ: هُما عَيْناهُ وأنا يُمْناهُ، وهو يَدْفَعُ عَنْ عَيْنَيْهِ بيَمينِهِ...

هذا طابَعُ عَليٍّ في الأُخُوَّةِ والإخاءِ، فَأَيُّ دُنْيا، بلْ أيُّ خُلْدٍ سَعيدٍ، لو تَسَنّى للحَياةِ أنْ تَبْرُزَ بطَوابِعِه الأُخْرى...

* * *

إلْتياع

في دارَةٍ قَريبَةٍ مِنَ الكوفَةِ آنعَقَدَ أوَّلُ مُؤْتَمَرٍ سِياسيٍّ إرْهابيٍّ، وآنفَضَّ عنْ مُؤامَرَةٍ دَمَويَّةٍ واسِعَةِ النِّطاقِ، تَوَلّى أمْرَها ثَلاثَةُ نَفَرٍ فِدائيّونَ كُلُّهُم خارِجيٌّ. فقدْ كانَ لمَعْرَكَةِ النَّهْرَوانِ، الّتي آنكَشَفَتْ عنْ مَأْساةٍ مَريرَةٍ، وَقْعٌ حادٌّ في نُفوسِ الخَوارِجِ كافَّةً، فَنَشَطُوا، تَحْتَ إلْحاحِ سَوْرَةِ الانْتِقامِ، يَجْتَمِعونَ هُنا وهُناكَ، ويُوالونَ الاجْتِماعَ في كُلِّ مَكانٍ. فَما مِنْ بَيْتٍ إلّا وَدَخَلَتْهُ طائِفَةٌ من الأرْزاءِ، وآنطَلَقَتِ العُيونُ كأفْواهِ القِرَبِ تَتَحَدَّرُ عنْ مِثْلِ خُيوطِ القَطَراتِ المُرْفَضَّةِ آرْفِضاضَ عِقْدٍ نَظيمٍ، وبالأحْرى الـمُتَحَدِّرَةِ مُؤْتَلِفَةً آئتِلافَ نَوْطٍ شَتيت.

وكانَ عَبْدُ الرّحمنِ بْنُ مُلْجَمٍ مِنْ أبْناءِ الهَوى والشَّبابِ، فهوَ عاشِقٌ مُدْنَفُ الفُؤادِ مُتَيَّمُ الصَّبْوَةِ، لَقيَ قَطامِ آبْنَةَ الـشِّجْنَةِ مِنْ تَيْمِ الرِّبابِ، في أَصيلِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيْلاتِ الصَّحْراءِ الّتي يَخْتَلِطُ فيها سُكونُ الجَمالِ وجَمالُ السُّكونِ، برَجَفاتِ القَوافِلِ، وهي تُهَوِّمُ راجِعَةً أو مُنْطَلِقَةً، كأنّها سارِحَةٌ في طَفَلِ الأبَدِ، أو سانِحَةٌ مَعَ رَأْدِ الأمَلِ الخابي.

وقَطامِ هذهِ فَتاةٌ آفتَتَنَتْ بها طَبيعَةُ الجَمالِ أيَّ آفتِنانٍ، ومَشَتْ في تَقاطيعِها رَوائِعُ الحُسْنِ وآياتُ الفَنِّ، فَبَرَزَتْ كالزَّهْرَةِ أوَّلَ ما تَتَشَقَّقُ عنْها الأكْمامُ، أوْ كالفِتْنَةِ الحَيَّةِ المائِجَةِ الّتي أَضافَتْ إليها الصَّحْراءُ آنبِهامَها، فَجاءَتْ بَساطَةً في

تَرْكيبٍ، ووُضوحاً في غُموضٍ... تَخْطُرُ كيفَما آتَّفَقَ لها، فتُثيرُ، في مَدى خُطاها، تَهاويلَ السِّحْرِ وعَبَقاً مِنْ الهَوى المَسْفوحِ، وضَجَّةَ الجَوى الشَّرود.

والجَمالُ، في الغَواني وفي كُلِّ شَيءٍ، أرادَتْهُ الطَّبيعَةُ لتُعَبِّرَ عن تَذَوُّقِها الفَنِّيِّ، وعنْ أنَّ غايَةَ التّفاعُلِ الكَوْنيِّ يَنْتَهي بالكَوْنِ إلى الفَنِّ ويَجْتَمِعُ عليهِ، وأنَّ بَقاءَ الوُجودِ قائِمٌ على الإرادَةِ الفَنِّيَّةِ فَقَط.

فالطَّبيعَةُ الصّامِتَةُ تُحاوِلُ مُحاوَلاتِها تَحْتَ الإرادَةِ الفَنِّيَّةِ، لتَنْتَهِيَ إلى الفَنِّ الصّامِتِ الّذي هو رُوحُ الطّبيعَةِ آلجَمودُ، وتَبتَدِىءُ الحَياةُ أو الطّبيعَةُ مِنَ الفَنِّ الصّامِتِ، لتَنتَهيَ كذلكَ إلى الفَنِّ الحَيِّ الّذي هو رُوحُ الحَياةِ أيْضاً، وتَبْتَدِىءُ الطّبيعَةُ الإنْسانيَّةُ مِنَ الفَنِّ الحَيِّ، لِتَنتَهيَ في غايَتِها إلى الفَنِّ الواعي الّذي هو المُثُل العُلْيا.

وإلى هذا الفَنِّ الواعي تَنْتَمي فِكْرَةُ الرّوحِ والخُلْدِ، حتّى اللّهُ في الأدْيانِ فِكْرَةُ الفَنِّ المُطْلَقِ، والوُجودُ إنّما يَتَحَرَّكُ بإرادَةِ الفَنِّ، ليَسْمُوَ تَحْتَ هذهِ الرَّغْبَةِ الجاذِبَةِ بالشَّوْقِ. وإلى هذا يُشيرُ قَوْلُ النَّبيِّ: «خَلَقَ اللّهُ آدَمَ على صورَتِهِ»، مِنْ حَيْثُ إنّ في الإنْسانِ أكْبَرَ قِسْطٍ من جَمالِ فَنِّ الوَعْي، أوْ فَنِّ القَصْدِ، إذْ فيهِ تَحَوَّلَتْ حَرَكَةُ الطّبيعَةِ الفَنِّيَّةِ، مِنْ حَرَكَةٍ لاقاصِدَةٍ إلى قَصْدٍ في الحَرَكَةِ... هذا حَديثٌ فاهَ بِهِ آبْنُ أبي عَتيقٍ في أُمْسيَّةٍ منْ أماسي الطّائِفِ، عندَ مَغْنىً نَضيرٍ، جَمَعَهُ وعُمَرَ بْنِ أبي رَبيعَةَ والثُّرَيّا، وزُمْرَةً كَبيرةً مِمَّنْ يَطْلُبونَ الحَياةَ اللاّهِيَةِ الحالِمَةَ، كانَ بَيْنَهُمْ آبْنُ مُلْجَم.

فقالَ عُمَرُ يُحاوِرُهُ: لكأنّي بكَ ـ يا آبْنَ أبي عَتيقٍ ـ وأَنْتَ حُشْيَةُ فُتونٍ ودُنيا غَرامٍ، ولمْ أُخْطِئْكَ الصِّفَةَ حينَما قُلْتُ:

أَأهْجُرَنْها؟! وأنْتَ زَيَّنْتَها لي　　أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطانِ للإنْسانِ

وقَهْقَهَ مُشيراً إلى الثُّرَيّا.

قالَ آبْنُ أبي عَتيقٍ: لا تَثْريبَ عَلَيْك، فـ «اللّهُ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ». نَحنُ بِإرادَةِ الفَنِّ يَسْتَخِفُّنا سِحْرُهُ، فَنَتَواقَعُ على الرِّمالِ مُنْتَشينَ بمَوْجَةِ الزَّبَدِ، ولَعَلَّ ثُرَيّاكَ أَكْبَرُ مَوْجاتِ الزَّبَدِ الحائِمِ في شاطئِ الفَنِّ المَسْحور.

قالَتِ الثُّرَيّا: فأَنا في خَيالِكَ إذاً ـ يا آبْنَ أبي عَتيقٍ ـ بَعْضٌ مِنْ غايَةِ الكَوْنِ في تَفاعُلِهِ الأَبَديِّ، لأنّني بَعْضٌ مِنْ فِتْنَةِ الفَنِّ فيهِ... وراحَتْ تَرْمُقُ آبْنَ أبي رَبيعَة.

قالَ عُمَرُ: ماذا تَقولينَ؟ لأَنْتِ، واللّهِ، كُلُّ فِتْنَةِ الفَنِّ إنْ كانَ هذا يَفي بمَوْقِعِكِ في قَلْبي، ولأَنْتِ كُلُّ غايَةِ الكَوْنِ إنْ كانَتْ لِلْكَوْنِ غايَةٌ... فَراحَتْ تَضْحَكُ في خَفَرٍ، وكانَتْ ضِحْكَةً تُعَبِّرُ عَنْ نَشْوَتِها فـ «الغَواني يَغُرُّهُنَّ الثَّناءُ»، ولمْ تَلْبَثْ هُنَيْهَةً حتّى قالَتْ:

«لو أنا نادَيْتُكَ واعُمَراهُ فماذا تَقولُ؟... وكأنّها آسْتَخَفَّتْهُ فَهَبَّ يَفْعَلُ كالمُثَوِّبِ: أقولُ، أقولُ: لَبَّيْكاهُ. لَبَّيْكاهُ. لَبَّيْكاهُ» ومَدَّ صَوْتَه.

لأوّلِ لِقاءَةٍ بينَ عَبْدِ الرّحمنِ وقَطامِ، مَرَّتْ في مُخَيِّلَتِهِ قِصَّةُ أُمْسِيَّةِ الطّائِفِ، وشَعَرَ بحَلاوَةِ الحُلُمِ، لوْ كانَ له مِنْ قَطامِ ما كانَ لعُمَرَ مِنَ الثُّرَيّا.

وكانَ أنْ رَأَتْ قَطامِ منهُ ما رَأى مِنْها، وأَحَسَّتْ بمِثْلِ ما آجْتَمَعَ في أحاسيسِهِ من أحْلامٍ، فقدْ تَواصَلَ بينَهُما هَوىً، ومَشى بينَ فُؤادَيْهِما غَرامٌ، ولَفَّهُما وَجْدٌ، وآسْتَدارَ على قَلْبَيْهِما جَوىً وهُيامٌ. كان في نُقْطَةِ الدّائِرَةِ قَلْبُها، وفي إطارِ الدّائِرَةِ قَلْبُهُ يَدورُ، ولا يَدْري مِنْ أيْنَ آبْتَدأَ أو إلى أيْنَ يَنْتَهي، ودائِماً يَكونُ قَلْبُ المَرْأَةِ مِنَ الثّوابِتِ، فهيَ غَنِيَّةٌ بالإغْراءِ، وقَلَّما تَكونُ غَنِيَّةً بالحِسِّ الصافي، وهي قَلَّما تَتَحَرَّكُ بالحُبِّ من النَرْجِسِيَّةِ، ولكنّها دائِماً تَتَحَرَّكُ بالكَراهِيَةِ والبُغْض.

كانَ بينَهُما لِقاءٌ إثْرَ لِقاءٍ، وكمْ تَمَنَّيا لو أَفْنَيا العُمْرَ في لِقاءَةٍ سَكْرى تَضِلُّ عنْ صَحْوِها، أو تَدْفَعُ بهِما في لانِهايَةِ الفَناءِ قَبْلَ فَنائِها.

عِنْدَ مَهْوى أحَدِ الكُثْبانِ الّذي حَفِظَ لَهُما أوَّلَ آنتِشاءَةٍ مِنْ غَرامِهِما وآخِرَ آنتِشاءَةٍ، كانا يَحْلُمانِ، وما أُصْحِيا، إلّا على صَوْتِ النَّعِيِّ أنّ وَقْعَةَ النَّهْرَوانِ ذَهَبَتْ بِكُلِّ الشُّيوخِ وأكْثَرِ الفِتْيانِ، وأنّ تَيّارَ الأرْزاءِ جَرى على كُلِّ بَيْتٍ، وغَمَرَ أعْلى العَرَصاتِ حَتّى أدْنى الأوْدِيَةِ. فَتمايَلَتْ مَعَ النَّعِيِّ مُرْتَعِدَةً كما تَمايَلَتْ قَصَباتُ الغَوْرِ في حُروفِ الأوْدِيَةِ والمُنْعَرَجاتِ، وآنهَمَرَتْ عَيْناها بالدُّموعِ المُتَناثِرَةِ تَناثُرَ البَرَدِ، وثارَتْ ثائِرَةُ آبْنِ مُلْجَمٍ على لَحْنِ دُموعِها القانِيَةِ... وتَحْتَ عَوامِلِ الثَّأْرِ الفائِرِ وسَوْرَةِ الانْتِقامِ العاصِفِ، آلى ألِيَّتَهُ الرَّهيبَةَ لَيَنتَقِمَنَّ لها وله، ولَيَشْفِيَنَّ نَفْسَها ونَفْسَهُ ولَيَقَرَّنَّ عَيْنَها وعَيْنَه!

وطَبيعَةُ الجَبَروتِ في الرَّجُلِ تَأْبى أنْ تَظْهَرَ بمُبالغَاتِها إلّا في فَضاءِ نَظَرِ المَرْأةِ، كما تَأْبى طَبيعَةُ الإغْراءِ في المرْأةِ أنْ تَظْهَرَ بمُبالَغاتِها إلّا في فَضاءِ نَظَرِ الرَّجُلِ، كَأنَّـهُما، بَعْدَ تَناحُرٍ طَويلٍ، آصْطَلَحا على أنْ تَسْتَنيمَ المَرْأةُ إلى جَبَروتِهِ، فهِيَ تُطالِبُهُ بهِ في الخُطوبِ، وعلى أنْ يَسْتَنيمَ الرَّجُلُ إلى إغْرائِها، فهو يُطالِبُها به في النَّشَواتِ، وهَيْنَماتِ الأحْلامِ، ودَغْدَغاتِ السُّكونِ الّذي يَتمدَّدُ في فَضاءِ النَّفْسِ بآسْتِرْخاء.

في دارَةٍ لا تَبْعُدُ كَثيراً عَنِ الكوفَةِ، تَسارَعَ إلَيْها مَفْجوعونَ ومَفْجوعاتٌ، ولَبِثوا يُرْعِدونَ ويُبْرِقونَ، تَحْتَ إيحاءِ المَأْساةِ الحَمْراءِ الّتي كانَتْ تَتَّصِلُ بأعْصابِهِمْ فَتُحَرِّكُها، مُتَصَلِّبَةً مُتَعَقِّدَةً تَشْتَهي لَوْ تَمَدَّدَتْ خانِقَةً ساحِقَةً...

قامَ الخِرّيتُ بْنُ راشِدٍ النّاجِيّ يَخْطُبُهُم:

لَقَدْ كَبُرَ علَيْنا واللّهِ مَصْرَعُ إخْوانِنا الأبْرارِ، وما بَقاؤُنا بَعْدَهُم؟ أتَنْتَظِرونَ أنْ يَتَخَطَّفَكُمْ جَيْشُ عَلِيٍّ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ، وطائِفَةً بَعْدَ طائِفَةٍ؟ إنّه لا يَنْتَظِرُكُم منْه إلّا المَوْتُ، المَوْتُ الذّليلُ الوَضيعُ! المَوْتُ الغائِلُ الزُّؤامُ! ألا فآنفِروا وموتوا في عَقْرِ الحِرابِ، ولا تُموتُنَّ في عُقْرِ الدِّيار!

فَهَبَّ القَطَرِيُّ بْنُ الفُجاءَةِ يُنْشِدُهُم:

أقولُ لها، وقدْ طارَتْ شَعاعاً، مِنَ الأبْطالِ وَيْحَكِ لنْ تُراعي
فإنَّكَ لوْ سَأَلْتِ بَقاءَ يَوْمٍ على الأجَلِ الّذي لَكِ لَنْ تُطاعي
فَصَبْراً في مَجالِ المَوْتِ صَبْراً فَما نَيْلُ الخُلودِ بمُسْتَطاعِ
ولا ثَوبُ البَقاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فيُطْوى عن أَخي الخَنِعِ اليَراعِ
سَبيلُ المَوْتِ غايَةُ كُلِّ حَيٍّ فَداعيهِ لأهْلِ الأرْضِ داعي
ومَنْ لا يُغْتَبَطْ يَسْأَمْ ويَهْرَمْ وتُسْلِمْهُ المَنونُ إلى انْقِطاعِ
وما لِلْمَرْءِ خَيْرٌ في حَياةٍ إذا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ المَتاعِ

وَوَقَفَ فَرْوَةُ بْنُ نَوْفَلٍ الأشْجَعيّ فقالَ:

ألا فاسْمَعوا: إنّ عَليّاً أرادَ أنْ يَتَّخِذَ من وَقْعَةِ النَّهْرَوانِ أُمْثولَةً رَهيبَةً، يُلَوِّحُ بها في وَجْهِ خَصْمِهِ، فَيَفُلُّ غَرْبَهُ، ويُدْخِلُ الرَّوْعَ إلى قَلْبِهِ، ويُخَذِّلُ عليهِ أعْصابَهُ، فَبطَشَ بنا تِلْكَ البطْشَةَ السّاحِقَةَ.

إنّ عَليّاً هو أحْوَجُ ما يَكونُ - وقَدْ تَهَيّأَ لحَرْبِ خَصْمِهِ - إلى مَثَلٍ جَبّارٍ مُرْعِدٍ يُعيدُ به إلى الأذْهانِ مَثَلَ رَهْبَةِ مَعْرَكَةِ الجَمَلِ، ويُدْخِلُ في رُوْعِ خُصومِهِ مِثْلَ آثارِها فَيَمْتَلِئونَ ذُعْراً وخَوْفاً، كَما أرادَ أيْضاً أنْ يُعيدَ الثِّقَةَ إلى نُفوسِ جَيْشِهِ، فَقَدْ عَراها وَهَنٌ وخَوَرٌ، وأنْ يُعيدَ الثِّقَةَ بالجَيْشِ وهو يُقْبِلُ على مُغامَرَةٍ كُبْرى فاصِلَة.

وعَليٌّ لمْ يَضْرِبْنا ضَرْبَتَهُ تِلْكَ في النَّهْروانِ إلّا بَعْدَ أنْ بَذَلَ أقْصى الجُهْدِ لِلْعَوْدَةِ إليهِ، أو الفَيْئَةِ إلى مُشارَكَتِهِ في نِزالِ خَصْمِهِ، ولَقَدْ أرْخى لنا من عِنانَهِ حتّى أَخَذْنا سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ، وأنْتُمْ تَعْرِفونَ سابِقَتَهُ ولا تَجْهلونَ مَكانَهُ، فَوَجَدَ إذْ ذاكَ السّبيلَ لتَجْرِبَتِهِ، وهو وَايْمُ اللّه قَدْ أُعْذِر.

ولَسْتُ أقولُ تَثْبيطاً عنهُ، بَلِ آحْتياطاً لِدمائِنا، وعَليٌّ «لمْ يَزَلْ عِنْدَنا في الشُّبْهَةِ والشَّكِّ»... وها إنّي مُعْتَزِل.

فَوَثَبَ الخِرِّيتُ يَخْفُقُ بِرأْسِهِ ويُبْرِقُ بعَيْنَيْهِ، ويُرْعِدُ بصَوْتِهِ، ويُلَوِّحُ بكِلْتا يَدَيْهِ: أَدَعْوَةٌ إلى النِّفاقِ والكُفْرِ؟ إنْتَفَخَ سَحْرُكَ وجَبُنْتَ وهَدَرْتَ دِماءَ الأَطْهارِ. ألا فمِيتَةُ السّوءِ لكمْ إنْ كُنتُمْ لا تَنْفِرونَ! وها إنّي نافِرٌ ثائِر!

فآشْتَعَلَتْ حَماسَةُ الشَّبابِ خُصوصاً، وآنـدَفَعوا في تَيّارِ أَصْواتِهِمْ كالجُنُونِ يُرَدِّدونَ: ألا فَميتَةُ السّوءِ لنا إنْ كُنا لا نَنْفِرُ ونَنتقِمُ!... وآنكَشَفَ الجَمْعُ عَنِ آعْتِزالِ فَرْوَةَ الأَشْجَعيِّ بشَهْرَزوْرَ، ونِفارِ الخِرّيتِ النّاجي بالأَهْوازِ ثُمَّ بالأَسْياف.

ولكنّ الشَّبابَ تَنَادَوْا إلى بَعْضِهِم ووالَوْا الاجْتِماعَ، وتَرْتيبَ الخُطَطِ وبرامِجَ السَّيْرِ بالمُؤامَرَةِ الانْتِقامِيَّةِ، فهمْ لا يَسْتَطيعونَ العَمَلَ جَهْراً، فَلْيَعْمَلوا سِرّاً، ولْيَعْمِدوا إلى الغِيلَة.

وكانَ أَكْثَرَ هؤلاءِ الشّبابِ تَحَمُّساً عَبْدُ الرّحْمنِ بْنُ مُلْجَم، الّذي آندَفَعَ بحَفيظَةِ الحُبِّ، وعَمِلَ كَيْ يُرْضِيَ قَلْباً باتَ مَغْموداً... إنّه سَيُجازِفُ كيفَما شاءَتِ المُجازَفَةُ، وكيفَما كانَتْ خُطورَتُها.

أليسَ فيها ما يُرْضي مَحبوبَتَهُ المَفْجوعَةَ بأَبيها وأَخيها؟ أَلَيْسَتْ سَتُشَيِّعُهُ برَعَشاتِ قَلْبِها وخُفوقِهِ؟

أما سَتَحْتَفِظُ بِذِكْرى نابِضَةٍ تَشيعُ بَيْنَ آهْتِزازاتِها آبْتِسامَةُ حُبٍّ باكِيَةٌ، ومَعْنى هَوىً كَسِيف؟

في إحْساسِ آبْنِ مُلْجَمٍ أنّ هذا كافٍ بلْ كَثيرٌ، لا سِيَّما وقَدْ جَعَلَتْ قَتْلَ عَليٍّ مَهْرَ قَلْبِها وحُبِّها وجَسَدِها، فَلْيَعْتَرِضْهُ إذاً كُلُّ خَطَرٍ، ولْتَقُمْ في طَريقِهِ أَيَّةُ العَقَباتِ، فهو لا بُدَّ مُقْتَحِمُها. إنّه لمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ ولا يَرَى سِوى عَروسِ أَحْلامِهِ

تُبارِكُهُ وتَنْظُرُ إليهِ بتَشْجيعٍ وتَخَوُّفٍ.

أَلَيْسَتِ الآنَ تَوَدِّعُهُ وهيَ بينَ عاطِفَتَيْنِ مُتصارِعَتَيْنِ، تَهْتَزُّ تَحْتَ عَنيفِ صِراعِهِما، ها هيَ تَتْرُكُهُ يَنْطَلِقُ، مَسْرورَةً تَحْتَ فَوْرَةِ الثَّأْرِ والمَوْجِدَةِ، ثُمَّ لا يَكادُ يَخْطو، حَتّى يَطْغى حُبُّه في حَنايا رُوحِها فَتَنْبَعِثُ وَلْهى وراءَه، تَشُدُّهُ إليْها، وتَعْتَنِقُهُ آعْتِناقاً عَنيفاً.

إنّها بينَ عاطِفَتَيْنِ قاسِيَتَيْنِ بمَوْقِعِهِما على قَلْبِها، فهيَ تَخافُ عليهِ أنْ يَفْعَلَ، وتَخافُ مِنْه أنْ لا يَفْعَلَ. إنّها في حَيْرَةٍ يَقْظى ليسَ تَغْفى، ونَفْسُها سَكْرى تُعَرْبِدُ. ظَلَّتْ حِيناً بينَ سَخاءٍ به فَتُشْرِقُ على وَجْهِها آبْتِسامَةٌ راعِدَةٌ، وبينَ بُخْلٍ به فَتَتَوَلَّهُ وتَذوبُ آبْتِسامَتُها في مَوْجَةٍ مِنَ الأسى السّاهِم. بَيْدَ أنّها لمْ تُطِقْ فَأَعْيَتْ بينَ عواطِفِها المُتَناوِحَةِ، فآسْتَنَدَتْ إليهِ وجُفونُها غافِيَةٌ تَحتَ أطْباقٍ مِنَ الدُّموعِ، غَيْرَ أنّها رَمَقَتْهُ أخيراً، وقالتْ لهُ في كَثيرٍ مِنَ الخُفوت:

«إلْتَمِسْ غِرَّتَهُ، فإنْ أَصَبْتَ شَفَيْتَ نَفْسَكَ ونَفْسي، ويُهْنِئْكَ العَيْشُ معي، وإنْ قُتِلْتَ فَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وزينَتِها وزينَةِ أَهْلِها»... لقدْ صَحَّ عَزْمُها في النِّهايَةِ على الانْتِقام.

وآنطَلَقَ آبْنُ مُلْجَم إلى حَيْثُ كانَ جَماعَتُهُ يَنْتَظِرونَ عِنْدَ الحَطيمِ في مَكَّةَ، وكانَ لا يَسْمَعُ، كيفَما سارَ، إلّا أصْواتاً رَهيبَةَ التَّأَمّاتِ، فَيَتَلَفَّتُ يَميناً وشِمالاً، فلا يَرَى شَيْئاً، ولكنّهُ يَقِفُ كالمَذْعورِ يَشُدُّهُ إليهِ مَوْضِعُه آناً، ويَنْطَلِقُ آناً كالهائِمِ المَسْرورِ تَتَقاذَفُهُ طَريقُهُ مِثْلَ كُرَةٍ، لقدْ غَدا، تَحْتَ ما تَجيشُ به نَفْسُهُ ويَعْتَلِجُ بينَ حَناياه مِنْها، كالمَمْرورِ، لمْ يَكُنْ مِن شَيءٍ بينَ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ، وإنّما كانتْ تَنْعَكِس أصْداءُ نَفْسِهِ في أُذُنَيْهِ، ويَسْمَعُ ضَجَّتَها في الخَلاءِ حَزينَةً أوْ مُغْتَبِطَة.

إنْتَهى إلى أصْحابِهِ وأَتْرابِهِ «فَتَذاكَروا أَمْرَ النّاسِ، وعابُوا على وُلاتِهِم،

وذَكَروا أهْلَ النَّهْرِ فَتَرَحَّموا عَلَيْهِم، وقالوا: ما نَصْنَعُ بالبقاءِ بَعْدَهم. إخْوانُنا الّذين كانوا دُعاةَ النّاسِ لِعبادَةِ رَبِّهِم، والّذينَ كانوا لا يَخافونَ في اللّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، فلوْ شَرَيْنا أَنْفُسَنا فَأَتَيْنا الرُّؤوسَ فالْتَمَسْنا قَتْلَهُمْ فأَرَحْنا مِنْهُمُ البِلادَ وثأَرْنا بِهِمْ إخْوانَنا.

قالَ ٱبْنُ مُلْجَمٍ ـ وتَعَرَّضَ له طَيْفُ قَطامِ يَبْتَسِمُ له ويُبارِكُهُ ـ أنا أكْفيكُمْ عَليَّ بْنَ أبي طالِبٍ.

وقالَ البَرْكُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ: أنا أكْفيكُمْ مُعاوِيَةَ بْنَ أبي سُفْيان.

وقالَ عَمْرو بْنُ بَكْرٍ: أنا أَكْفيكُمْ عَمْرو بْنَ العاصِ... فَتَعاهَدوا وتَواثَقوا باللّهِ: لا يَنْكُصْ رَجُلٌ مِنّا على صاحِبِهِ الّذي تَوَجَّهَ حتّى يَقْتُلَهُ أوْ يَموتَ دونَه».

بَعْدَما غابَ ٱبْنُ مُلْجَمٍ عَنْ عَيْنَيْ قَطام، شَعَرَتْ بِغِبْطَةٍ، لمْ تَلْبَثْ أنْ مازَجَتْها حَسْرَةٌ كانَتْ تَنْسابُ إلى قَلْبِها، على شَكْلِ مَوْجاتٍ مُتَدَفِّقَةٍ، ولمْ تَلْبَثْ أنْ فارَتْ وٱصْطَخَبَتْ. فَخَفَّتْ إلى الطَّريقِ الّذي سَلَكَ تَوَدُّ لوْ أدْرَكَتْهُ، ولكنَّها تَوَقَّفَتْ ولمْ تَسْقُطْ لهُ على أثَرٍ ولو في القَتام. فَظَلَّتْ تَرْنو جاحِظَةً وشَفَتُها بينَ أسْنانِها، وظَلَّتْ تُمْسِكُ وَجيبَ قَلْبِها بِيَدٍ، وتُكَفْكِفُ مِنْ غَرْبِ دَمْعِها بِيَدٍ، وطالَ بها المَقامُ ولفَّها اللَّيْلُ كأنَّهُ يُجَلْبِبُها بثَوْبِ الحِداد.

سَمِعَتْ، بعدَ حينٍ، أنّ عَبْدَ الرّحْمنِ هَبَطَ الكوفَةَ فهالَها ما سَوْفَ يُقْدِمُ عَلَيْهِ، فَضَمَّتْ إليهِ، مِنْ قَوْمِها، رَجُلاً ٱسْمُهُ وَرْدانُ، تَمَنَّتْ، في أقْصى عواطِفِها، لو أنّهُ سَقَطَ طُعْمُ الفَريسَةِ ونَجا صَيّادُها الحَبيبُ المُفَدّى.

ما لَبِثَ ٱبْنُ مُلْجَمٍ أنْ لَقيَ أصْحابَهُ في الكوفَةِ وكاتَمَهُمْ أمْرَهُ، ثُمَّ سار إلى «شَبيبِ بْنِ بَجْرَةَ فقالَ له: هلْ لكَ في شَرَفِ الدُّنْيا والآخِرَة؟

قالَ: وما ذاكَ؟

قالَ: قَتْلُ عَليِّ بْنِ أبي طالِب.

قالَ: ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ. لقدْ جِئْتَ شيئاً إدّاً، كيفَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ؟

قالَ: أَكْمُنُ لَهُ في المَسْجِدِ، فإذا خَرَجَ لصَلاةِ الغَداةِ شَدَدْنا عَلَيْهِ فَقَتَلْناهُ، فإنْ نَجَوْنا شَفَيْنا أنْفُسَنا وأدْرَكْنا ثَأْرَنا، وإنْ قُتِلْنا فَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما فيها.

قالَ: وَيْحَكَ! لو كانَ غَيْرَ عَليٍّ لكانَ أهْوَنَ عَلَيَّ، فقدْ عَرَفْتُ بَلاءَهُ في الإسْلامِ وسابِقَتَهُ مَعَ النَّبيِّ (ص)، وما أجِدُني أنْشَرِحُ لقَتْلِه.

قالَ: أَمَا تَعْلَمُ أنّهُ قَتَلَ أهْلَ النَّهْرِ العِبادَ الصّالحين؟

قالَ: بلى... فأجابَهُ، وأتى الثّلاثَةُ إلى قَطامِ وهي مُعْتَكِفَةٌ في المَسْجِدِ الأعْظَمِ، فَدَعَتْ لهمْ بالحَريرِ فَعَصَبَتْهُم بهِ، وأخذوا أسْيافَهُمْ وجَلَسوا مُقابِلَ السُّدَّةِ الّتي يَخْرُجُ مِنْها عَليٌّ... قالَ مُحَمَّدُ بْنُ الحَنَفيَّةِ: إنّي لأُصَلّي تِلْكَ اللّيْلَةَ في المَسْجِدِ الأعْظَمِ في رِجالٍ كَثيرٍ مِنْ أهْلِ المِصْرِ، ما هُمْ إلّا قِيامٌ ورُكوعٌ وسُجودٌ، ما يَسْأَمونَ مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ إلى آخِرِهِ، إذْ خَرَجَ عَليٌّ لِصَلاةِ الغَداةِ، فَجَعَلَ يُنادي: أيُّها النّاسُ، الصَّلاةَ، الصَّلاةَ. فَنَظَرْتُ إلى بَريقٍ وسَمِعْتُ: الحُكْمُ لِلّهِ يا عَليُّ، لا لَكَ ولا لأَصْحابِكَ! فَرَأَيْتُ سَيْفاً ثُمّ رَأيْتُ ثانِياً ثُمّ سَمِعْتُ عَليّاً يَقولُ: لا يَفوتَنَّكُمُ الرَّجُلُ! وشَدَّ النّاسُ عليهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فَأُخِذَ وأُدْخِلَ على عَليٍّ فَقالَ:

النَّفْسُ بالنَّفْسِ إنْ أنا مِتُّ، وإنْ بَقيتُ رَأَيْتُ فيهِ رَأْيي... ثُمَّ ٱلتَفَتَ إلى ذَويهِ فَقالَ: يا بني عَبْدِ المُطَّلِبِ: لا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخوضونَ دِماءَ المُسْلِمينَ تَقولونَ: قُتِلَ أَميرُ المُؤْمِنينَ. قُتِلَ أَميرُ المُؤْمنينَ. ألا لا يُقْتَلَنَّ إلّا قاتِلي، أُنْظُرْ يا حَسَنُ، إنْ أنا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ فَٱضْرِبْهُ ضَرْبَةً بضَرْبَةٍ، ولا تُمَثِّلْ بالرَّجُلِ، فإنّي سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ (ص) يَقولُ: إيّاكُمْ والمُثْلَةَ ولو أنّها بالكَلْبِ العَقورِ... ولَمّا أحَسَّ دُنُوَّهُ جَمَعَ إليهِ الحَسَنَ والحُسَيْنَ، فَقالَ:

أُوصيكُما بتَقْوى اللّهِ وألّا تَبغِيا الدُّنْيا، وإنْ بَغَتْكُما، ولا تَبْكِيا على شَيءٍ

زَوى عَنْكُما، وقُولا الحقَّ، وآرْحَما اليتيمَ، وأغيثا الملهوفَ، وآصْنَعا للآخِرَةِ وكُونا للظّالِمِ خَصْماً وللمَظْلومِ ناصِراً، وآعْمَلا بِما في الكِتابِ، ولا تَأْخُذْكُما في اللّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ... ثُمَّ نَظَرَ إلى مُحَمَّدِ بْنِ الحَنَفيَّةِ فقالَ: هَلْ حَفِظْتَ ما أَوْصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: فإنّي أُوصيكَ بتَوْقيرِ أَخَوَيْكَ، العَظيمِ حقُّهُما عَلَيْكَ، فآتبَعْ أمْرَهُما ولا تَقْطَعْ أمْراً دونَهُما. ثُمّ قالَ: أُوصيكُما بِهِ فإنّه شَقيقُكُما وآبْنُ أبيكُما، وقَدْ عَلِمْتُما أنّ أباكُما كانَ يُحِبُّهُ... ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إلّا بقَوْلِ: لا إله إلّا اللّهُ، حتّى قُبِضَ»...

فَلَيْتَها إذْ فَدَتْ عَمْراً بخارِجَةٍ فَدَتْ عَليّاً بِمَنْ شاءَتْ مِنَ البَشَرِ!

*

خاضَ عَليٌّ الكِفاحَ الإسْلاميَّ ولمْ يُدْرِكْ مَدْرَكَ الرِّجالِ، وقَضى في ساحَةِ هذا الكِفاحِ وهو أَسْمى الرِّجال...

وكَأَنَّهُ بكِفاحِهِ أَتمَّ على الإسْلامِ كِفاحَهُ، فالنَّبيُّ كافَحَ الشِّرْكَ، وعَليٌّ كافَحَ النِّفاق...

والنَّبيُّ ظَفِرَ بالمَعْرَكَةِ الحاسِمَةِ، وعَليٌّ ظَفِرَ بمَعْرَكَةِ التَّطْهيرِ الحاسِمَة أيْضاً...

في كُلِّ عَيْنٍ أَنْتَ قُرَّتُها في كُلِّ جيلٍ أَنْتَ عَلْياهُ!

شاءَ الحَقُّ أنْ يُقَدِّمَ في دُنْيا النّاسِ نَموذَجَهُ فكانَ عَليّاً...

وشاءَتِ الإنْسانيّةُ العُلْيا أنْ تَعْتَرِضَ مُتأَلِّقَةً في أُفُقِ الأَحْياءِ فكانَتْ عَليّا...

وشاءَتِ السَّماءُ أنْ لا تُسْلِمَهُ إلى أطْباقِ الثَّرى المُظْلِمِ، فآخْتارَتْهُ مِلءَ عَيْنِ الحقِّ شَهيداً!...

*

إسْتَعْبَرَ الحَسَنُ، وتَوَلَّهَ الحُسَيْنُ مُلْتاعاً، فقدْ دَقَّتْ ساعَةٌ ماتَ فيها البطَل...
وأعْوَزَهُ الدَّمْعُ، ولكِنّ عَليّاً لا يُشَيِّعُ بالدُّموع...
فإنّ تَكْريمَ البَطَلِ لا يَكونُ إلّا بِتَضْحِيَةٍ في بُطولَةٍ، وبُطولَةٍ في التَّضْحِيَة...
فَبَكاهُ ولكنْ لمْ يَبْكِهِ بالدُّموعِ بلْ بالدِّماءِ الخالِدات!...

*

تَنَظَّمَ على رَأْسِ الحُسَيْنِ إكْليلُ أسىً، ولكنَّهُ إكْليلُ غارٍ يُعَبِّرُ عن خالِدِ المَجْدِ... فَقَدْ ضَمَّ جَدَّهُ وأُمَّهُ وأَباهُ في آحْتِباكٍ وَضيء...

وكانَ شِعارَه أنّى سارَ وكيفَ سَعى...
وظَلَّ الإكْليلُ كَأَنّ فيهِ مَحَلّاً لزَهْرَةٍ حَمْراءَ أيْضاً...
فَلَمْ يَلْبَثْ أنْ كانَ بِنَفْسِهِ تِلْكَ الزَّهْرَةَ الحَمْراء...
وظَلَّ إكْليلُ الغارِ العَظيمُ ذِكْرى رائِعَةً في ضَميرِ الوجود!...

*

إسْتَغْرَقَ الحُسَيْنُ في أَسىً مُذيبٍ، وجَرى على لِسانِهِ مِنْ مَرْثِيَّةِ أبي الأسْوَدِ الدُّؤَليّ:

إذا آسْتَقْبَلْتَ وَجْهَ أَبي حُسَيْنٍ رَأَيْتَ البَدْرَ راعَ النّاظِرينا
لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ حَيْثُ كانَتْ بأنَّكَ خَيْرُها حَسَباً وَدِينا

ثُمَّ تَمْتَمَ: لِماذا؟ لِماذا يَقولُ «أبي حُسَيْن»؟...
لا شَكَّ أنّ أبا الأَسْوَدِ يُناديني، يُناديني أنا...
وخَليقٌ بي أنْ أُجيبَ النِّداء!...

* * *

مِن أيّامِ الحُسَين السِّبط (ع)

في الهيكل

هَجَرَ النّاسَ إلى المَسْجِدِ، وسَئِمَ الحَياةَ الصّاخِبَةَ، وقَدِ آمْتَدَّتْ إليْهِ بأَرْزائِها، وآتَّصَلَتْ إلى قرارَةِ حَوْبائِهِ بأَسْبابِ بَأْسائِها، فَما بَشَّتْ في وَجْهِهِ إلّا قَليلاً، على أنّ ذلكَ القَليلَ لمْ يَكُنْ إلّا كالفَتْرَةِ بَيْنَ تَجَهُّمَيْن.

بَلْهَ فِكْرَتَهُ عن الحَياةِ، وكانَتْ لا تَزيدُ في آعْتبارِهِ عَنْ مَسْرَحِيَّةٍ مُرْسَلَةٍ إرْسالاً، لا تَتَقَيَّدُ بوَحْدَةِ زَمانٍ ومَكانٍ، تَسُرُّ في بَعْضٍ منْها، وتُشْقي في بَعْضٍ، وتُضْحِكُ وتُبْكي وتُلِذُّ وتُؤْلِمُ. وهيَ معَ ذلكَ لا تُؤْلِمُ حَقيقَةً كما لا تُلِذُّ حَقيقَةً، ولكنّها تُغْري بالألَمِ واللَّذَّةِ إذا آسْتَجابَ إلى أَشْيائِهِما الشُّعورُ، فَتُلَوَّنُ بها وتَعْلَقُ في الفِكْرِ رَغْبَةُ تَصْديقِها، وإلّا فهيَ، في حَقيقَتِها، ضِحْكَةٌ نَحْنُ نَفْتَعِلُها ونَحْنُ نَعودُ فَنُصَدِّقُها ونُؤَكِّدُها.

أمّا أنّها واقِعٌ فَأَبْعَدُ ما تَكونُ عَنْ ذلكَ، وإلّا فلِماذا تَكونُ مَصائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فوائِدَ؟... ولِماذا لا تَمْتَلِكُنا مَشاعِرُ واحِدَةٌ حِيالَ الحادِثِ الواحِدِ؟

أَلَيْسَ هو حادِثاً واحِداً لا يَمْلِكُ هذا التَّبايُنَ، فمِنْ أينَ جاءَ إذاً؟ إنْ كانَ الحادِثُ عِلَّةً والمَشاعِرُ المُتَبايِنَةُ تَنْشَأُ عنهُ بالعَلاقَةِ السَّبَبِيَّةِ، فكَيْفَ آخْتَلَفَتْ؟

ولِماذا أقْتَنِعُ أنا بأُسْلوبٍ ومَنْطِقٍ لا يَقْتَنِعُ بِهِما الآخَرُ في زَمانٍ ومَكانٍ لَيْسا مُخْتَلِفَيْنِ؟ ويُحِسُّ كُلٌّ مِنّا أنّ الواقِعَ هو ما آنطَوى عليهِ، وشَعَرَ بهِ شُعوراً فِكْرِيّاً أوْ

مَعْنَوِيّاً. أما يُحِسُّ كُلٌّ مِنّا، إذا آقتَنَعَ بأَمْرٍ أو بِرَأْيٍ، أنّهُ آنتَقَلَ مِنْ واقِعٍ لمْ يَعُدْ لهُ هذا الآسْمُ، إلى واقِعٍ ليسَ سِواهُ خَليقاً بإطْلاقِ الآسْمِ؟ أَلَسْنا لا نَبْتَئِسُ ونَحْنُ نَعْبَثُ جَذِلينَ بأشْلاءِ الأعْداءِ ودِمائِهِم؟

فالطّبيعَةُ الحيَّةُ إذاً تَهْدِمُ العَلاقَةَ السَّبَبِيَّةَ في نَفْسِها، ثُمّ لا تَخْضَعُ لناموسِها، والعَلاقَةُ السَّبَبِيَّةُ هي ظاهِرَةُ الواقِعِ، فلا بِدْعَ، بَعْدَ هذا، إنْ كانَتِ الحَياةُ لَيسَتْ واقِعاً، أو لا تُعَبِّرُ عَنْ واقِعٍ في كَثيرٍ أو قَليلٍ.

إنّ الحَياةَ إنّما تَجِدُ واقِعَها في آنفِعالِنا الضَّميريّ[1] أوِ الوِجْدانيّ، فكُلُّ ما لا يَجِدُ طَريقَ آنتِهائِهِ إلى مَرْكَزِ الانْفِعالِ الضَّميريِّ ليسَ بحَياةٍ. فلِكَيْ يَكونَ إذاً للعَلاقَةِ السَّبَبِيَّةِ عَمَلٌ في الطّبيعَةِ الحَيَّةِ فتَنْتُجَ وَحْدَةُ أَثَرٍ، لا بُدَّ مِنْ وَحْدَةِ زَمانٍ وَوَحْدَةِ مَكانٍ، وَوَحْدَةِ حادِثٍ وَوَحْدَةِ ضَميرٍ، وهذهِ الأخيرَةُ أَهَمُّ الوَحَداتِ مِنْ حَيْثُ تَجِدُ الحَياةُ الإنْسانِيَّةُ في بَيْدائِها واقِعَها. فأَشْياءُ الحَياةِ لا تَجِدُ حَياتَها، وبِعِبارَةٍ أُخْرى لا تَجِدُ حَقيقَتَها، إلّا إذا آسْتَجابَ إليْها الشُّعورُ، وإلّا فَأَيْنَ الأَلَمُ واللَّذَّةُ؟ وأيّانَ تَقومُ المُغرِياتُ والفُتونُ؟ فَلْنُجَرِّبْ إذاً جَيِّداً أنْ لا نَصْحَبَ أَلْوانَ الحَياةِ الّتي تَمُرُّ بنا بآسْتِجابَةِ الشُّعورِ، فَتَنْقَلِبَ مَسْرَحِيَّةً تافِهَةَ القيمَةِ. ونَحْنُ مِنْ هذه المَسْرَحِيَّةِ نَفْسِها - وهيَ آفتِعالُنا - نُسَرُّ ونَأْسى إذا آسْتَجَبْنا إليْها بشُعورِنا، فَسِرُّ ما يَنْتابُنا مِنْ شَقاءِ الحَياةِ، أو سَعادَتِها، قائِمٌ في الاسْتِجابَةِ الشُّعورِيّةِ فَقَطْ، فالحَياةُ لَيسَتْ تَمْلِكُ سِوى أَسْماءٍ نَحْنُ نُفْرِغُ فيها مُسَمَّياتِها. فإذا حُلْنا بينَ الشُّعورِ والاسْتِجابَةِ، أَدْرَكْنا سِرَّ الحَياةِ وحَقيقَتَها، وآسْتَشْعَرْنا بِهَيْنَماتِ الخُلْدِ، وآنثَنَيْنا نَتَقَلَّبُ في حَياةٍ ذابَتْ عليْها كِبْرِياءُ أَبَدِيَّةِ السَّماءِ، وكِبْرِياءُ مَعانيها وأحْلامِها... رَنَّ في أُذُنِ الحُسَيْنِ وهو في مَذْهَبِ تَفْكيرِهِ هذا أو تَأَمُّلِه... فَلْنَتَجَرَّدْ! هَلُمَّ إلى الهَيْكَلِ! إلى مِحْرابِ المَعْبَدِ، مِحْرابِ الرُّوحِ والجَمالِ والحُبِّ والخَيْرِ!

---

(١) نَعْني بالضَّميرِ هُنا المُضْمَرَ، أي المَعْنى اللُّغَوِيَّ دونَ المَعْنى الأخْلاقيّ، وكَذلكَ الوِجْدان.

ظَلَّ في حَياةٍ تَموجُ بالنَّشْوَةِ وسَكْرَةِ الحُلُم، وحَنينِ الرُّوحِ، ورَقَّةِ الطُّهْرِ، وخَفْقَةِ الحُبِّ، وظَلَّ النّاسُ خارِجَ الهَيْكَلِ يَتَقَلَّبونَ في حَياةٍ تَموجُ بالفُتونِ والشَّهَواتِ، ورَشَحاتِ الأعْصابِ مِنْ لَذّةٍ وأَلَمٍ، ولكِنَّها دُنْيا مِنَ السَّراب.

كانَ كَأَنَّهُ في مِحْرابِهِ بَيْتَ القَصيدِ في أُنْشودَةِ الحَياةِ، أوْ أُنْشودَةَ الطُّهْرِ في شِعْرِ الوُجود.

ظَلَّ في مِحْرابِ الرُّوحِ رانياً شاخِصاً، زَمَناً طَويلاً، في حسابِ مَنْ دونَ حُدودِ الهَيْكَلِ، وإنْ كانَ، في حِسابِهِ، لم يُفْنِ اللَّحْظَةَ الأولى بَعْدُ، وهَلْ في لَحْظَةِ الإِشْراقِ وُجودٌ للزَّمَنِ؟ إنّ لَحْظَةَ الإِشْراقِ لَحَظَةُ أبَدٍ، وأَوَّلُ آعْتِبارٍ في الأبَدِ إلْغاءُ فِكْرَةِ الزَّمانِ مِنه.

وفي لَحظَةِ الإِشْراقِ سِرُّ الحَياةِ، ولمكانِ هذا السِّرِّ فينا لا نَفْتَأُ نَنْشُدُ النَّشْوَةَ في الحُبِّ وفي الفَنِّ. ولأنّ في لَحْظَةِ الإِشْراقِ لَحْظَةً أَبَدِيَّةً، لا يَشْعُرُ المُحِبّونَ بدُنيا الحَياةِ وما آجْتَمَعَ فيها، ثم لا يَشْعُرونَ بغَيْرِ دُنْياهُم، لَقَدِ آنتَشَوْا فهمْ يَحْلُمون.

في كُلِّ أَشْياءِ الوُجودِ لَفَتاتُ إشْراقٍ، وهي تَتَنادى بالحَيِّ إلى التَّأَمُّلِ لِيَنْجُوَ مِن عُبابِ السَّرابِ، قَبْلَما يُعْتَصَرُ في الالْتِماعِ السّاحِر.

إن لَحْظَةَ الإِشْراقِ في الفَنِّ تَنْتَهي بلَحْظَةِ الإِشْراقِ في الحُبِّ، ولَحْظَةَ الإِشْراقِ في الفَنِّ تَنْتَهي بلَحْظَةِ الإِشْراقِ في الهَيْكَلِ أيِ التَّأَمُّلِ، وهُنا تَرْتَفِعُ سُدودُ الشُّعورِ في القَلْبِ، فَتَتَدَفَّقُ لُجَجُ الإِشْراقِ، وفي عُبابِها باتَ الحُسَيْنُ يَطْفو حالِماً يَسْمو بهِ المَدُّ. إنّه نَشْوانُ. أَلَيْسَتْ حُشاشَتُهُ تُنْديها خَمْرَةُ اللّهِ، تُرابٌ بفَمي: إنّها تَنْدى برَحيقِ الأزَل.

بَدَأَ الحُسَيْنُ لا يَرى شَيئاً، إلّا رأى اللّهَ وَراءَهُ، وآنتَهى وهُوَ لا يَرى شَيْئاً إلّا رَأى اللّهَ أمامَهَ، ومَعْناهُ أنّه لا يَرى شَيْئاً، فقدْ فَنيَتِ الظِّلالُ كُلُّها في الإِشْراقِ،

وآمَّحى خَيالُ الأشياءِ في مُقْلَةِ الشَّمْسِ.

فَلا بِدْعَ إنِ آسْتَوى قَلْبُهُ على قاعِدَتِهِ، كما آسْتَوى فِكْرُهُ على القاعِدَةِ عَيْنِها، وتَمَلَّأَ ضَميرُهُ بالمثاليَّةِ وشاعَ في وِجْدانِهِ الحَقُّ بقَضاياهُ العُلْيا. فهوَ خَصِبُ الرّوحِ أكْثَرَ ما تَكونُ خُصوبَةً، ومِنْ فُؤادِهِ يَتَدَفَّقُ نَميرٌ صالِحُ لِخَيْرِ الإنْسانيَّةِ والإنْسانِ، وتَتَفَجَّرُ مِنْ أعْماقِ نَفْسِهِ يَنابيعُ الفَضائِلِ. فَظَلَّ مَصْدَرَ نَموذَجاتٍ تُشيرُ إلى المكارِمِ التّي قيلَ عنْها: إنّها أحْلامُ الشّاعِرِ وأُغْنيَّةُ العَنْدليبِ، ألا لَقَدْ كانَتْ هذهِ الأحْلامُ العُلْيا تُشيرُ إلى الحُسَيْنِ وتَقولُ: إنّي هنا!

كانَ قَدِ آسْتُطيرَ قَلْبُهُ بالحَقيقَةِ الإلهيَّةِ، فهو لا يَفْتَأُ يَنْشُدُها ويَسْتَغْرِقُ مُتَأَمِّلاً في بَيْداءِ جَمالِها، فَكَأَنَّه وهو في المِحْرابِ قَدْ جَسَّدَ المِحْرابُ فيه مَعْناهُ. فلمْ يَعُدْ يَمُدُّ خَيالَ الإنْسانِ بل غَدا يَمُدُّ واقِعَ الإنْسانِ، حينَ أضْحى مَعْنى المِحْرابِ إنْساناً يَعيشُ في النّاسِ، فكانَ مِثالَ الخَيْرِ كُلِّ الخَيْرِ، ومِثالَ الطُّهْرِ كُلِّ الطُّهْرِ، فلمْ يَكُنْ يُرى إلّا مُصَلِّياً حَتّى كَأَنَّ حَياتَهُ جاءَتْ على مِقْدارِ الصّلاةِ، وإلّا سَخِيّاً جَواداً حَتّى كَأَنَّ غايَةَ الحَياةِ في غايَةِ الجُودِ، وإلّا مُمْتَطِياً صَهَواتِ خُيولِهِ إلى مَكَّةَ كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بالحَجِّ أَنَّهُ ـ مِثْلَما نُعَبِّرُ اليَوْمَ ـ تَسْجيل للآسْمِ في سِجِلِّ التَّشْريفاتِ، وليسَ أشْهى إلى قَلْبِهِ مِنْ مُعاوَدَةِ ذلك؟

لذا، كانَ الحُسَيْنُ، بجاذِبيَّةِ الرُّوحِ، مَهْوى القُلوبِ ونَدى الأفْئِدَةِ تَحومُ من حَوْلِهِ كَأَنّها تَرْوي غُلَّتَها، فقدْ سَقَطَ العِطاشُ منهُ بَعْدَ التّيهِ على رَقارِقِ اليَنْبوعِ، فما كُنْتَ تَرى النّاسَ «إلّا عُكَّفاً حَوْلَه» مُنْتَشينَ، يَنْعَمونَ بينَ يَدَيْهِ بالحنينِ إلى المَجْهولِ «كأنّ على رُؤوسِهِمُ الطَّيْرَ».

فَكانَ مَحَلُّهُ مِنَ النّاسِ مَحَلَّ جَدِّهِ النّبيِّ، تَجِدُ فيهِ الأَرْواحُ الشّارِدَةُ الحائِرَةُ ما تَشْتَهي مِنْ طُمَأْنينَةٍ وما تَشاءُ من سَكينَةٍ. فإذا عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبّاسٍ على مَكانَتِهِ يَأْخُذُ بِرِكابِهِ في شُعورٍ ودونَ شُعورٍ، وإذا قيلَ له في ذلكَ، قالَ: «إنّ هذا آبْنُ رَسولِ اللّهِ،

أَفَلَيْسَ مِنْ سَعادَتي أنْ آخُذَ بِركابِهِ؟»... وإذا أبو هُرَيْرَة يَسيرُ والحُسَيْنُ في جَنازَةٍ فأَعْيا الحُسَيْنُ وقَعَدَ، «فجَعَلَ أبو هُرَيْرَة يَنْفُضُ التُّرابَ عن قَدَمَيْهِ بطَرَفِ ثَوْبِهِ، فقالَ: وأَنْتَ يا أبا هُرَيْرَة تَفْعَلُ هذا؟

فقالَ له: دَعْني، فَوَاللّٰهِ لو يَعْلَمُ النّاسُ مِنْكَ ما أعْلَمُ لحَمَلوكَ على رِقابِهِم!»... وإذا عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ «يَرى الحُسَيْنَ مُقْبِلاً وهو جالِسٌ في ظِلِّ الكَعْبَةِ في جَماعَةٍ، فَيَقولُ: هذا أحَبُّ أَهْلِ الأرْضِ إلى أَهْلِ الأرْضِ وإلى أَهْلِ السَّماءِ اليَوْمَ».

وكانَ، على هذهِ المكانَةِ، لا تَزْدَهيهِ كِبْرياءُ المُتَخايِلِ، فإِنّ الكِبْرِياءَ شُعورٌ بنَقْصِ الذّاتِ، وجَبرٌ لهذا النَّقْصِ بالتَّظاهُرِ، وما حاجَةُ العَظيمِ إلى الأثْوابِ، والعَظَمَةُ ذاتيّةٌ تَكونُ أَكْثَرَ أَسْراً كُلَّما كانَتْ أَكْثَرَ عُرْيا.

فالكِبْرِياءُ مَرَضٌ بَيْنَ أنْ يَكونَ في الذّاتِ، أوْ أنْ يَكونَ في الإدْراكِ، وفي كِلْتا حالَتَيْها تُعَبِّرُ عَنْ أنّها كَشَجَرَةِ الأَوْراقِ في الخَريفِ، أوْ كَزَغَبِ النَّعامِ في الإعْصار.

زَعَموا أنّ تُفّاحَةً نَبَتَتْ في أَصْلِ شَجَرَةِ بَلّوطٍ، فَأَطَلَّتْ عليْها مِنْ عَلْيائِها الشّامِخِ بخُيَلاءٍ وآزْدِهاءٍ، وقالَتْ: أَنْتِ حَقيرَةٌ، حَقيرٌ جَناكِ الّذي تَحْمِلينَ، حتّى صَوْتُكِ حَقيرٌ في نَجْوى النَّسيمِ ساعَةَ يَنْطَلِقُ في السَّحَرِ يُغازِلُ غانِياتِ الأشْجارِ ويُسامِرُها... وآنتَفَضَتْ تَصُفِّقُ، فقدْ مَرَّ الرّيحُ يُهَدْهِدُها، وذَهَبَتْ تَضْحَكُ مُتَمايِلَةً في سُخْرِيَّةٍ وكِبْرياءَ. وهَبَّتْ في أثَرِ الرّيحِ أعاصيرُ تَزْأَرُ فَطالَتْ ضِحْكَتُها وآسْتَحالَتْ قَهْقَهَةً لم تَزَلْ تَمْتَدُّ، ولكنّها آنقَلَبَتْ فَجْأَةً إلى مِثْلِ حَشْرَجَةٍ رَهيبَةٍ آنكَفَأَتْ مَعَها تَرْتَطِمُ بالأرْضِ عندَ قَدَمِ التُّفّاحَةِ، فمالَتْ هذهِ عليْها راثيةً تَقولُ:

لَعَلَّكِ الآنَ ـ أَيَّتُها الأُخْتُ ـ أَصْدَقُ رَمْزاً في الكِبْرِياء...

ومَرَّ سائِرُ طَريقٍ جَدَّ بِهِ المَسيرُ، فَوَقَفَ عِنْدَهُما تَعِباً ضاوِياً، وأَهْوَتْ يَدُهُ تَطْعَمُ من ثَمَرِ البَلّوطَةِ، فَخَبطَتْهُ مَرارَةٌ حادَّةٌ، فَتَقَزَّزَ مُشْتَنْغِصاً كالّذي مَسَّتْهُ أَفْعى، وتَزايَدَ

بِهِ الظَّمَأُ، وتَلَبَّثَ في حَيْرَةٍ طَويلاً قَبْلَ أنْ أَخَذَ مِنْ ثَمَرِ الأُخْرى، فَآحْلَوْلى وشاعَ الرِّيُّ في جوانِحِهِ، فقالَ:

مُبارَكَةٌ أنْتِ! فإنّكِ تَحْمِلينَ عُصارَةَ الذّاتِ في شَكْلِ خُدودِ الحِسانِ، وأمّا أنْتِ الأُخْرى فَبُعْداً لكِ! إنّكَ تَحْمِلينَ عُصارَةَ الكِبْرِياءِ في شَكْلِ جَلَّةِ الجِمالِ! فَسَمِعَتْ كِلْتاهُما حُكْمَ الحَقيقَةِ عَلَيْهِما، فما تاهَتْ إحْداهُما، وهي كَبيرَةُ الذّاتِ كَبيرةُ الوُجودِ، ولقدْ تَضاءَلَتِ الأُخْرى وهي عَديمَةُ الذّاتِ كَبيرَةٌ في العَدَمِ، وراحَتْ وقَدِ آحْتُضِرَتْ عليْها الكِبْرِياءُ كَأنّـها تَنْظُرُ إلى أَشْلائِها مُمَزَّقَةً... وقيلَ، بَعْدَ حينٍ، إنّ المَواقِدَ آنتَهَبَتْها، وحالَتْ في الرَّمادِ والدُّخانِ تَقولُ أيْضاً: إنّني لمْ أزَلْ كِبْرِياءَ تَغْلوا...

«مَرّ الحُسَيْنُ بمَساكينَ يَأْكُلونَ في الصُّفَّةِ[٢]، فَقالوا: الغَداءَ. فَنَزَلَ وقالَ: إنّ اللّهَ لا يُحِبُّ المُتَكَبِّرينَ. فَتَغَدّى ثُمّ قالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ فأجيبوني، قالوا: نَعَمْ... فمَضى بِهِمْ إلى مَنْزِلِهِ، وقالَ لخادِمِهِ: أَخْرجي ما كُنْتِ تَدَّخِرينَ».

والحُسَيْنُ كانَ، وهو في الهَيْكَلِ، لا يَفْتَأُ يُمْعِنُ النَّظَرَ في حَياةِ النّاسِ، وإنْ لمْ يَكُنْ يَغْشاها، يُصْلِحُ فيها ويُصْلِحُ لها حتّى آذَنَهُ الهَيْكَلُ بالخُروجِ، كما خَرَجَ جَدُّهُ مِنْ غارِ حِراءَ قَبْلُ، ليَأْخُذَ الحَياةَ طِبْقَ قاعِدَةِ الإسْلامِ، فَتَحَدَّتْهُ أَوْثانُ الأَحْياءِ، فحارَبَهُمْ مُنتَشرينَ ومُجْتَمعين.

فالنَّبِيُّ الجَدُّ، مِنْ قَبْلُ، حارَبَ الوَثَنِيَّةَ في الفِكْرِ ودَحَضَها؛ والحُسَيْنُ السِّبْطُ حارَبَ الوَثَنِيَّةَ في المُجْتَمَعِ، وهو، وإن لمْ يَدْحَضْها، فَقَدْ رَسَمَ الطّريقَ لحَرْبِها، وأباحَ ثَوْرَةَ التَّحَرُّرِ على أيّةِ صُوَرِها وأشْكالِها.

*

(٢) المكان المُعَدّ لِطعامِ المَساكينِ والفُقَراء.

ذابَتْ حَقيقَةُ الحياةِ في القُشورِ...

وراحَ الأحْياءُ يَتَعَلَّقونَ منْها بالغُثاءِ والظِّلال...

في نَشْوَةٍ كنَشْوَةِ الخَمْرِ تُعَبِّرُ عَنْ أنّها باطِلَةٌ، تَمُدُّ بالعَرْبَدَةِ دونَ ما أَحْلام!...

*

وقَليلٌ هم الّذينَ نَفَذوا مِنَ القُشورِ إلى اللُّباب...

فطَعِموا الحَياةَ الّتي هيَ هِبَةُ الأَبَدِيَّة...

فاَسْتَعْلَوْا وَوَقَفُوا على هامِ القُشورِ يَنْظُرونَ إلى العَلاء...

وتَحَدَّثَ هؤلاءِ أنّهُمْ رَأَوْا، عِنْدَ أُفُقِ الأَبَدِيَّةِ، إنْساناً يُمْعِنُ في السَّماء...

عَرَفوا في طَلْعَتِهِ إنْسانَ الهَيْكَلِ الّذي أَغْراهُم باللَّحاق!...

* * *

في وجه الظُّلْم

في جَوْفِ اللّيْلِ العَميقِ عُمْقَ الأبَدِيّةِ والمجهولِ، حينَ كانَ الظَّلامُ يَنْتَشِرُ على شَكْلِ أَرْديَةٍ فاحِمَةٍ، تُلَفِّعُ وَجْهَ الكَوْنِ وتُلْقيهِ في سُكونٍ حائِرٍ وسُباتٍ واجِمٍ مُخيفٍ، آنطَلَقَتْ أنّةٌ تَتْبَعُها أُخرى وأُخْرى، في تَلاحُقٍ بَدَأَ بَطيئاً ثُمَّ كَرَّ سَريعاً، وكانَتْ أنّاتٌ تُسْمَعُ جَريحَةً، ويُخَيَّلُ أنّها تُرى دامِيَةً كَليمَةً، تَجْتَمِعُ فَتُشَكِّلُ صَرْخَةً باغِتَةً أو بَغْتَةً صارِخَةً، وتَتَوَزَّعُ مُتَقَطِّعَةً مُتَناوِحَةً فَتُؤَلِّفُ لَحْناً فانياً، كَأَنَّهُ لَحْنُ التّلاشي المُحْتَضَرُ، أو نَغْمَةُ الفَناءِ الذّائِبِ في أفْواهِ القُبورِ.

أَصْغى الحُسَيْنُ إلى ما يَتَناهى في سَمْعِه، ومالَ بأُذُنِهِ كأنّه يَسْأَلُ: ماذا؟ وقَدْ خَفَّ قَلْبُهُ إليْها يُسابِقُ السَّمْعَ، ولكنَّ التَّأَماتِ آخْتَلَطَتْ فأَدارَ أُذُنَيْهِ كِلْتَيْهِما إلى الجِهاتِ كُلِّها، وهَفا قَلْبُهُ يَتَوَثَّبُ يَميناً وشِمالاً، بَيْدَ أنّها ظَلَّتْ تَقولُ في مَنْطِقِ الصّدى: أَوّاهُ! وظَلَّ كَأَنَّـهُ يَقولُ: ماذا؟ وآخْتَلَطَتِ الآهاتُ وآنبَهَمَتْ... فَهَبَّ يَشْتَدُّ خارِجَ الهَيْكَلِ مُسْتَطْلِعاً وهو يُرَدِّدُ:

أَلـلَّيْلُ لَيْلٌ، وهوَ وَيْلٌ وَيْلُ وَسالَ بالقَوْمِ الطُّغاةِ السَّيْلُ

وَيْلٌ للظُّلْمِ والظّالِمينَ، «الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ».

أَطَلَّ مِنَ الهَيْكَلِ، وأَطْلَعَ رَأْسَهُ، والنّاسُ مُتَجَمْهِرونَ على بَعْضِهِمْ كالغَمامِ

المُرِفُ يَقولون: أَفي كُلِّ يَوْمٍ ضَحِيَّةٌ ودَمٌ يُطَلُّ؟ أفي كُلِّ يَوْمٍ تُمَزَّقُ أَكْبادٌ وتُنْثَرُ أشْلاء؟

لقدْ جاءَ النَّعيُّ بأنّ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ طُلَّ دَمُهُ مُنْذُ لَيالٍ في نَفَرٍ مِنْ صَحْبِهِ، وهؤلاءِ وُجوهُ أهْلِ الكوفَةِ يَسْتَصْرِخونَ ويَنْتَصِفون.

قالَ الحُسَيْنُ: رَبّاهُ ما أسْمَعُ... أَحُجْرٌ يُقْتَلُ ولا نَصْنَعُ شيئاً؟ فيا حَياةُ أَشيحي وآغْرُبي، ويا دُنْيا الآثِمينَ ذوبي وآضْمَحِلّي!

وكانَ قَدْ آذَنَهُمُ الفَجْرُ بالصَّلاةِ فَعاجوا إلى المَسْجِدِ وآلتَأَموا صُفوفاً، وما آنصَرَفوا حتّى تَحَلَّقوا على شَكْلِ دَوائِرَ في بَعْضِها... فقامَ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الكوفَةِ فَقالَ:

أيُّها النّاسُ: أنتُمْ هُنا في المَدينَةِ بَقيَّةُ أصْحابِ النَّبيِّ، وإليكُم تَتَّجِهُ الأَنْظارُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ، وإلى ظِلالِكُمْ يَفيئونَ قَصْدَ تَطْهيرِ المُجْتَمَعِ مِنَ الأدْران.

أنتُم هُمُ الأنْصارُ، وبَيْنَكُم تَرَعْرَعَتِ النُّبُوَّةُ، وآشْتَدَّتْ قَوادِمُها، ورَبَتْ خَوافيها. فآسْتَوى النَّسْرُ وحَلَّقَ صُعُداً في كُلِّ مَجالٍ، وآرْتَعَدَتْ فَرائِصُ البُغاثِ، وأَهْوى الخُفّاشُ إلى الحَفائِرِ يَسْتَخْفي. ولقدْ عادَ النَّسْرُ الآنَ إلى وَكْرِهِ، وأخَذَهُ رُقادٌ عَميقٌ، فآسْتَنْسَرَ البُغاثُ وعَدَتِ الهَوامُ في كُلِّ مَكانٍ. إنّ المَدينَةَ هي نَسْرُ النُّبوَّةِ، فَأَهيبوا بالنَّسْرِ إلى التَّحْليقِ لِتَرْتَعِدَ الهَوامُ مِنْ جَديدٍ، وتَنْسَحِقَ في الرَّغامِ أبَداً.

أَلا فَأَنْتُمْ حَفَظَةُ الوَحْيِ، وحامو ذِمارِ الرِّسالَةِ دونَ العابِثينَ. أَلا لَقَدِ آرْتَدَّ المُجْتَمَعُ إلى جاهِليَّتِهِ الرَّعْناءِ، ولكنْ بأَثْوابِ أخْرى تَتَماوَجُ مِنْ خِلالِها، وليتَ هذا فَقَطْ، إنّه ضَمَّ إلى جاهِليَّتِهِ، قَبْلَ الرِّسالَةِ، جاهِليَّةَ كُلِّ أُمَّةٍ وكُلِّ قَبيلٍ.

أُنْظُروا! أُنْظُروا! لقدْ بُعِثُ مُحَمَّدٌ عَدُوّاً للمُلْكِيّاتِ، فبِتْنا نَتَقَلَّبُ في أَرْدَأِ أشْكالِها. وعَلَّمَ مُحَمَّدٌ ضَرورَةَ الحَدِّ مِنْ طُغْيانِ رِجالِ المالِ، فَصارَتْ كُلُّ القُوى في

أيْديهِمْ. وأَطْلَقَ مُحَمَّدٌ حُرِّيَّةَ الفَرْدِ، وأعْطاهُ الحقَّ بالحَياةِ كيفَ شاءَ في حدودِ الصّالِحِ الاجْتِماعيِّ العامِّ، وفي حُدودِ الأَخْلاقِ المَسْلَكِيَّةِ والضّميرِ الإنْسانيِّ الشّامِلِ، فإذا نَحْنُ نَحْيا في آسْتِعْبادٍ آجْتِماعيٍّ مُنْكَرٍ، حتّى لَقَدْ تَناهَوْا فآنْتَزَعوا حقَّ الحَياةِ مِنْ أيْدينا، وباتوا يُنْعِمونَ علَيْنا، إذا شاءَتْ شَهَواتُهُم، بقَدْرٍ حَقيرٍ بَليدٍ مِنَ الحَياةِ البائِسَةِ الشَّقيَّةِ، وأَفْضَلُ منْها المَوْتُ خُطَّةً، واللّهِ.

وضَجَّ الكِنْدِيّونَ مِنْ أطْرافِ الجُموعِ وبينَها: يا لِثاراتِ حُجْرٍ! وآنطلَقَ المُتَكَلِّمُ الكوفيُّ يَصِلُ ما آنقَطَعَ مُلْتاعاً مُهْتاجاً: لقدْ أذْكَرَتْني ثاراتُهُمْ مَصْرَعَ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ الكِنْدِيِّ، ومَنْ يَجْهَلُهُ؟ لقدْ كانَ مِنْ أكْبَرِ أعْلامِ الرِّجالِ، ونُقْطَةَ الفَضْلِ مِنْهم، فقدْ صَحِبَ النّبيَّ وأظْهَرَ أرْوَعَ أنْواعِ البُطولاتِ في فَتْحِ الشّامِ مَعَ أبي عُبَيْدَةَ. وكانَ مِنْ خَبَرِهِ «أنّ مُعاوِيَةَ لَمّا وَلّى المُغيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ الكوفَةَ سَنَةَ إحْدى وأرْبعينَ، دَعاهُ وأوْصاهُ بشَتْمِ عَليٍّ وذَمِّهِ، والعَيْبِ على أصْحابِهِ والإقْصاءِ لهمْ، وبإطْراءِ شيعَةِ عُثْمانَ والإدْناءِ لهمْ والاسْتِماعِ مِنْهُم. فأَقامَ المُغيرَةُ عاملاً لِمُعاوِيَةَ سَبْعَ سِنينَ وأَشْهُراً، لا يَدَعُ ذَمَّ عَليٍّ، والوُقوعَ فيهِ، والدُّعاءَ لعُثْمانَ بالرَّحْمَةِ، والتَّزْكِيَةَ لأصْحابِهِ والمُطالبينَ بدَمِه.

فكانَ حُجْرٌ إذا سَمِعَ ذلكَ قالَ: بَلْ إيّاكُمْ فَذَمَّمَ اللّهَ ولَعَنَ... ثُمّ قامَ فَقالَ: كونوا قَوّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ، وأنا أشْهَدُ أنّ مَنْ تَذُمّونَ وتُعَيِّرونَ لأَحَقُّ بالفَضْلِ»... ألا لَقَدْ كانَ ذلكَ مِنْ مُعاوِيَةَ سِياسَةٌ تَدُلُّ على عَدَمِ فَهْمٍ جَيِّدٍ لنَفْسيَّةِ الجَماهيرِ، وعَدَمِ تَغَلْغُلٍ بينَ حَناياها وفي خِلالها، فقدْ كانَ في هذا التَّنَقُّصِ ما يَكْفي لِبَعْثِ الدَّفائِنِ وإذْكاءِ نارِ الحَفائِظِ إذْكاءً جَهَنَّمِيّاً ساجِراً، قَدْ يَأْتي على أرْكانِ الدَّوْلَةِ ويُطَوِّحُ بها شَرَّ تَطْوَاحٍ، كما يَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ تَنْطَوي على أحْقادٍ طامِسَةٍ دَفينَةٍ وتَغْدو في آئْتِماراتٍ تُرَوّي بِها سخائِمَها. نعمْ هيَ حَماقَةٌ، وإنْ كانَ يَرْمي بِها إلى جُمْلَةِ غايات:

أ ـ التَّشَفّي، وتَوْكيدِ ما سَبَقَ ونَشَرَهُ مِنْ دِعاياتٍ ضِدَّ عَليٍّ في الشّامِ وسائِرِ مَناطِقِ نُفوذِه.

ب ـ بَثِّ عَقيدَةٍ سَيِّئَةٍ تَنْمو مَعَ الأيّامِ لَدى النّاسِ في البطَلِ الإسْلاميِّ الخالِدِ عَليٍّ، وفي بَنيهِ، وبذلكَ يَأْخُذُ الطَّريقَ دونَهُمْ إذا راموا مُحاوَلَةً مِنْ نَوْعِ المُحاوَلاتِ الكُبْرى، فَقَدْ سَمَّمَ الجَوَّ عليْهِم. وغَيْرُ خَفيٍّ أنّ الآراءَ والمُعْتَقَداتِ إنّما تَنْشَأُ بالتَّلْقينِ والتَّكْرارِ والمُعاوَدَة.

ج ـ تَحْريكِ أنْصارِ عَليٍّ للتَّمَرُّدِ وآسْتِثارَتِهِمْ للشَّغْبِ على رِجالِ الدَّوْلَةِ والدَّوْلَةِ، وبذلكَ يَجِدُ السَّبَبَ لإدانَتِهِمْ وأَخْذِهِمْ واحِداً بعدَ واحِدٍ، وهذا ما وَقَعَ لحُجْرِ بْنِ عَديٍّ وجَماعَةٍ كُبْرى هُنا وهُناك.

ولكنْ، رُغْمَ أنّها تَقْصِدُ إلى كُلِّ هذا، فقدْ كانَتْ سِياسَةً هَوْجاءَ أَعْشى فيها عُنْصُرُ الانْتِقامِ وغَلَبَ على قَصْدِ السِّلْمِ الضَّروريِّ إذْ ذاكَ، لإيجادِ حالَةِ تَواصُلٍ صَحيحٍ مُخْلِصٍ بَيْنَ الدَّوْلَةِ والشَّعْب.

والمُغيرَةُ كانَ، إلى ذلكَ، حَسَنَ التَّأَتّي، فهوَ يَفْعَلُ ما يَأْمُرُ به مَرْجِعُهُ، ويَتْرُكُ للنّاسِ حُرِّيَّتَهُمْ في التَّعْليقِ كيفَ شاؤوا. «ولَمّا هَلَكَ، سَنَةَ إحْدى وخَمسينَ، جُمِعَتِ الكوفَةُ والبَصْرَةُ لزِيادِ بْنِ سُمَيَّةَ، فَصَعِدَ المِنْبَرَ وذَكَرَ عُثْمانَ وأصْحابَهُ فَقَرَّظَهُمْ، وذَكَرَ قَتَلَتَهُ ولَعَنَهُم، فَقامَ حُجْرٌ فَفَعَلَ مِثْلَ الّذي كانَ يَفْعَلُ بالمُغيرَةِ، ورَجَعَ زِيادٌ إلى البَصْرَةِ، وَوَلِيَ الكوفَةَ عَمرو بْنُ الحُرَيْثِ، فَبَلَغَهُ ـ أيْ زياداً ـ أنّ حُجْراً يَجْتَمِعُ إليهِ شيعَةُ عَليٍّ، ويُظْهِرونَ أَلَمَهُمْ والبَراءَةَ مِنْ مُعاوِيَةَ وعَمَلِه. فَشَخَصَ إلى الكوفَةِ وخَطَبَ الجُمُعَةَ، وأطالَ الخُطْبَةَ وأَخَّرَ الصَّلاةَ، فقالَ حُجْرٌ: الصَّلاةَ! فَمَضَى في خُطْبَتِهِ. ثُمَّ قالَ: الصَّلاةَ! فمَضَى في خُطْبَتِهِ، فلمّا خَشِيَ فَوْتَ الصَّلاةِ ثارَ إليْها وثارَ النّاسُ مَعَه. ولم يَسَعْ زِياداً إلّا النُّزولُ والصَّلاةُ بالنّاسِ، وكَتَبَ إلى مُعاوِيَةَ في أَمْرِهِ، فَكَتَبَ إليهِ مُعاوِيَةُ: أنْ شُدَّهُ في الحَديدَ ثُمّ

آحْمِلْهُ إلَيَّ... فأَخَذَ زِيادٌ حُجْراً وحَبَسَهُ ثُمَّ حَمَلَهُ إلى مُعاوِيَةَ، فلمّا دَخَلَ عليهِ سَلَّمَ فقالَ لهُ: واللّهِ لا أُقيلُكَ ولا أسْتقيلُكَ، أخْرِجوهُ فآضْرِبوا عُنُقَهُ... فقالَ حُجْرٌ لِلّذينَ يَلونَ أمْرَه:

دَعوني حَتّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنْ!

قالوا: صَلِّهِ... فصَلّى رَكعَتَيْنِ خَفَّفَ فيهِما، ثُمَّ قال:

لوْلا أنْ تَظُنّوا بي غَيْرَ الّذي أنا عليْهِ لأَحْبَبْتُ أنْ تكونا أطْوَلَ مِمّا كانَتا، ولَئِنْ لمْ يَكُنْ فيما مَضى مِنَ الصّلاةِ خَيْرٌ فما في هاتَيْنِ خَيْرٌ... ثمَّ قالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ أهْلِه:

لا تُطْلِقوا عَنّي حَديداً ولا تَغْسِلوا عَنّي دَماً، فإنّي أُلاقي بِها مُعاوِيَةَ غداً على الجادَّةِ»... ثُمَّ تَتَبَّعَ أصْحابَهُ واحداً بَعْدَ آخَرَ، فقَتَلَ عُمَرَ بْنَ الحَمِقِ ورِفاعَةَ بْنَ شَدّادٍ إلى كَثيرٍ كَثيرٍ لا يُحْصَوْن.

أَلا يا سِبْطَ مُحَمَّدٍ! إنَّ مبادِىءَ مُحَمَّدٍ تُناديكَ، وقُرْآنَ مُحَمَّدٍ يَهيبُ بِكَ، إلى العَمَلِ، إلى العَمَلِ السّريعِ، فلمْ يَعُدْ في القَوْسِ مَنْزِعٌ، ولا في الصَّبْرِ مُعْتَصَمٌ، فقدْ تَشَقَّقَ الحِزامُ على الطُّبْيَيْنِ، بل تَهَرَّأَ مِثْلَ نَسيلِ الزَّغَب.

وهَبَّتْ تُعْوِلُ أُخْتُ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ بقَوْلِها:

تَرَفَّعْ أيُّها القَمَرُ المُنيرُ ... لَعَلَّكَ أنْ تَرى حُجْراً يَسيرُ

يَسيرُ إلى مُعاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ ... لِيَقْتُلَهُ كما زَعَمَ الخَبيرُ

تَجَبَّرَتِ الجَبابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ ... وطابَ لها الخَوَرْنَقُ والسَّديرُ

وأصْبَحَتِ البِلادُ بهِ مُحولاً ... كأنْ لمْ يَأْتِها يَوْمٌ مَطيرُ

ألا يا حُجْرَ حُجْرَ بَني عَدِيٍّ ... تَلَقَّتْكَ السّلامَةُ والسُّرورُ

أخافُ عَلَيْكَ... ما أرْدى عَدِيّاً وشَيخاً في دِمَشْقَ له زَئيرُ
ألا يا لَيْتَ حُجْراً ماتَ مَوْتاً ولمْ يُنْحَرْ كما نُحِرَ البَعيرُ
فإنْ يَهْلِكْ فَكُلُّ زَعيمِ قَوْمٍ إلى هُلْكٍ مِنَ الدُّنْيا يَصيرُ

وعلى إثْرِ ذلكَ قامَ قَيْسُ بْنُ فَهْدانَ يَقولُ، وهو مُفْعَمُ الحُزْنِ كالّذي فَقَدَ كُلَّ ذَويهِ، أو كُلَّ بَنيه:

يا حُجْرُ يا ذا الخَيْرِ والأَجْرِ يا ذا الفَضائِلِ نابِهَ الذِّكْرِ
كُنْتَ المُدافِعَ عن ظُلامَتِنا عِنْدَ الظَّلومِ ومانِعَ الثَّغْرِ
كانَتْ حَياتُكَ إذ حَييتَ لنا عِزّاً، ومَوْتُكَ قاصِمُ الظَّهْرِ
يا طُولَ مُكْتَأَبي لِقَتْلِهِمُ حُجْراً، وطُولَ حَزازَةِ الصَّدْرِ
قَدْ كِدْتُ أَصْعَقُ جازِعاً أَسِفاً وأَموتُ مِنْ جَزَعٍ على حُجْرِ

فَدَمَعَتْ مُقْلَتا الحُسَيْنِ، وقالَ بِصَوْتٍ بينَه وبينَ نَفْسِهِ: لولا بَيْعَةٌ سَبقَتْ لَسِرْتُ بالنّاسِ، وثُرْتُ بالظّالِمينَ، حتّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْني وبَيْنَهم، واللّهُ خَيْرُ الحاكِمين.

وبَيْنَا همُ جُلوسٌ لمْ يَتَفَرَّقوا بَعْدُ، جاءَ البَريدُ بِكُتُبٍ إلى الحُسَيْنِ وعَبْدِاللّهِ بْنِ عَبّاسٍ، فكانَ هذا أسْرَعَهُما إلى فَضِّ الكِتابِ. فإذا زِيادٌ «يَعْتَذِرُ في شَأْنِ حُجْرٍ وأَصْحابِهِ، فأَلقى الكِتابَ راجِفاً مُرْتَعِداً وهو يَقولُ كَذَبَ! كَذَبَ! ثُمَّ أَنشَأَ يُحَدِّثُ: إنّي حينَما كُنْتُ في البَصْرَةِ كَبَّرَ بي النّاسُ تَكْبيرَةً، ثُمّ كَبَّروا الثّانيَةَ والثّالِثَةَ، فَدَخَلَ عَلَيَّ زِيادٌ فقالَ:

هلْ أنتَ مُطيعي يَسْتَقيمَ لكَ النّاسُ... فَقُلْتُ: ماذا؟

فقالَ: أَرْسِلْ إلى فُلانٍ وفُلانٍ، ناسٍ مِنَ الأشْرافِ، فاضْرِبْ رِقابَهُمْ، فإنّه يَسْتَقيمُ لكَ الأمْرُ... فَعَلِمْتُ أنّه صَنَعَ بحُجْرٍ وأصْحابِهِ مِثْلَ ما أشارَ بِهِ عَلَيَّ».

وكانَ على المَدينَةِ يَوْمَئِذٍ مَرْوانُ بْنُ الحَكَم، فَتَرَقّى الخَبَرُ إليهِ، فكَتَبَ إلى مُعاوِيَةَ «يُعْلِمُهُ أنّ رِجالاً مِنْ أهْلِ العِراقِ قَدِموا على الحُسَيْنِ وهم مُقيمونَ عندَه يَخْتَلِفونَ إليهِ... فكَتَبَ مُعاوِيَةُ إلى الحُسَيْن:

أمّا بَعْدُ: فَقَدِ آنتَهَتْ إليَّ أُمورٌ عنكَ لَسْتَ بها حَرِيّاً، إن كانتْ حَقّاً فقدْ أظُنُّكَ تَرَكْتَها رَغْبَةً فَدَعْها، ولَعَمْرُ اللّهِ إنّ مَنْ أعطى اللّهَ عَهْدَهُ وميثاقَهُ لَجَديرٌ بالوَفاءِ، وإنّ أحقَّ النّاسِ بالوَفاءِ لِمَنْ أعْطى بَيْعَتَهُ، مَنْ كانَ مِثْلَكَ، في خَطَرِكَ وشَرَفِكَ ومَنْزِلَتِكَ الّتي أنْزَلَكَ اللّهُ بها. وإن كانَ الّذي بَلَغَني باطِلاً، فإنّكَ أنْتَ أعْدَلُ النّاسِ لذلكَ. فعِظْ نَفْسَكَ، وبِعَهْدِ اللّهِ أوْفِ، فإنّكَ متى تُنْكِرْني أُنْكِرْكَ، ومَتى تَكِدْني أَكِدْكَ. فاتَّقِ شَقَّ عصا هذهِ الأُمّةِ، وأنْ يَرُدَّهُمُ اللّهُ على يَدَيْكَ في فِتْنَةٍ. فقدْ عَرَفْتَ النّاسَ وبَلَوْتَهُمْ، فآنظُرْ لِنَفْسِك ولِدينِك ولأُمّةِ مُحَمَّدٍ، ولا يَسْتَخِفَّكَ السُّفَهاءُ والّذينَ لا يَعْلَمون».

وكانَ وَقْعُ كِتابِ مُعاوِيَـةَ عِنْدَ الحُسَيْنِ، وهو يَرى مِنْ مَهازِلِ الحُكْمِ ومآسيهِ، وَقْعَ النّارِ في الهَشيمِ، فَما تَلَبَّثَ حَتّى كَتَبَ إلى مُعاوِيَةَ كِتابَهُ الخالِدَ الّذي كانَ وَثيقَةً آتِّهامِيَّةً خَطيرةً للسُّلُطاتِ العُلْيا، وقائِمَةَ إحْصاءٍ بالأعمالِ الاغْتياليَّةِ الّتي آرْتَكَبَتْها، وكانَ، إلى هذا، آسْتِجْواباً وإنـذاراً شَعْبِيّاً، قالَ:

«أمّا بَعْدُ: فقدْ بَلَغَني كِتابُكَ، تَذْكُرُ فيه أنّه انتَهَتْ إليكَ عَنّي أُمورٌ أنْتَ لي عَنْها راغِبٌ، وأنا بغَيْرِها عِنْدَك جَديرٌ، وأنَّ الحَسَناتِ لا يَهْدي لها ولا يُسَدِّدُ إليْها إلّا اللّهُ تَعالى.

وأمّا ما ذَكَرْتَ أنّه رَقِيَ إليكَ عَنّي، فإنّه إنّما رَقاهُ إليْكَ المَلّاقونَ المَشّاؤونَ بالنَّميمَةِ، المُفَرِّقونَ بينَ الجَمْعِ، ما أَرَدْتُ لكَ حَرْباً ولا عَليْكَ خِلافاً، وإنْ كُنْتُ لأَخْشى اللّهَ في تَرْكِ ذلكَ منكَ، ومنَ الإعْذارِ فيهِ إليك وإلى أَوْليائِكَ القاسِطين... أَلَسْتَ القاتِلَ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ أخا كِنْدَةَ وأصْحابَهُ المُصَلّين العابِدينَ، الّذينَ كانوا

يُنْكِرونَ الظُّلْمَ ويَسْتَفْظِعونَ البِدَعَ، ويَأْمُرونَ بالمَعْروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ، ولا يَخافونَ في اللّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ،، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وعُدْواناً مِنْ بَعْدِ ما أعْطَيْتَهُمُ الأَيمانَ المُغَلَّظَةَ والمَواثيقَ المُؤَكَّدَةَ، جَراءَةً على اللّهِ وآسْتِخْفافاً بعَهْدِه؟ أَوَلَسْتَ قاتِلَ عَمْرو آبنِ الحَمِقِ صاحِبِ رَسولِ اللّهِ العَبْدِ الصّالِحِ الّذي أَبْلَتْهُ العِبادَةُ، فَنَحَلَ جِسْمُهُ وآصْفَرَّ لَوْنُه، فَقَتَلْتَه بَعْدَما أَمَّنتَهُ وأعْطَيْتَهُ مِنَ العُهودِ ما لو فَهِمَتْهُ العُصُمُ لَنَزَلَتْ مِن رُؤوسِ الجبال؟ أوَلَسْتَ قَدْ سَلَّطْتَ زِياداً على النّاسِ يَقْتُلُهُمْ ويَقْطَعُ أيْدِيَهُمْ وأرْجُلَهُمْ، ويَسْمُلُ أعْيُنَهُم ويُصَلِّبُهُمْ على جُذوعِ النَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هذهِ الأُمَّةِ ولَيْسوا مِنْك؟ أوَلَسْتَ قاتِلَ الحَضْرَميِّ الّذي كَتَبَ إلَيْكَ فيهِ زِيادٌ أنّه على دينِ عَليٍّ، ودينُ عَليٍّ هو دينُ آبْنِ عَمِّهِ الّذي أجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الّذي أنْتَ فيه، ولوْلا ذلكَ لكانَ شَرَفُكَ وشَرَفُ آبائِكَ تَجَشُّمَ الرِّحْلَتَيْنِ، رِحلَةِ الشِّتاءِ والصَّيْفِ؟

وقُلْتَ فيما قُلْتَ: أُنْظُرْ لنَفْسِكَ ولِدينِكَ ولأُمَّةِ مُحَمَّدٍ، وآتَّقِ شَقَّ عَصا هذهِ الأُمَّةِ وأنْ تَرُدَّهُمْ إلى فِتْنَةٍ. وإنّي لا أعْلَمُ فِتْنَةً أعْظَمَ على هذهِ الأُمَّةِ مِنْ وِلايَتِكَ عليْها، ولا أعْظَمَ نَظَراً لنَفْسي ولِديني ولأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أفْضَلَ مِنْ أنْ أُجاهِدَكَ، فإنْ فَعَلْتُ فإنّه قُرْبَةٌ إلى اللّهِ، وإنْ تَرَكْتُهُ فإنّي أسْتَغْفِرُ اللّهَ لِديني، وأسْأَلُهُ تَوْفيقَهُ لإرْشادِ أمْري.

وقُلْتَ فيما قُلْتَ: إنّي إنْ أنْكَرْتُكَ تُنْكِرْني وإنْ أكِدْكَ تَكِدْني، فكِدْني ما بَدا لكَ، فإنّي لأَرْجو أنْ لا يَضُرَّني كَيْدُك، وأنْ لا يَكونَ على أحَدٍ أَضَرَّ منهُ على نَفْسِكَ. لأنَّكَ قدْ رَكِبْتَ جَهْلَكَ، وتَحَرَّصْتَ على نَقْضِ عَهْدِكَ، ولَعَمْري ما وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، ولقدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هؤلاءِ النَّفَرِ الّذينَ قَتَلْتَهُم بعدَ الصُّلْحِ والأيمانِ والعُهودِ والمَواثيقِ، فَقَتَلْتَهُم مِنْ غَيْرِ أنْ يَكونوا قاتَلوا وقَتَلُوا. ولمْ تَفْعَلْ ذلكَ بهمْ إلّا لذِكْرِهِمْ فَضْلَنا وتَعْظيمِهِمْ حقَّنا، فَقَتَلْتَهُم مَخافَةَ أمْرٍ، لعَلّكَ لو لم تَقْتُلْهُمْ مُتَّ قَبْلَ أن يَفْعَلوا، أو ماتوا قَبْلَ أن يُدْرَكوا.

فآبْشِرْ يا مُعاوِيَةُ بالقِصاصِ، وآسْتَيْقِنِ الحِسابَ، وآعْلَمْ أنّ لِلّهِ كِتاباً لا يُغادِرُ صَغيرةً ولا كَبيرَةً إلّا أحْصاها. ولَيْسَ اللّهُ بِناسٍ لأَخْذِكَ بالظِّنَّةِ، وقَتْلِكَ أوْلياءَهُ على التُّهَمِ، ونَفْيِكَ أوْلياءَهُ من دورِهِمْ إلى دارِ الغُرْبَةِ. ما أراكَ إلّا قدْ خَسِرْتَ نَفْسَكَ وتَبَّرْتَ دينَكَ، وغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ، وأَخْرَبْتَ أمانَتَكَ، وسَمِعْتَ مَقالَةَ السَّفيهِ الجاهِلِ، وأَخَفْتَ الوَرِعَ التَّقيَّ، والسَّلام».

كانَ جَديراً بهذا الكِتابِ أن يُحَرِّكَ في هَيْئَةِ الحُكْمِ ضَمائِرَهُم ويَرُدَّهُمْ عَنْ غَواياتِهِمْ، ويَضَعَ حَدّاً لِسياسَةِ الدماءِ، أو على الأقَلِّ يُخَفِّفُ مِنْ أساليبِ البطْشِ والاعْتِسافِ. فإنّ صِلَةَ الرّاعي بالرَّعِيَّةِ صِلَةُ العاطِفَةِ المُخْلِصَةِ، وكُلَّما كانَتْ صِلَةَ المَنْفَعَةِ الخالِصَةِ فهُناكَ يوجَدُ أَفظَعُ شَكْلٍ من أشْكالِ اللُّصوصِيَّةِ والاغْتِصابِ.

نَعْرِفُ أنّ إحْصاءَ الأخْطاءِ على المخطِىءِ يَدْفَعُهُ نَفْسِيّاً إلى تَصْحيحِ الخَطَأِ، إلّا إذا بُنِيَتِ النَّفْسُ على الشُّذوذِ، كَمَنْ يَتَعَطَّشُ إلى الدِّماءِ، بما فيهِ مِنْ وَحْشِيَّةٍ كامِنَةٍ، فهذا يُحِسُّ بلَذَّةٍ في نَهْرِ الدِّماءِ وإهْراقِها، وتَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ خَفِيَّةٌ بِتَرْدادِها وتَعْدادِها؛ إلّا إذا آسْتَحالَ حُبُّ الذّاتِ إلى فِكْرَةٍ ثابِتَةٍ، فَيَسْتَحيلُ الخَطَأُ إلى صِفَةٍ نَفْسِيَّةٍ ثابِتَةٍ أيْضاً، هي قَصْدُ الخَطَأِ، فلا يزالُ صاحِبُها يَقْصِدُ الأخْطاءَ ويَفْعَلُ الإجْرامَ بِمَحْضِ الرَّغْبَةِ في تَوْفيرِ شَهَواتِ الذّاتِ وتَنْمِيَةِ كِبْريائِها.

وهذا ما قدْ حَدَثَ بالفِعْلِ في حاشِيَةِ مُعاوِيَةَ، فلمْ يَكُنْ للكِتابِ مِنْ أثَرٍ سِوى ما عَبَّرَتْ عنهُ رِوايَةُ التّاريخِ أبْلَغَ تَعْبيرٍ: لَمّا قَرَأَ مُعاوِيَةُ الكِتابَ قال:

«لقدْ كانَ في نَفْسِهِ ضَبٌّ ـ أي حِقْدٌ ـ ما أَشْعُرُ به.

فقالَ يَزيدُ: يا أميرَ المُؤمنينَ أجِبْهُ جَواباً يُصَغِّرُ إليهِ نَفْسَهُ، تَذْكُرُ فيه أباهُ بِشَرٍّ فَعَلَه... ودَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرو بْنِ العاصِ، فقالَ مُعاوِيَةُ:

أمَا رَأَيْتَ ما كَتَبَ الحُسَيْنُ؟

قالَ: وما هو؟... فَأَقْرَأَهُ الكِتاب، فقالَ: وما يَمْنَعُكَ أنْ تُجيبَهُ بِما يُصَغِّرُ إليهِ نَفْسَه؟ قالَ يَزيدُ:

أَرَأَيْتَ ـ يا أميرَ المُؤْمنينَ ـ رَأْيي؟ فَضَحِكَ مُعاوِيَةُ، وقال:

أَمّا يَزيدُ فقدْ أشارَ عَلَيَّ بِمِثْلِ رَأْيِك.

قالَ مُحَمَّدٌ: قدْ أَصابَ يَزيدُ.

قالَ مُعاوِيَةُ: أخْطَأْتُـما. أَرَأَيْتُما لو أنّي ذَهَبْتُ لِعَيْبِ عَليٍّ، فما عَسَيْتُ أنْ أقولَ فيهِ، ومَتى ما عِبْتُ رَجُلاً بما لا يَعْرِفُهُ النّاسُ لمْ يَحْفِلْ بهِ، ولا يَراهُ النّاسُ شيئاً وكَذّبوهُ، وما عَسَيْتُ أنْ أعيبَ حُسَيْناً، واللّهِ ما أرى للعَيْبِ فيه مَوْضِعاً؛ قدْ رَأَيْتُ أنْ أَكْتُبَ إليهِ أَتَوَعَّدُهُ وأَتَـهَدَّدُهُ، ثُمّ رَأَيْتُ أَلّا أَفْعَلَ».

بَعْدَ هذا لم يَسَعِ الحُسَيْنَ إلّا أنْ يُشْرِفَ كَثيراً مِنْ دُنْيا الهَيْكَلِ، الّتي يَتَحَنَّثُها ويَحْياها، إلى دُنْيا النّاسِ الّتي تَعُجُّ بمَجْموعَةِ الأحْياءِ، وتَخْتَلِطُ وتَمورُ بالبَغْيِ، يُصْلِحُ منْها ما وَسِعَهُ إصْلاحُهُ ويَحُدُّ ما آسْتَطاعَ من طُغْيانِ السُّلُطاتِ على الجماعاتِ والأَفْراد.

ويَظْهَرُ أنّ السُّلْطَةَ، في كُلِّ مَكانٍ، كانَتْ قَدِ آتَّـخَذَتْ لنَفْسِها مِنْهاجَ عَمَلٍ شاذٍّ، فهي تَسْعى للحِيازَةِ ما وَسِعَها، دونَ التَّـقَيُّدِ بقانونٍ أو نِظامٍ، فَضاعَتْ حُقوقُ الضُّعفاءِ ضَياعاً تامّاً، وآضطُرَّ الأَفْرادُ إلى آسْتِعْمالِ وَسائِلِ قُوَّتِهِمْ للاحْتِفاظِ بحُقوقِهِمْ، أو دَفْعِ عادِيَـةِ الضَّيْمِ عنهم، حتّى آضطُرّوا أخيراً إلى إحْياءِ الوَسائِلِ الشّائِعَةِ وآعْتِمادِها قَبْلَ نُشوءِ الحُكومَةِ النِّظامِيَّةِ، مِنْ مِثْلِ ما يُسَمّونَهَ «حِلْفَ الفُضولِ»، وهو يُعَبِّرُ عَنْ تَكَتُّلِ أفْرادٍ، أو جَماعاتٍ، على وُجْهَةِ نَظَرٍ تَتَعَلَّقُ بالخَيْرِ وحِمايَةِ الضّعيفِ. وتَكونُ مِثْلُ هذهِ الوَسائِلِ ضَرورِيَّةً في غَيْرِ وَسَطِ الحُكومَةِ النِّظامِيَّةِ بالطَّبْعِ، ولكنَّ الحاجَةَ إليْها في وَسَطِها مَعْناهُ أنّ الحُكومَةَ نَفْسَها باتَتْ

خَطَراً على الأمْنِ والحُقوق.

«كانَ بينَ الحُسَيْنِ وبَيْنَ الوَليدِ بْنِ عُتْبَةَ، وهذا يَوْمَئِذٍ أميرٌ على المَدينَةِ، مُنازَعَةٌ في مالٍ كانَ بَيْنَهما، فَتَحامَلَ على الحُسَيْنِ في حقِّهِ لسُلْطانِهِ. فقالَ الحُسَيْنُ:

أحْلِفُ باللّهِ لَتُنْصِفَنِّي مِنْ حَقّي، أو لآخُذَنَّ سَيْفي، ثُمَّ لأَقومَنَّ في مَسْجِدِ رَسولِ اللّهِ، ثُمّ لأَدْعُوَنَّ بحِلْفِ الفُضولِ!

فقالَ عبدُ اللّهِ بْنُ الزُّبَيرِ، وهو عندَ الوَليدِ: وأنا أحْلِفُ باللّهِ لَئِنْ دَعا بِهِ لآخُذَنَّ سَيْفي ثم لأَقومنَّ معهُ حتّى يُنْصَفَ مِنْ حقِّهِ أو نَموتَ جَميعاً... وبَلَغَتِ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ الزُّهْرِيَّ فقالَ مِثْلَ ذلكَ، وبَلَغَتْ عبدَ الرّحْمنِ بْنَ عُثْمانَ التَّيْميّ فقالَه»... ويَظْهَرُ أنّ الخِلافَ رُفِعَ إلى مُعاوِيَةَ وآسْتَصْرَخَهُ الوَليدُ على الحُسَيْنِ، فكانَ مِنْ مُعاوِيَةَ تَدَخُّلٌ، وكانَ منه مَيْلٌ بالضَّرورَةِ إلى جانِبِ الوَليد.

«فقالَ الحُسَيْنَ لمُعاوِيَةَ: إخْتَرْ مِنّي ثَلاثَ خِصالٍ، إمّا أنْ تَشْتَرِيَ مِنّي حَقّي، وإمّا أنْ تَرُدَّهُ عَلَيَّ، أو تَجْعَلَ بيْني وبينَكَ آبْنَ عُمَرَ أوِ آبْنَ الزُّبَيْرِ، وإلّا فالرّابعَةُ وهي الصَّيْلَمُ(١).

قالَ مُعاوِيَة: وما هي؟

---

(١) الصَّيْلَمُ في أَصْلِ مَعْناهُ السّيْفُ، ثُمّ جَرى كِنايةً عَنِ الأَخْذِ بالشِّدَّةِ والمُقابَلَةِ بالعُنْفِ. وحِلْفُ الفُضولِ هذا، كانَ وسيلةَ آنتِصافٍ من غاشِمٍ أو ظالِمٍ، وهو مَوْروثٌ من مَناقِبيّاتِ ما قبْلَ الإسْلامِ وآسْتَمَرّ فيه... يُشاكِلُ ما يُعْرَفُ اليَوْمَ بالإضْرابِ العامِّ بمعناهُ الإيجابيِّ أيِ المَصْحوبِ بالمُقاوَمَةِ، وليسَ بالمَعْنى السَّلْبيِّ فقط أي الآمْتِناعِ عن العَمَل.

والمَعْنى الإيجابيُّ المُباحُ لا يَبْلُغُ دَرَجَةَ العِصْيانِ التَّمَرُّدِيِّ التَّخْريبيِّ، أو ما يُمكِنُ أنْ نُسَمّيه: القَبْقَبَة، وهي في العَرَبيّةِ الأصيلَةِ: القَعْقَعة بالسّنان أو الأسْنان... وأحْيَيْتُها مِن قَبْلُ في الأربعيناتِ لِتكونَ مُقابِلاً لكلمة Sabotage التي هي من كَلِمَةِ Sabot القَبْقاب. وكان العُمّالُ في مَطْلِعِ مَدنِيَّتِنا الصّناعِيّةِ يَنْتَعِلونَ القَباقيبَ الخَشَبِيّةَ في أثْناءِ أداءِ العَمَل ومُباشَرَتِه، فإذا نَقَموا لأمْرٍ ما لَجَؤوا إلى الاسْتِنْكافِ والضَّرْبِ بالقَباقيبِ على الآلاتِ إلى حَدّ الإتْلافِ أحْياناً.

قال: أَهْتِفُ بحِلْفِ الفُضولِ... ثُمّ قامَ فَخَرَجَ مُغْضَباً، فَمَرَّ بعَبْدِ اللّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فأَخْبَرَهُ فقالَ: واللّهِ لَئِنْ هَتَفْتَ بهِ وأنا مُضطَّجِعٌ لأَقْعُدَنَّ، أو قاعِدٌ لأَقُومَنَّ، أو قائِمٌ لأَمْشِيَنَّ، أو ماشٍ لأَسْعَيَنَّ، ثُمَّ لَتَنْفُذَنَّ روحي مَعَ روحِكَ أو لَيُنْصِفَنَّكَ! فبَلَغَتْ مُعاوِيَةَ فقالَ: لا حاجَةَ لنا بالصَّيْلَمِ... ثُمَّ أرْسَلَ إليهِ: أنِ آبْعَثْ فآنتَقِدْ مالَكَ، فقدِ آبْتَغْناهُ مِنْك».

إنّ حِلْفَ الفُضولِ كانَ يُعَبِّرُ عن ثَوْرَةِ آسْتِنْكارِ مُنَظَّمَةٍ غَيْرِ هائِجَةٍ ولا مُتَخَبِّطَةٍ، دائِمَةِ الحَياةِ دائِمَةِ التَّرْويعِ، يُطْلِقُها الشَّعْبُ بمِقْدارٍ ويَضُمُّها بمِقْدارٍ، يَجْمَعُها الصّالِحُ الاجْتِماعيّ كما يَنْشُرُها هو أيضاً، في تَقْديرٍ مَوْزون.

*

في جِسْمِ الباطِلِ حاوَلَ الحقُّ أنْ يَجِدَ نُقْطَةً يَرْتَكِزُ فيها...

وما هو حَتّى آمْتَدّ وتَفَرَّعَ، وأَخَذَ على الباطِلِ سَبيلَ آمْتِدادِه...

فَذَهَبَ في ضُمورٍ شَيْئاً وراءَ شيءٍ، وضاقَتْ به الحَياةُ فَلَفَظَتْه...

وإذا به يَبْحَثُ عن وُجودِهِ في عَراءِ العَدَمِ، وهو خِضَمُّ سَرابٍ لا يَمُدُّ بالوُجود...

*

في المُحيطِ المِلْحِ يَنْبَثِقُ نَبْعٌ عَذْبٌ يَكونُ بيئَةً لِلآلىء...

فأُغْرِيَ المُحيطُ بلآلِئِهِ فَراحَ يَغْتَصِرُ طَبيعَتَهُ في مِثْلِها...

ولكنّهُ تَمَخَّضَ طَويلاً، وآنكَشَفَ عن حصىً تارَةً، وتارةً عن دُنْيا مِنَ المِلْحِ المَرير...

*

في لَوْحِ حالِكٍ وَقَعَتْ نُقْطَةُ نور...

فَنَشَرَتْ أشِعَّتَها، وكانَ السَّوادُ أكْثَرَ إظْهاراً لطَبيعَتِها، وإبْداءً لِما آجْتَمَعَ في وُجودِها مِنْ سنىً وسَناء...

وراحَ السّوادُ، كُلّما تَغَيَّظَ وبالَغَ في إظْهارِ طَبيعَتِهِ، يُضيفُ إلى كَوْكَبةِ النُّورِ جِدَّةَ إشْراق...

*

وكانَ كُلَّما ذَهَبَ يَقولُ: «أنا» يَشْرَقُ بحَسَكِ الشُّعاعِ وأَشْواكِ الضِّياءِ، فَتُحْتَضَرُ كَلِمَتُهُ دونَ لِسانِه...

فلمْ يَقَعْ في سَمْعِ الحَياةِ إلّا كَلِمَةٌ قالَتْها كَوْكَبَةُ النُّورِ، ومَشَتْ بها الحَياةُ في التّاريخ، ورَجَّعَتْها أبَدِيَّةُ الضَّمير...

* * *

مع أُرَيْنب

هُناكَ على شاطِىءِ دِجْلَةَ، في زاوِيَةِ خَليجِ البَصْرَةِ، كانَتِ الأُبُلَّةُ[1] مَهْوى مُتَماجِنينَ ومُتَماجِناتٍ، ومَهْبِطَ وَحْيِ الهَوى والشّبابِ، ومَلْهى كُلِّ فَتىً وفَتاةٍ بَلْوَرَ المَرَحُ طَبيعَتَهُما، ثُمَّ أَطَلَّ يَنْظُرُ إلى صورَتِهِ فيها. وليسَ في حِسِّ هؤلاءِ عَنِ الحَياةِ سِوى أنّها شَيءٌ يَحْلو ويَلْهو، كأنداءِ السَّحَرِ في شِفاهِ الأقاحِ والياسَمينِ، وكَلُؤْلُؤاتِ الطَّلِّ في خُدودِ الوُرودِ والرّياحينِ... فهُمْ يُفْنونَها سَكْرى مَرَحٍ ونَشاوى مُجونٍ... ولا يَطيفُ بِسَمْعِهِمْ سِوى نَغَماتٍ تَتَناهى مُتَلاشِيَةً في هذا القَرار:

يا لَلشَّبابِ المَرَحِ، التّصابي... رَوائِحُ الجَنَّةِ في الشَّبابِ

ففي أعْماقِهِمْ صَوْتٌ يُهيبُ بهِمْ إلى التَّجْنيحِ في فَضاءِ المراحِ، والفَناءِ في لا وَعْيِ الظَّرْفِ الغَزِلِ... وهَلِ الحَياةُ، مِنْ واجِهَةِ الشَّبابِ، سِوى إغْراءَةٍ تَقومُ في اللَّهْوِ العابِثِ إلى أُخرى تَشْتَوي في المَجانَةِ اللّاعِبَةِ!؟ ثُمّ هَلِ الدُّنْيا سِوى إغْراءٍ مُتَجَلْبِبٍ بإغْراءٍ، يُبالِغُ في أَسْرِهِ حتّى لَيَسْتَدْني إليه مَنِ آحْتُضِرَ الشَّبابُ في قُلوبِهِمْ بالعُمْرِ أو بالفِكْرِ، فَيَسْتَهْويهِمْ، ورُبَّما آسْتَغْواهُمْ أيضاً بِما يَتَنَفَّسُ بِهِ مِنْ خَلَب:

إنّ بالحِيرَةِ قَسّاً قَدْ مَجَنْ فَتَنَ الرُّهْبانَ فيها وآفْتَتَنْ

(١) نَهْرُ الأُبُلَّة كان مُنْتَزَهاً مَعْدوداً في جنّات الدُّنيا الثلاث.

تَـرَكَ الإنْجيـلَ حيناً لـلـصِّـبـا   ورَأى الدُّنْيا مُجوناً... فَرَكَنْ

هذهِ قِصَّةُ شابٌّ آحْتُضِرَ الشَّبابُ بَيْنَ بُرْدَيهِ بِفِكْرَةِ التَّقوى، ولكنّه أطَلَّ على الحَياةِ مِنْ كُوَّةِ المَعْبَدِ المُتَكَلِّلِ بالصَّمْتِ الوقورِ، فَرَأى ما تَجيشُ به مِنْ إغْراءٍ، وما يَتَمَوَّجُ فيها منْ فُتونٍ، فأَخَذَتْ عليهِ نَفْسَهُ وآسْتَوَتْ طُيوفُها في ناظِرَيْه، فآسْتَيْقَظَ شَبابُهُ الغافي، ومَشَتْ روحُ الشّبابِ تَتَراقَصُ في قَلْبِهِ سَكْرى.

مَضى في ظَنِّهِ ساخِراً... يُجَرِّبُ هذا المُجونَ حيناً فقطْ، ويَرْوي ظَمْأَةَ الصِّبا المَكْبوحِ، ثُمَّ يَعودُ فَيَحْمِلُ كِتابَ تَقْواهُ... بَيْدَ أنّه رَأى الدُّنْيا لا تَتَكَشَّفُ إلّا عن مُجونٍ. وكُلَّما نَضَتْ ثَوْباً مَسَّتْهُ لَمْسَةُ فُتُونٍ، ودَبَّ في حَناياهُ مِنْ شُواظِ الشَّبابِ طائِفُ جُنونٍ، فَكانَ طَبيعيّاً أنْ رَكَنَ... وإذا فِكْرَةُ التَّقوى لَدَيهِ تَنْقَلِبُ هي التَّجْرِبَةَ، ويَسْتَنيمُ مُسْتَرْخِياً على مَتْنِ مَوْجَةٍ مُزْبـدَةٍ، مِن مَجانَةِ هذا الوُجودِ المَسْحورِ. بهذا كانَ يَتَحَدَّثُ الدَّلالُ[٢] في جَمْعٍ مِنْ ظُرَفاءِ الحِجازِ جَمَعَهُمُ التَّصادُفُ في الأُبُلَّةِ، بينَهُم أَشْعَبُ، فقالَ له هذا:

مِن ثَمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّكَ أبداً إلّا جَمْعُ الرِّجالِ إلى النِّساءِ، ومَلْءُ الدُّنْيا بصَخَبِ المُجونِ وعَرْبَداتِ الجُفُونِ. إنْ كَانَ هذا رَأْيَكَ فعَسى أنْ تَضَعَ الأقْدارُ في طَريقِكِ صاحِبَنا الأَعرابيَّ الشَّوَهَةَ، فَتُمَتِّعَ حَوْباءَ قَلْبِكَ بالمَجانَةِ إليهِ، أَسْخَنَ اللّهُ عَيْنَكَ، إنّ المُجونَ لا يَمْلُحُ إلّا مَعَ جمالٍ أو ظَرْفٍ... فَقَهْقَهَ الدَّلالُ، وآنـقَلَبَ الصَّحْبُ يُسائِلونَ أَشْعَبَ عنْ خَبَرِه فَحَدَّثَهُم:

دَخَلْتُ يَوْماً على الحُسَيْنِ بْنِ عَليٍّ، وعِنْدَه أعْرابيٌّ قَبيحُ المَنْظَرِ، أشَدَّ ما يَكونُ قُبحاً، مُخْتَلِفُ الخِلْقَةِ مُشَوَّهُها، فَسَبَّحْتُ مُتَأَفِّفاً، وزادَ بِيَ التَّأَفُّفُ، فَقُلْتُ للحُسَيْنِ: بِأَبي أَنْتَ وأُمّي. أَتَأْذَنُ لي أنْ أَسْلَحَ عليهِ... فآبْتَسَمَ يَظُنُّ أنَّ الأعْرابيَّ يَعْرِفُني بالمِزاحِ

(٢) الدّلال كسحاب شَخْصيّةٌ فَنّيّةٌ غَزِلةٌ، وكانَ يَتَعاطى سَمْسَرَةَ الزَّواجِ، ولهُ أشْبَهُ ما يُسَمّى اليَوْمَ بِمَكْتَبِ الزَّواج. راجِع أخْبارَهُ في: **الأغاني** للأصفهانيّ، ومَحاميع كُتُبِ الأدَبِ كُلِّها..

فَيَحْتَمِلُها مِنّي.

فقالَ الأعْرابيُّ مُتَهَكِّماً: إنْ شِئْتَ... ومعهُ قَوْسٌ وكِنانَةٌ، فَفَوَّقَ نَحْوي سَهْماً، وواصَلَ: واللّهِ لَئِنْ فَعَلْتَ لَتَكونَنَّ آخِرَ سَلْخَةِ سَلَخْتَها... وآنقَدَحَتْ عَيْناهُ، ولَمَسْتُ منه الجِدَّ في الشَّرِّ، فَقُلْتُ للحُسَيْنِ: جُعِلْتُ فِداكَ. أَخَذَني القَوْلَنْجُ وعُسْرُ الخُروجِ! وطَفِقَ الصَّحْبُ يَضْحَكونَ في رَنينٍ مُتَجاوِبٍ طَويلٍ.

كانَ يَوْماً مُفْعَماً بسَيْلٍ من غَرانيقِ الفِتْيانِ وغَواني الفَتَياتِ، هذا النَّيْروزُ... حتّى كَأَنَّ الحَياةَ آتَّخَذَتْ فيهِ مَعْرِضَها، فَأَطْلَعَتْ أقْصى ما في إبْداعِها الفَنِّيِّ مِنْ آياتِ الجَمالِ النّاطِقَةِ بالهَوى، والدّاعِيَةِ بأَلَقِ الإغْراءِ إلى الحُبِّ، والمُشيرَةِ بأَسْرِ السِّحْرِ في العُيونِ والشِّفاهِ إلى فِرْدَوْسِ الخُلْدِ السَّعيدِ، ولا عَجَبَ، فَنَهْرُ الأُبُلَّةِ مَعْدودٌ أحَدَ مَسارِحِ الجِنانِ على الأرْضِ في حِسِّ هؤلاءِ.

وكانَ يَزيد ـ الشّابُّ الطّريرُ الّذي بالَغَ فيهِ نَزَقُ الشّبابِ، وذابَ في لُعابِهِ ـ قَدْ ذَهَبَ موغِلاً في الصَّحْراءِ مُنْذُ حينٍ يَصيدُ الظِّباءَ، ويَتْبَعُ آثارَ السَّوانِحِ من الجآذِرِ والآرامِ والوُعولِ والأيائِلِ، كيفَما ذَهَبَتْ وآنعَرَجَتْ. ولَذَّتْهُ المُطارَدَةُ وأَخَذَتْهُ نَشْوَتُها، فَمَضى يَلْهو ولا يَأْلو، وزُمْرَةُ لَهْوِهِ تَتْبَعُهُ، إنّه لا يُلْوي على شَيءٍ في مَداه.

لمْ يَشْعُرْ إلّا وهو بينَ جُموعِ اللّاهينَ في نَهْرِ الأُبُلَّةِ، فَآلْتَفَتَ يَضْحَكُ إلى رِفاقِهِ مُتَعَجِّباً: لقدْ قَطَعْنا صَحراءَ الشّامِ إلى العِراقِ، ونَحْنُ لم نُدْرِكْ... ومالَ يُرَبِّتُ على كَتِفِ تِرْبٍ مِنْ أَتْرابِهِ ضاحِكاً مُنْتَشِياً، ويتأَبَّطُ ذِراعَ هذا، ويَدْفَعُ ذاكَ لاهِياً عابِثاً. إنّه يُحِسُّ بحَياةٍ جَديدَةٍ ودُنْيا جَديدَة.

راحَ يَتَنَقَّلُ بينَ الجُموعِ وفي إثْرِهِ سَرْجونُ راعي طُفولَتِهِ وصِباهُ، ولكنّهُ وَقَفَ فَجْأَةً عِنْدَ سُرادِقٍ مُنيفٍ، عَرَفَ أنّه سُرادِقُ أميرِ العِراقِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَلّامٍ القُرَشيِّ. فقدْ أَخَذَتْهُ بَغْتَةُ وَجْهِ غانيَةٍ نَصَفٍ، كَبَغْتَةِ بَدْرٍ آنشَقَّ عنهُ الغَمامُ، وآسْتَعْرى دونَهُ لَيْلٌ

بَهيمٌ حالِكٌ، فَرَجَّ نَفْسَهُ رَجّاً عَنيفاً، وتَلَبَّسَهُ دُوارُ الجَمالِ الّذي مالَ يَتَلاشى بَطيئاً لِيَنْكَسِفَ عَنْ غَفْوَةٍ في حُبِّ القَلْبِ، وتَلَهُّفِ العَقْلِ السّليبِ، تَمُدُّهُ يَقَظَةٌ في الغَرائِزِ المُفعَمَة.

كانَ في خَيالِهِ وَجْهٌ يَتَنَفَّسُ بِمِثْلِ عَبَقِ الزَّهْرِ، وعَيْنانِ تَبُثّانِ مِثْلَ السِّحْرِ، وشَفَتانِ تَنْطَلِقانِ بِمِثْلِ ذَوْبِ الغَرامِ. وزادَهُ بِها أنّ قَلْبَها لا يَتَجاوَبُ بصَدى عَواطِفِهِ، فَتَدورُ عاطِفَتُهُ نِصْفَ دَوْرَةٍ وتَنْكَسِرُ مُتَلاشِيَةً فلا تُتِمُّ دَوْرَتَها، بلْ تَمَّحي رُسومُها في آنبِهامٍ كالِحٍ، وغُموضٍ يائِسٍ مُتَجَهِّمٍ وتَغَوُّرٍ فيهِ ضَجيجُ الانْتِحار.

والمَرْأَةُ تَزيدُ فيها جاذِبِيَّةُ الأُنوثَةِ نُضْجاً ورُوَاءً إذا أَضْحَتْ زَوْجَةً، فَقَدِ آنْحَسَرَتْ أَكْمامُ طَبيعَتِها المُغَلَّقَةِ تَنْشُرُ أريجَها كالزَّهْرَةِ مَيّاسَةً ناعِمَةً في الهَواءِ. إنّ المَرْأَةَ تُحِسُّ بشيءٍ مُبْهَمٍ، وهو جَوْهَرَةُ الأُنوثَةِ في أَقْصى كِيانِها، فهيَ تَرْعاهُ بِسِياجِ الحَيَاءِ والخَفَرِ كأنّـها تَحْتَضِنُه. فإذا آسْتَحالَتْ زَوْجَةً فَقَدِ آسْتَحالَتِ الآنَ فقطْ أُنْثى كامِلَةَ المَعْنى. لقدْ أَضْحَتْ لُؤْلُؤَةَ الأُنوثَةِ الخَبيئَةَ في حِقاقِها، والمُنْطَوِيَةَ عليْها صَدَفَتُها، وهيَ حِلْيَةٌ مَنْشورَة.

فيما بَعْدُ عَرَفَ يَزيدُ عَنْ عروسِ أحْلامِهِ هذهِ أنّـها أُرَيْنِبُ آبْنَةُ إسْحقَ الأميرِ، وسَيِّدَةُ السُّرادِقِ. فَعَرَضَتْ في خاطِرِهِ كَلِماتٌ مُتَقَطِّعَةٌ هاذِيَةٌ، فَراحَ يُحَدِّثُ نَفْسَه:

كَيْفَ لي بِها؟ بَيْني وبينَها هُوَّةٌ سَحيقَةٌ، ومسافَةٌ تَزيدُ مَعَ الأيّامِ تَنائِياً وبُعْداً...

وتَلَبَّثَ زَمَناً لمْ يَكُنْ بالقَصيرِ، يَرودُ مَغْناها ويُراوِدُ قَلْبَها، ولكنّها عَرَبِيَّةُ الأَعْراقِ، وإنْ كانَ هو الشّابَّ النّضيرَ، فبَيْنَها وبينَ قَرينِها ما شاءَ الهَوى العَبِقُ، وما شاءَتْ سَعادَةُ الأزْواجِ الخُلَطاء.

باتَ كاسِفاً أرِقاً يُرَدِّدُ ولا يَفْتَأ:

وفي الحَيِّ نُعْمٌ قُرَّةُ العَيْنِ والهَوَى   وأَحْسَنُ مَنْ يَمْشي على قَدَمٍ نُعْمُ

وتَخَوَّفَ مُرَبِّيهِ سَرْجونُ، فَزَيَّنَ لهُ الرُّجوعَ إلى الشّامِ لَعَلَّهُ يَسْلو، فَأجابَهُ وعادَ بصَحْبِهِ يُريدونَ دِمَشْقَ. وبينَما هو آخِذٌ بمَحاجِزِ الصَّحْراءِ ومَفاوِزِها، حانَتْ مِنْ يَدِهِ لَمْسَةٌ وَقَعَتْ على قَوْسِهِ، الّذي فَصَلَ في غُدُوِّهِ يَصيدُ بِهِ الظِّباءَ، فَتَذَكَّرَ ريمَهُ الّذي صادَهُ... فَشَدَّ القَوْسَ إليهِ وآعْتَصَرَهُ بينَ يَدَيْهِ، في ثَوْرَةِ قَلْب:

حَطَّمَ القَوْسَ على صَخْرائِهِ   وآتَّكى يَسْقيهِ مِنْ مَاءِ الشّكاةْ

أَيُّهذا القَوْسُ أَنْتَ مَثَلٌ   مِثْلُ قَلْبي، حَطَّمَتْهُ العاصِفاتْ

وسَأُحْييكَ بِمُنْهَلِّ الدُّموعْ   إنّما دَمْعُ المُحِبّينَ حَياةْ

لمْ يَزِدْهُ بُعادُهُ في دِمَشْقَ إلّا كَمَداً وأَسىً، ولم يُورِثْهُ الهِجْرانُ إلّا لَهْفَةً وجَوى. شَأْنَ الّذينَ يُحِبّونَ بغَرائِزِهِمْ، فعَواطِفُهُمْ أبَداً تَكونُ عَنيفَةً مُهْتاجَةً على الذِّكْرى، لأنها وَحْيُ الأعْصابِ... بينَما العَواطِفُ إذا كانَتْ مِن وَحْيِ القَلْبِ أو حاسّةِ الفَنِّ، فإنّها تَذْكو وتَسْمو بالتَّلَهُّفِ العاطفيِّ، فالحُبُّ الّذي يَكونُ عامِلَهُ القَلْبُ أو حاسَّةُ الفَنِّ، يَذْهَبُ في آسْتِحالاتٍ مُتَواصِلَةٍ: عُذْرِيّاً، فمِثالِيّاً؛ بينَما حُبُّ الأعْصابِ يَشْتَهي أعْصاباً وجَسَداً فقطْ، يَهيجُ بالفَراغِ، ويَهْمَدُ بالامْتِلاءِ؛ آمْتِلَاءِ اليَدِ مِنْهُ.

فتَناهى «أَمْرُ يَزيدَ إلى ضُمورٍ» وسَلْوى المُتَعِ والانْكِماشِ على نَفْسِهِ في أيِّ مَكانٍ آشْتَمَلَ عليهِ... فهذا الّذي كانَ يَمْلأُ القَصْرَ لَهْواً ومَرَحاً، ويَقْطَعُ اللَّيْلَ عَرْبَدَةً سَكْرى، ويَزينُ مَعانيَ الأُنْسِ بَشاشَةً وحُبوراً... والّذي لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّهِ إلّا أنْ يَقْطِفَ من رِياضِ الغَواني الكَواعِبِ باقاتِ زَنابِقَ ووُرودٍ، ويَهْتَصِرَ مِنْهُنَّ غُصوناً لَدْنَةً، ويَعْتَصِرَ عَلَيْهِنّ رُمّاناً شَهِيّاً... غَدا ذاهِلاً ذُهولَ المُقْبِلِ على المَوْتِ، ضاوِياً كأنَّهُ نِضْوُ فَلاةٍ أو مَنْزوفُ دِماءٍ، حَبيسَ هَوىً ومُبْلَسَ خَيالٍ، غَيْرَ شَهِيٍّ إلى شَيءٍ

مِنْ مَلاهيهِ الّتي كانَ لا يَسْتَطيعُ عَنْها صبراً، ولها مُجانَبةً، وفي آنتِهاجِها آحْتِشاماً... حتّى آضطُرَّ مُعاوِيَةُ أنْ يَزْجُرَهُ في رِفْقٍ، ويَأْخُذَ عليهِ تَهَتُّكَهُ في تَحيُّلٍ، فقال:

«يا بُنَيَّ: ما أَقْدَرَكَ على أنْ تَصيرَ إلى حاجَتِكَ، مِنْ غَيْرِ تَهَتُّكٍ يَذْهَبُ بمُروءَتِكَ وقَدْرِكَ، وأَنْشَدَه:

إنْصَبْ نَهاراً في طِلابِ العُلا ... وآصْبِرْ على هَجْرِ الحَبيبِ القَريبِ

حتّى إذا اللَّيْلُ أَتى بالدُّجى ... وآكْتَحَلَتْ بالغَمْضِ عَيْنُ الرَّقيبِ

فَباشِرِ اللَّيْلَ بِما تَشْتَهي ... فإنّما اللَّيْلُ نَهارُ الأريبِ

كَمْ فاسِقٍ تَحْسَبُهُ ناسِكاً ... قَدْ باشَرَ اللَّيْلَ بِأَمْرٍ عَجيبِ»

أمّا اليَوْمَ فهو مُذْنَفٌ كَلِفٌ مَصْروفُ الهَوى، لا يُرى إلّا مُنْتَحِياً إلى نَفْسِهِ، في ظِلِّ شُجَيْراتٍ كانَ يَتَشَهّى فَيْئَها ساعةَ غَزَلٍ أو طَرَب.

وكانَ سَرْجونُ مُرَبّيهِ يُراقِبُهُ مِنْ بَعيدٍ، ويَلْزَمُهُ دونَ أنْ يَراهُ أو يَلْمَحَهُ. فآنتَهى إلى سَمْعِهِ مِنْ نَجْوى يَزيدَ لِنَفْسِه:

أَوّاهُ، أُرَينِبُ! يا مَنْ لا تَشْعُرينَ بوُجودي وآلامي وخَلَجاتِ قَلْبي، وأَراكِ مِلْءَ الدُّنْيا لَذاذَةً ومُتْعَةً ونَعيماً، آهِ لَيْتَكِ تَشْعُرينَ! إذاً لكُنْتُ سَعيداً.

آهِ! هَلْ تَصْدُقُ أَحْلامي فَأراكِ عِنْدَ يَدي، تَنْحَنينَ عَلَيَّ فَتُضَمِّدينَ جِراحَ فُؤادي، وتَمْلئينَ وُجودي إشْراقاً بأَلَقِ وَجْهِكِ العَبْقَرِيِّ الحُسْنِ. حُلُمٌ سَعيدٌ، ولكنَّ دونَه مَفاوِزَ الجَحيمِ العَبْقَرِيَّةَ الأشْواكِ والأَهْوالِ أيْضاً. ثُمَّ أطْرَقَ وتَناهى بِهِ الإِطْراقُ، ولَبِثَ طَويلاً كأنَّما آبْتَلَعَهُ ضَبابُ المَساءِ في لَيْلَةٍ رَمى بِها الشِّتاءُ في العاصِفَةِ. على أنّه رَفَعَ رَأْسَهُ أخيراً، وعَيْناهُ تَدورانِ في بَريقٍ مُخيفٍ، يقول:

لا! لا! إنَّني لَنْ أنْتَظِرَ هِبَةَ الأقْدارِ حتّى تَضَعَها في طَريقي وَرْدَةً مُصَوَّحَةً نَاضِبَةً، إنَّ الضَّعيفَ في شَرْعِ الطَّبيعَةِ الحَيَّةِ حَمَلٌ مَنْهوبٌ، والقَوِيُّ هو آبْنُ الطَّبيعَةِ البِكْرُ، وقدْ وَهَبَتهُ، سائِغاً زُلالاً، كُلَّ ما آسْتَطاعَتْ أنْ تَلُفَّهُ قُوَّتُهُ، أو يَمُرَّ في جَوِّها.

هذهِ هي الحقَيقَةُ الفَذَّةُ الّتي نَراها بينَ أَدْنى الأحْياءِ وأعْلاها، مِنْ بَدِيِّ النَّباتِ إلى رَفيعِ التَكوُّنِ؛ الإنسان.

وأمّا أولئكَ الّذينَ شَرَعوا الشَّرائِعَ والنُّظُمَ، وحَدَّدوا مَسيرَ الحَيِّ فيما سَمَّوْهُ أخْلاقاً، فإنّهم جُبَناءُ ضُعَفاءُ وأنانِيّونَ أيضاً، قَعَدَتْ بهِمْ قُوَّتُهُمْ عنْ أنْ يُدْرِكوا أيَّ نَصيبٍ مِنْ مُتَعِ الحَياةِ ولَذّاتِها، أو أدْرَكوا نَصيباً حَقيراً فآبْتَكَروا قانونَ الأخْلاقِ والقانونَ، وحَدّدوا سَعْيَ الأحْياءِ وَفْقَها وعلى طِبْقِها، فَأَوْجَدوا لأنْفُسِهِمْ أوْفَرَ فُرَصِ الحَياةِ الماتِعَة.

إنّ هؤلاءِ أدْنَأُ مِنْ أنْ أحْتَرِمَهُمْ، إنّهمْ ضُعَفاءُ مُمَوِّهُونَ، خَلَبوا النّاسَ بأَساطيرِهِمْ، فيا وَيْحَ الجاهِلين.

إنّهُمْ شاؤوا العَيْشَ على حِسابِنا نَحْنُ الأقْوياءَ، وحِيازَةَ النَّصيبِ الأَوفَرِ أيْضاً، أَلا كَيْفَ يُفَكِّرُ النّاسُ الحَمْقى التُّعَساءُ؟ لا أَدْري...

إنّني لا أفْهَمُ مَعْنىً لهذهِ النُّظُمِ سِوى أنّـها سُمومُ الضُّعَفاءِ، يَنْفُثونَها في جَوِّنا، نَحْنُ الأقْوِياءَ، لِنَسْتَرْخِيَ، فَيَجِدَ الضَّعْفُ في جَوِّ القُوّةِ فُرْصَةَ البَقاء.

إنّ ما أَفْهَمُ ، هو هذا فَقَطْ، أنَّ الحَياةَ واللَّذَّةَ والسَّعادَةَ فُرَصٌ، والقُوَّةُ وَحْدَها سَبيلُ الاسْتِحْواذِ عليْها، فالحَياةُ هي القُوَّةُ.

إنّ الأَسَدَ قَدْ يَعِفُّ ـ وهو نَهيكُ جوعٍ ـ عَنِ الطَّعامِ الحَقيرِ الوَضيعِ، لأنّـه لا يَجِدُ فيه لَذَّةَ القُوَّةِ، ولكِنَّهُ لا يَعِفُّ ألبَـتَّةَ عَنِ الضَّراوَةِ، وعَنِ الخَتْلِ والافْتِراسِ أحْياناً، وهي مَجْلى القُوّةِ. فالّذي تُمْليهِ طَبيعَةُ الأحْياءِ: قَسْوَةٌ، وبَغْيٌ، ولَذّاتٌ. هذا ما

نَجِدُهُ كُلَّما حَلَّلْنا عَناصِرَ الحَياةِ وأنْواعَ الأحْياءِ، فَمَنْ أَمْلى على أولئِكَ الجُبناءِ أساطيرَهُمْ؟ إنّهُ ليسَ أحداً سِوى الجُبْنِ والعَجْزِ وخَوْفِ الآلام.

وآسْـتَـبَـدَّتْ مَـرَّةً واحِـدَةً   إنّما العاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدّ

نعمْ! نعمْ! إنّما العاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدّ!

أُرَينِبُ! أنْتِ حُلُمٌ سَعيدٌ، وقدْ بِتِّ مُتْعَةً قَريبَةَ المَنالِ مِنّي!

أُرَينِبُ! لِتَقُمْ في سَبيلِكِ سُيولُ الدِّماءِ ورابياتُ الجَماجِمِ والأشْلاءِ، فإنّني سَأَسيرُ عليْها إليكِ، في آبتِسامَةِ القَسْوَةِ وقَهْقَهَةِ جَبَروتِ البَطْشِ! إنّ أَنينَ الفَريسَةِ ـ وعِظامُها تَتَقَصْقَصُ بينَ فَكَّي الأسَدِ ـ يُطْرِبُهُ ويُشَهِّيهِ، لأنّه مَقاطِعُ مِنْ أُنْشودَةِ كِبْرياءِ الذّاتِ وكِبْرياءِ الوُجودِ، فإنّ مَعْنى نَشيدِ الأنينِ: أنتَ أنتَ هو الجَديرُ بالوُجودِ وحدَك... ولذا كانَ الأسَدُ لا يَطْعَمُ إلّا على أَلْحانِ نايِ الأشْلاء.

أُرَينِبُ! أنتِ عَروسُ أحْلامي، وسَتُصْبِحينَ عَمّا قَريبٍ عَروسَ لَذّاتي! فَما أجْمَلَها نَشْوَةً، وجِسْمُكِ البَضُّ أَهْتَصِرُهُ بينَ ذِراعَـيَّ المُشْتَعِلَيْنِ، وأعْتَصِرُهُ في وَقْدَةِ الضُّلوعِ المُتَلَظِّيَةِ، وقوامُكِ يَتَأَطَّرُ ويَتَثَنّى تَثَنِّيَ الأُفْعُوانِ، ويَتَلَوّى تَلَوِّيَ الخَيْزُرانِ. فما أُحَيْلى قُرْبَكِ!... إنّه دُنْيا مِنَ اللّذّاتِ العِذابِ، ولوْ لُفَّ في جَحيمِ العَذابِ!

أُرَينِبُ! إنَّني سَوْفَ أَلْهو بكِ أمَداً كالزَّهْرَةِ تَرودُها النَّحالُ بتَلَهُّفٍ إلى الامْتِصاصِ، ثُمّ سِيّان عِنْدي أَذَكَرْتُكِ أم نَسيتُكِ بَعْدُ، أَلَسْتِ آمْرَأَةً، والمرْأَةُ لُعْبَةُ الرَّجُلِ ومُتْعَتُهُ فقطْ، ولا شيءَ وراءَهما؟ ثُمّ أَلَيْسَتِ النِّساءُ في النَّوْعِ رَياحينَ كما قيلَ، وهيَ تَذْهَبُ في شَمّاتٍ أو دونَها، وتَبْلى فِتْنَتُها... فآغْتَنِميها فُرْصَةَ لَذاذَةٍ كُبْرى مُعَرْبِدَةٍ، وأنتِ فيها فَوّاحَةٌ بالعَبير.

آهٍ! إنّ ظَمأي لا يَرْويهِ إلّا سَيْلٌ مِنْ دِماءٍ، إذا وَقَفَ في وَجْهي ذلك العِلْجُ آبْنُ سَلّامٍ. إنّني أُحِسُّ بأَسْناني تَـتَأَكَّلُ كأنّ عَلَيْها حِكَّةَ جَرَبٍ. إنّها تَشْتَهي مُضْغَةً

مِنْ كَبِدِهِ أَلوكُها! إنّني لأَشْعُرُ أنّ في أسْناني أسْنانَ هِنْدٍ جَدّتي يَوْمَ أُحُدٍ، وهيَ تُحْرِقُ الأُرَّمَ على كَبِدِ حَمْزَةَ! سَوْفَ أُبارِزُهُ فَأَقْتُلُهُ أو أترصَّدُهُ فأُغْمِدُ فيهِ وَراءَ السَّيْفِ يَدي.

ولمْ يَزَلْ مَعَ طُيوفِهِ الّتي أخَذَتْ تَتَجَسَّمُ له، فَيَراها قَريبَةً منهُ دانيَةً إليهِ، وكأنَّ طَيْفَ آبْنِ سَلّامٍ عَرَضَ له في بَعْضِ الطُّيوفِ، فَهَبَّ يَخْتَرِطُ سَيْفَهُ، وقَبضَ على قائِمَتِهِ، وهَزَّهُ في الهَواءِ هَزّاتٍ، ضَحِكَ في إثْرِها ضِحْكاً عَصَبيّاً، وفَجْأَةً تَقَلَّصَتْ تَقاطيعُ وَجْهِهِ، وآرْتَدَّ إلى الوَراءِ فَزِعاً مُتَعَقِّدَ الأَيْدي يَقولُ، وقدْ عَرَضَ لهُ طَيْفُ العَدالَةِ: إنّني يَزيدُ! يَزيدُ الأميرُ... ولكنّه لم يَزَلْ يَرْتَدُّ إلى الوَراءِ في ذُعْرٍ يَقولُ: لستُ، لستُ أنا! هي هي أغْرَتْني!... وعَراهُ دُوارٌ، فقدْ أخَذَتْهُ أعْراضُ حُمّى خَبيثَةٍ، وكانَ يَهْذي تَحْتَ وَطْأَةِ الدّاءِ. فَوَجِلَ سَرْجونُ وَجَلاً شَديداً، ولمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ أنْ يَتَعَرَّضَ له، ويَقْطَعَ عليهِ ما هو فيهِ مِنْ خَيالات.

أَفاقَ بعدَ حِينٍ، وزايَلَهُ ما كانَ فيهِ مِنْ هَذَيانٍ، فقدْ تَماثَلَ نَحْوَ الشِّفاءِ والإبْلالِ مِنَ الدّاءِ، وبَقِيَ في تَصْميمِهِ ثابِتاً: آغتيالُ الرَّجُلِ وآنتزاعُ مَعْشوقَتِهِ آنتِزاعاً، رَضِيَتْ أمْ أَبَتْ. وعَرَفَ منهُ سَرْجونُ ذلكَ العَزْمَ وخَشِيَ مُجازَفَتَهُ، فأَسَرَّ إلى والِدَتِهِ مَيْسونَ آبْنَةِ بَحْدَلٍ الكَلْبِيَّةِ بكُلِّ خَبَرِهِ، فأَطْرَقَتْ برأْسِها، وقالَت:

فذاكَ مَرَضُهُ إذاً... وكانَ يَزيدُ وَليدَها الأَوْحَدَ المُفَدّى، فلمْ تُطِقْ آلامَهُ في سَبيلِ آمْرَأَةٍ، ولمْ تُطِقْ أَلْبَتَّةَ لِرَجُلٍ، مهْما كانَ خَطَرُهُ ومَنْزِلَتُهُ، أنْ يَحولَ بينَ آبنِها ورَغَباتِه، فَقالَتْ تُخاطِبُ سَرْجونَ: ومَنْ هذا آبْنُ سَلّامٍ زَوْجُها؟

قالَ: هو أَميرُ العِراقِ مِنْ قِبَلِ المَلِكِ... فآنقَلَبَتْ ضاحِكَةً، تَقول:

يَكونُ مِنْ عُمّالِنا ويُقيمُ لهُ يَزيدُ هذا الوَزْنَ؟ إنّنا نَحْنُ نَرْفَعُهُ أو نَخْفُضُهُ. ثُمّ هَلْ هو إلّا مُنَفِّذٌ لرَغَباتِنا عليهِ، هو صَنيعَتُنا فَيَجِبُ أن تَكونَ زَوْجَتُهُ إحْدى إمائِنا، نَتَصَرَّفُ فيهِ وفيها كيفَما نَهْوى. إنّني لا أُطيقُ أنْ أرى يَزيدَ واجِماً مِنْ أجْلِ آمْرَأَةٍ

يَشْتَهيها، ولَسْتُ أُطيقُ أنْ أسْمَعَ أنّه يُمْنَعُ عنْها بالغَةً ما بَلَغَتْ مَنْزِلَتُها.

بَلِّغِ المَلِكَ أنّي لا أُطيقُ أن أرى يَزيدَ مَحْزوناً يَبْكي، بَلِّغْهُ أنّ هذهِ المَرْأَةَ يَجِبُ أن تَكونَ في جُمْلَةِ إماءِ يَزيدَ يَعْبَثُ بِها ويَلْهو!

قالَ سَرْجونُ: لَعَلَّ زَوْجَها لا يُرضيهِ تَرْكُها، أو لَعَلَّها لا تَرْضى هي إن كانَ منْه ذلك...

قالتْ، وضَرَبَتْ بيَدِها على وِسادَةٍ بجَنْبِ مَقْعَدِها: وما قيمَةُ رِضاهُ أو رِضاها؟ إنّنا نُريدُ ذلك وكَفى!

فٱبْتَسَمَ سَرْجونُ وقالَ: أظُنُّ الأميرَةَ لا تَعْني تَماماً ما تَقولُ، أو لا تَجِدُّ كُلَّ الجِدِّ. فَلابْنِ سَلّامٍ خَطَرُهُ، ولوْ لمْ يَكُنْ بِذي خَطَرٍ فَلا يَسَعُنا آنتِهاكُهُ آنتِهاكاً مَكْشوفاً، وتَحَدّيهِ في شَرَفِهِ. ولكنْ نَسْتَأْتيهِ في غَيْرِ شُعورٍ منه.

قالَتْ مُتَأَفِّفَةً مُتَبَرِّمَةً وهيَ تَهُزُّ كَتِفَيْها: إنّني لا أفْهَمُ مَعْنىً لخَشْيَتِك...

فقالَ، وتَمَثَّلَ له عَهْدُه في بَلاطِ الغَساسِنَةِ، وهو أكْثَرُ رِعايَةً للحُقوقِ: ولكنّكِ تَفْهمينَ فَقَطْ مَعْنى خَدْشِ كَرامَةِ الرَّجُلِ؟

قالَتْ: إذا كُنْتَ تَرى في ذلك بَأْساً فَٱسْتَأْتِ كيفَ شِئْتَ، فأنا أُريدُ أنْ يَصِلَ يَزيدُ إلى غَرَضِهِ كيفَما كانَ، ولَيْسَتْ تَهُمُّني الطُّرُقُ الّتي سَتَسْلُكُها. إنّني أُريدُ أن تَقَرَّ عَيْنُ يَزيدَ بِها، ولا يَعْنيني ما وَراءَ ذلكَ... فٱسْتَدارَ سَرْجونُ على عَقِبَيْهِ وهو يَقول:

أمّا كذلكَ فَنَعَم...

*

دَخَلَ سَرْجونُ مَجْلِسَ المَلِكِ، ومِنْ حَوْلِهِ حاشِيَتُهُ يَتَدَبَّرونَ أمْرَ يَزيدَ، وما

عَساهُ أنْ يَكونَ طَرَأَ عليهِ. وبَدا مُعاوِيَةُ مُغْتَمّاً، فهوَ لا يُطيقُ سَماعَ أنّ يَزيدَ مُكْتَئِبٌ، وهوُ بِكْرُ الإمارَةِ المُتْرَعُ بالدّلالِ، وفي قَرارَةِ نَفْسِهِ أنْ يَقَرَّ بِهِ عَيْناً وهو وَليُّ عَهْدِهِ، كَما زادَ بِهِ ضَنّاً بعْدَ أن «أصابَ منهُ سَيْفُ الخارِجيِّ مَسْرى البَنين».

كانَ فيما يُسَيْطِرُ على المَجْلِسِ مِنْ وُجوم، ما جَعَلَ سَرْجونَ يَقِفُ طَويلاً قَبْلَما أَسَرَّ إلى مُعاوِيَةَ بشَأْنِ آبْنِهِ البِكْرِ، رُغْمَ قُرْبِهِ مِن مُعاوِيَةَ ومَنْزِلَتِهِ المَرْفوعَةِ الحِجابِ لَدَيْه. وظَلَّ واجِماً هو أيضاً، فقدْ عَدَتْهُ روحُ المَجْلِسِ، وسَيْطَرَ عليهِ جَوُّهُ، حتّى قَطَعَ الوُجومَ عَمرو بْنُ العاصِ بقَولِه:

وماذا تَظُنّونَ أصابَهُ وهو في جِسْمِ الفيلِ ونَشْطَةِ النَّمِرِ؟... وآبتَسَمَ، لَعَلّ إحْدى غانياتِهِ المُدَلَّلاتِ فارَكَتْهُ وقَطَعَتْ أَسْبابَ وِدِّه.

قالَ مُعاوِيَةُ: ما هذا يا عَمْرو؟

قال: لمْ يَقَعْ في مَدى خاطِري سِوى هذا، وعلى كُلٍّ «فهو أمْرٌ لا يُوقَفُ عليهِ إلّا مِنْ جِهَةِ والِدَتِه»، لَعَلَّها تَنْتَزِعُ منْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ كَلِمَةَ سِرِّهِ الرّهيبِ... وأَطالَها كالسّاحِرِ... وهُنا وَجَدَ سَرْجونُ مُناسَبَةَ الإفْضاءِ إليه، فمالَ على أُذُنِهِ يُسارُّهُ، وما لَبِثَ أنْ ضَحِكَ مُعاوِيَةُ وهوَ يَقول:

عِنْدَ ظَنِّكَ يا عَمْرو، ولكنّها غانِيَةٌ جَديدَة!

قالَ عَمْروٌ: وإنْ شِئْتَ قُلْ صَيْدَةٌ جَديدَةٌ... فآبتَسَمَ الحُضورُ، وطَلَبَ مُعاوِيَةُ أنْ يَخْلُوَ بنَفْسِهِ سِوى عَمْرٍو، فَقال:

مَنْ أُرَيْنِبُ؟ وهلْ تَعْرِفُ عنْها شيئاً؟

قالَ: نعمْ، هيَ مِنْ «أعْرَقِ الحِجازِيّاتِ نَسَباً، وأَكْثَرِهِنَّ مالاً، ومَثَلٌ في الجَمالِ بيْنَ غَرائِرِ زمانِها»، كانَتْ عِنْدَ عَدِيِّ بْنِ حاتمٍ مِنْ قَبْلُ، ثُمّ صارَتْ إلى عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَلامٍ أميرِ العِراقِ اليَوْم.

قالَ مُعاوِيَةُ: تَرى أنّه عَزيزٌ علَيْنا آصْطِيادُها؟

قالَ: هو ذاكَ، وأمْنَعُ ما تَكونُ.

قالَ: ولكنْ كيفَ برَغْبَةِ يَزيدَ الحارّةِ، فإنّهُ يَحُزُّ في نَفْسي أنْ يَبيتَ آسِفاً، لا يَقْضيَ لُبانَتَهُ، ويُشْبِعَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ، ويَرْوِيَ ظَمَأَ قَلْبِهِ.

قالَ: وما هذا؟ أأَنْتَ أيْضاً تُسايِرُهُ في مُجونِهِ وعَبَثِهِ،وما يُدْريكَ لَعَلَّ ما يَتَظاهَرُ به مِن كَمَدٍ هو مِنْ حِيَلِهِ على المُجونِ، ومِنْ دَلالِهِ على التَّنْويلِ كيْ يَجْعَلَ مِنّا مَطايا شَهَواتٍ وأوْطارٍ. إنَّ النّاسَ تَحَمّلوا مِنّا ضَراوَةً في السِّياسَةِ، وضَراوَةً في الأمْوالِ، إلى ضَراوَةٍ وضَراوَةٍ في الأحْكامِ، ولا أَراهُمْ إلّا ثائِرينَ بِنا، إذا جَعَلْنا بُيوتَهُمْ هَدَفاً لضَراوَةِ شَهَواتِنا أيْضاً...

قالَ مُعاوِيَةُ: هو ذاكَ. ولكنْ كيفَ لي بالتَّرْفيهِ عَنْ يَزيدَ، فإنّي لا أقدِرُ أن أراهُ كاسِفاً؟ أَلا فَفَكِّرْ مَعي وتَحايَلْ ما وَسِعَتْكَ لَباقَةُ الحيلَةِ. فَفَكَّرا مَلِيّاً وكانَ عَمْرو أسْبَقَهما، فَهَتَفَ: لقدْ وَجَدْتُها، وإن كانَ فيها تَسْخيرُكَ إيّايَ حتّى لِشَهواتِ وَلَدِكَ أيْضاً.

قالَ مُعاوِيَةُ بِغِبْطَةٍ: هاتِ! هاتِ! وعَساها أن تَكونَ مِنْ وَحْيِ شَيْطانِكَ يَوْمَ صِفّين، وخِدْعَةً كخِدْعَةِ رَفْعِ المَصاحِفِ... يَعْني مُوَفَّقَة...

قالَ عَمْروٌ: أَتأخُذُها عَلَيَّ وبها أنْقَذْتُكَ وبَوَّأْتُكَ عَرْشَكَ، وجَمَعْتُ بها عَلَيْكَ ما هو مُجْتَمِعٌ في يَدَيْكَ مِن أسْبابِ المُلكِ، ومُحْتَبِكٌ عليكَ من مَظاهِرِ السُّلْطان؟

قالَ: كانَتْ مِن أجْلِ دُنْيا جَزَيْناكَ عليْها بدُنْيا، وما أَظُنُّني بَخَسْتُكَ الأجْرَ. وكَسَرَ جَفْنَ عَيْنِهِ اليُسْرى، وكانَ لا يَفْعَلُ هذا إلّا «وهو يَتَحَدّى» وما يَجْهَلُ عَمْروٌ منهُ ذلك.

فقالَ وشَمِلَتْهُ رَهْبَةٌ: رُوَيْدَكَ، إنّني لا أتَحَدّاكَ وإنّما ظَنَنْتُكَ تَغْمِزُ عَلَيَّ...

فَضَحِكَ مُعاوِيَةُ وقَدْ أدْرَكَ سِرَّ رَهْبَتِه، وقالَ:

لكَ العُتْبى يا عَمْرو حَتّى تَرْضى. وهلْ مِثْلُكَ يُتخَسُ قَدْرُهُ ويُرَوَّعُ؟ وإنّما قَصَدْتُ مدُاعَبَتَكَ فَلا تَثْريبَ عليْكَ. لَطالَما خَدَمْتَ آلَ أبي سُفيانٍ، فَلَسْتُ أنْسى بالأمْسِ كيفَ أنْقَذْتَني وكانَتْ لكَ يَدٌ عِنْدي، وأنا أعْرِفُ اليَوْمَ تَأَتّيكَ لإنْقاذِ يَزيدَ وَلَدي، وهي يَدٌ لكَ عِنْدَهُ ليسَ يَنْقُصُها.

قالَ عَمْرٌو: حُماداكَ، فإنّي عندَ ظَنِّكَ... رَأَيْتُ أنْ تَسْتَدْرِجَ ٱبْنَ سَلّامٍ بالألْطافِ «وكَرائِمِ الأمْوالِ والخِلَعِ»، وتُرِيَهُ جانِبَ الوِدِّ منكَ، وتُغْرِيَهُ بزِيارَتِكَ والقُدومِ عليْك...

قالَ مُعاوِيَةُ: وبَعْدُ؟

قال عمرو: ذلك عَلَيَّ حينَه...

*

فَصَلَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَلّامٍ مُذِ ٱقتَرَنَ بأُرَيـنِبَ، وهو يَرى حُلُمَ سَعادَتِهِ يَنْتَشِرُ لِيَجْتَمِعَ في حُدودِها، فأحَلَّها منهُ مَحَلَّ القَلْبِ، فكانَ إذا خَلا إلى قَلْبِهِ وَجَدَ أُرَينِبَ، وإذا خَلا إلى أُرَيـنِبَ وَجَدَ قَلْبَه. وكَثيراً ما كانَ يَقولُ لها: لَيُخَيَّلُ إليَّ أنّكِ لَسْتِ سِوى قَلبي مُصَوّراً، وشاءَ أنْ يَتَجَسَّدَ في شَكْلِ بَناتِ الخُلدِ، فَيُرِيَني كمْ هو سَعادَةٌ، وكمْ يَجِبُ أن أكونَ بِهِ سَعيداً. لَوَدِدْتُ يا أُرَيـنِبُ أنّني أَتَحَوَّلُ هالَةً في أَبَدِيَّةِ عَيْنَيْكِ الفاتِنَتَيْنِ... أُرَيـنِبُ! آهٍ أُرَيـنِبُ!...

آهٍ! يا ما أَسْعَدَ الأزْواجَ إذا كانَ لِكُلِّهِمْ مِثْلُ أُرَيـنِب!...

وكانَتْ أُرَيـنِبُ لا تَقِلُّ عنهُ إحْساساً بسَعادَتِها به، فَقَدْ عاطَتْهُ منْها أيْضاً مِثْلَ عَواطِفِهِ فقالَتْ: أو قُلْ ما أسْعَدَهُنَّ حَقّاً إذا كانَ لِكُلِّهِنَّ مِثْلُ عَبْدِ اللّه.

قالتْ له صَباحَ يَوْمٍ، وقدْ قَطَفا أوّلَ إشْراقَةٍ مِنْ شُعاعَةِ الشَّمْسِ: لا أَدْري لِماذا؟ لِماذا يُعاوِدُني في أقْصى هَواجِسي العَميقَةِ الخَفِيَّةِ مُنْذُ لَيالٍ، أنّكَ لمْ تَعُدْ لي، وتَعْتادُني طُيوفٌ خَبيثَةٌ أَظَلُّ منْها في رَهْبَةٍ؟ وتَعَلَّقَتْ به. إنّي خائِفَة.

تَرَقْرَقَتْ في عَيْنَيْها دَمْعَتانِ كَبيرتانِ، تَراخَتْ إحْداهُما ساقِطَةً، وآسْتَمْسَكَتِ الأُخْرى مُتَبَلْوِرَةً بينَ جَفْنَيْها اللّذَيْنِ كانا في نِصْفِ إغْماضَةٍ، فأَهْوى يَضُمُّها إليهِ ضَمّاً عَنيفاً كَأنَّهُ يُحاذِرُ، فقدْ عَراهُ مِثْلُ هاجِسِها أو شَرٌّ منهُ، عَراهُ أنّ هُناكَ مَنْ يُحاوِلُ آخْتِطافَها، فهو يَشُدُّها إليهِ، يَضَنُّ بها ويَفْتَديها.

إسْتَوَيا في مَقْعَدِهما، ثمَّ لَمْ يَخْطُوَا إلّا قَليلاً في حَديقَةِ القَصْرِ، حَتّى آسْتَأْذَنَ حامِلُ البَريدِ يُسَلِّمُهُ كِتابَ المَلِك.

اسْتُطيرَ فَرَحاً، وآسْتَخَفَّهُ الإنْعامُ المَلَكِيُّ عليهِ، وكانَ مُفاجِئاً حَتّى لقدْ ذَهِلَ عنْ أنّه يُغادِرُ زَوْجَتَهُ الحَفِيَّةَ عندَه، دونَ أن يُلْقيَ عليْها نَظْرَةً وامِقَةً تُشيرُ إلى أنّه سَيَعودُ إليها، بعدَ مُتْعَةٍ قَصيرَةٍ بالنَّظَرِ إلى ما أُهْديَ إليه.

وَقَفَتْ تَنْظُرُ باهِتَةً وعاوَدَتْها هَواجِسُها. فَلَمْ تُطِقْ وُقوفَها طَويلاً، فآنْثَنَتْ إلى مَقْعَدٍ قامَتْ مِنْ فَوْقِهِ مُتَعانِقاتُ «البواري» في شَكْلٍ جَعَلَ مِنْه وَكَنَ عاشِقَيْنِ أو طَيْرَيْ حُبٍّ. وقالَتْ تُناجي نَفْسَها: آهٍ! لقدْ وَقَعَ ما كُنْتُ أَهْجِسُ بِهِ في خاطِري، والّذي كانَ يَحيكُ في صَدْري مِنْ وَساوِسَ؛ لَيْتَ الهَدايا الّتي آسْتَخَفَّتْهُ كانَتْ عندَ قَدَمي لأَطَأَها مُسْتَخِفَّةً بأَنفَسِ ما فيها، ولا أَقطَعُ على نَفْسي لَحْظَةَ قَلْبٍ كانَ يَخْفِقُ فيها بمَعْنى الحُبِّ، وهو كُلُّ الحَياةِ وكُلُّ السَّعادة...

أَتَشْغَلُه عَنّي هَدايا حَقيرَةٌ!؟ مَهْما بَلَغَتْ نَفاسَتُها، فلنْ تَكونَ إلّا حَقيرَةً بجَنْبِ ما هو دونَ حَسْوَةِ طائِرٍ مِنْ نَشْوَةِ ما كُنّا فيه، بَلْ بجَنْبِ خَلْجَةٍ راعِشَةٍ مِن تِلْكَ الخَلَجاتِ المُفعَمَة...

ألآنَ فقطْ، بَدا لي طِفْلاً تَفْتِنُهُ لُعْبَةٌ عن لُعْبَةٍ، ويَأْخُذُ أيَّما وَقَعَ عليهِ بكُلِّ بَصَرِه. لمْ يَكُنْ إذاً إلّا طِفْلاً، ولمْ أكُنْ، كُلَّ هذا الوَقْتِ، سِوى لُعْبَةٍ كَبيرَةٍ يَلْهو بها دُمْيَةً، ودُمْيَةً حَيَّةً تُمْتِعُ قَلْبَهُ البارِدَ بحَرارَةِ أنْفاسِها المُنَدّاةِ... وهؤلاءِ الّذين يَرَوْنَ المَرْأةَ دُمْيَةً ذاتَ حَراراتٍ، همْ بارِدو القُلوبِ، وإنّما يَطْلُبون فيها الآصْطِلاءَ والدِّفْءَ فقطْ، أمّا أنا، وأُحِسُّ بقَلْبي مُشْتَعِلاً، فأُريدُ قَلْباً مُشْتَعِلاً أيْضاً يَفْنَيانِ على بَعْضِهما في تَلَهُّبٍ جَميعاً...

أُفٍّ للرَّجُلِ! إنّه طِفْلٌ في حِسِّ القَلْبِ ولا يَزيدُ، ثُمَّ لا يَشْعُرُ مِنَ العاطِفَةِ إلّا على مِقْدارِ العَبَثِ، ولَيْسَتْ لِلأَشْياءِ قيمَةٌ عندَه، إلّا على قَدْرِ ما تَمْلِكُ من إيحاءِ اللَّهْوِ عليهِ وتُشيعُه فيه.

لا، لا! لَسْتُ أرْضى أنْ أكونَ عندَه مَتاعاً صِنْوَ هذهِ الهَدايا، بلْ خُيِّلَ إلَيَّ أنّي أحْقَرُ مِنْها في نَظَرِهِ. فغادَرَني يَخِفُّ إليها، ولَمْ يَترُكْ، عندَ مَوْقِفِنا، نَظْرَةً أشْغَلُ بِها حَتّى يَؤوبَ، إنّها أَخَذَتْ بكُلِّ هَواهُ، حَتّى لمْ أَعُدْ شَيْئاً أُذْكَر...

أُفٍّ للرَّجُلِ! إنّه في دُنْيا القَلْبِ طِفْلٌ، وأيْضاً طِفْلٌ ذو طَبْعٍ بَليدٍ خَشِنٍ...

يا لَكِ مِنْ هَدايا مَشْؤومَةٍ! إنّكِ هَدايا فيكِ كُلُّ ما في السُّمومِ من روحٍ، وكُلُّ ما في الأفاعي مِنْ مَعْنىً مُخيفٍ ووُجودٍ رَاعِبٍ... وما يُدْريني فلعلَّها حَبائِلُ وشِباكٌ مَنْسوجَةٌ من حُمّاتِ العَقارِبِ وأوْبارِها... وما هُوَ حَتّى رَأتْهُ مُقْبِلاً مُغْتَبِطاً، تَشيعُ الابتِسامَةُ المُشِعَّةُ الضّاحِكَةُ في وَجْهِهِ، يَحْمِلُ بينَ يَدَيْهِ كَرائِمَ الجَوْهَرِ وعُقودَ اللآلىءِ البَعيدةِ السُّطوعِ، المُتَماوِجَةِ بالسَّنى والسَّناء، يَقولُ وهو يُقَلِّبُها في كَفَّيْه:

إلَيْكِ! إلَيكِ! لقدْ جاءَتْ كأنّها تَقولُ: كُنْتُ جَوْهَرَةً يَتيمَةً حَتّى وَجَدْتُكِ! أما تَسْمَعينَ ؟ أما تَسْمَعينَها؟... وراحَ في نَشْوَةٍ ضاحِكَةٍ، ولكنّها ظَلَّتْ جامِدَةً لا تُحيرُ جَواباً. فَبُهِتَ وعَراهُ خَدَرٌ كالذُّهولِ، فآسْتَرْخى كَفّاهُ، وتَساقَطَ ما آسْتَوى

عَلَيْهِما من دُرِّيِّ الأحجارِ الكَريمَةِ، وهو لَمْ يُحِسَّ. وكانَتْ تَنْظُرُ وتَرى، فألَمَّتْ بِما عَراهُ فاَغْتَبَطَتْ، ولمْ تَلْبَثْ حَتّى أخَذَتْهُ بينَ ذِراعَيْها نَشْوى.

عِنْدَ شُرْفَةِ الصَّباحِ، بعدَ أيّامٍ، حيثُ كانا واقِفَيْنِ يَنْظُرانِ إلى الأُفُقِ البَعيدِ، قالَ، وهو يَحْبِسُ بَعْضاً من أَنْفاسِهِ الّتي أحَسَّ أنّها تَخْرُجُ جُمْلَةً ثُمّ لا تَعودُ:

لعلّي لا أَغيبُ عنكِ طَويلاً، وسَوْفَ... قالَتْ مُرْتَعِدَة:

تَغيبُ عَنّي؟ ماذا تَقولُ؟ وإلى أَيْنَ؟

قالَ: رَأَيْتُ مِنْكِ، يَوْمَ الهَدايا، أنّكِ غَيْرُ مُغْتَبِطَةٍ فَلَمْ أُخْبِرْكِ. جاءَ في كِتابِ المَلِكِ أيْضاً أنّه يَعْزِمُ عَلَيَّ بالحُضورِ، ولا أدْري لِماذا؟ هَدايا مُفاجِئَةٌ ودَعْوَةٌ مُفاجِئَةٌ! ولكنّي أَظُنُّ أنّ سَعادَتي بكِ جَذَبَتْ إليَّ سَعادَةً أُخرى... ورَبَتَ على كَتِفِها.

إنْتَفَخَتْ أَوْداجُ أُريـنِبَ، وغُصَّتِ الكَلِماتُ في حَلْقِها، ولكنَّها حَوَّلَتْها كَأنّها تَلوكُ حُروفَها لَوْكا:

أيَّتُها النَّفْسُ أَجْمِلي جَزَعا   فإنّ ما تَحْذَرينَ قَدْ وَقَعا

فَقالَ يُداعِبُها: هذا قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ يَرْثي بِهِ. وها أنا فَجُسّي يَدي... قالتْ، ووَضَعَتْ يَدَها على فَمِهِ تَأْخُذُ عليهِ سَبيلَ الاسْتِمرارِ، فقدْ أَرْهَبَها ما ذَهَبَ إليه ظَنُّهُ ولو مُداعَبَة:

إنّني لَسْتُ أَرْثي سِوى نَفْسي إلى نَفْسي... وحاوَلَ الكَلامَ فَقَطَعَتْهُ عليهِ بقَوْلِها: لَسْتُ مُغْتَبِطَةً بسَفَرِكَ، وبِوِدّي أنّكَ لا تَذْهَبُ، بل بِوِدّي أنْ تَرُدَّ عليهِ عَمَلَهُ وتَعْتَزِلَ. فَلي مِن أمْوالي الكَثيرَةِ ودُنْيايَ ما يُغْنيكَ عنْ أمْوالِهِ ودُنْياهُ، ولكَ مِنْ سِيادَتِكَ ونَشَبِكَ ما يُغْنيكَ عنِ التَّسَوُّدِ به.

إنّه يُرْهِبُني! إنّني لا أَطْمَئِنُّ إليه، وبهِ تُحيطُ عِصابَةٌ لا أَدْري بِماذا أَنْعَتُها...

إنْتزَعَتْها مِن لِسانِها كَلِمَةٌ: إنّها دَمَويَّةٌ تَجْري وَراءَ شَهَواتٍ حَمْراءَ، ثُمّ لا يَحولُ بها عنْها شَيءٌ مِن عَارِفَةٍ أو قَانُونٍ.

قالَ: هو ذاكَ؛ ولكنّي لا أدْري كيفَ أرُدُّ عليهِ. إنْ هي إلّا أيّامٌ قَصيراتُ المَدى، أعودُ إليكِ على أثَرِها، وأصيرُ إلى رَغْبَتِكِ بآعْتِزالِ عَمَلِهِ... ولكِنَّها ظَلَّتْ تَرْغَبُ إليهِ أنْ لا يَرْحَلَ، وحانَتْ منْها لَفْتَةٌ فَرَأَتْ أفْراسَ البَريدِ جاءَتْ تَحْمِلُهُ؛ فلمْ تُطِقْ تَراهُ يَسيرُ، فَذَهَبَتْ تَدْفِنُ وَجْهَها في راحَتَيْها، وتُجْهِشُ كأنّما هي مُنْخَرِطَةٌ في نَشيجٍ مَريرٍ، ورَدَّدَ عَبْدُاللّهِ، وقدْ تَمادى بِهِ المَسيرُ، ولَفَّه قَتامُ الرَّكْب.

وكَمْ تَشَبَّثَ بي يَوْمَ الرَّحيلِ ضُحىً وأدْمُعي مُسْتَهِلّاتٌ وأدْمُعُهُ
أَسْتَوْدِعُ اللّهَ في بَغْدادَ لي قَمَراً بالكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الأزْرارِ مَطْلَعُهُ
وَدَّعْتُهُ وبِوِدّي لَوْ يُوَدِّعُني صَفْوُ الحَياةِ، وأنّي لا أُوَدِّعُهُ...

*

كانَ عندَ مُعاوِيَةَ، بعدَ أيّامٍ لمْ تَكُنْ طَويلَةً، في غَيْرِ حِسٍّ أُرَيْنِبَ وحِسابِ عَبْدِاللّهِ، فَتَلَقَّاهُ بالأَلْطافِ والأُنْسِ النّاعِمِ، فَعَجِبَ كَثيراً وفَكّرَ كَثيراً، ولكنّهُ لمْ يَهْتَدِ لِوَجْهِ الأمْرِ، وتَحَيَّرَ به تَقْديرُهُ، فلمْ يَطْمَئِنَّ إلى أيِّ وَجْهٍ آنصَرَفَ إليهِ. بَيْدَ أنّه مَعَ ذلكَ كانَ مُغْتَبِطاً، وتَزايَدَ بِهِ الاغْتِباطُ إزاءَ ما يَلْقى مِنْ حَفاوَةٍ وآحْتِرامٍ ورِعايَةِ مَقامٍ، حَتّى لمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ بشيءٍ إلّا أنّه مَخْلوقٌ جديدٌ لا عَهْدَ له بالزَّمَن.

لَمَسَ صِدْقاً في كُلِّ ما يَلْقاهُ مِنْ مَظاهِرَ، وباتَ آمِلاً بشَيءٍ لمْ يَدْرِ كُنْهَه، إلّا أنّه وَجَدَ بُشْرى على أيِّ حالٍ. لمْ يَكُنْ يُرى إلّا مَدْعُوّاً إلى مَجالِسِ أُنْسِ مُعاوِيَةَ، وأنْدِيَةِ السَّمَرِ الغَزَلِيَّةِ، وإلّا مُنْتَشِياً على مِثْلِ الطَّيْشِ في لَيالي القُصورِ الشَّرقيّةِ الماجِنَةِ، الّتي كانتْ ذاتَ نَسَبٍ قَريبٍ بلَيالي ألْفِ لَيْلَةٍ فيما بَعدُ، الغارِقَةِ في أحْلامِ الشَّهَواتِ المُعَرْبِدَة.

إسْتَيْقَظَتْ في نَفْسِ آبْنِ سَلّامٍ صَبْوَةٌ لمْ يَكُنْ يَعْهَدُها، صَبْوَةٌ مِنْ نَوْعِ الصَّبَواتِ الحادَّةِ، فلمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ في مَدى آنطِلاقِها إلّا بإرْوَائِها، ودارَتْ فيهِ نَهِمَةً كأنّها آنفَطَرَتْ مِنْ طَبيعَة الظَّمَأِ. فقدْ هَبَطَ مِنْ فِرْدَوْسِ الحُبِّ القَلْبيِّ السَّعيدِ، آنبَعَثَتْ جَيّاشَةً عليهِ، نَزَواتٌ كانَ يَكْبُتُها القَلْبُ في نَشَواتِهِ العَبْقَرِيَّةِ الالْتِهابِ، المُتَلَظِّيَةِ بالشُّعَلِ الحَمْراءِ.

كانَ في هذا الجَوِّ الخَمْرِيِّ اللّذّاتِ المَمْهُودِ بِخَمائِلِ الشَّهواتِ، ما أحالَ أُرَينِبَ، في جَوِّ نَفْسِهِ، إلى ذِكْرى مِنَ الضَّبابِ لمْ تَزَلْ تَتَلَبَّدُ وتَحْتَجِبُ، وعادَ لا يَذْكُرُ إلّا ما هو فيه، وتَمَنّى لوْ طالَ أَمَدُ هذهِ المُتْعَةِ اللّازَوَرْديّةِ في لِسانِ اللَّهَبِ، وتَشَهّى أَنْ لا تَنْقَضيَ، وكانَ مُنْذُ قَريبٍ لا يَسْتطيعُ ساعَةَ بُعادٍ عَنْ أُرَينِبَ مَهاتِهِ النّابِضَةِ بالطُّهْرِ في وَثَباتِ الحُبِّ القَلْبيِّ الخالِص...

إنَّه أَسَفَّ مُنْحَدِراً إلى مُحيطٍ مِنَ الحَمْأَةِ البَعيدِ القَرارِ، وأَضْفَتْ على ناظِرَيْهِ الوُحولُ فلمْ يَعُدْ يَرى، وانّما باتَ يُحِسُّ في طراوَةِ الوُحولِ نُعومَةَ الزُّبْدِ، فراحَ يَهيمُ في خَيالِ الوُحولِ.

إنَّ الحُبَّ في حَقيقَتِهِ رَغْبَةٌ بالاسْتِحالَةِ، وبِتَعْبيرٍ آخَرَ رَغْبَةٌ في التَّحَوُّلِ، ولِمكانِ الشُّعُورِ بوُجودِ الذّاتِ يَذْهَبُ الكائِنُ، إذا صَدَمَ مَشاعِرَهُ آنفِعَالٌ خَدِرٌ كآنفِعَالاتِ اللَّذَّةِ على أَنْواعِها، يُحاوِلُ الاسْتِحالَةَ بهذا الانْفِعَالِ إلى وُجودٍ شُعوريٍّ آخَرَ، ولا يَزالُ يُبالِغُ، تَحْتَ تَأْثيرِ هذا الانْفِعالِ الّذي يَتَزَايَدُ وُضوحاً، رَغْبَةً بالاسْتِحالَةِ حَتّى يَطْلُبَ مُلاشاةَ كِيانٍ في كِيانٍ، حينَما تَسْتَوي هذهِ الرَّغْبَةُ في الأَعْصَابِ، وكُلَّما زادَتْ تَمَكُّناً وآسْتِواءً زادَ الكائِنُ نَهَماً، وهذا الشُّعُورُ هو الّذي أَنْطَقَ آبْنَ الرُّوميِّ بقَوْلِهِ:

أُعانِقُها والنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إليْها، وهَلْ بَعْدَ العِناقِ تَداني؟

وأَلْثِـمُ فاها كَي تزولَ صَبابتي   فَيَشْتَدُّ ما أَلْقى مِنَ الهَيَمَانِ

كَأَنّ فُؤادي لَيْس يَشْفي غَلِيلَهُ   سِوى أَنْ يَرى الرُّوحَيْنِ تَمْتَزِجَانِ

فالحُبُّ البقائيُّ، أوِ الزَّوْجيُّ، رَغْبَةٌ بالاسْتِحالَةِ في الوَلَدِ، والحُبُّ الاسْتِعْلائيُّ رَغْبَةٌ بالاسْتِحَالَةِ في العَاطِفَةِ في الذَّاتِ العَلِيَّةِ؛ في الرَّبَّانِيَّةِ في اللَّهِ، والحُبُّ الشَّهَوِيُّ رَغْبَةٌ بالاسْتِحالَةِ في الشَّهْوَةِ.

وإذا كانتْ رَغْبَةُ الاسْتِحَالَةِ في كُلِّ الوُجُودِ، ففي طَبيعَةِ الوُجودِ إذاً طَبيعَةُ الحُبِّ، بَلِ البَقاءُ لَحَظَاتٍ مُتَواصِلَةً مِنْ رَغْبَةِ الاسْتِحَالَةِ، وآسْتِحَالاتٍ بالفِعْلِ، فإذا آنقَطَعَتْ تَقَلَّصَتْ أسْبابُ البقاءِ، وذَهَبَ مُضْمَحِلاًّ.

تَمَلَّكَ آبْنَ سَلّامٍ، في لَيالي القَصْرِ المَسْحُورِ، آنفِعَالاتُ حُبٍّ شَهَوِيٍّ طَلَبَ مَعَها التَّماديَ في دُنْيا الشَّهواتِ، وآمتَلأَ رَغْبَةً بالتَّعَرُّفِ إلى كُلِّ فُنونِها وفُتُونِها، وشَتّى أَلْوَانِها.

في لَيْلَةٍ ماتِعَةٍ مِن لَيالي القَصْرِ الزَّاهِيَةِ العَبِقَةِ، أَدْناهُ مُعاوِيَةُ منهُ، وعاطاهُ حَديثاً مُذَهَّبَ الأطرافِ، مُغْرِيَ البَدَوَاتِ، وقالَ لهُ فيما قال:

هَلْ لكَ زَوْجَةٌ؟

قالَ: نعمْ... فَضَرَبَ يَداً على يَدٍ، وأصابَ وَجْهَهُ بِبَعْضِ يَدِهِ، فمالَ على أُذُنِهِ عَمْرُو، وقدْ أَظْهَرَ أنّه آغْتَمَّ من إجابتِهِ، وسارَّه:

يا عَبْدَاللّهِ، إنّ المَلِكَ أرادَ أَنْ يُزَوِّجَكَ آبْنَتَهُ لِما عَرَفَ مِنْ شَرَفِكَ، «وأَنْتَ تَعْرِفُ أنّ بَناتِ المُلوكِ لا تَدْخُلُ على ضَرائِرَ».

فقالَ لِعَمْرو: كَيْفَ الحيلَةُ؟

قال لهُ: إذا دَخَلْتَ غداً وسَأَلَكَ، «فقلْ ليسَ لي زَوْجَةٌ فقدْ طَلَّقْتُها»

وَأَشْهَدْتُ أبا هُرَيْرَة وأبا الدَّرْداءِ... باتَ لَيْلَتَهُ أرِقاً، فَقَدِ آسْتَيْقَظَتْ ذِكْرى أُرَيـنِبَ الغافِيَةُ في أَعْمَاقِ نَفْسِهِ قَوِيَّةً عَنيفَةً، وأَخَذَتْهُ طُيوفُها البادِيَةُ كالمَلائِكِ في أَثْوابِ طَهارَتِها...

فَراحَ يُتَمْتِمُ: أأَنا أخونُها. أأَنا؟ كلّا يا مَلاكي! لَنْ أَفْعَلَ مِنْ أَجْلِ شَهَواتٍ رَعْناءَ تَذوبُ لَذّاتُها سَريعاً، وتَبْقى آلامُها مُسْتَطيرةً مُسْتَفْحِلَةً... وإذا بِهِ يَبْدو مُبْتَسِماً، فقدْ بَارَكَهُ طَيْفُها، ولكنْ لا يَلْبَثُ حَتّى تَسْتَجيشَ بِهِ شَهَوَاتٌ مَوَّارَةٌ، تُريهِ الدُّنْيا والسَّعَادَةَ، بَلْ والخُلْدَ في حُدودِها، وتُطْلِعُ له رُؤوسَ فُتونِها، فَيَسْتَرْخي وهو يَرى السُّلْطَان والجاهَ وكِبْرِياءَ الحُكْمِ تَعْنو أمامَ قَدَمَيْهِ، إذا آسْتَجابَ إلى مُعاوِيَةَ، ورَضِيَ منهُ بالاقْتِرانِ إلى آبْنَتِهِ... وتَمْتَمَ:

حَسْبُ أُرَيـنِبَ بِكْرُنا خالِدٌ، وأنا إذا طَلَّقْتها فلمْ أُفارِقْها وإلى الأَبَدِ، فَصِلَةُ بَيْنِنا أَبَداً وَليدُنا العَزيزُ... وَصَمَتَ قَليلاً، وعادَ يُناجي نَفْسَهُ:

وأنا إذا فَعَلْتُ، أَلَسْتُ أَخونُ خالِداً أيضاً فَوْقَ خِيانَتي أُمَّه؟ أَلَسْتُ أكونُ قدْ دَفَعْتُهُ إلى الحِقْدِ عَلَيَّ؟ وكيفَ أُطيقُ هذا، ولو في التَّصوُّرِ والخَيالِ؟ إنّني لا أُطيقُ... وبَدا له طَيْفُ وَلَدِهِ خالِدٍ في طُفولَتِهِ السَّاذَجَةِ بالحُبِّ، كَأَنَّهُ يَرْجو أنْ لا يَفْعَلَ، وساوَرَتْهُ عاطِفَةُ قَلْبِهِ مُساوَرَةً، فَصَرَخَ مَعَها:

لا. لا. لَنْ أَفْعَلَ... وآسْتَغْرَقَ في لَحْظَةِ تَهْويمٍ آنكَشَفَتْ له فيها زَوايا المَجهولِ مِنَ المُسْتَقْبَلِ، ثُمّ آستَفاقَ وعلى لِسَانِه:

أَلَيْسَ في هذا التَّسَوُّدِ الشَّامِخِ ما يَخْدِمُ وَلَدي في مُسْتَقْبَلِ أَمْرِه؟ فلا شَكَّ في أنّه يَغْفِرُ لي خِيانَتي، ولا شَكَّ في أنّ أُرَيـنِبَ تَغْفِرُها لي أيضاً. فأَصْبَحَ وقدْ عَزَمَ على الخِيانَةِ يُعَلِّلُ نَفْسَه بأنّه لم يَخُنْها خِيانَةَ قَلْبٍ ولِذلكَ هو لنْ يَنْساها، وحَمَّلَ الهَواءَ قُبْلَةَ وَداعٍ مِنْ بَعيدٍ، فهذا آخِرُ العَهْدِ بأُرَيـنِب...

وَتَعَرَّضَتْ له أَطْيافٌ راقِصَةٌ من بَدَواتِ الأَطْماعِ الكُبرى، فَسارَ في بَهْجَتِها كأنّه يجَنِّحُ طائِراً، وكانَ يَجْتَهِدُ ألّا يَذْكُرَ شَيئاً، يَجْتَهِدُ أنْ يَشْعُرَ أنّه مَخْلوقُ اليَومِ، وليسَ له عَهْدٌ سابِقٌ بالوجودِ.

سارَ غَيْرَ مُثْقَلٍ بأَيَّـةِ ذِكْرى مِنَ التَّاريخِ، وأيّةِ فِكْرَةٍ تَتَّصِلُ بماضيهِ، إنَّه وَليدُ مُصادَفَةٍ جَديدَةٍ، وَوَليدُ بَهْجَةٍ جَديدَةٍ، يُقْبِلُ عليْها بما تَشاءُ مِنْ بَهَجاتٍ، فكانَ مِنْه ما أشارَ عليهِ بهِ عَمْرُو بْنُ العاصِ، فقالَ مُعاوِيَةُ لأبي الدَّرْداءِ وأبي هُرَيْرَة:

«أُدْخُلا على آبنَتي فأعْلِماها بالأَمرِ على وَجْهِهِ»... فَتَظاهَرَتْ لَدَيْهِمَا بالاهْتِمَامِ والسُّرورِ، وصَرَفَتْهُمَا لِتَسْأَلَ عَنْ دَخِيلَةِ أَمْرِهِ «وأَثْنَتْ على آبْنِ سَلّام».

ولكنَّ آبْنَ سَلّامٍ شَعَرَ، فَوْرَ طَلاَقِهِ أُرَيْنِبَ، أنّ مُعاوِيَةَ لمْ يَعُدْ له كَما كانَ، بلْ غَدا يَلْقاهُ بفُتورِ نَفْسٍ، وآنكِمَاشِ تَرْحِيبٍ، فَأَوْجَسَ شَرّا «وَأَسْرَعَ إلى أبي الدَّرْداءِ وصاحِبِهِ يَسْتَحِثُّهُما» فأتَيا آبْنَةَ مُعاوِيَةَ، فَقالَتْ:

«إنّها سَأَلتْ عنهُ فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ مُوافِقٍ لِما تُريدُ»... فَلَمَّا بَلَّغاهُ جُنَّ جُنونُهُ، وأُسْقِطَ في يَدِهِ، وعَلِمَ أنّه ذَهَبَ ضَحِيَّةَ خِدْعَةٍ لَئيمَةٍ ليسَ يَدْري غايَتَها.

إنْقَلَبَ إلى الدَّارِ الّتي أُعِدَّتْ لنُزُولِهِ، فَوَجَدَها تَعُجُّ بالأَشْباحِ المُخيفَةِ، وَتَزْأَرُ في مِثْلِ تَجاوُبِ الذِّئابِ، فآسْتُطيرَ ذُعْراً، ومَشَى في أَنْفَاسِهِ هَلَعٌ نَكِيرٌ، فَفَرَّ يَعْدو إلى الخَلاءِ وقَدِ آنطَبَعَتِ الأَشْباحُ في عَيْنَيْهِ، وآلتَفَّتِ الأَصْواتُ تَمورُ في أُذُنَيْهِ. فَراحَ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وكَفّاهُ على أُذُنَيْهِ يَجْري، إنَّه يُريدُ أن لا يَرى ولا يَسْمَعَ، يُريدُ غَفْوَةً في الذُّهُولِ ولا هذهِ اليَقَظَةَ المَجْنُونَةَ. وما آسْتَرْخَتْ كَفّاهُ عَنْ أُذُنَيْهِ حتّى آسْتَغْوى بِهِ صَوْت:

خائِنٌ! خائِنٌ! وعلى يَدَيْكَ دِماءُ الجَرِيمَةِ، تَمْشي عليْها أَرْواحُ ضَحايا ثَلاثٍ: قَلْبِ زَوْجَةٍ هِي تِمْثالُ الإخْلاصِ في الحُبِّ، وقَلْبِ غُلامٍ هو تِمْثالُ طُفولَةِ الأَحْلامِ

البَريئَةِ البَيْضاءِ، والثَّالِثَةِ هِيَ قَلْبُكَ أنْت...

بَعْدَ ذلكَ أَضْحى يَنْطَلِقُ كالّذي فارَ في خَيالِهِ جُنونٌ، يَنْقُلُ الواقِعَةَ، ويَبُثُّ الشَّكاةَ، ويَنْثُرُ الطَّعْنَ نَثْراً دونَ رَهْبَةٍ أو وَعْيٍ. وتَسامَعَ النَّاسُ بالخَبَرِ، وعَلَّقُوا عليهِ بِآشْمِئْزَازٍ ونُفورٍ، وباتَ الكَثيرُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في شِفاهٍ مَقْلوبةٍ وَتَنَكُّرٍ، «وهكذا ذاعَ أمْرُهُ وشاعَ، وتَناقَلَهُ النَّاسُ إلى الأَمْصارِ، وتَحَدَّثُوا بِهِ في الأَسْمَارِ». وَرَثَوْا كَثيراً لِما آنتَهى إليهِ حالُهُ، فكُنْتَ لا تَسْمَعُ في كُلِّ مكانٍ إلّا مَنْ يَقول:

أَتَبْلُغُ القِحَةُ بهذهِ العِصابَةِ حَدَّ التَّآمُرِ بسعادَةِ أُسْرَةٍ هانِئَةٍ، تَمْرَحُ في حُبٍّ وَتَسْرَحُ في وَارِفِ إخْلاصٍ، أَمَا يَسُرُّها يَوْمٌ، أمَا تَحْلو لَها حَياةٌ، إلّا إذا وَلَغَتْ في دَمٍ أوْ عَبَثَتْ بِكَرَامَةٍ، لقدْ عَدَوْا أَقْدَارَ أنْفُسِهِمْ، فلا يُرَوْنَ إلّا راقِصينَ على الأَشْلاءِ، لاهينَ بالجَماجِم.

وتَناهَتْ بِعَبْدِ اللّهِ الحالُ إلى حَيْرَةٍ يائِسَةٍ وذُهولٍ شَقيٍّ يائِسٍ، تُلاحِقُهُ طُيوفٌ وَتَتَنَكَّرُ لهُ أشْباحٌ، وتَتَفَوَّرُ مِنْ حَوْلِهِ الآلامُ، وكانَ لايَفْتَأُ يَقولُ، يُناجي نَفْسَه:

لَوَدِدْتُ أنّي أَفِرُّ إلى أُرَينِبَ، ولكنْ هَيْهاتَ! أنا الّذي نَكَبْتُها وأَشْقَيْتُها، أَأَزيدُها شَقاءً بوَجْهِي الّذي غدا تِمْثالَ الخيانَةِ الزَّوْجِيَّةِ على أَقْبَحِ صُوَرِها؟ فَلأَتَجَرَّعْ آلامَ قَلْبي وغُصَصَ ضَميري ومَرارتي وَحيداً مُنْعَزِلاً! كيفَ أَعْتَذِرُ إليْها؟ كيفَ أَسْتَغْفِرُ وَليدي الصَّغير؟...

رُحْمَاكَ رَبّي وَحَنانَيْكَ! أَبْقِ اللّهُمَّ على قَلْبي لا يَتَمَزَّع!

*

ظَلَّتْ أُرَينِبُ، مُنْذُ غادَرَهَا زَوْجُها الحَبيبُ، لا تَشيعُ على شَفَتَيْها الّا آبْتِسَامَةٌ مُتَمَاوِتَةٌ إذا أَلَحَّتْ عليْها أحاديثُ وَصيفاتِها بالابْتسامِ.

وكانَ الاكْتِئابُ يَتَزايَدُها، يوماً بعدَ يَوْمٍ، في إحْساسٍ يُليحُ عليْها بِهَوْلٍ

غامِضٍ تَشْعُرُ به في أَعْمَاقِهَا يُنْذِرُ بالوَيْل.

وكانَ لها في كُلِّ يَوْمٍ جَلْسَةٌ، تارَةً عِنْدَ مَقْعَدِ آصْطِباحِهِما في أفْياءِ البَواري المُخَيِّماتِ، وتَارةً في شُرْفَةِ المساءِ تُوَدِّعُ النّهارَ، وتَسْتَقْبِلُ كَواكِبَ اللّيْلِ تَبُثُّها نَجْواها وزَفَراتِها، وتَتَوَلَّهُ في وَقْفَةٍ إلى ذَوْبِ الشَّفَقِ الّذي كأنّه ذَوْبُ قَلْبِها.

وفي يومٍ، على عادَتِها وهي في شُرْفَةِ المَساءِ، رَأَتْ عندَ أَقْصى الصَّحراءِ، الّتي تَسترْخي مُتَّكِئَةً على عَتَبَةِ دارِها وفي فِنائِها، قافِلَةً كَأنّـها مُقْبِلَةٌ مِن جانِبِ الشّامِ، فَلَبِثَتْ تَنْشُدُ فيها أَمَلَها، وإنْ لمْ تَطْمَحْ به فلا أَقَلَّ مِنْ أن تَرْسُمَ هذهِ القافِلَةُ في نَفْسِها رُسوماً مُبْهَمَةً، إلّا أنّـها مُفْرِحَةٌ أيضاً، تَتَنَفَّسُ في فُؤادِها بنَدىً رَوِيّ.

مَرّتِ القافِلَةُ تَخُبُّ تَحْتَ شُرْفَتِها، وكانَ حادي الإبِلِ يُشْجي الرَّكْبَ بصَوْتِهِ العَذْبِ النَّغَمات:

أُرَيـنِـبُ لَـيْـتَـنِـي وُسِّـدْتُ قَـبْـراً ولمْ أَفْعَلْ، ففَي الأَحْشاءِ نارُ
«نَـدِمْـتُ نَـدَامَـةَ الـكُـسَـعِـيِّ لَمّا غَـدَتْ مِـنّـي مُـطَـلَّـقَـةً نُـوارُ»
يَـطـيـفُ عـلـى فُـؤادي رُوحُ آهٍ وذَوْبُ أَسىً، وفي كَبِدي آنفطَارُ
أُرَيـنِـبُ، أَنْتِ ذِكْرى مِنْ نَعيمٍ ومِنْ طُهْرٍ، ومِنْ عَبَقٍ يُثَارُ
أُرَيـنِـبُ، هـلْ تَـرِفُّ عَـلَـيَّ دُنْـيا مِنَ الأَحْلامِ، هلْ ثَوْبٌ يُعارُ؟
ذَكَـرْتُ وفـي فُـؤادي نَـوْحُ بـاكٍ هَـوانـا، والـضَّـمـيـرُ بـهِ أُوارُ
وَهَـلْ قَـدَرٌ يُـطـالِـعُـنَـا بِـفَـجْـرٍ ويَمْرَحُ في مَسَارِحِهِ النَّـهـارُ
فَـنَـسْـعَـدَ، والأَصـيـلُ لـهُ آفـتِـرارٌ ونَـنْـشى، والـغُـدُوُّ لَـهُ آزْدِهـارُ

فَسَقَطَتْ على نَفْسِها هَلْكى. ولمْ تَكُ إلّا أيّامٌ مِنْ حُلولِ الرَّكْبِ حَتّى شاعَ خَبَرُ عَبْدِ اللّهِ في العِراقِ، وتَناهى إلى سَمْعِها، فلمْ تَعُدْ تَعي. وكانَتْ لا تُرى إلّا

مُوَلَّهَةً حَتّى عنْ وَحيدِها المُفَدّى. وكانَتْ لا تُرى إلّا مُعْتَنِقَةً لهُ، تَشُدُّهُ إليْها مُدَلَّهَةً، كأنّها تَطْلُبُ فيهِ رِيّاً، ولكنّها ظَلّتْ ظَمْأى، وظَلّتْ كأنّها لاهِثَةٌ تَطْلُبُ النَّدى والرِّيّ.

لمْ تُطِقْ بَقاءً في العِراقِ بَعْدُ، فقدِ آسْوَدَّتْ نَواحيهِ في نَواحي نَفْسِها، فآنطَلَقَتْ بَحَشَمِها وذَويها إلى المَدينَةِ، تَطْلُبُ فيها دُنْيا جَديدةً، تُغْري خَيالَها في أنّها أصْبَحَتْ مَخْلوقاً جَديداً آحْتُضِرَ في نَفْسِهِ الماضي، والذِّكْرَيَاتُ. رَثَتْ لها نِساءُ المَدينَةِ، وذَهَبْنَ يواسينَها بكُلِّ ما عِنْدَ المَرْأةِ مِنْ خِصْبِ عاطِفَةٍ، والنِّساءُ يُحْسِسْنَ، بالمآسي بنَوْعٍ خاصٍّ، مُكَبَّرَةً ذاتَ مُبالغَاتٍ، وفي شُعورِهِنَّ شُيوعٌ، فَهُنَّ يُحْسِسْنَ بِأَنفُسِهِنَّ في كُلِّ مَأْسَاةٍ تَقَعُ، ويَجِدْنَ قُلوبَهُنَّ في النَّكَباتِ، وهذا الشُّيوعُ في الشُّعُورِ جَعَلَهُنَّ يَشْعُرْنَ بأَحْداثِ الآلامِ قَبْلَ وُقوعِها، وجَعَلَهُنَّ أصْدَقَ تَطَلُّعاً، وأَرْهَفَ حِسّاً بالجانِحاتِ الصَّاعِداتِ مِنْ أَعْماقِ المَجْهُولِ، والغارِباتِ الهابِطاتِ إلى أعْماقِهِ.

فَتَجاوَبَتِ المَدينةُ بِمَأْسَاةِ أُرَينِب، على ما أضافَ إليْها النِّساءُ مِنْ رُوحِهِنَّ الآسِيَةِ، فكانَتْ لاذِعَةَ الوَقْعِ، وقيدَةَ الأَثَرِ، شائِكَةً في نَواحي الضَّمير...

أَرْسَلَ مُعاوِيَةُ أبا الدَّرْداءِ وأبا هُرَيْرَة، رَسولَيْنِ مِنْ قِبَلِهِ، يَخْطُبانِ أُرَينِبَ على آبْنِهِ يَزيدَ، فَذَهَبَا إلى العِراقِ، فَبَلَغَهُمَا أنّها آنتقَلَتْ إلى المَدِينَةِ، فَثَنَيَا رَواحِلَهُما إليها.

وكانَ الحُسَيْنُ، إذْ ذاكَ، قَبَسَ الهِدايةِ، ومِشْكَاةَ الطُّهْرِ، ونَموذَجَ الأَخْلاقِ الفاضِلَةِ، وقِبْلَةَ الأَنْظَارِ، وكانَ إلى ذلِكَ، مَفْزَعَ الهَارِبينَ مِنْ وَجْهِ الظُّلْم، وفي رِحابِهِ يَنْتَصِفُ مَهْضومو الحُقوقِ الضُعَفاءُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إلّا ويُحِسُّ في أَعْمَاقِهِ أنّ واجِباً عليهِ أنْ يَخْشَعَ بالمُثولِ بينَ يَدَيْهِ، بلْ يَشْعُرونَ، فوقَ ذلك، أنّه رأْسُ الواجِباتِ. فلمْ يَجِدْ كُلٌّ مِنْ أبي الدَّرْداءِ وصاحِبِه، حينَما هَبَطا المَدينَةَ، بُدّاً مِنْ أَنْ يَبْدَآ بزِيارَتِهِ قَبْلَ أَيِّ وَاجِبٍ آخَرَ، مهما سَمَتْ به قيمَتُه، فَلَمّا مَثَلا بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَدِّمانِ

إليهِ أَنْواعَ الاحْتِرامِ بمُناسَبَةِ قُدومِهِمَا، أَنِسَ إلَيْهِمَا وقابَلَهُمَا بحَفاوَتِهِ الّتي تَعَوَّدَها النَّاسُ منهُ، على آخْتِلافِ منازِلِهِمْ، وكانَتْ فيهِ خَليقَةً وطَبيعَة.

لكنّهُ أَحَسَّ، معَ ذلكَ، أنّ في مَقْدَمِهِما المُفاجىءِ حَدَثاً هامّاً، فقالَ لَهُمَا:

أَلِأَمْرٍ قَدِمْتُما؟

قالا: نَعَم.

قالَ: وما هو؟ فَما كَتَماهُ أنّ مُعاوِيَةَ وَجَّهَهُما في خِطْبَةِ أُرَينِبَ على آبْنِهِ يَزيدَ. فآبْتَسَمَ الحُسَيْنُ آبتِسامَةَ مَنْ قَدْ أَدْرَكَ كُلَّ شَيْءٍ، ومَنْ قَدْ فَهِمَ غايَةَ المُناوَرَةِ وبَالِغَةَ المُداوَرَةِ الّتي باتَ مُعاوِيَةُ يَحيكُ خُيوطَها، ويَنْسِجُها كالعَنْكبوتِ حَوْلَ فريسَتِه... ونَعى إلى نَفْسِه «خَدَعَهُ مُعاوِيَةُ حَتَّى طَلَّقَ آمْرَأَتَهُ، وإنّما أرادَها لِآبْنِهِ. فَبِئْسَ مَنِ آسْتَرْعاهُ اللّهُ أَمْرَ عِبادِهِ، ومَكَّنَهُ في بِلادِهِ، وأَشْرَكَهُ في سُلْطَانِهِ، يَطْلُبُ أمراً بخِدْعَةِ مَنْ جَعَلَ اللّهُ إليهِ أَمْرَه»... وواصَلَ: لَنْ تَهْنَأَ لي حَياةٌ إلّا بإعادَةِ مِياهِ حَياتِهِما إلى مَجْراها، ولَنْ تَقَرَّ عَيْنايَ وأَسْعَدَ، إلّا إذا قَرَّتْ عَيْناهُما بالعَوْدَةِ وسَعِدا، فَفي سَعادَةِ قَلْبَيْنِ مُخْلِصَيْنِ يَنْبِضَانِ بالحُبِّ، ويَخْفُقانِ بالعاطِفَةِ البَريئَةِ سِرُّ سَعادَتي. فَعَلَيَّ أَنْ أَهْدِمَ على مُعاوِيَةَ أحابيلَهُ، وأصيدَه بشِباكِهِ. أُفٍّ للغاشِمينَ الّذينَ يَرْقُصونَ على الأَشْلاءِ، ويَبْتَسِمُونَ في دُموعِ النَّاسِ ويَنْتَشُونَ كما لَوْ بِها يَغْتَسِلُونَ؟ لقدِ آسْتَغْواهُ فباتَ آبْنُ سَلّامٍ طُعْماً في حِبالَتِه.

فَقالَ الحُسَيْنُ لهُما: لقدْ «كُنْتُ أَرَدْتُ نِكاحَها، وقَصَدْتُ الإرْسالَ إليْها، فآخْطُبا عَلَيَّ وعليْهِ، وأَعْطِياها مِنَ المَهْرِ مِثْلَ ما بَذَلَ عنِ آبْنِهِ ولْتَتَخَيَّرْ»...

إسْتَأْذَناها بالدُّخولِ، وبَعْدَ أنِ آسْتَوَى بهِما مَقْعَدُهُمَا، قالَ أبو الدَّرْداءِ:

أَيْ بُنَيَّةُ! إنّكِ لمْ تَزالي شابَّةً في عُنْفُوانِ الشَّبابِ ومَيْعَةِ النَّشاطِ، وأنا بِكِ جِدُّ ضَنينٍ أنْ تَذْهَبي نَهْباً للخَواطِرِ، وتَذْهَبَ نَضارَتُكِ شَعاعاً في آكتِئابٍ. وإذا

ساءَكِ مِنِ آبْنِ سَلّامٍ ما ليْسَ مِنَ الوَفاءِ وما لمْ تَكوني به جَديرَةً، فَعَسى أنْ يَكونَ لَكِ في سِواهُ بَدَلٌ خَيْرٌ.

قالَتْ: مَعاذَ اللّهِ يا أَبَتِ، فقدْ خَبَرْتُ الرِّجالَ وبَلَوْتُ عاطِفَةَ قُلوبِهِمْ فَما حَمِدْتُها، وبحَسْبي فَتايَ أرْعاه.

قالَ أبو هُرَيْرَة: تَمَنَّيْتُ لو كُنْتُكِ، وفَعَلْتُ ما يُشيرُ به أبو الدَّرْداءِ... فآبْتَسَمَتْ وهي لا تَنْتَظِرُ مِنْ مِثْلِهِ مُداعَبَةً، وواصَلَ: وهلْ مِثْلُ أبي الدَّرْداءِ يُرَدُّ ويُخْتَلَفُ عليهِ... ولمْ يَزالا بِها، وتَعَرَّضَتْ لها خِيانَةُ عَبْدِاللّهِ فمالَتْ إلى النِّكايةِ، ورَغِبَتْ بالانْتِقَام.

فقالتْ: وبَعْدُ... فَعَرَفا بذلِكَ إجابتَها.

فقالَ أبو الدَّرْداءِ: أرادَكِ لنَفْسِهِ «أميرُ هذهِ الأُمَّةِ وآبْنُ مَلِكِها، وَوَليُّ عَهْدِهِ والمليكُ مِنْ بَعْدِهِ يَزيدُ بْنُ مُعاوِيَةَ. وكَذلِكَ أرادَكِ الحُسَيْنُ آبْنُ بِنْتِ رَسُولِ اللّهِ، وسَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ. وقدْ جِئْناكِ خاطِبَيْنِ عَلَيْهِمَا، فآخْتَاري أَيَّهُما شِئْتِ»... وهي ما سَمِعَتِ آسْمَ مُعَاوِيَةَ ويَزيدَ حَتّى وَجَمَتْ، وكَظَمَتْ بُرْكانَ حَفيظَتِها، وهلْ هَدَمَ سَعَادَتَها، وهَنَاءَةَ ما كانَتْ فيه إلّا هذانِ وعِصابَتُهما!؟ وهي الّتي طالَما حَذَّرَتْ شَقيقَ قَلْبِها من شِباكِهِما، وَوَدَّتْ لو آعْتَزَلَ عَمَلَهُما، فهلْ تُلْقي نَفْسَها، بكُلِّ آخْتيارٍ وطَواعِيةٍ، في قَبْضَتِهِما القاسِيَةِ الرَّهيبَةِ، فَتُعْتَصَرَ لا! لا! إنّي لَسْتُ فاعِلَةً ولوْ أَوْطَأني يَزيدُ الدِّيباجَ وأَحاطَني بِمِثْلِ زَغَبِ النَّعام!

ليتَ شِعْري! كيفَ أرْضى به، وهَلِ آجْتَوَيْتُ الحَيَاةَ إلّا بسَبيلٍ مِنْهُما؟ وهل فَرَرْتُ وتَشَرَّدْتُ إلّا عَنْهما؟ لَوَدِدْتُ أنْ أعيشَ في دُنْيا لا تَعْرِفُ عِصابَتَهُما أو لا يَعْرِفُونَها. وطالَ بها الصَّمْتُ وهي في مَعْرِضِ خَوَاطِرِها، فقالَ أبو الدَّرْداءِ:

عَلامَ عَوَّلْتِ؟ وأَيَّهُما آخْتَرْتِ؟ فَقَدْ خَيَّلَ لي صَمْتُكِ أنّكِ غَدَوْتِ دُمْيَةً لا

تَنْطِقِينَ... فَٱنقَطَعَتْ سِلْسِلَةُ خَواطِرِها، وكَرِهَتْ رَدَّ وَسيلَتِهِما، فقالتْ:

ومَنْ تَخْتارُ أَنْت؟

قالَ: الأَمْرُ إِليْك.

فقالتْ، مُحْرِجَةً لهُ وَعَلِمَتْ أنّه لَنْ يُفضِّلَ يَزيدَ بِحالٍ: لوْ أنّ «هذا الأَمْرَ جاءَني وأَنْتَ غائِبٌ، لأَشْخَصْتُ فيهِ الرُّسُلَ إليْكَ وٱتَّبَعْتُ فيهِ رَأْيَكَ، فيكفَ وأَنْتَ المُرْسَلُ. فقدْ فَوَّضْتُ أَمْري إليك»، فٱخْتَرْ لي أرْضَاهُما.

فقال: أيْ بُنَيَّةُ! إنّ «ٱبْنَ رَسولِ اللّهِ أَحَبُّ إلَيَّ وأَرْضَى عِنْدي، واللّهُ أَعْلَمُ بخَيْرِهِمَا إليك»... فَٱنبَعَثَ أبو هُرَيْرَة يَقول:

نعمْ. نعمْ. وأنا واللّه «لا أُقَدِّمُ أَحَداً على صاحِبِ فَمٍ قَبَّلَهُ رَسولُ اللّهِ»، فيا لِغِبْطَتِكِ بهذا الفَمِ وهاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ! لَيْتَني كُنْتُ أُرَيْنِبَ، إذاً لَسال لُعابي! وتَلَمَّظَ... فقالَتْ وهي تَضْحَكُ مِنْ قَوْلِهِ:

قَدِ ٱخْتَرْتُهُ.. فَتَزَوَّجَهَا الحُسَيْنُ وساقَ لها مَهْراً عَظيماً، وبَلَغَ ذلكَ مُعاوِيَةَ فتعاظَمَهُ، ولامَهُما أَشَدَّ لَوْمٍ، وقَرَّعَهُمَا أَعنفَ تَقْريعٍ، ولكنّه ٱنقَلَبَ مَعَ ذلِكَ يُرَدِّدُ: «إنّ الباطِلَ كانَ زَهوقا».

كانَ جُهْدُ الحُسَيْنِ، بعدَ ذلكَ مَعها، أنّه يُواسيها، وإذا ذَكَرَتِ ٱبْنَ سَلّامٍ وما سَمَّتهُ خِيانَةً زَوْجِيَّةً، أثنى عليهِ وَهَوَّنَ فِعْلَتَهُ، وأَفْهَمَهَا إيّاها على غَيْرِ الوَجْهِ الذي راحَتْ تَفْهَمُها عليهِ، وأبانَ لها أَنّ الحادِثَ إنْ كانَ فيهِ ما هو عَظيمٌ نَكيرٌ، فإنّما هو إقْدامُ مَنْ هَيَّأَ لهُما أسْبابَ الشَّقاءِ. ثُمّ أَلَمْ تَقولي في بَعْضِ كَلامِكِ إنّه طِفْلٌ، فلا عَجَبَ إذا ٱخْتَلَبوا فيهِ عَقْلَهُ، وٱسْتَبَدُّوا بهَواهُ. فإذا هِيَ تَنْظُرُ إلى ما ٱقْتَرَفَ ٱبْنُ سَلّامٍ مِنْ أُفُقٍ جَديدٍ، وإذا هِيَ تَرى فيهِ أنّه لم يَكُنْ إلّا ضَحِيَّةَ أَغْراضٍ وأَهْواءٍ وشَهَواتِ مِثْلَها، وإذا بها تُدْرِكُ أَنّ مِنْ وَاجِبِها أنْ تُواسِيَهُ جُهْدَها، وقدْ باتَ شَقِيّاً. فَبَدَأَتْ تَحِنُّ

إليهِ، وبَدَأَتْ تُعَاوِدُها ذِكْراهُ في رَغيبَةِ قَلْبٍ، وكانَ الحُسَيْنُ يُحِسُّ هذا منْها، فَيفيضُ بِشْراً وتَتَنَضَّرُ تَقاسيمُ وَجْهِهِ بَشاشةً وإشْراقاً، فقدْ نَجَحَ وأَدْنى قَلْباً باتَ نَفوراً، مِنْ قَلْبٍ باتَ وقدْ تَشَطَّرَ وَيْلاً وثُبورا.

*

أمّا عَبْدُاللّهِ بْنُ سَلّامٍ فقدْ ظَلَّ في الشّامِ يَرْمي الهَيْئَةَ الحاكِمَةَ بكُلِ شَنارٍ وعارٍ، ويَطْعَنُ فيها أَبْلَغَ ما وَسِعَهُ الطَّعْنُ، وهو لا يُبالي غَضَباً ولا رِضىً، إنّه مَفْجوعٌ مَوْتور.

فأطَّرَحَهُ مُعاوِيَةُ لِمكانِ هذا الطَّعْنِ والتَّعْريضِ بالتَّشْنيعِ، وَعَزَلَهُ عنْ إمارَةِ العِراقِ، وقَطَعَ عنهُ رَوافِدَهُ، فَقَلَّ ما في يَدَيْهِ قِلَّةً باتَ مَعَها مُعْدِماً، وغَدا مَثَلاً للبُؤْسِ الحيِّ والشَّقاءِ الشّاخِصِ.

وتَحْتَ إلْحاحِ البُؤْسِ عليْهِ، تَذَكَّرَ أنّه كانَ قَدِ آسْتَوْدَعَ أُرَيْنِبَ مالاً عظيماً، وتَذَكَّرَ أنّها أضْحَتْ في عِصْمَةِ الحُسَيْنِ، وهو لَنْ يَدَعَ لها سَبيلاً للانْتِقامِ «فَتَجْحَدَهُ إيّاهُ لطَلاقِها مِنْ غَيْرِ شَيءٍ»، فآنتَقَلَ إلى المَدِينَةِ ولَقِيَ الحُسَيْنَ وذَكَرَ له ذلِكَ، وهو في شَكْلِ الضَّحيَّةِ الشَّقيَّةِ، والفَريسةِ الطَّريَّةِ الّتي لمْ تَزَلْ آثارُ أنْيابِ السَّبُعِ بارِزَةً فيها، راسِمَةً أنْكَرَ آياتِ وَحْشِيَّتِها، فَرَثى لمَرْآهُ، ورَقَّ له كثيراً وواساهُ كثيراً. فَدَخَلَ الحُسَيْنُ عَلَيْها وحَضَّها على رَدِّ مالِهِ إليهِ، فَقالَتْ:

ها هو بطابَعِهِ لمْ أَمْسَسْهُ... وقَصَدَ حُسَيْنٌ أنْ يُدْخِلَهُ عليْها بِشَقائِهِ، فلا بُدَّ أنْ تَتَلَقّاهُ بشَفَقَتِها وحنانِها دونَ غِلْظَةٍ أو جَفْوَةٍ. وكذلكَ كانَ، فتلاقَيا وآسْتَصْبرا طَويلاً في ذُهولٍ ووُجومٍ، وَغَفَلا عَنْ وُجودِ الحُسَيْنِ بِقُرْبِهِما، فَتَواقَفَتْ نَظَراتُهُما ناطِقَةً بالحُبِّ والدَّمْعَةُ طافِيَةٌ، يُخَيَّلُ لِمَنْ رآهُمَا أنّ مِنْ وَراءِ عَيْنَيْهِما قَلْبَيْنِ يُطِلّانِ، وقَدْ تَدانَيا كَثيراً حَتّى رَسَما دائِرةً تَدورُ فيها لَحْظَةُ حُبٍّ نَشْوى.

وكانَتْ عَيْنا الحُسَيْنِ تَشِعّانِ بِالسُّرورِ؛ وأَخَذَ طَريقَهُ إلى الهَيكَلِ وقَدِ آنصَرَفَ عَنْهُما زَوْجَيْنِ، كَيْ يَشْتَمِلَ عليهِ المِحرابُ مِنْ جَديدٍ، إنّه جِدُّ مُغْتَبِطِ الرّوحِ.

*

حَطَّتْ فَراشَةٌ بَيْضاءُ كَأَنّها الزَّهْرَةُ على كَتِفِ غُصْنٍ يَميسُ، وكانَتْ ناعِمَةً تَلْهو بأَغاني سَعادَتِها...

فَبَصُرَ بها عَنْكَبوتٌ صَغيرٌ، وَدَّ لو يَرْوي بهَناءَتِها شَهَواتِ نَفْسِه الحَرّى...

وما لَبِثَ حَتّى جاءَ قَوْمُ العَناكِبِ يُبادِرُ، وراحَ يَنْسِجُ شِباكَهُ مِنْ حَوْلِها...

وإذْ ذاكَ حَوَّمَ بُلْبُلٌ غِرّيدٌ كانَ يَنْشُرُ بأَلْحانِهِ في الأَرْواحِ نَشَواتٍ مُنْعِشاتٍ، وحَطَّ حَيْثُ آنتَصَبَتْ أَشْراكُ المَأْساة...

فَنَقَدَ القَوْمَ نَقْدَةً، ومَضى يُغَرِّدُ تَغْريداً كانَ مَعْناهُ: «ومَكَروا ومَكَرَ اللّهُ، واللّهُ خَيْرُ الماكِرين...».

*

ظَنّ «الصَّغيرُ» أنّ القُوَّةَ هي كُلُّ شَيءٍ، وفَوْقَ كُلِّ شَيء...

وظَنّ «الكَبيرُ» أنّ الحيلَةَ هي كُلُّ شَيءٍ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيءٍ...

ولكنْ حينَ وَقَعَ الحَقُّ في شَخْصِ الإنْسانِ الكامِلِ، «بَطَلَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وآنقَلَبُوا صاغِرين»!...

* * *

تقوى

كانَ يَوْماً آزْدَهَتْ فيه دَمَشْقُ بِكُلِّ أفانِينِها، وبَرَزَتْ فيه بِكُلِّ فُتُونِها، هذا اليَوْمُ الّذي أَطَلَّ معهُ الرَّبيعُ في آبتِسامَةِ الأزْهَارِ وعَبَقِ آبْتِسامَتِها، مُرَصَّعاً بخُيوطِ الشَّمْسِ المُقَنَّعَةِ بِقِناعٍ من المُزْنِ الرّقيقِ الشَّفّاف.

كانَ عادَةً، عِندَ ناسِها، آسْتِقْبَالُ الرَّبيعِ بِأَشْيَاءِ الأُنْسِ والحَفَاوَةِ، وبما تُوحيهِ المُتْعَةُ المُسْتَبْشِرَةُ، فكانَ يُخَيَّلَ للمُشاهِدِ أنّهم نَسُوا حَتّى الزَّمانَ في وُجودِهِمْ، ثُمّ لَمْ يَذْكُرُوا إلّا ما هُمْ فيهِ مِنْ أسْبابِ اللَّهْوِ العابِثِ البَريءِ، فَيُقْبِلُونَ عليهِ بِلَهْفَةِ الظّامىءِ على اليَنْبُوعِ، ويَنْطَلِقُونَ في مَدى كُلِّ مَغْنىً نَضيرٍ، وَيَنتَثِرُونَ آنتِثارَ الطَّيْرِ في كُلِّ فَضاء.

فَمِنْ هُنا تَنْبَعِثُ ضَحِكاتٌ، ومِنْ هُناكَ تَنْطَلِقُ زَقْزَقاتٌ مِنْ غَنَنِ الطُّفولَةِ، ومِنْ هذا الوَجْهِ جَمْعٌ يَحْلُمُونَ في أُنْسٍ ومُتْعَةٍ شَرودٍ، وعلى ذاكَ الوَجْهِ قَوْمٌ يَنْعَمُونَ في مِثْلِ وَثْبِ الظِّباءِ وخَطَراتِ الوُعولِ، وتَلَفَّعَتِ الآفاقُ، في حِسِّ هؤلاءِ اللّاهينَ، بِكِلَلٍ مِنْ أَلَقِ فَرْحَةٍ كُبْرى.

وكانَ هذا اليَوْمُ كأنّه، في حِسِّ الفَلَكِ، ساعَةٌ مِنْ لاوَعْيِ الزَّمنِ، يَسْبَحُ منها في عَرْبَدَةٍ حالِمَةٍ أو أَحْلامٍ مُعَرْبدَةٍ. وعَزيزٌ على الحَيِّ الشّاعِرِ، أنْ تَطيفَ به هذهِ السّاعَةُ مِنْ لاوَعْيِ الزّمانِ، ولا يَغْرَقُ معها في خِضَمِّ النِّسْيانِ مِنْ قُيودِ الوَعْيِ والفِكْرِ.

فِي هذا اليَوْمِ كانَ مُعاوِيَةُ في قَصْرِهِ المَشيدِ، وفي الجَناحِ الغارِقِ بالمُتَعِ، يَقْطِفُ مَعَ جَمْعٍ مِن حاشِيَتِهِ زَنْبقَةَ زَهْوِ اليَوْم. وكانَ بُدَيْحٌ مَوْلى عَبْدِ اللّهِ بْنِ جَعْفرٍ يُؤْنِسُهُم بطَرائِفِ أَخْبارِهِ ومُلَحِ نَوادِرِه، فَٱنتَهَى به الحَديثُ إلى أَخْبارِ صابِئَةِ الإغْريقِ الحَرّانِيّينَ، وعَجائِبِ ما شاهَدَ بينَهم، وكانَ فيما قالَ:

كَأنّ نِساءَهُمْ خُلِقْنَ مِن طَبيعَةِ الجَمالِ، إنْ لمْ تَكُنْ فِكْرَةُ الجَمَالِ صيغَتْ مِن طَبيعَتِهِنّ، بلْ لَعَلَّهُنَّ في بَحْرِ الجَمالِ لآلِئُهُ. فقدْ ٱفتَنَّ فيهِنّ إبداعُ الخَلْقِ حَدّاً أَبْرَزَهُنَّ مُثُلاً ناطِقَةً بالفَنّ... فأيَّةُ تَقاطيعَ في أيٍّ وَجْهٍ؟؟... ودارَ بِهِ ناظِرُهُ كالّذي تَذَكَّرَ صَبابَةً قَديمَةً طَبَعَ عَلَيْها الإخْفَاقُ، فَأَرْسَلَ آهَةً طَويلَةً ٱخْتَنَقَتْ في حَلْقِهِ قَبْلَ نِهايَتِها...

قالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: لكَأنّ لك بَينَهُنَّ ذِكْرى طَرِيَّةً بِمَوْقِعِها على قَلْبِك، وإنْ قَدُمَ بها العَهْدُ... فراحَ يُحاوِلُ الإخْفاءَ على شَتّى مَذاهِبِهِ وأساليبِهِ، ولكنْ كانَ في عَيْنَيْهِ ما يُفْصِحُ بكُلِّ خَبَرِ قَلْبِهِ، فقدْ غَدَتا تُغْفِيانِ تَحْتَ هَباءَةٍ كَثيفَةٍ مِنَ الذُّهُولِ، حَتّى لَيَظُنُّ النّاظِرُ إلى مُقْلَتَيْهِ أنّهما جَمَدَتا في غَيْرِ حَياةٍ، لولا بصيصٌ رَفيعُ الخُيوطِ كانَتا تُرْسِلانِهِ قَلِقاً، على أنّهُ مالَ يَتَخافَتُ فيما تَمَوَّهَتْ به عَيْناهُ مِنْ دَمْعٍ رَقيقٍ، لَمّا يُؤْذَنْ له فَيَنْحَدِر.

وبَيْنا هُمْ على تَرَسُّلِهِمْ وَتَبَسُّطِهِمْ، ٱستَأْذَنَ الحاجِبُ، وأَعْلَمَ المَلِكَ أنّ كَبيرَ النَّخّاسينَ أتى بجارِيَةٍ فائِقَةٍ «يَوَدُّ عَرْضَها» فقدْ كانَ مُتَعارَفاً أنّه يَبْدَأُ بالقَصْرِ، فَيَعْرِضُ عليهِ ما يَهْبِطُ به مِن الإِمَاءِ والغِلْمانِ، فَأَذِنَ المَلِكُ، وأُجْرِيَتْ «مَراسيمُ» الدُّخُولِ.

وكانَ عَجبُ الحُضورِ كَبيراً حينَما مَثَلَتْ بينَهُمْ، فهي تَتَمَتَّعُ بأَكْبَرِ قِسْطٍ من جَمالِ الرُّؤى فَوقَ الخَوالِبِ مِنَ القَسَماتِ، حتّى لقدْ كانَ يَتَراءى للكَثيرينَ مِنْهم أنّهم يُبْصِرونَ مَنْظَراً مِن جَمالٍ فَنٍّ خَياليٍّ، يَجيءُ مِن دونِهِ كُلُّ ما في طاقَةِ الحَياةِ

مِنْ فَنِّ الجَمال.

هَبطَتْ على جَمْعِهِمْ هُبوطَ اليَرَعَةِ على جَماعَةِ الطَّيْرِ في الغابِ مَعَ ظَلامِ المَساءِ. فآهْتَزَّتْ أعْصَابُهُمْ كالأوْتَارِ، ونَطَقَتْ بلَحْنِ الحَنينِ المَوّاجِ، فحامَتْ في مَدى بَدَواتِ هذا الإبْداعِ. كانَتْ على أعْصَابِهِمْ صَدْمَةَ جَمالٍ فَعَلتْ فيها مِثْلَما تَفْعَلُ صَدْمَةُ الضَّوْءِ، أو النَّغَمِ، الّتي يَتَجاوَبُ مَعَها فَضاءُ النَّفْسِ الخَلاءِ بِنَوْعِ آهْتِزازِها، فَتَميدُ أوْ تَذْهَلُ، والصَّدْمَةُ الشُّعُورِيَّةُ كُلَّما كانتْ أَشَدَّ تَمَكُّناً مِن الأعْصابِ كانَتْ أكْثَرَ تَأْثيراً، وأَدْوَمَ أمَدا.

وهذهِ الفَتاةُ الكاعِبُ تَرَكَتْ فيهِمْ أَثراً أخّاذاً حادّاً لم يَزَلْ يَتَزَايَدُ، حتّى باتوا مِنْهَا مِثْلَ النِّحالِ، وقدْ عَرَض لها مِصْباحٌ كَثيرُ التَّوَقُّدِ والألَقِ في لِسانِ الشُّعَاعِ.

وكانَ في هذا الذُّهُولِ الّذي عَراهُم، ما جَعَلَ أحَداً لا يَفْطَنُ إلى ما آسْتَبَدَّ بِبُدَيْحٍ مِن آضطِّرابٍ، وما تَمَلَّكَهُ مِن تَلَهُّفٍ، كما لمْ يَفْطَنْ أحَدٌ أيضاً إلى ما ساوَرَها مِن خَلَجاتٍ عَنيفَةٍ كَظَمَتْها، فَعَرْبَدَتْ على قِمَمِ مُقْلَتَيْها ناطِقَةً باللَّحْظِ الوَثّابِ. كانَ لِناظِرٍ أنْ يَقْدُرَ أنّ بُدَيْحاً أكْثَرُهُمْ أخْذاً بِها لأنّه كانَ أكْثَرَ تَذَوُّقاً للجَمالِ، وأمّا أنْ يَقْدُرَ أنّها بالذّاتِ نَفْسُ فاتِنَتِهِ الّتي آحْتَفَظَ بِها ذِكْرى نَدِيَّةً بالغَرامِ، وعَرَضَتْ لنَفْسِهِ مُنْذُ هُنَيْهَةٍ في بَعْضِ الحَديثِ، فهذا ما لمْ يَكُنْ يَقَعُ في مَذْهَبِ الخاطِرِ المُرْسَلِ.

لقدْ قَطَعَ هَدْأَةَ وُجُومِ الانْجِذابِ، مُعاوِيَةُ بِقَوْلِهِ مُخاطِباً كَبيرَ النَّخّاسينَ: لَشَدَّ ما أدْهَشَتْنَا حَوْرَاؤُكَ، فَمِنْ أَيْنَ هي ؟ وما آسْمُها ؟

قالَ الرَّجُلُ: «إسْمُها هَوى»... فآنبَعَثَ بُسْرُ بْنُ أَرْطَأَةَ آنبِعاثاً يَقولُ:

«هي واللّهِ كآسْمِها هَوى»، تَخْفِضُ منه وَتَرْفَعُ، وتُطيلُ به وتُقْصِرُ، وتَنْشُرُ منه وتَطْوي.

قالَ عَمْرو بْنُ العاص: وماذا يَكُونُ الهَوَى إنْ لم تَكُنْهُ؟ وكانَ بُدَيْحٌ قَدْ ضَبَطَ أَرْشِيَةَ قَلْبِهِ الفائِرِ بالذِّكْرى والحُبِّ، والآلامِ والبُعْدِ والقُرْبِ، أو القُرْبِ الّذي كانَ في مَعْنَاهُ نُقْطَةَ الغَوْرِ في البُعْدِ السَّحِيقِ. شَعَرَ الآنَ فقطْ أنّها نَأَتْ عنهُ وإلى الأبَدِ، أمَا عُرِضَتْ على المَلِكِ ونالَتِ آسْتِحْسَانَهُ وحَظِيَتْ بإعْجَابِهِ، فهو لا مَحالَةَ سَيَضُمُّها إلى جُمْلَةِ وَصائِفِ القَصْرِ وَوَلائِدِهِ، فكانَ في حِسِّ نَفْسِهِ كأنّه يَعَضُّ على جانِبِ قَلْبِهِ يَمْضَغُه.

كيفَ لمْ يَبْتَعِثْهُ القَدَرُ إلى الخُرُوجِ مُنْذُ هُنَيْهَةٍ وَيَتَلَقَّاها عَرَضاً، فقدْ كانَ يَحولُ بينَها وبينَ الدُّخولِ ويَحْظى بها لنَفْسِهِ، وهو الّذي ظَلَّ يَتَمَنَّى حياتَهُ لَحْظَةَ لِقاءٍ منْها. لقدْ مَدَّهُ القَدَرُ بساعَةِ لِقاءٍ عَفْواً، ولكنّ فيها مَرارَةَ النِّكايَةِ والتَّلْوِيحِ اليَائِسِ، فَفَاضَتْ نَفْسُهُ حَسَراتٍ، بَيْدَ أنَّه ظَلَّ يُعالِجُ مَشاعِرَهُ، ويَحْتَمي وَراءَ بَراقِعَ صَفِيقَةٍ مِنَ التَّجَلُّدِ، فَقال:

مِثْلما هي بَراعِمُ الأَزْهَارِ كانَتْ حُقّاً للجَمالِ والعَبيرِ في الزَّهْرَةِ، فَلِلْعَواطِفِ الحَيَّةِ حِقاقٌ أو براعِمُ، تَتَفَتَّقُ عنْ زَهْرَةِ جَمالٍ أيْضاً، وعن زَهْرَةِ هَوىً أحْياناً، وعنْ زَهَراتِ مَعانٍ أُخْرى أيْضاً.

وهذهِ آلغادَةُ كما أَراكُمْ تُحِسُّونَ ـ بُرْعُمَةُ الهَوَى في دُنْيا القَلْبِ الشَّاعِرِ ـ تَتَنَفَّسُ بأريجِهِ مَعَ السِّحَرِ النَّدِيِّ كما تَتَنَفَّسُ الوُرودُ. وفي حِسّي أنّ الأزْهَارَ تُعَبِّرُ عَنِ العَواطِفِ المُجْتَمِعَةِ في قَلْبِ الطَّبيعَةِ الصَّامِتَةِ، كما تُعَبِّرُ هذهِ الغانياتُ عنِ العَواطِفِ المُجْتَمِعَةِ في ضَميرِ الطَّبيعَةِ الحَيَّةِ، وقَلْبِ الإنْسانِ.

وفي غابِرِ أيّامي، مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَواتِ شَبابِ القَلْبِ، أَحْدَثَتُ هَوىً وأَحْدَثْتُ فيه بهذا المَعْنى شِعْراً:

يا وَرْدَةً في رِياضِ الحُبِّ يانِعَةً ... تُزْجي الهَوى، كُلَّما مَرَّ الهوا فيها
هَيّا آنشُري عِطْرَكِ الغَاني الّذي آمْتَزَجَتْ ... بِهِ الدُّمُوعُ، وَرَوَّتْهُ مآقيها

فَسِرُّ عِطْرِكِ هذا، أَدْمُعٌ سُكِبَتْ   على جُذورِكِ في نَجْوى لَياليها
ثُمَّ آسْتَحالَتْ عَبيراً مِنْ طَهارَتِها   فَنَوِّهي بالهَوى ما شِئْتِ تَنْويها
فَأَنتِ ذِكْرى مُحِبٍّ طالَما آحْتَبَسَتْ   أَنْفاسُهُ، ثُمَّ خانَتْهُ خَوافيها
كَمْ مِنْ صَريعِ هَوىً، قَدْ عاجَ مُنْتَحِياً   إلى ظِلالِكِ شاقَتْهُ مَغانيها
فَراحَ يَنْظِمُ آهاتٍ مُقَطَّعَةً   وراحَ يَنْثُرُ مَغْنىً مِن مَعانيها
حَتّى آنتَهى،في خِضَمِّ الدَّهْرِ مِثْلَ صَدىً   وأَنْتَ ذِكْرى هَواهُ بِتَّ تُحْييها[1]

وكانَ بُدَيْحٌ يُنْشِدُها بصَوْتٍ زافِرِ الرَّنّاتِ، خافِتِ المقاطِعِ والكلِماتِ، وبوَجْهٍ ساهِمِ النَّظَراتِ بادي الذُّهُولِ، حَتّى لقدْ خُيِّلَ لكَثيرٍ مِمَّنْ حَضَرَ أَنّه آسْتَحالَ صَدىً، كما راحَ يُنْشِدُ وَيقولُ.

فقالَ مُعاوِيَةُ: لكَأنّي بِكَ، يا بُدَيْحُ، أحْدَثْتَ بها هَوىً جَديداً.

قالَ بُدَيْحٌ: بَلْ إنّما تَعَلَّقْتُ بأَسْبابِ هَوىً قَديمٍ، وآسْتَيْقَظَ في قَلْبي رَسيسُ حُبٍّ ضاقَ بِهِ النِّسْيانُ. وآنقَطَعَ بِهِمْ عارِضُ الحَديثِ، فَعادَ النَّخّاسُ إلى مَقالِهِ:

وهيَ صابِئَةُ المَنْبِتِ والنِّجارِ، تَرَقّى إليَّ أنّها أُعِدَّتْ لتَكونَ كاهِنَةً في هَيْكَلِ رَبَّةِ الجَمالِ عندَهم، والصّابِئَةُ يَتَحَرَّوْنَ في مِثْلِها أنْ تَكونَ نَسَقاً في الملامِحِ والتَّقاطيعِ والشَّكْلِ مَعَ آلِهَتِهِمْ، لِتُبْرَزَ لهمْ في المواسِمِ والأَعْيادِ، وكأنّ رَبَّةَ الجَمالِ بَرَزَتْ لهم أو تَقَمَّصَتْها، فآنتَهَتْ بها صُروفُ الأقْدارِ إلى حَيْثُ تَرى.

والعَجَبُ ـ يا أميرَ المُؤمِنينَ ـ أنّها ذاتُ فَلْسَفَةٍ في الحياةِ رَغِبَتْ بها عَنْ مُتَعِ الحَياةِ، أَلْقَتْها في مِثْلِ الزُّهْدِ.

---

(١) من قصيدةٍ لي في وردةٍ كُنتُ غَرستُها «أيّامَ زمان»، كما يقولون، حين كانت لي دارٌ وكانت لي حديقةٌ... كما هو الشأن في المقطعاتِ الشعريّةِ الأُخرى المبثوثةِ في أقصوصة «مع أُرَيْنِب».

وأَعْجَبُ من هذا أنّها سَكَنَتْ إلى الإسْلامِ، وآطْمَأَنَّتْ إليه فَآعتَنَقَتْهُ، وأتَتْ في فَهْمِهِ بالعَجَبِ العُجاب...

قالَ مُعاوِيَةُ ناشِطاً: كيفَ تَقول؟

قالَ: نَعمْ هو ما أقولُ لكَ... فَضَمَّها إلى قَصْرِهِ، وقَدْ بَذَلَ فيها «مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ». وواصَلَ: لقدْ صَدَقَ واللّهِ بُدَيْحٌ في ما مَضى يُحَدِّثُكُمْ به...

ولكنْ لمْ تَبْعُدِ الوَصائِفُ بها، حَتّى آسْتَوى وكانَ مُتَّكِئاً، فَقال:

«لِمَنْ تَصْلُحُ هذهِ الجارِيَة؟»

قالَ عَمرو بْنُ العاصِ: مَنْ «سِوى أَميرِ المُؤْمنينَ تَصْلُحُ له»؟ وكذلِكَ «قال آخَرُ وآخَرُ»، ومُعاوِيَةُ يقولُ لا، ويَبْتَسِمُ كالّذي يُعابِيهِم.

وبَعْدَ أنْ أخَذَ مِنْهُمُ التَّشَوُّفُ مَأْخَذَهُ، وتَزَايَدَهُم التَّلَهُّفُ - والرَّاغِبُ يَكونُ آمِلاً أبداً - فَكانَ أَكْثَرَهُمْ تَشَوُّقاً بُدَيْحٌ، فقدْ عَرَضَ في خَاطِرِهِ أنّ مُعاوِيَةَ قَرَأ قَلْبَه. وبعدَ أنْ نَطَقَتِ التَّظِنَّةُ البادِيَةُ على وُجوهِهِمْ أيضاً، وبَعْدَ لأْيٍ، قالَ لهم مُعاوِيَة:

إنَّها بروحِيَّتِها وكَمالِها لا تَصْلُحُ إلّا للحُسَيْنِ، «فإنَّه أحقُّ بها، لِما لهُ مِنَ الشَّرَفِ، ولِما كَانَ قَدْ شَجَرَ بَيْننا وبَيْنَ أبيهِ»...فآرْتَسَمَتْ على وَجْهِ الحُضورِ آثارُ مَشاعِرَ مُخْتَلِفَةٍ مُتناقِضَةٍ. أمّا بُدَيْحٌ فكانَ مَحَلّاً لأَنْوَاعِ شَتّى مِنَ الشُّعُورِ، فَقَدِ آنشَرَحَ وآكْتَأَبَ، وطَرِبَ وَحَزِنَ، في دَرَجَةٍ واحِدَةٍ مِن الانْفِعَالِ. إنَّه أَمَلَ أنْ يَكونَ مَوْضِعاً لسُقوطِ هذا النَّدى، وتَمَنَّى، وهو الظّامِىءُ بالهَوى، أن تَكونَ رِيَّهُ هذهِ الغادَةُ الّتي هي غادَةُ قَلْبِهِ، ولكنْ خابَ أمَلُهُ فآكْتَأَبَ. بَيْدَ أنّه مَشى في حواشي هذا الاكتِئَابِ عِنْدَهُ آنشِراحٌ، مَصْدَرُهُ أنّ الحُسَيْنَ، وهو المُنتَشي برَحيقِ الهَيْكَلِ والمُسْتَغْرِقُ في التَّأَمُّلِ الإلهيِّ، أَضْحَتْ صِنْوَ مَقامِهِ بَيْنَ آلِ أبي طالِبِ، هو يَتَشَهّى

أنْ تَكونَ قَريبَةً منهُ وكَفى، إنَّه يُريدُها مُتْعَةَ قَلْبٍ وقدْ سَقَطَ على أُمْنِيَّتِهِ منْها.

فَفَارَ في نَفْسِهِ يَنْبوعُ بِشْرٍ، ضَحِكَ مَعَهُ ضِحْكاً خَفِيّاً في الخَيالِ، وزادَ به حَتّى آنفَجَرَ يَضْحَكُ كالمُعَرْبِدِ الغَرِدِ، مِمّا جَعَلَ الحُضورَ يَرْمُقُونَهُ بِآسْتِغْرابٍ، وطافَ على أَلْسِنَتِهِمْ: ما بالُ بُدَيْحٍ؟... ولكنْ قَطَعَهُ عليهمْ بِقَوْلِهِ:

إنّها سَتَكونُ مُفاجَأَةً لَذَّةَ الوَقْعِ على الحُسَيْنِ، لا سِيَّما وقدْ كانَتْ كاهِنَةً في هَيْكَلِ رَبَّةِ الجَمالِ، وهو الحالِمُ الهائِمُ بالجَمالِ المُفْعَمِ بِهِ ضَميرُ الوُجودِ.

بعدَما تَناوَلَتْها الوصائِفُ بالتَّطْرِيَةِ والهَنْدَمَةِ مع أُسْلوبِ القَصْرِ، بَرَزَتْ كالرَّبَّةِ الّتي تَحْلُمُ، وآلبُحَيْرَةُ تَصْطَفِقُ بِأَمْوَاجِهَا الرَّقيقَةِ عندَ الشَّاطىء.

كانَتْ ساحِرَةَ اللَّفْتَةِ صَارِخَةَ الفِتْنَةِ، مُغْرِيَةَ الجَمالِ، ولكنّها تُرى، معَ ذلِكَ، كالهائِمَةِ مَعَ ضَميرِها. فلمْ تَكُنْ بِمَنْظَرِهَا تُثيرُ أَصْداءَ الشَّهَوَاتِ، بلْ تَنْشُرُ أحْلاماً نَشْوى مِنْ أَحْلامِ الرُّوحِ، تُلْقي النَّاظِرَ قَسْراً في مِثْلِ المِحْرابِ الّذي يُشيعُ في القَلْبِ مِثْلَ مَعْنى صَلاةٍ خاشِعَة.

وهذا اللّونُ مِن الجَمالِ غَيْرُ مُحَبَّبٍ إلّا للهائِمينَ في دُنْيا ضَمائِرِهِمْ، وأمّا الآخَرونَ الّذينَ يَهيمونَ في دُنْيا أعْصابِهِمْ ويَنْطَلِقونَ في مَدى رُسومِها، فإنّهم يَنْفِرُونَ مِن هذا الجَمالِ الّذي يُغْريهِمْ بِمَعْنىً مُبْهَمٍ لا يَتَذَوَّقُونَهُ، فَيطْعَمُونَ فيهِ مَرارَةَ الفَقْدِ، ثُمَّ لا يُحَرِّكُ أيَّ وَتَرٍ مِنْ أوْتارِ قَيْثارَةِ خَيالِهِمْ المُرَكَّبَةِ تَرْكيباً لا تَنْطِقُ معهُ بِمِثْلِ هذا الجَمالِ، أوْ تَنْطِقُ بنَغَماتٍ مُتَنافِرَةٍ توحي بالمَرارَة.

إنّ طَبيعَةَ الإنْسانِ المَعْنَوِيَّةَ مُرَكَّبَةٌ تَرْكيباً نَغَمِيّاً (موسيقيّاً) لأنه مُتَناغِمٌ بِطَبيعةِ تَأْليفِهِ العُضْوِيّ، وهي ـ على نَسَقِ أَوْتارِها المُتَحَرِّكَةِ بريشَةِ البواعِثِ، إذا صَحَّ هذا التَّعْبيرُ ـ مُتَنَوِّعَةُ الألْحَانِ والإيحاءِ. فمِنْها ما يُوحي بالشَّهْوَةِ، ومنْها ما يُغْري بالتَّأَمُّلِ، ومنْها ما يَجيشُ بالدِّماءِ، ومنْها ما يَمورُ بالحنانِ والحُبِّ، ومنْها ما يَدْفَعُ إلى

الاسْتِعْلاءِ. إنّ اللَّذَّةَ، في حَقيقَتِها، آنطِباعاتٌ وآرْتِساماتٌ، فإذا مَرَّتْ بالنَّفْسِ نَماذِجُها آسْتَجابَتْ إليْها، وتَحَرَّكَتْ معَها حَرَكَةَ آنسِجامٍ لاذّة.

أَمْضَتْ في القَصْرِ أرْبَعينَ يَوْماً، كانَتْ لا تَفْتَأُ خِلالَها تُفَكِّرُ في مُصادَفَةِ هذا اللِّقاءِ مَعَ بُدَيْحٍ، وهيَ الّتي باتَتْ في يَأْسٍ مِن لِقائِهِ، وقد باعَدَتْ بينَهما أسْبابٌ وأزْمان.

وذَهَبَتْ تُناجي نَفْسَها: وَيْحَ بُدَيْحٍ، إنَّه لمْ يَزَلْ في مِثْلِ يَقَظَةِ عَواطِفِهِ لَيْلَةَ لِقائِنَا للمَرَّةِ الأُولى، بَيْنَ أَرْوِقَةِ هَيْكَلِ فينوس. وَيْحَ بُدَيْحٍ! لقدْ كابَدَ في سَبيلي كَثيراً، وتَجَرَّعَ أمَرَّ الغُصَصِ وآلآلامِ مِن أجْلي، ثُمّ تَناهى بِهِ بُعادٌ يَعْتَصِرُ عليهِ قَلْبَهُ، فكمْ ذا يُقاسي؟

يا ما أَلَذَّ وَقْفَةَ آنتِظارٍ، في لَحَظاتِ تَوَلُّهٍ وتَلَهُّفٍ، كُنْتُ أقِفُها عندَ بَعْضِ أعْمِدَةِ الهَيْكَلِ، وبُدَيْحٌ مُقْبِلٌ تَحْتَ رِداءِ اللّيْلِ يُمْتِعُني بِنَفْسِهِ في جَلْوَةِ قَلْبٍ مُغْرَمٍ، أضْفَتْ عليْها خُلْوَةُ الأحْلامِ! يا ما أقْدَسَ تِلْكَ الرَّعَشاتِ، وأعْذَبَ وَقْعَها!!

إنّي لأَذْكُرُ تلكَ اللّيْلَةَ، وقدْ هَبَّتْ فيها الأعاصيرُ، ولَعِبَتْ في مَسْرَحِها العاصِفَةُ، وكانَتِ الآفاقُ تَزْأَرُ زَئيراً مُخيفاً، والغَمامُ يَهْبِطُ مع جُنْحِ الظَّلامِ كَثيفاً كَثيفاً، كأنَّهُ شاءَ أنْ يَطْمُرَ الأرْضَ بما هو مُنْزَرِعٌ فيها مِن الحياةِ والأحْياءِ، وكانَتِ الرِّمالُ تَتَعالى وتَتَعانَقُ في شَكْلِ الأَقْواسِ، وذُعِرَتْ فيها حَتّى طُيورُ اللّيْلِ، فآنكَفَأَتْ مُنْكَمِشَةً مُنْخَنِسَةً... في المغاوِرِ والحفائِرِ، وقَدْ أمْسَكَتْ حَتّى الرِّكْزَ والهَمْسَ مِن نَأْمَتِها.

وإنّي لَتَمَنَّيْتُ، وأنا واقِفَةٌ عندَ عَمودِ الـرِّوَاقِ الدّاخليِّ، أَنْ لا يَأْتيَ في لَيْلَةِ بُرْكانِ السَّماءِ. وبَيْنا أنا وَاجِفَةُ اللُّبِّ بالتَّخَوُّفِ والتَّرقُّبِ، أُحْرِقُ قَلْبي للرَّبَّةِ قُرْباناً كي تَحوطَهُ وتَرْعاهُ، إذا هو مُقْبِلٌ كَأَنَّما رَمى بِهِ الإعْصارُ في العَراءِ، وتَمَخَّضَتْ عنهُ

العاصِفَةُ وَوَضَعَتْهُ في التَّيّارِ الدّائِرِ في جُنون.

أَسْرعْتُ إليهِ أعْتَنِقُهُ دونَ الهَيْكَلِ، وهو يَلُفُّني كُتْلَةَ طُفولَةٍ، حَذَراً عَلَيَّ مِن طَيْشِ هذا اللّيْلِ، وفي الهَيْكَلِ آسْتَنَدَ إلى صَدْري كالّذي خَرَجَ مِن المَعْرَكَةِ ظافِراً، يُجَدِّدُ حَياتَهُ في حِسٍّ مَخْلوقٍ جَديدٍ، إنّه خَرَجَ ظافِراً مِن مَعْرَكَةِ العَناصِرِ، وقَدِ آسْتَدارَتْ عليهِ بضَراوَتِها. إسْتَنَدَ إلى صَدْرِي وآطْمَأَنَّ كأنّه يَجِدُ فيهِ يَنبوعَ حَياةٍ، فهو يَسْتَمِدُّهُ بَعْضَ ما آنتَهَبَتْهُ العاصِفَةُ، وهو يُصارِعُ الإعْصار.

قُلْتُ له، وأنا أُدَغْدِغُ جَبْهَتَهُ وأَعْبَثُ بشَعْرِهِ المُتَطَلِّلِ(٢) الّذي كَمَنَتْ فيهِ أصابِعُ العاصِفَةِ: لِماذا رُكوبُكَ الإعْصارَ إلى مِحْرابِ حُبِّنا؟ لكَأَنَّكَ مِن عَدَمِ مُبالاتِكَ مُحِبٌّ فَوْقَ بُرْكانٍ... فآبْتَسَمَ وأَخَذَ وَجْهي بَيْنَ كَفَّيْهِ يَقول:

أَأَعْرِفُ أنّكِ تُصَلّينَ في مِحْرابِ الحُبِّ ولا أسْعى إليكِ بأَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، كَيْ أُشارِكَكِ تَرْنيمَةَ الهَوى وَتَرْتيلَةَ الهُيام؟ إنّكِ لَتَقْسينَ عَلَيَّ في الظَّنِّ بي.

قُلْتُ: عَفْوَكَ! أَرَدْتُ أنْ تَتَّخِذَ لِنَفْسِكَ مِحْراباً في الذِّكْرى، ولا تَتَجَشَّمَ هذهِ الأَخْطارَ إلَيَّ.

قالَ: إنّ مِحْرابَ الذِّكْرى يُغْري بالظَّمَأِ في الحُبِّ ويُضاعِفُ شُعورَهُ، وأمّا الرِّيُّ في الحُبِّ فإنّما يَهْبِطُ في مِحْرابِ هذا الصَّدْرِ الّذي يَمْرَحُ في فَضائِهِ قَلْبٌ يَمُدُّ بنَدى الغَرام.

إيهِ غادَةَ أحْلامي! لَيْسَتِ العاصِفَةُ الرَّعوبُ هي الّتي تَشْهَدينَ في حَواشي هذا اللّيْلِ، وإنّما هي عاصِفَةُ القَلْبِ وقدْ فارَتْ فيه فائِرَةُ آلتِياعِ، بلْ تِلْكَ، بجَنْبِ هذهِ، زَغْرَداتٌ وآبتِسامَاتٌ وَزَقْزَقَاتٌ تُرْسِلُها الطَّيْرُ مَعَ السَّحَرِ... قَسَماً لو حالَتْ دونَكِ أرْضٌ زُرِعَتْ فيها كُلُّ البَراكينِ، لتَخَطَّيتُها إليكِ مُغْتَبِطاً مَسْرورا.

---

(٢) نَعْني بالمُتَطَلِّلِ المُتَّخِذَ شَكْلَ الأَطْلالِ، وتَفَعَّلَ بهذا المَعْنى قياسِيّ.

فَقُلْتُ مُعْتَرِضَةً: لا تُبالِغْ، فإنّ هذا بينَ البَشَرِ لا يَكونُ، وإنّما هو مِن طِباعِ الرَّبّاتِ والأرْبابِ... فَذَهَبَ ضاحِكاً يَقُصُّ عَلَيَّ قِصَّةَ ذلكَ العاشِقِ الكُرْدِيِّ الّذي طَلَبَتْ منهُ فَتاةُ هَواهُ وَرْدَةً حَمْراءَ وأُخْرى صَفْراءَ، وكانَتْ حَديقَةُ الوُرودِ في يَقَظَةِ حُرّاسٍ أَشِدّاءَ، وفي عَيْنِ أُسودٍ غِضابٍ، ويَفْصِلُ دونَها نَهْرٌ يَعُجُّ بِالتّيّاراتِ، فَانطَلَقَ العاشِقُ في مَدى رَغْبَتِها يَخوضُ النَّهْرَ، وتَقَلَّبَ في حَدِيقَةِ الوُرودِ يَبْحَثُ عَنِ الوَرْدَةِ الحَمْراءِ فلمْ يَجِدْها. فَعادَ مُبلَّلَ الثِّيابِ يقولُ لها مُبْتَهِجاً: لَقَدْ أَتَيْتُكِ بِهِما... فإنّهُ كانَ يَحْمِلُ في يَدِهِ الوَرْدَةَ الصَّفْراءَ، وأمّا الوَرْدَةُ الحَمْراءُ فَكانَ يَحمِلُها في صَدْرِه ثُغْرَةً فَوّارَةً بالدِّماءِ، فقدْ أصابَ سَهْمُ الحُرّاسِ قَلْبَهُ فَشَطَرَهُ...

قُلْتُ لهُ مُفْجَعَةً: أيَكونُ ذلكَ حَقّا؟!

قالَ: لَيْسَ هو بَعيداً عنكِ، ألا فَآمْتَحِني فيَّ العاشِقَ الكُرْديَّ. أقولُ لكِ وأنا أعْني ما أقول، لو تَحَدَّتْني كُلُّ أرْبابِ الأُولِمْبِ كما تَحَدَّتْ هِرَقْلَ لَقاوَمْتُها في سَبيلِكِ ساخِراً بِقُوّتِها... فَأَخَذْتُ عليهِ سَبيلَ الاسْتِمْرارِ، وقُلْتُ له:

بِحَقّي لا «تُجَدِّفْ» على الأَرْبابِ، وأيْضاً في هَيْكَلِ رَبَّةِ الجَمالِ فينوس، إنّي أخافُ عليكَ... فَآنقَلَبَ يُقَهْقِهُ قائِلاً:

لِماذا لا تُفَكِّرينَ أنّكِ أنْتِ الرَّبَّةُ الحَقيقيّةُ، وأمّا فينوسُ فَرَبَّةٌ خَياليَّةٌ أَثيريَّةٌ فَقَدَتْ حَرارَتَها، وبِإبْرازِكِ كاهِنَةً في هَيْكَلِها، يَمُدّونَ وُجودَها البارِدَ في الخَيالِ، بحَرارَةِ أنْتِ تَنْشُرينَها وتُوَزِّعينَها. فَوَضَعْتُ يَدي مُتَوَلِّهَةً على فَمِهِ أقول:

لا! لا أُريدُ أنْ أسْمَعَ منْكَ تَجْديفاً. آهِ لقدْ فَجَعْتَني، أَأَنْتَ أيضاً يا بُدَيْحُ تَتَكَلَّمُ بـ «الهَرْطقات»؟...

لقدْ كُنْتُ في ذلكَ الحينِ مُؤْمِنَةً بِقُدْرَةِ الرَّبّاتِ، وأنا أَرْغَبُ على مَنْ أُحِبُّ بأنْ يَكونَ مِثْلي رَأْياً وإيماناً، لكنّني عَرَفْتُ، بعدَ ذلكَ، أنّ بُدَيْحاً كانَ أَعْمَقَ منّي

مَعْرِفَةً وأَهْدى تَفْكِيراً.

لقدْ كُنْتُ مُفْعَمَةً بالإيمانِ، فَصَوَّرَهُ لي حَديثُهُ صورَةً مُنْكَرَةً توحي بالشَّرِّ الكَريهِ، فآنقَبَضْتُ عنهُ وذُعِرْتُ منه، وبالَغَ بي هذا الذُّعْرُ فَكَرِهْتُهُ، وعُدْتُ بعدَ ذلكَ أتَحاشاهُ وأَنفِرُ مِنه، أَودُّ أنْ لا أراهُ. وكُنْتُ أُسائِلُ نَفْسي: أيَكُونُ بُدَيْعٌ مُجَدِّفاً وهو في نَفْسي صورَةٌ مِن مَلاكٍ؟ كَلّا لا أَوَدُّ أنْ أَخْنُقَ بيَدِي بُدَيْحاً العائِشَ في خَيالي، أَوَدُّ ألّا تَتَشَوَّهَ صورَتُهُ في نَفْسي، وأنا، إذا آجْتَمَعْتُ إلى بُدَيْحٍ سَتَمْتَدُّ يَدُهُ إلى تَشْويهِ ما آسْتَوى في خَيالي عنْه. ولكنّ بُدَيْحاً الخَياليَّ مُحَبَّبٌ إلَيَّ الحُبَّ كُلَّهُ، وأتَمَنّى أنْ أظَلَّ مُتَمَتِّعَةً به، مُنْتَشِيَةً بِمِثالِيَّـتِهِ، ومِثْلي كاهِنَةٌ راضَتْ نَفْسَها على الأَحْلام، إنّما تُحِبُّ في أَحْلامِ الرّوحِ دونَ حُبٌّ في أحْلامِ الأَعْصابِ، فكانَ طَبيعيّاً أنْ كُنْتُ أَتَوارى كُلَّما تَعَرَّضَ لي بعدَ ذلكَ. وهذا ما يَقَعُ إذا لمْ يَكُنِ الإيمانُ فِكْرَةً في النَّـفْسِ، بلْ كانَ عُقْدَةً في الرُّوحِ؛ أو أَزْمَةً في الوِجْدانِ. وكُلَّما كانَ إيمانُ الـمَرْءِ عُقْدَةً في الرّوحِ تَكونُ عَواطِفُهُ قاصِرَةً على مَنْ يُشارِكُهُ هذا الإيمانَ دونَ سِواهُ، بلْ يَتَعَدّى ذلكَ فَتُساوِرُهُ نَزَغاتٌ يَتَحَرَّكُ معَها تَعَصُّبُه.

أمّا الفِكْرُ الـمُجَرَّدُ فإنّه لا يَعْرِفُ تَعَصُّباً، وإنّـما التَّعَصُّبُ في مَكانِ الوِجْدانِ مِن النَّفْسِ، فهيَ، أيْ نَزَواتُ النَّفْسِ، تَـتَحَكَّمُ بالعَواطِفِ وتُكْسِبُها لَوْنَها. وكُلَّما كانَ الفِكرُ أَكْثَرَ ضيقاً، والوِجْدانُ أكْبَرَ عُقَداً، فهُناكَ يوجَدُ شَرُّ أنْواعِ التَّعَصُّبِ، وعندَه يَسْتَضيقُ المَرْءُ حتّى بوُجودِ مَنْ لا يُشارِكُونَهُ عَقيدَةَ الإيمانِ على لونٍ مَا ونَحْوٍ ما. ولا شَكَّ في أنّ هذا بَعْضٌ مِن طَبيعَةِ الأنانيّةِ في البَشَريِّ ولَا أقولُ الإنْسانَ، فإذا كانَ في التَّدَيُّنِ فِكْرَةُ إيمانٍ فهُناكَ تَدَيُّنٌ صَحيحٌ على نَهْجٍ إنْسانيٍّ، وأمّا إذا كانَ في التَّدَيُّنِ أنانيّةُ إيمانٍ فهُناكَ أخْطَرُ شَكْلٍ مِنْ أشْكالِ اللّاإنسانيَّةِ النَّكْراء.

فَنَزْعَةُ التَّدَيُّنِ الصَّحِيحَةُ هي الّتي تَجْعَلُنَا نَحْكُمُ الإيمانَ بالفِكْرِ، دونَ العَكْسِ الّذي يَتَوَلَّدُ من أزْمَةِ نَفْسٍ ويُوَلِّدُ أَزْمَةَ نَفْسٍ وحَياةٍ أيْضاً. أمّا الفِكْرُ فليسَ يَقْبَلُ

عُقْدَةً، بلْ مِن وَظيفَتِهِ أنْ يَحُلَّ العُقَدَ في النَّفْسِ الإنْسانِيَّةِ والحياةِ والوُجودِ... وهو إذا قَبِلَ العُقَدَ أحْياناً فإنّما يَقْبَلُهَا في ضَرْبٍ مِن الامْتِحانِ، وفي ضُروبٍ خَفيَّةٍ مِن الارْتِيابِ، فالفِكْرُ يُرادِفُ الامْتِحانَ أوِ النَّقْدَ المُجَرَّدَ. وَتَقَدُّمُ الإنْسانِ مَعْناهُ تَقَدُّمُهُ في الفِكْرِ الّذي يُنْتِجُ حَلَّ أكْبَرِ مِقْدارٍ مِن العُقَدِ. وفي ظَنّي اليَوْمَ أنّ تَقَدُّمَ الفِكْرِ ليسَ مَعْناهُ القُدْرَةَ أو الغِنى في التَّفْكِيرِ، بل مَعْناهُ الكَفاءَةُ على التَّفْكِيرِ بدونِ أعْصابٍ، أي بِتَجَرُّدٍ للفِكْرِ، ومِنْ ثَمَّ لا نُحِبُّ أو نَكْرَهُ وَفْقَ مَا نَعْتَقِدُ ونَهْوَى، ولا يَضُرُّ بِنا القُرْبُ أوِ البُعْدُ، بلْ تَمَّحي فِكْرَتُهُما ثُمّ لا تَتَصَرَّفُ بعَواطِفِنَا تَبَعاً لهما.

ليتَني كُنْتُ أَعْرِفُ هذا مِن قَبْلُ، إذاً لَمَا جَفَوْتُهُ ونَفَرْتُ منهُ، وظَلَلْنا في مُتْعَةِ الحُبِّ الخالِدِ... لقدْ رَأى بُدَيْحُ مِنّي ذلِكَ الإعْرَاضَ فلمْ يُطِقِ الحَيَاةَ وآجْتَواها، فَذَهَبَ على وَجْهِهِ، لا أَدْري أيْنَ رَمَتْ بِهِ يَدُ الأقْدارِ؟

ولقدْ أحْسَسْتُ واللّهِ، بعدَ ما فَقَدْتُهُ، بالأسى الواخِزِ الأَسيفِ، فَطَلَبْتُ السَّلْوَةَ في الشُّرودِ بالمَعْرِفَةِ، فآندَفَعْتُ إلى فِكْرٍ جَديدٍ؛ وهَجَرْتُ الهَيْكَلَ وآبْتَدَأْتُ رِحْلَتي ورَاءَهُ مِن نُقْطَةٍ هائِمَةٍ، فَآنتَهَتْ بي قَرَاصِنَةُ الرُّومِ إلى حَيْثُ مَكاني، وكانَ قَدَراً ماتِعاً، فقدْ رَأَيْتُ بُدَيْحاً...

بَعْدَ مَقامٍ قَصيرٍ في البَلاطِ «حُمِلَتْ إلى المَدِينَةِ مَشْفوعَةً بأَمْوالٍ عَظيمَةٍ وهَدايا كَثيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، ومُحاطَةً بِكوْكبَةٍ مِن الفُرْسانِ، وَزَوَّدَ المَلِكُ رَئيسَ الرَّكْبِ كِتابَهُ إلى الحُسَيْنِ، جاءَ فيه:

إنَّ أميرَ المُؤْمِنينَ آشْتَرَى جَارِيَةً فأَعْجَبَتْهُ فآثَرَكَ بها».

أُدْخِلَتْ على الحُسَيْنِ وهو مُنْصَرِفٌ إلى قُرْآنِهِ، سابِحٌ في مدى تَأَمُّلاتِهِ يَقْرَأُ «وجاءَتْ سَيّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قالَ يا بُشْرايَ، هذا غُلامٌ. وأَسَرّوهُ بِضاعَةً. واللّهُ عَليمٌ بِما يَعْمَلُون».

وكانَ في الجوِّ الّذي يَكْتَنِفُ الحُسَيْنَ ما أعادَ إلَيْها ذِكْرى الهَيْكَلِ، ونَقَلَها إلى مِثْلِ المِحْرابِ، وزادَ بها هذا الشُّعورُ، فاْعْتَقَدَتْ يَقيناً أنّها لم تَعُدْ في شَيءٍ مِمّا يَتَّصِلُ بدُنْيا النّاسِ، فَحَفَّتْها سَكينَةٌ، ولَفَّتها هَدْأةُ رُوحٍ، وغَرِقَتْ في خِضَمٍّ بَعيدِ القَرارِ. وأَحَسَّتْ أنّها مِثْلُ غِرْنيقٍ (طَيْرِ الماءِ) تَتَرَجَّحُ به الأمْواجُ الحالِماتُ، وكانَتْ سَكْرى بِمَا يَسّاقَطُ إلى سَمْعِها مِن نَغَماتٍ مَسْحُورَةٍ، تَشْعُرُ بها في مَدى رُوحِها عَذْبَةً نَدِيَّة.

كانَتْ لها هَدْأةٌ طَويلةٌ لم تُفِقْ منْها إلّا على صَوْتِ الحُسَيْنِ يَسْتَقْبِلُ رَئيسَ الرَّكبِ، وراحَ هذا يُخْبِرُهُ بكُلِّ خَبَرِها، ويَرْوي له كُلَّ ما تَرقَّى إلى سَمْعِهِ مِن أنْبائِها. فاْلتَفَتَ الحُسَيْنُ إليْها في ٱبتِسامَةٍ مُواسِيَةٍ يَقول:

لَظَنّي بكِ، وأنْتِ جَديدَةُ عَهْدٍ بالاغْتِرابِ، أَنَّكِ موحَشَةُ النَّفْسِ، وبوِدّي أنْ تَتَدارَكَكِ حالٌ تَأْنَسينَ بها وتَطْمَئِنّين.

قالتْ لهُ هَوى: كُنْتُ خَليقَةً بالوَحْشَةِ في غَيْرِ مَكانِكَ. ولكِنَّني، وأنا فيه، فإنّي جَديرَةٌ بٱطْمِئْنانٍ في النَّفْسِ والضَّميرِ...

شاعَتْ على وَجْهِ الحُسَيْنِ ٱبتِسامَةٌ هادِئَةٌ هانِئَةٌ، وقالَ دَهِشاً: لقدْ سَبَقَ إلى ظَنّي أنّكِ لا تُجيدينَ العَرَبيَّةَ على نَسَقِ ما أَسْمَعُ، ولكنْ أمّا وأنْتِ مِثْلُ أَصيلَةٍ في اللّسانِ، فلنْ تَكوني غَريبَةً عن حَياةِ بيئَتِنا العَرَبيَّةِ، إنْ لمْ تَتَذَوَّقيها مِثْلَ أصيلَةٍ فيها أيْضاً...

فٱبتَسَمَتْ في ٱسْتِحْياءٍ وإغضاءٍ وقالَت: بلْ يا مَوْلايَ ـ لأُحِسُّ في كَنَفِكَ أنّي عَرَبيّةٌ صَليبَةٌ، عَريقَةُ الهَوَى والقَلْبِ في مَواقِعِ رَغَباتِها ومُيولِها، ولقدْ حَبَّبَ إليّ لِسانَ العَرَبِ أنّه يَتَمَتَّعُ بأَكْبَرِ قِسْطٍ مِن وَحْيِ الطَّبيعَةِ والفِطْرَةِ، ففيهِ صُوَرٌ وأَضْداءٌ، ومَناظِرُ تامَّةٌ صادِقَةٌ ٱنتُزِعَتْ مِنَ الطَّبيعَةِ مُباشَرَةً، وسُكِبَتْ في قَوالِبِ

الأَلفَاظِ بِدِقَّةٍ وحَقيقَةٍ، بلْ لقدْ أفرغَتِ الطَّبيعَةُ أَشْيَاءَ ذاتِيَّـتِها في الكلِمَاتِ، كَأنّـها طَلَبَتْ حَرَكَتَها الحَيَّة في اللُّغَة.

وفي لِسانِ العَرَبِ أيْضاً مَشاعِرُ وأحاسيسُ إنْسانيَّةٌ وحَيَوَيَّةٌ، لمْ تَـتَحَرَّفْ وتَـتَكَسَّرْ بتَحَكُّمِ الفِكْرِ وٱخْتِلاقِهِ، وبعِبارَةٍ أصَحُّ تَشْويهِهِ. فهذا اللّسانُ طَبيعَةٌ وحَياةٌ وإنْسانيَّةٌ في أصْدَقِ أَلْوانِها، ومُفْرَداتُهُ كَلِماتُ الطَّبيعَةِ أوَّلَ ما تَحَرَّكَتْ ونَطَقَتْ، فقدْ تَصَيَّدَهَا العَرَبيُّ وٱنتَحَتَها، وهو بَعْدُ يَتَوَجَّهُ بالقَريحَةِ النَّقِيَّةِ، دونَ ٱلتِواءاتِ الفِكْرِ والْتِفَافاتِهِ، فهيَ أَنْقى ما تَكونُ لُغَةً في مَذْهَبِ التَّعْبير.

ولقدْ عَمَدْتُ إلى كَهْفِ روحي فَوَجَدْتُه قاتِماً حالِكاً، ورَأَيْتُ مِصْباحَ فِكْري خابِياً، وهو إذا تَوَقَّدَ وَشَعَّ، فلا يُضيءُ كَهْفَ روحي، وأَظَلُّ منهُ في دَيْجورٍ، فقدْ حِيلَ بينَهُما بسُدودٍ كَثيفَةٍ صَفيقَةٍ، لكنَّني وَجَدْتُ دينَكُمُ الجَديدَ قدْ حَاوَلَ، ونَجَحَ إلى أَكْبَرِ حَدٍّ، في رَفْعِ هذهِ السُّدودِ القائِمَةِ في دُروبِ النَّفْسِ، وأَذْكَى شُعْلَةَ الفِكْرِ، فاتَّـصَلَ ما بَيْنَ الفِكْرِ والرُّوحِ بِالشُّعَاعِ وبِتُّ مُتَأَلِّقَةَ المَعْنى، فَسَكَنْتُ إلى دِينِكُمْ، وطَعِمْتُهُ أيْضاً فَتَعَشَّقْتُهُ، إنَّه رَفَعَ السُّدودَ في دُروبِ روحي، وكانَتْ هائِمَةً مُتَخَبِّطَةً بَيْنَ سَدٍّ وسَدٍّ، وأَطْلالِ خُرافاتٍ وأساطير.

قالَ: لِلّهِ أنْتِ! أَكُنْتِ حَكيمَةً أم أديبَةً؟ هَلْ «تُجيدينَ القُرْآنَ» تِلاوَةً؟

قالتْ: نَعَمْ.

قالَ: فاقْرَئي عَلَيَّ، إنْ شِئْتِ... فَراحَت تَتْلو «وعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلّا هُوَ، ويَعْلَمُ ما في البَرِّ والبَحْرِ، وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلّا يَعْلَمُها، وَلا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرْضِ، ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلّا في كِتابٍ مُبينٍ. وهُو الّذي يتوفَّاكُمْ باللَّيْلِ، ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بالنَّهارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فيهِ لِيُقْضى أجَلٌ مُسَمّىً، ثُمَّ إلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ. وهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ، ويُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

حَفَظَةً، حَتّى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا، وهُمْ لا يُفَرِّطونَ. ثُمّ رُدّوا إلى اللّهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ، ألا لَهُ الحُكْمُ وهُوَ أَسْرَعُ الحاسِبينَ»... وكانَتْ تَتَواجَدُ في تِلاوَتِها تَواجُدَ مَنْ قَدْ أُخِذَ بِنَشْوَةٍ مُفْعَمَة.

قالَ لها: يُخَيَّلُ إلَيَّ أنّكِ أكْثَرُ وَعْياً لِهذهِ الآياتِ مِنْ كَثيرٍ مِنَ العَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، لِما رَأَيْتُ عليكِ من سَبَحاتِ الخَشْيَةِ.

قالتْ: بِوِدّي أنْ أكونَ عِنْدَ ظَنِّ مَوْلايَ بي. ولِمَ لا يَعْروني ما قدْ عراني؟ وأنا أَتْلو هذهِ الآياتِ القَوارِعَ الّتي تَجْعَلُني في مُحيطِ عَلِمَ اللّهُ وكَأنّي كُلُّ ما في المُحيطِ أوْ لَيْسَ غَيْري فيه، على أنّنا مِن هذهِ الحَياةِ في مَسْرَحٍ نَقُوم عليهِ بأَدْوارِنا، ولَسْنا نَدْري أمُحْسِنونَ نحنُ في أدْوارِنا أمْ مُسيئونَ، ثُمّ هلْ هُناكَ أنْقى تَصْويراً لعَلاقةِ اللّهِ السَّبَبيَّةِ في الوُجُودِ، ولعَلاقَةِ اللّهِ الأَدَبيَّةِ بالإنْسانِ؟ أمَا في كُلِّ هذا ما يَبْعَثُ على الدَّهْشَةِ والخَشْيَةِ جَميعاً؟ أما فيهِ ما يُغْري الرُّوحَ بلَحْظَةِ سَكينَةٍ وهَدْأةِ تَأمُّلٍ؟

وكانَ الحُسَيْنُ يُقاطِعُها بقولِهِ: إيهِ! إيهِ أيْ بُنَيَّةُ، فقدْ أَحْسَنْتِ واللّهِ!...

وواصَلَتْ تَقولُ: أمَا يَجِدُ مَوْلايَ في الوُقُوفِ عندَ هذا التَّعْبيرِ «مَفاتِحُ الغَيْبِ» ما يَبْعَثُ على التَّأمُّلِ الطَّويلِ، ويَنْشُرُ في القَلْبِ وَجْمَةَ تَفْكيرٍ مَديدٍ؟ هذا التَّعْبيرِ الّذي يَرْسُمُ الغَيْبَ في الخَيالِ على هَيْئَةِ أدْراجٍ قامَتْ عليْها الأغْلاقُ، وفي كُلِّ أشْياءِ الوُجُودِ والطَّبيعَةِ غَيْبٌ مَسْتورٌ، أوْ فَضاءٌ ودُنْيا مِنْ عالَمٍ غَيْبيٍّ مَحْجوبٍ، فالشَّيْءُ مِن الوُجودِ دَرَجٌ غَيْبيٌّ يَسْبَحُ فيهِ عالَمٌ خَفيٌّ مَديدٌ، وعنْدَ اللّهِ مِفْتاحُهُ، وما مُحاوَلاتُنا الحثيثَةُ في آسْتِكْناهِهِ إلّا غَوْصٌ ووُقوفٌ عنْدَ الشَّاطِىءِ بإزاءِ هذا المَجْهول المُنْتَظَرِ وُضُوحُهُ بكَلِمَةِ «مَفاتِح» الدّائِرَةِ في حَرَكتِها على الأغْلاقِ.

قالَ: لقدْ زِدْتِ على الإحسانِ، أيْ بُنَيَّةُ... وأضْفى صُموتٌ طَويلٌ كانَ

مَسْرَحَ خِواطِرَ شَتّى، ولكنّ الحُسَيْنَ قَطَعَهُ بقَوْلِهِ:

ألا تَرْوينَ «شَيْئاً مِنْ شِعْرِ العَرَبِ» وأَدَبِهِم؟

قالتْ: بَلى... وكانَتْ لمْ تَزَلْ في إثارَةٍ مِن صوفِيَّتِها، فَأَنْشَدَتْهُ أبْياتاً جاءَ بينَها:

أنْتَ نِعْمَ المَتاعُ لوْ كُنْتَ تَبقى   غَيْرَ أنْ لا بَقاءَ لِلإنسانِ

وَلذّها الإنْشادُ في هذا اللَّوْنِ المُبطَّنِ بالرّوحِ ولَفَتاتِ الإشْراقِ، فأَنْشَدَتْهُ شِعْراً سَبَقَ لها أنّـها أنْشَأَتْهُ مُعَبِّرَةً عَنْ شُعورِ نَفْسِها «في مَجْلِسِ مُعاوِيَةَ»، وما قدْ كَوَّنَتْهُ مِن نَظْرَةٍ إلى الحياةِ وقيمَتِها وجُهْدِ الحَيِّ فيها:

رَأَيْتُ الفَتَى يَمْضي ويَجْمَعُ جُهْدَهُ   رَجاءَ الغِنى، والوارِثونَ قُعودُ

وَما لِلْفَتى إلّا نَصيبٌ مِنَ التُّقى   إذا فارَقَ الدُّنْيا عَلَيْهِ يَعودُ

فلمْ يَمْلِكِ الحُسَيْنُ إلّا أنْ يَتَواجَدَ، وما هُوَ إلّا أنْ فاضَ في قَلْبِهِ يَنْبوعُ حَنانٍ، تَنَدَّتْ معهُ مُقْلَتاهُ، وتَبَلْوَرَ فيهِما مِثْلُ الدَّمْعِ، وإلّا فهو عُصارَةُ شُعورٍ بعَبَقِ التَّقْوى. ثُمَّ قالَ لها: إذْهَبي «فَأَنـتِ حُـرَّةٌ، وما بَعَثَ بِهِ مُعاوِيَةُ مَعَكِ فهو لَكِ»، على أنّـكِ عِنْدي أبَداً مِثْلُ كَريمَـةٍ عَزيزَةِ المـكانِ في هَوى أَهْلِها...

وما هو حَتّى أَقْبَلَ بُدَيْحٌ يَسْتَأْذِنُ عليْهِ، فقدْ أَوْفَدَهُ مَوْلاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ إلى دَعْوَةِ الحُسَيْنِ، ولكنّهُ ما إنْ مَثَلَ بينَ يَدَيْهِ حتّى رأى مَهاةَ قَلْبِهِ مَرَّةً أُخرى، بَيْدَ أنّه في هذهِ المَرّةِ كانَ أَعْنَفَ شُعوراً بِها، فقدْ جَدَّدَتْ عَهْدَ هَواهُ في دِمَشْقَ، وقدْ أحالَتْ قَلْبَهُ الّذي كانَ كَشِلْوٍ تَناهى في حُبٍّ ضامِرٍ قَديمٍ، إلى قَلْبٍ جَديدِ حَياةٍ، آنصَبَّ فيه جَديدُ حُبٍّ ما فَصَلَ عَنْه أمْسٌ وغَدٌ. فَتاهَتْ حُروفُ كَلِماتِهِ في فَمِهِ، وآخْتُضِرَتْ مُضطَّرِبَةً على لِسانِهِ، وقَسْراً وَجَمَ في ذُهولٍ طالَ به مَداه...

وتَدارَكها مِثْلُ شُعورِهِ وغُصّةِ قَلْبِهِ فآنخَطَفَ لَوْنُها، والحُسَيْنُ يَرى فَأَطْرَقَ إطْراقَةً مائِجَةً بالإيحاءِ. مَرَّ في خاطِرِهِ مَعَها أنّ بُدَيْحاً يَنْتَهي إلى مِثْلِ غُرْبَتِها، فَغَيْرُ بَعيدٍ أنْ تَكونَ ذاتَ هَوىً بِهِ وضَرَبَ الزَّمانُ بينَهُما، فباعَدَهُما قَدَرٌ عادَ في دَوْرَةٍ أُخْرى يَضُمُّهُما... وجَديرٌ بي أنْ أكونَ خَطَّ النِّهايَةِ في دَوْرَةِ القَدَرِ المُبْهَمَةِ، فآلتَفَتَ إلى بُدَيْحٍ وقال:

كُنْتُ على أُهْبَةٍ أنْ أَسْتَقْدِمَكَ إليَّ يا بُدَيْحُ، فَسَقَطْتَ مِنْ نَفْسي على مَوْعِدٍ، أنْتَ عنْدي مِثْلُ كَريمٍ عَزيزٍ، وهيَ عِنْدي مِثْلُ... فآسْتَخَفَّ بِبُدَيْحٍ عاصِفُ فَرْحَةٍ كُبْرى، حَتى كَأنَّـهُ دُفِعَ إلى الخُلْدِ مِن نافِذَةٍ، بعدَ أنْ حيلَ بينَه وبينَ البابِ طَويلاً. ولمْ يُرَ إلّا مُكِبّاً على يَدِ الحُسَيْنِ يُقَبِّلُها، في مَوْضِعٍ تَلاقى عليهِ ثَغْران: ثَغْرُه وثَغْرُها.

وكانَ في مَنْظَرِ وَضْعِهِما ما أَفْعَمَ قَلْبَ الحُسَيْنِ بِغِبْطَةِ الرُّوحِ «ففاضَتْ مُقْلَتاهُ» بدَمْعِ السُّرورِ، السُّرورِ غَيْرِ المحدُودِ. وبَذَلَ لهُما «أَلْفَ دينارٍ، وقامَ إلى صَلاتِهِ» هانِـيءَ القَلْبِ رَيّانَ، ناعِمَ الضَّميرِ نَشْوان...

*

جاؤوا يَقْتَنِصونَهُ بغانيَةٍ مِنْ فُتونِ الدُّنْيا...

لَعَلَّهُمْ يَهْبِطونَ بِهِ إلى مِثْلِ حَضيضِهم ورُغامِهِم...

بَيْدَ أنّـها ما آسْتَهْوَتْهُ، على أنّه قَدِ آسْتَهْواها...

فقدْ مَسّها بشُعْلَةٍ مِن الإشْراقِ، غَدَتْ بها خَلْقاً آخَر...

*

وَجَدَ قَلْباً حائِراً يَبْحَثُ عن قَلْبٍ تائِه...

وكُلَّما أوْشكا أنْ يَلْتَقِيا، يُضيعانِ الطَّريقَ مَرَّةً أُخرى...

فَكانَ هَمُّهُ أنْ يَصْنَعَهُما سَعيدَيْنِ.. فَضَمَّ قَلْباً إلى قَلْبٍ، ومَزَجَ نَفْساً بنَفْس!....

* * *

إستشارة

أَفَاقَ مَنْ في البَلاطِ الأُمَوِيِّ، على حَرَكاتٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ، آمْتازَتْ بالنَّشاطِ في تجَمُّعاتِ تَشاوُرٍ هامِسٍ، وكانَ جَوُّ هذا التَّجَمُّعِ مَطْبوعاً بطابَعِ الاهْتِمَامِ والجِدِّ، فقدْ أَزْمَعَ أساطينُهُ إِحْداثَ آنقِلابٍ خَطيرٍ يَمَسُّ القاعِدَةَ الأساسِيَّةَ للحُكْمِ، وفَوْقَ ذلكَ أَزْمَعُوا على أخْذِ العَرَبِ بِحُكومَةِ الفَرْدِ، بَعْدَ أنْ راضوهُمْ عليْها أمَداً ليسَ بالقَصيرِ، وبأساليبَ كُلُّها العُنْفُ والاعْتِساف في فَتْرَةٍ طالَتْ ذُؤابَتُها، فكانَتْ تاريخاً آمْتَلأَ بشُهداءِ الحُرِّيَّةِ والشَّعْبِيَّةِ في مَذْهَبِ الحُكْم.

وكانَ قدْ سَبَقَ المَلِكُ وَوَجَّهَ دَعْوَةً عامّةً إلى أُمَراءِ الأَمْصارِ، فآجْتَمَعُوا لَدَيْهِ يَنْتَظِرونَ سَماعَ المُفاجَأةِ الّتي مِنْ شَأْنِ هذا الاهْتِمامِ أنْ يَنْطَوِيَ عليْها. وما هو إلّا أنْ تَكَلَّمَ المُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وكانَتِ السِّنُّ قدْ تَناهَتْ بِهِ، فلمْ يَكُنْ صَوْتُهُ يَبِينُ، فَقال:

تَعْرِفونَ أنّكُمُ الشُّعورُ دونَ الدِّثارِ عندَ المَلِكِ، فعَلَيْكُمْ يَعْتَمِدُ، وأَنْتُمُ البِطانَةُ الّتي عليْها يَتَّكِلُ، فَمَصالِحُكُمْ مُرْتَبِطَةٌ، وأَمْرُكُمْ بأَمْرِهِ مُتَّصِلٌ، وقَدِ آتَّجَهَ رَأْيُ المَلِكِ إلى أمْرٍ خَطيرٍ أَحَبَّ أن يُفاوِضَكُمْ به، ويَسْتَشيرَكُمْ قَبْلَ أنْ يَعْتَزِمَهُ ويَعْقِدَه... فآشْرَأَبَّتْ أَعْناقُهُم وتَطَلَّعوا في إصْغاءٍ مُرْهَفٍ، وواصَلَ المُغيرة:

رَأى المَلِكُ أنْ لا يُتْرَكَ النَّاسُ، بَعْدَهُ، سُدىً «كالضَّأْنِ لا راعِيَ لَها»، وقَدِ آخْتارَ آبْنَهُ الرّشيدَ يَزيدَ، ومَنْ أَكْفَأُ بأعْباءِ هذا الأمْرِ مِنْه؟ وَرَماهُمْ بنَظْرَةٍ فاحِصَةٍ

مُتَحَدِّيَةٍ، وراحوا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ، ولَفَّهُمْ صَمْتٌ طَويلٌ قَطَعَهُ زِيادٌ بِقَوْلِهِ:

«إنّ عَلاقَةَ أَمْرِ الإسْلامِ وضَمانَهُ عَظيمٌ، ويَزيدُ صاحِبُ رَسْلَةٍ وتَهاوُنٍ، مع ما قدْ أُولِعَ به مِنَ الصَّيْدِ، فَرُوَيْدَنا بالأمْر... فَأَقْمِنْ أنْ يَتِمَّ لنا ما نُريدُ. ولا نَعْجَلْ، فإنَّ دَرَكاً في تَأْخِيرٍ، خَيْرٌ مِن تَعْجيلٍ عاقِبَتُهُ الفَوْتُ»، فَقَذَفَهُ المُغيرَةُ بنَظْرَةٍ شَزْرَةٍ صاعِقَةٍ، وقالَ:

أَكُنْتَ تَظُنُّ أنّ المَشورَةَ هُنا مَعْناها إبْداءُ الرَّأْيِ؟ وهلْ نحنُ بحاجةٍ إلى رَأْيِ أَمْثالِكَ؟ إنَّ المَشورَةَ هُنا مَعْناها السَّماعُ والتَّنْفيذُ والطَّاعَةُ فقطْ حَسْبُ. فَهَبَّ عُبَيْدُ بْنُ كَعْبٍ النُّمَيْرِيّ، وكانَ مُسْتَشارَ زِيادٍ، يَشْرَحُ كَلامَهُ وما قَصَدَ إليه، فَقال:

نَعَمْ. هو ما تَقولُ، فليْسَ علَيْنا إلّا السَّمْعُ والطَّاعَةُ، وزِيادٌ «لمْ يُرِدْ أنْ يُفسِدَ على المَلِكِ رَأْيَهُ ويُمَقِّتَ إليهِ آبْنَهُ. وإنّما قَصَدَ أنْ يُخَوِّفَ يَزيدَ مِن خِلافِ النَّاسِ لِهَناتٍ يَنْقِمُونَها عليهِ، فَتَسْتَحْكِمُ للمَلِكِ الحُجَّةُ على النَّاسِ، ويَسْهُلُ له ما يُريد.

فقالَ مُعاوِيَةُ: نِعْمَ ما قُلْتَ، ونِعْمَ ما ذَهَبَ إليه زِياد».

ولمْ يَكُنْ زَمَنٌ طَويلٌ حَتّى أُعْلِنَ ذلكَ في مَسْجِدِ دِمَشْقَ على النَّاسِ، وكانَ مُعَاوِيَةُ قد حَفَلَ له، وطَلَبَ الوُفودَ مِن كُلِّ الأمْصارِ، «وقَرَأَ على الجُموعِ عَهْدَهُ، وفيهِ عَقْدُ الوِلايَةِ ليزَيدَ»، فأُصيبَ بَعْضٌ بِمِثْلِ الذُّهولِ، وبَعْضٌ بِمِثْلِ الطَّيْشِ، وكانَ بينَ هؤلاءِ صَنائِعُ ذَهَبوا يُطَرِّبُونَ ويُزَيِّنونَ، «فقامَ الضَّحّاكُ بْنُ قَيْسٍ فَقال:

يا أَميرَ المُؤْمِنينَ: إنَّه لا بُدّ للنّاسِ مِن والٍ بَعْدَك، والأَنْفُسُ يُغْدى عليْها ويُراحُ، وإنَّ اللّهَ قالَ: «كُلَّ يَوْمٍ هو في شَأْنٍ»، ولا تَدْري ما يَخْتَلِفُ به العَصْرانِ. ويَزيدُ آبْنُ أميرِ المُؤْمِنينَ، في حُسْنِ مَعْدِنِهِ وقَصْدِ سِيرَتِهِ، مِنْ أَفْضَلِنا حِلْماً وأحْكَمِنا عِلْماً، فَوَلِّهِ عَهْدَك، وآجْعَلْهُ لنا عَلَماً بَعْدَك. فإنَّا قد بَلَوْنا الجَماعَةَ والأُلْفَةَ، فَوَجَدْنَاها أَحْقَنَ للدِّماءِ وآمَنَ للسُّبُلِ وخَيْراً في العاقِبَةِ والآجِلَة».

وقالَ عَمْرو بْنُ سَعيد:

«أيُّها النَّاسُ: إنَّ يَزيدَ أَمَلٌ تَأْمَلُونَهُ، وأَجَلٌ تَأْمَنونَهُ، طَويلُ الباعِ، رَحْبُ الذِّراعِ، إذا صِرْتُمْ إلى عَدْلِهِ وَسِعَكُمْ، وإنْ طَلَبْتُمْ رِفْدَهُ أَغْناكُمْ. جَذْعٌ قارِعٌ، سُوبِقَ فَسَبَقَ، ومُوجِدَ فَمَجَدَ، وقُورِعَ فَقَرَعَ. خَلَفاً مِنْ أميرِ المُؤْمِنِينَ، ولا خَلَفَ منه»...

فقالَ مُعَاوِيَةُ: إِجْلِسْ، أبا أُمَيَّةَ، فلقدْ أَوْسَعْتَ وأَحْسَنْتَ.

فقالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: يا أميرَ المُؤْمِنِينَ: «أَنْتَ أَعْلَمُ بِيَزيدَ في لَيْلِهِ ونَهاره، وسِرِّهِ وعَلانِيَّتِهِ، ومَدْخَلِهِ ومَخْرَجِهِ، فإنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ لِلّهِ رِضىً ولِهذهِ الأُمَّةِ، فَلا تُشاوِرِ النَّاسَ فيهِ، وإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ منهُ غَيْرَ ذلكَ، فلا تُزَوِّدْهُ الدُّنْيا وأَنْتَ تَذْهَبُ إلى الآخِرَة». فَأُحْمِسَ يَزيدُ بْنُ المُقَفَّعِ، فَوَثَبَ مُرْعِداً مُبْرِقاً، وقالَ:

«أميرُ المُؤْمِنِينَ هذا» وأشارَ إلى مُعَاوِيَةَ «فإنْ هَلَكَ فهذا» وأشارَ إلى يَزيدَ، «فَمَنْ أَبى فهذا...» وأشارَ إلى السَّيْف.

فقالَ مُعَاوِيَةُ: آجلِسْ فإنَّكَ سَيِّدُ الخُطَباء.

وقامَ المِسْكينُ الدَّارِميُّ الشَّاعِرُ، فأَنْشَد:

إذا المِنْبَرُ الغَرْبِيُّ خَلاّهُ رَبُّهُ فإنّ أميرَ المُؤمِنِينَ يَزيدُ

وتَهَيَّأَ مُعَاوِيَةُ، فَدَعا النَّاسَ إلى المُبَايَعَةِ «فقالَ رَجُلٌ: أَللّهُمَّ إنّي أعوذُ بكَ مِن شَرِّهِ.

قالَ مُعَاوِيَةُ لهُ: تَعَوَّذْ مِنْ شَرِّ نَفْسِكَ فإنّهُ أَشَدُّ عليْك، وبايِعْ.

فقالَ: إنّي أُبايِعُ وأنا كارِهٌ للبَيْعَة.

قالَ له: بايِعْ أيُّها الرَّجُلُ، فإنَّ اللّهَ يَقولُ: فَعَسى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً ويَجْعَلَ اللّهُ فيه خَيْراً كَثيراً».

وما هو إلّا أنْ حَمَلَ النَّاسَ على البَيْعَةِ في الشَّامِ والعِراقِ، فَتَوَجَّهَ مُعَاوِيَةُ لإعْدادِ الرَّأْيِ العامِّ في المَدينَةِ مِن أجْلِ البَيْعَةِ. «فَكَتَبَ إلى مَرْوانَ بْنِ الحَكَمِ، وكانَ عامِلَهُ على المدينَةِ، أنِ آدْعُ النَّاسَ عِنْدَك إلى بَيْعَةِ يَزيدَ، فإنَّ أهْلَ الشَّامِ والعِراقِ قد بايَعوا. فَخَطَبَهُمْ مَرْوانُ فَحَضَّهُمْ على الطَّاعَةِ وحَذَّرَهُمُ الفِتْنَةَ، ودَعاهُمْ إلى بَيْعَةِ يَزيدَ، وقالَ هي سُنَّةُ أبي بَكْرٍ الهادِيَةُ المَهْدِيَّةُ».

فكانَ لهذهِ الدَّعْوَةِ وَقْعُ النَّارِ في الهَشيمِ، وسَرَتْ بينَ الجُمُوعِ نأَماتُ آسْتِنْكارٍ، وأصْواتُ تَسَخُّطٍ، وتَزايَدَ بِهِمْ هذا الاسْتِنْكارُ وهذا التَّسَخُّطُ، فآندَفَعُوا يَطْعَنون ويُقْذِعونَ في الطَّعْنِ، ومَضَوْا يَنْثُرونَ الاحْتِجاجَ نَثْراً دونَ رِعايَةٍ وحَذَر.

فقالَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ أبي بَكْرٍ: «ما صَدَقْتَ، إنّ أبا بَكْرٍ تَرَكَ الأهْلَ والعَشيرَةَ، وبايَعَ لِرَجُلٍ مِن بَني عَدِيٍّ رَضِيَ دينَهُ وأمانَتَهُ، وآخْتارَهُ لأُمَّـةِ مُحَمّد»... وَتَرادّا طَويلاً، وآنتَقَلَ بهِما التَّجاوُبُ إلى التَّناوُشِ والمُهاتَرَةِ مِنْ قِبَلِ مَرْوانَ، فقالَ:

أيُّها النَّاسُ: إنَّ «هذا المُتَكَلِّمُ هو الّذي أنْزَلَ اللّهُ فيهِ: «والّذي قالَ لوالِدَيْهِ أُفٍّ لكُما، أتَعدانني أَنْ أُخْرَجَ وقدْ خَلَتِ القُرونُ مِنْ قَبْلي» فقالَ عَبْدُ الرَّحْمن: أفينا تَتَأَوَّلُ القُرآنَ؟»...

وقَطَعَ الحُسَيْنُ عليهِما، إذْ هَبَّ واقِفاً، وعلى سيمائِهِ مَشَتْ غَضْبَةٌ مَكْظومَةٌ راحَتْ تَنْطَلِقُ، وقدْ وَجَدَتْ سبيلَها:

«أإلى النَّارِ تَدْفَعُونَ النَّاسَ بَعْدَ العارِ»، لقدْ حَمَلوا أطْماعَكُمْ مُتَبَرِّمينَ، وتَرَكوا لَكُمُ آنتِهابَ الدُّنْيا كما شِئْتُمْ وشاءَ الهَوى، ولكِنِ آحْلَوْلى في أَفْواهِكُمُ المُسْتَوْخَمُ فَتَخَطَّيتُمُ الدُّنْيا إلى العَبَثِ بالدّينَ، فأَحْرِ بنا أنْ نَدْفَعَ النَّارَ بالنَّارِ.. وما هو حَتّى هَبَّ النَّاسُ يُنْكِرونَ وِلايَةَ يَزيدَ في مِثْلِ الزَّئيرِ الدّامي.

فَكَتَبَ مَرْوانُ إلى مُعَاوِيَةَ بذلكَ ، فَأَقْبَلَ إلى المَدينَةِ في أَلْفٍ، فلَمَّا قارَبَها تَلَقَّتْهُ

الجُموعُ عندَ مآتيها ومَداخِلها، وما أخَذَ نَظَرُهُ الحُسَيْنَ حتّى قالَ: مَرْحَباً بـ «سَيِّدِ شَبابِ المُسْلِمينَ»، قَرِّبوا دابَّةً لأبي عَبْدِ اللّهِ. وقالَ مِثْلَ ذلكَ أو قَريباً منهُ لِعَبْدِ الرّحمنِ آبْنِ أبي بَكْرٍ، ولآبْنِ الزُّبَيْرِ. ثُمَّ آنطَلَقَ بِهِمْ حَتّى أتى مَكَّةَ فَقَضى حَجَّهُ، ولمّا أرادَ الشُّخوصَ أمَرَ بأَثْقالِهِ فَقُدِّمَتْ، وأمَرَ بالمِنْبَرِ فَقُرِّبَ مِنَ الكَعْبَةِ، وهُنا بَدَأَ مُفاجَأتَهُ الانْتِخابيَّةَ دونَ تقيُّدٍ بعُرْفٍ أو قانونٍ، فأرْسَلَ إلى الحُسَيْنِ وعُصْبَتِهِ، وهؤلاءِ لَمْ يَخْفَ عليهِمْ ما يَعْتَلِجُ في نَفْسِهِ، فآجْتَمَعُوا وتَدَبّروا الأَمْرَ من كُلِّ وُجوهِهِ، وتَرَكوا المُرادَّةَ والمُدارَهَةَ لآبْنِ الزُّبَيْرِ، فأَقْبَلُوا على مُعَاوِيَةَ، فَرَحَّبَ بِهِمْ، وقال:

«قدْ عَلِمْتُمْ نَظَري لكمْ وتَعَطُّفي عليكُم وصِلَتي أَرْحامَكُمْ، ويَزيدُ أخُوكُم وآبْنُ عَمِّكُم. وإنَّما أَرَدْتُ أن أُقَدِّمَهُ بآسْمِ الخِلافَةِ، وتَكونوا أَنْتُمُ الآمرينَ النَّاهينَ بينَ يَدَيْهِ». فَرَدَّ آبْنُ الزُّبَيْرِ:

«عِنْدَنا إحْدى ثَلاثٍ، أيُّها أَخَذْتَ فهيَ لكَ رَغْبَةٌ وفيها خِيارٌ، إنْ شِئْتَ فآصْنَعْ فينا ما صَنَعَهُ رَسُولُ اللّه (ص)، قَبَضَهُ اللّهُ ولم يَسْتَخْلِفْ، فَدَعْ هذا الأَمْرَ حَتّى يَخْتارَ النَّاسُ لأنْفُسِهِمْ. وإنْ شِئْتَ فما صَنَعَ أبو بَكْرٍ: عَهِدَ إلى رَجُلٍ مِن قاصِيَةِ قُرَيْشٍ، وتَرَكَ مِنْ وَلَدِهِ ومِن رَهْطِهِ الأَدْنَيْنَ مَنْ كانَ لها أَهْلاً. وإنْ شِئْتَ فكَمَا صَنَعَ عُمَرُ: صَيَّرَهَا إلى سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَخْتارونَ رَجُلاً منْهم، وتَرَكَ وَلَدَهُ وأَهْلَ بَيْتِهِ، وفيهِمْ مَنْ لو وَلِيَهَا لكانَ لها أَهْلاً».

قالَ مُعَاوِيَةُ: هلْ غَيْرُ هذا؟ قالَ: لا. ثُمَّ قالَ للآخَرينَ: ما عِنْدَكُم؟ قالوا: نَحْنُ على ما قالَ آبْنُ الزُّبَيْرِ. فقالَ مُعَاوِيَةُ: إنّي أَتَقَدَّمُ إليْكُم وقدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ، «فأنا قائِمٌ فَقائِلٌ مَقالَةً، وأُقْسِمُ باللّهِ لَئِنْ رَدَّ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ كَلِمَةً في مَقامي هذا، لا تَرْجِعُ إليهِ كَلِمَتُهُ حَتّى يُضْرَبَ رَأْسُهُ»... وأَمَرَ أن يَقومَ على رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُم رَجُلانِ بِسَيْفَيْهِما، وخَرَجَ وأَخْرَجَهُمْ معه حَتّى رَقِيَ المِنْبَرَ، وحَفَّ بِهِ أَهْلُ الشَّامِ، وآجْتَمَعَ النَّاس.

فقالَ، بعدَ حَمْدِ اللّهِ والثَّناءِ عليْه: «إنّا وَجَدْنا أحادِيثَ النَّاسِ ذاتَ عُوارٍ، قالوا: إنَّ حُسَيْناً، وٱبْنَ أبي بَكْرٍ، وٱبْنَ عُمَرَ، وٱبْنَ الزُّبَيْرِ لم يُبايِعوا ليَزيدَ، وهؤلاءِ الرَّهْطُ سادَةُ المُسْلِمِينَ وخِيارُهُمْ لا نُبْرِمُ أمْراً دونَهم، ولا نَقْضي أمْراً إلّا عَنْ مَشورَتِهم، وإنّي دَعَوْتُهُم سامِعِينَ مُطيعينَ، فبايَعوا وسَلَّموا وأطاعوا»... ثُمَّ قُرِّبَتْ رَواحِلُهُ فَرَكِبَ ومَضى إلى الشَّامِ، تارِكاً النَّاسَ في دَهْشَةِ المُفاجَأَةِ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ، على أنّهم آنهالوا أخيراً على الحُسَيْنِ وأَصْحابِهِ يَسْتَثْبِتونَهُمْ، فَأَجابوا: «كادَنا بكُمْ وكادَكُمْ بنا».

كَذلكَ آنتَهَتِ المُفاجَأَةُ الّتي حَبَكَها مُعَاوِيَةُ، وطَلَعَ بها على النَّاسِ، غَيْرَ عابِىءٍ بأنّه أقامَ وِلايَةَ وَلَدِهِ على البُرْكَانِ، ووَضَعَ القُنْبُلَةَ في أُسُسِ البِناء.

فإنَّ الحُسَيْنَ ـ الّذي شَهِدَ المَثَلَ الأَعْلى للحُكْمِ أَزْمانَ جَدِّهِ وأبيهِ ومَنْ بَيْنَهُما، وتَقَلَّبَ في الثَّوْرَةِ على الحُكْمِ الشَّاذِّ، وخاضَ مَعْمَعَةَ البطْشَةِ الكُبْرى الّتي كالَها والِدُهُ في كُلِّ مَكانٍ تَأَشَّبَ عَلَيْهِ أَعْداءُ الشَّعْبِ وخُصومُ حُرِّيَّتِهِ، ورافَقَ حَرَكَةَ التَّطْهيرِ الّتي بَذَلَ فيها مِنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ ـ يَجِبُ أنْ يَغْضَبَ، وأنْ يَتَنَمَّرَ، وأنْ يَنْدَفِعَ مُتَلَظِّياً، وأن يَثُورَ مُبَعْثِراً فَبَنّاء.

فإنَّ البناءَ على الفَسادِ تَرْميمٌ للفَسادِ، وٱصْطِناعٌ لفَسادٍ آخَرَ جَديدٍ. بَيْدَ أنّه في صُورَتِهِ الجَديدَةِ فَسادٌ مُرَكَّبٌ، وهو أَعْقَدُ أَمْراً، وأَكْثَرُ حَيَوِيَّةً، وأَطْوَلُ بَقاءً ونِضالاً.

لذلكَ كانَ عَمَلُ المُصْلِحِينَ الحَقيقِيِّينَ هَدْماً وبِناءً، ولذلكَ كانَ الشَّطْرُ الأَوَّلُ دائِماً أرْوَعَ وأشقَّ وأَقْدَسَ، فهو كِفاحٌ وتَضْحِيَةٌ وتَعْبيد.

وبهذا، ولهُ فقطْ، رَأَيْنا الحُسَيْنَ يُولي وَجْهَهُ قِبَلَ الثَّوْرَةِ، قَبْلَ الانْتِشاءِ والخَلْقِ مِن جَديد.

*

قَلَّما يَبْرُزُ الأَسَدُ، إلّا عِنْدَما تَتَناوَحُ الأَرْجاءُ بالعَواصِفِ...

كأنّـهُ يأْبى عليْها أنْ تُبَدِّدَ أَمْنَ الغابِ وسُكونَ جَلالِهِ...

وعندَما آحْتَدَمَتْ عواصِفُ الأَهْواءِ، آنطَلَقَ أَسَدُ الإنْسانيّةِ يَدْفَعُ العادِياتِ عَنِ الإنسانِ...

*

أَلبُرْكانُ نَذيرٌ بالانقِلاب...

وكانَ الحُسَيْنُ بُرْكانَ الإِصْلاح...

وقدْ مَضى كُلُّ مُصْلِحٍ بِقَبَسٍ مِن ذلكَ البُرْكانِ، يُرْسِلُه مَناراً يَهْدي في الحَلَك!...

* * *

إلهي الله

في صَبيحَةِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ سِتّينَ، أفاقَ النّاسُ في المَدينةِ على أَصْواتِ الغِلْمَةِ، يَمْرَحُونَ في الأزِقَّةِ، وهُمْ يَتَناشَدُونَ مَقالَ عَبْدِ اللّهِ بْنِ هِلالٍ السَّلوليّ:

إصْبِرْ يَزيدُ... فَقدْ فارَقْتَ ذا مِقَةٍ   وآشْكُرْ حِباءَ الّذي بالمُلْكِ حاباكا

لا رُزْءَ أَعْظَمُ في الأَقْوامِ، قدْ عَلِموا   مِمّا رُزِئْتَ، ولا عُقْبى كَعُقْباكا

فَأَدْرَكُوا أنّ مُعَاوِيَةَ قدْ قَضى، وأنّ يَزيدَ قدْ خَلَفَهُ، فآنـقَلَبُوا وبَعْضُهُمْ يُحْرِقُ الأُرَّمَ، ويتَمَيَّزُ حَنَقاً، وبَعْضُهُمْ يَشُدُّ غُضونَهُ تَجَهُّماً، ويَدَعُ وَجْهَهُ يَتَمَدَّدُ ويتَقَلَّصُ دَهْشَةً ورُعْباً. ومَشى الخَبَرُ كَما يَمْشي النَّعيُّ، حَتّى آنتَهى إلى الحُسَيْنِ فَغِينَ عليهِ حَتَّى الإغْماءِ، كَأَنّ الأَرْضَ دارَتْ به دَوْرَتَها سَريعَةً سَريعَةً، وأَلَمَّ به إطْراقٌ عَنيفٌ، كانَ مَزيجاً مِن اللَّوْعَةِ المُرَّةِ، والأسى الحادِّ، والتَّنَمُّرِ الغَضوبِ. على أنّه طَفِقَ يُناجي نَفْسَه، وقدْ تَبدَّتْ لهُ ماضِياتُ النُّبوَّةِ ودُنْيا القُرْآنِ وجَلائِلُ العَدْلِ الإسْلاميّ:

إلهي! ماذا أَسْمَعُ؟ أَيَكُونُ يَزيدُ خَليفَتَكَ في عِبادِكَ، وهو مَنْ عَرَفْتَهُ صارِماً لا يَشْعُرُ بغَيْرِ وُجودِهِ، أو يَشْعُرُ بوُجودِ الآخَرينَ، ولكنْ في مَذْهَبِ نَهَمِهِ الدّامي المُفتَرِسِ، مِثْلَما تَشْعُرُ الذِّئابُ بوُجودِ فَرائِسِها الّذي هو مُبالَغَةٌ في عَدَمِ الشُّعورِ بغَيْرِ وُجودِها فَقَطْ، إنَّه يَشْعُرُ بهِمْ شُعورَ الامْتِصاصِ وإرْواءِ نَهَمِ الذّاتِ، إنَّ ظَمْأَتَهُ تَطيفُ بهِمْ مُحاوِلَةً لو تُحيلُهُمْ قَطْرَةً تُنَدّي بِها لُعابَها.

أَيَكونُ يَزيدُ القائِمَ على شَريعَةِ رَسولِكَ؟ وشَريعَتُهُ ذَوْبُ رَحْمَةٍ في ذَوْبِ عَدالَةٍ ورِفْقٍ، وهَيْهاتَ أنْ تَجِدَ مَكانَها في غَيْرِ ضَميرٍ فيه مِنْ مَعْناها، وفيهِ مِن رُوحِها؛ وإلّا فهي عافِيَةٌ كالطَّلَلِ، وذاوِيَةٌ كالهَشيمِ يَعْبَثُ بها الهَوى، ويَتَقاذَفُها مِثْلَ أَوْراقِ الخَريفِ، في أَوْدِيَةِ الشَّهَواتِ، وبَيْنَ المَغاوِرِ والكُهُوفِ الضّاجَّةِ بالفُسوقِ.

إنَّ الشَّريعَةَ، كَكُلِّ تَعْليمٍ، كائِنٌ يَزْدَوِجُ بالحَياةِ، فَيَنْفَعِلُ بها ليَحْيا، ويَفْعَلُ فيها لتَرْقَى. فإذا لم يَتَماسّا ظَلَّتِ الحَياةُ جامِحَةً فاجِرَةً، وظَلَّتِ الشَّريعَةُ مِثْلَ شَرارَةٍ مَخْزونَةٍ لم تَنْقَدِحْ في فَمِ المِصْباحِ فَتَحْيا بهِ ويَنْطِقُ بِها، صادِعاً بلسانِ الضِّياءِ، ومُعْلِناً بنِداءِ النُّورِ.

إنَّ شَريعَةَ رَسولِكَ وَجَدَتْ حَياتَها في حَياتِهِ، وآسْتَمَدَّتْ رُوحَها مِن رُوحِهِ، فَتَرامَتْ بالضِّياءِ إلى كُلِّ مَكانٍ، وطَبَعَتْ بِحَقيقَتِها مادَّةَ الزَّمانِ، فَسَعِدْنا حيناً بدُنْيا القُرْآن.

على أنّه عادَ إلى آسْتِغْراقِهِ، وكانَ أيضاً عميقاً، ولكنْ لمْ يَبْرَحْ حَتّى ساوَرَهُ غَضَبٌ مَكْظومٌ آشْتَعَلَ في عَيْنَيْهِ، وراحَ يُناجي نَفْسَهُ في نَبَراتٍ حادّةٍ كَأنّـها تَلْتَهِبُ:

نعمْ. نعمْ. نحنُ بايَعْنا اللّهَ على التَّقْوى، ولنْ نُبايعَ إلّا عليْها، أو نَموتَ في سَبيلِها. ألا إنَّه آخْتارَنا لحَمْلِ أمانَتِهِ العُظْمى، وآنتَظَرَ مِنّا الوفاءَ والافْتِداءَ بِكُلِّ عَظيمٍ. ومَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلّهِ فَقَدْ أرْخَصَها له.

«إنَّ اللّهَ آشْتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بِأنّ لَهُمُ الجَـنَّةَ، يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللّهِ فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْراةِ والإنْجيلِ والقُرْآنِ، ومَنْ أوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فآسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذي بايَعْتُمْ بِهِ، وذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيم».

إنَّ السَّمَوْأَلَ ـ وهو جاهِليٌّ لمْ يَتَـأَنَّـسْ قَلْبُهُ بالإِشْرَاقِ ـ عاهَدَ إنْساناً، وآسْتَجابَ حينَ دَعاهُ الوَفاءُ، وكانَ دامِيا.

إسْتَجابَ جاهِلِيٌّ للشَّرَفِ، فَكَيْفَ لا أَسْتَجيبُ للإيمانِ؟ إنّي إذاً لَنَكِلٌ خَوّارٌ...

«أَلمَوْتُ خَيْرٌ مِن رُكوبِ العارِ...

والعارُ خَيْرٌ مِنْ دُخولِ النّـارِ...

واللّهُ مِنْ هذا وهذا، جاري»...

فكَيْفَ إذاً بالعارِ والنَّارِ، أَجْمَعُهُما على نَفْسي في دُنْيا الظّالِمين...!

وبَينَما الحُسَيْنُ في سَبَحاتِهِ القُدْسِيَّةِ ونَجْوَاهُ المائِجَةِ بِرُوحِ الاصْطِفاءِ، تَبدّى لناظِرَيْهِ، في وُجْهَةِ قَلْبِهِ، أَطْيافٌ يَشْتَمِلُها الرِّضا، وتَلْفَعُها نَشْوَةُ الاغْتَباطِ، وهيَ تُبارِكُهُ وتَشُدُّ عَزْمَهُ، وتُهيبُ بِهِ إلى الوَثْبَةِ، إلى الوَثْبَةِ الكُبْرى، فَهَتَفَ مُسْتَبْشِراً:

ربّاهُ! ماذا أَرى؟ إنَّها أَطْيافُ جَدّي المُصْطَفى، وأبي الشَّهيدِ، مِنْ ورائِهِما المَلائِكُ، تَدْعوني إلى اللّهِ، إلى التَّضْحِيَةِ العُظْمى.

كانَ الكَبْشُ، في يَوْمٍ، فِداءَ نَبيٍّ «في حِكايَةِ إبْراهيمَ وآبْنِهِ»...

ولكنّ النَّبيَّ الأَعْظَمَ، إنَّما يَكونُ له الفِداءُ الأَعْظَم...

وحَبيبٌ إلى نَفْسي أنْ أكونَ ذلكَ الفِداء... «في حِكايَةِ الآسْتِشْهادِ يومَ كَرْبَلاء».

*

كانَ الحُسَيْنُ لمْ يَزَلْ في نَجْواهُ، حينَ «آسْتَأْذَنَ عليهِ، وهو في المَسْجِدِ، رَسولُ الوَليدِ بْنِ عُقْبَةَ يَدْعوهُ، وكانَ يَوْمَئِذٍ أَميرَ المَدينَةِ. فأَمَرَ الحُسَيْنَ بالانقِلابِ إليهِ، وقامَ الحُسَيْنُ، وجَمَعَ بَعْضاً مِن غِلْمَانِهِ ومَواليهِ، وأَمَرَهُمْ بحَمْلِ السّلاحِ، فآنتَهى إلى الوَليدِ، وقالَ لأَصْحابه:

إذا دَخَلْتُ فَآجْلِسوا على البابِ، وإنْ دَعَوْتُكُمْ أو سَمِعْتُم صَوْتي قدْ عَلا، فَآقْتَحِمُوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ، وإلّا فَلا تَبْرَحوا حَتّى أَخْرُجَ إِلَيْكُم. فَدَخَلَ الحُسَيْنُ على الوَليدِ ـ ومروانُ عِنْدَهُ ـ وجَلَسَ، فَأَقْرَأَهُ الوَليدُ الكِتابَ، ونَعى إليهِ مُعاوِيَةَ، فقالَ الحُسَيْن:

إنَّا لِلّه وإنَّا إليهِ راجِعونَ. أمّا البَيْعَةُ فإنَّ مِثْلي لا يُعْطي بَيْعَتَهُ سِرّاً، ولا أراكَ تَقْنَعُ بِها مِنّي كذلكَ... قالَ: أجَلْ. قالَ: فإذا خَرَجْتَ إلى النَّاسِ فَدَعَوْتَهُمْ إلى البَيْعَةِ دَعْوَتَنا مَعَهُم، فكانَ الأمْرُ واحِداً. فقالَ له الوليدُ: على آسْمِ اللّهِ، حَتّى تأتِينا مَعَ جَماعَةِ النَّاس.

قالَ مَرْوانُ لمَّا وَلّى: عَصَيْتَني واللّهِ، لا قَدَرْتَ منهُ على مِثْلِها أبَداً، حَتّى تَكْثُرَ القَتْلى بَينَكم وبينَه... وكانَ مَرْوانُ قدْ أشارَ عليهِ أنِ آبْعَثْ إلى الحُسَيْنِ، فإنْ بايَعَ، وإلّا فَآضْرِبْ عُنُقَه.

قالَ الوليدُ: وَيْحَكَ! أَتُشيرُ عَلَيَّ بِقَتْلِ الحُسَيْنِ؟ واللّهِ إنَّ الّذي يُحاسَبُ بدَمِ الحُسَيْنِ يومَ القِيامَةِ، لخفيفُ الميزانِ عندَ اللّهِ».

رُغْمَ ما يَعْتَلِجُ في قَلْبِ الحُسَيْنِ من عاصِفٍ يَكادُ يَنْطَلِقُ، وبُرْكانٍ يَكادُ يَثورُ، أبْدى في هذا المَوْقِفِ الحَرِجِ الدَّقيقِ أقْصى ما يُتَصَوَّرُ مِن ضَبْطِ الأعْصابِ، وحُسْنِ التَّأَتّي الفائِقِ في تَصْريفِ الأُمُورِ، واللَّباقَةِ البالِغَةِ في الحِوارِ السِّياسِيِّ.

خَرَجَ الحُسَيْنُ مِنْ مَكانِ الوَليدِ مُزْمِعاً على خُطَّةٍ، وإنْ تَكُنْ رَهيبَةً، خَفَقَ لها قَلْبُهُ، وآسْتَجابَ إليْها بكُلِّ مَشاعِرِهِ، حَتّى لَبَدَتْ على سيمائِهِ وجَرَتْ على لِسانِهِ، وهو قاصِدٌ إلى مَسْجِدِ المَدينَةِ، فقدْ سَمِعَهُ أبو سَعيدِ المَقْبُرِيّ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ يَزيدَ بْنِ رَبيعَةَ بنِ مُفرِّغ:

لا ذَعَرْتُ السَّوامَ في فَلَقِ الصُّبْـ ـحِ مُغيراً، ولا دُعيتُ يزيدا
يَوْمَ أُعطي مِنَ المَهانَةِ ضَيْماً والمَنايا يَرْصُدْنَني أنْ أحيدا

وما هو حَتّى هَبطَ بِأَهْلِهِ مَكَّةَ لثَلاثٍ مَضَيْنَ مِنْ شَعْبانَ سَنَةَ سِتّينَ، ولَبِثَ فيها حَتّى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ مِنْ ذي الحِجّة...

*

في مَكَّةَ، حيثُ الذِّكْرَياتُ المُلْهِمَاتُ الّتي تَضْفو على كُلِّ مَكانٍ مِنْ أرْضِها وسَمائِها، وعِنْدَ مُعْتَنَقِ الأرْضِ والسَّماءِ، حيثُ يَقَعُ الأُفُقُ المُكَلَّلُ بالوَحْيِ، لَبِثَ الحُسَيْنُ يَرْنو، وقدْ ذابَتْ في نَظَراتِهِ أَوْهامُ النَّاسِ في المَوْتِ والحَياة.

إنَّ نَظَرَهُ آعْتَلَقَ بالأَبَدِ الفَسيحِ الّذي تَبْدو الدُّنْيا، بكُلِّ أَشْيائِها مِن آفاقِهِ، صَدَفَةً حَقيرَةً في لُجِّ الفَناء.

وقدْ رَأى هُناكَ أنّ الأَحْياءَ يَعيشونَ في عالَمِ أَعْمالِهِمْ على حَقائِقِها، والأَعمالُ فيه لَيْسَتْ مآتيَ فقطْ تَـتَقَضّى مَعَ آنِها وحِينها، بل هيَ مواليدُ يَحْياها المَرْءُ في حَلاوتِها ومَرارتِها، وفي نُورِها وظَلامها. والمَرْءُ هُناكَ لا يُحِسُّ بالأَلـمِ أو اللّذّةِ، والقُبْحِ أوِ الجَمالِ، إحْساساً مِثْلما هو شَأْنُ إحْساسِ الفَناءِ، بلْ تَحْيا فيهِ كُلِّيّاتُ هذهِ المَعاني حَياةَ جَوْهَرِها.

وكانَتْ تِلْكَ الذِّكْرياتُ الخالِداتُ لا تَفْتَأُ تَـتَنادى به إلى آسْتِئْنافِ الجِهادِ، آسْتِئْنافِ الجِهادِ الأوّلِ الّذي بَدَأَهُ جَدُّهُ المُصْطَفى، مُكافِحاً وَحيداً وبَطلاً فَريداً، حَتّى أَمالَ دُنْيا وأَثْبتَ دُنْيا، وما قَعدَ بِهِ أنّ النّاسَ كُلَّهُمْ على الباطِلِ إلْبٌ، وهو وحدَهُ الّذي يَدْعو إلى سَبيلِ الرّبِّ.

إنَّ كَلِمَةَ اللّهِ في فَمِ الإِنْسانِ تَنْتَشِرُ مِثْلَ شُعُلات.

تُحْرِقُ في مداها كُلَّ ما لَيْس منْها.

فإذا لَها على الأَرْضِ ضِياءٌ، كَما لَها في السَّماءِ ضِياء.

«اللّهُ نُورُ السَّمواتِ والأَرْضِ».

كانَتْ تَمُرُّ بِهِ هذهِ التَّصَوُّراتِ، وقدْ مَسَحَها جَوُّ مَكَّةَ بما فيهِ مِنْ أقْداسٍ وذِكْرَياتِ عَزْمٍ لا يُقْهَرُ، فَهَبَّ ناشِطاً في مِثْلِ الزَّئيرِ الّذي يُبادِرُ الانْطِلاقَ، غَيْرَ ثابِتٍ أمامَ ناظِرَيْهِ إلّا «ولَكُمْ في رَسولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ».

وأُسْوَتـي به، أنْ أُجالِدَ جِلادَهُ، وأنْ أُنَـافِحَ مُنَافَحَتَهُ، وأنْ أَنتَهِيَ لغايَتِهِ.

ألا إنّ رَسولَ اللّهِ غَلّ البَغْيَ والباغي، ودَكّ دُنْيا الأوْثانِ بِما فيها، وإنَّ الباغيَ اليَوْمَ يُحاوِلُ الانْفِلاتَ، وأوْثانُ الآلِهَةِ آسْتَوْلَدَتْ أَوْثانَ النَّاسِ. فكيفَ أَتلَبَّثُ دونَ أنْ أغُلَّ ذاكَ، وأعْتَصِرَ هذا، وما أُبالي أكانَتْ فيهِ مَنِيَّتي أم كانَتْ فِيهِ أُمْنِيَّتي...

وإنَّ مُحَمّداً أُخْرِجَ مُهاجِراً يَدْعو إلى اللّهِ في مُبالَغَةِ العُيونِ والأَرْصادِ، فكيْفَ لا أَخْرُجُ داعِياً إليهِ غَيْرَ مُبالٍ بالحَياةِ، ولا مُكْتَرِثٍ بِالمَوْتِ في سَبيلِهِ؟

ولَسْتُ أُبالي حينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً عَلى أيِّ جَنْبٍ كانَ في اللّهِ مَصْرعي

وكَفى بعَمَلي عِنْدَ اللّه رِضاً، أنْ يَكونَ الهِجْرَةَ الثّانيَةَ.

إنَّ الهِجْرَةَ الأُولى، هِجْرَةَ رَسولِ اللّهِ، كانَتْ، وغايَتُها البِناء.

وإنَّ الهِجْرَةَ الثّانيَةَ، هِجْرَةَ سِبْطِ رَسولِ اللّهِ، كانَتْ، وغايَتُها المُحافَظَةُ على ذَيَّالِكَ البِناء.

وما هُوَ حَتّى تَسامَعَ النَّاسُ بعَزْمِ الحُسَيْنِ، وما هو حَتّى مشَى الكَثيرونَ بَيْنَهُ وبَيْنَ غايـتِه، يَرْغَبونَ عليهِ أنْ لا يَفْعَلَ، ويُثَبِّطونَ منهُ ويُوهِنونَ ما آسْتوىَ عليهِ عَزْمُهُ. فقالَ آبْنُ عَبّاسٍ، وقالَ آبْنُ الزُّبَيْرِ، وَبَدَهَهُ هذا، وَثنّى ذاكَ، إلى كَثيرٍ كَثيرٍ، وكُلُّهُمْ قَوْمُ عَشيرٍ، وفَخْرُ قَبيل.

وكانَ الحُسَيْنُ يَسْتَمِعُ إليْهِمْ وكَأنّـهُ بَطَلُ المَعْرَكَةِ المُنْتَظَرُ، يَرى في تَحامي

الفُرسانِ جُبْناً أكْبَرَ عاراً، فَيَزيدُهُ تَلَظِّياً وحَمِيَّةً، وفي تَقَهْقُرِ الشُّجْعانِ خَوَراً أبْلَغَ غَوْراً وأَعْمَقَ أثراً، فَيوقِدُه عَزْماً ويَصْطَنِعُه شَكيماً.

إحتضارُ نَسْرٍ... في هَمْس كالزَّئير

مَرَّ نَسْرٌ يُحَلِّقُ فَوقَ الآكامِ، فَتَكَنَّفَتْهُ بُغاثُ النُّسورِ - أي ضِعَافُها - مِنْ كُلِّ مَكان...

تُهيبُ بِهِ أنْ لا يَمْضيَ بَعيداً، فهُنَاكَ صُقورٌ تَعيثُ فَساداً وتَبُثُّ رُعْبا.

ولكنّ النَّسرَ شَدّ جَفْنَيْهِ طَويلاً، كَأنّـهُ لا يُصَدِّقُ أنّ هذهِ لُغَةُ نَسْر...

على أنّه مَضى، وهو يَقولُ: إنَّ النَّسْرَ شيءٌ في المَعْنى، وليسَ شَيْئاً في الشَّكْلِ...

فإذا آسْتَحَال المَعْنى شَكْلاً فقطْ، فهُناكَ مُسوخٌ لا نُسورا!...

ثُمَّ آنطَلَقَ يَهْوي غَيْرَ مُبالٍ بِما سَوْفَ يَعْتَرِضُهُ.

*

وما هو حَتّى واثَبَتْهُ جَماعَةُ الصُّقورِ، فَنالَ مِنْها كَثيراً ونالَتْ مِنْه مَقْتَلا...
على أنّه كانَ مُغْتَبِطاً أيْضاً، فقدْ هَمَسَ في أَنْفاسِ المُحْتَضَر...
سَوْفَ يَظَلُّ في الأَجْيالِ أنّـه هُنا يَرْقُدُ نَسْرٌ وَجَدَ حَقيقَتَهُ...

وهُناكَ تَحْيا نُسورٌ فَقَدَتْ حَقيقَتَها...

إنَّني أقْضي، ويَبْقى في ضَميرِ الوُجودِ أنّ آقتِحامَ الطَّريقِ، دائِماً في الإمْكانِ...

مُتَّ مَوْتَ هذا النَّسْرِ، عَيْنٌ في مُقْلَةِ الشَّمْسِ وجَنَاحٌ لَهُ في الآفاقِ...

ولَمْ تَمُتْ مَوْتَ الْبَهْمِ عِنْدَ السُّفُوحِ، لِتَظَلَّ على لِسَانِ الدُّهُورِ وتَعاقُبِ العُصُورِ، أُسْطُورَةً تُرْوَى...

*

إنْطَلَقَ الحُسَيْنُ مُوَدِّعاً الكَعْبَةَ، بَيْتَ اللّهِ، حامِلاً رُوحَها بَيْنَ جَنْبَيهِ، وشُعْلَتَها بِكِلْتا يَدَيْه...

تُواكِبُهُ المَلائِكُ وتُبارِكُهُ، وتَطيفُ به كأنّـها حَذِرَةٌ عليْه...

فإنَّه البَقِيَّةُ مِنْ إرْثِ السَّماءِ على الأَرْضِ!...

*

رَعْياً لِذِكْراكَ أبا عَبْدِ اللّهِ، فقدْ أَحْسَسْتَ بِروحِ الأَخْلاقِ في روحِ الوُجود...

فَأَرَدْتَ الحَياةَ دُنْيا مِنَ الأَخْلاقِ والفَضيلَةِ والحُبِّ...

وأَرادَها الآخَرونَ دُنْيا مِن الشَّهواتِ والرَّذيلةِ والأَحْقادِ...

أَرَدْتَها كَوْناً مِنْ لَذَّةِ الرّوحِ، ولوْ في شُعورِ الأَعْصابِ بالألـمِ...

وأَرادوها كَوْناً مِن لَذّةِ الأَعْصابِ، ولوْ في شُعورِ الرّوحِ بالأَلـمِ...

فآسْتَحالَتِ الآلامُ الكُبْرى، في حِسِّ النَّاسِ، لَذّةً كُبْرى في حِسّك!...

*

حَتّى لقدْ شَعَرْتَ حِيالَ الدَّم المَسْفوحِ، أنّـه شَفَقٌ مِن شُعاعِ الرّوح...

وَرَأَيْتَ، في حُمْرَةِ الدِّماءِ، لُؤْلُؤَةَ جَمالِ الحُسْن...

ولا بِدْعَ، فقَديماً قيلَ المَثَلُ السَّائِرُ: «إنَّ الحُسْنَ أَحْمَر»...

* * *

من أيّام العهد الراشدي

من أيّام الحسين السبط (ع)

... فمُحمَّد لم يَصنعْ أُمّةً بين الأُمَم، بَلْ صَنعَ
أُمّةً في عِدادِ الرسُلِ إلى كُلّ الأُمَم، وَأكبرُ ظَنّي
أنَّ أُمّتَهُ سَتنطَلِقُ في جسمِ العَالَمِ المُتداعي، كَما
تنطلِقُ العُصَارَةُ، وفيهَا الحَرارةُ والحَياةُ والحَركة.

ISBN: 2-910355-00-4